تاريخ

الشرق الأدنى القديم وحضاراته

منذ فجر التاريخ حتى مجيء حملة الإسكندر الأكبر

الجزء الثانى

الأناضول - بلاد الشام

تأليف

د. رمضان عبده على

أستاذ علم المصريات

كلية الآداب جامعة المنيا



تـــاريخ
الشرق الأدنى القديم وحضاراته

منذ فجر التاريخ حتى مجئ حملة الإسكندر الأكبر

الجـــزء الثانى
الأناضول - بلاد الشام

تأليف

د. رمضان عبده على

أستاذ علم البصريات

كلية الآداب - جامعة المنيا



تاريخ الأناضول القديم

البيئة الجغرافية :

آسيا الصغرى (الأناضول) موطن الحيثيين هضبة عالية يبلغ ارتفاع أحد قممها " أزيل داج " حوالى ٩٦٠٠ قدما . ويمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام :

القسم الشمالى الشرقى : وهو مواطن الحيثيين الأصلى ، ويجرى فيه نهر الهاليس والذى اصطلح على تسميته بالعربية " فيصل برموق " وفى بعض الكتب " قزل أرمق " ويبلغ طوله حوالى ٥٠٠ ميلا . وقد تعددت منابعه حول منحدرات ايزيل داج الواقعة عند خط تقسيم حدود المياه فى شمال نهر الفرات . وينحدر بسرعة من منبعه متجها إلى الغرب فى شكل دائرى ثم يتجه إلى الشمال الشرقى ليصب فى البحر الأسود ، إلى الغرب من ميناء سمسون . وأهم مدينة تقع فى هذا القسم هى خاتوساس أو خاتوشاش أو خاتوشا وهى اليوم بوغازكوى على بعد تسعين ميلا شرقى أنقرة .

القسم الشمالى الغربى : وهو يشمل فريجيا ، ويحده شرقا مياه نهرى سانجاريوس وهاليس ، ويحده جنوبا البحيرات الوسطى والجنوبية والغربية . ويجرى فى هذا القسم نهر سانجاريوس وروافده . وأهم مدينة تقع فى هذا القسم هى أنقرة . وتشتهر منطقتها بصناعة الصوف والمعروف باسم الموهير ، وبالماعز الذى يطلق عليه أنجورا والتى اشتهر بجودة صوفه .

ويشتمل القسم الثالث : الأراضى الواقعة بين السهول الوسطى وبحيرات بيسيديان ، ويتخللها مرتفعات لا تصلح غالبا منحدراتها للزراعة وعمرت فى هذا القسم مدن من أيام العصر الفارسى والرومانى منها : جابالا (وهو اسم مشتق من الاسم الحيثى خابالا).

أما القسم الرابع : فيقع عند أسفل مرتفعات طوروس الشمالية ويحفه من الغرب مرتفعات كاراداج . وتتجمع المياه فى داخل هذا القسم فى بحيرة أكجيل .وهى منطقة خصبة ، وأهم مدنها تيانا .

ويقع بين هذه الأقسام الأربعة سهل اكسيلوس وبه بحيرة مالحة ويبلغ ارتفاع السهل عن مستوى البحر حوالى ٣٠٠٠ قدما . والمظهر العام لهضبة الأناضول فى كثير من أجزائها أنها مغطاة بالزرع ومناخها حار وجاف صيفا ممطر شتاء .(١)

وكان الحيثيون الذين تبدو ملامحهم على الآثار شبيهة بملامح الحوريين شعبا أناضوليا فى الأصل يسكن منطقة نهر الهاليس (٢) . وكان لبيئة الأناضول أثر كبير فى شكلها الاقتصادى ، فالهضبة الوسطى قليلة الماء . وفى الشمال حيث كان يقيم الحيثيون تكثر الأودية والقنوات وتقوم بعض الزراعات . وشتاء الهضبة قارص البرودة وربيعها قصير فقاموا بزراعة الشعير والقمح . وأما فاكهتهم فأخصها الكووم واللوز . ومعادن جبال الأناضول هى : النحاس حيث قام الآشوريون بجلبه من كابادوكيا قبل قيام دولة الحيثيين ، وكذلك الفضة والحديد . وقد برع أهل اسيا الصغرى فى صناعة الحديد وصهره . وقد كتب خاتوسيليس الثالث فى إحدى رسائله إلى ملك آشور قائلا : " أما عن الحديد الذى كتبت له عنه ، فالحديد الجيد غير متوافر فى بيت الختم فى كيزواتانا . وقد كتبت إليك أن هذا الوقت غير صالح لإنتاج الحديد ، إنهم فى سبيل إنتاج حديدا جيدا ، لكنهم حتى الآن لم ينتهوا من إنتاجه ، وعندما ينتهون سأرسله . أما اليوم فأنا مرسل إليك خنجرا من الحديد " .

وكانت الأناضول تصدر إلى بلاد النهرين النحاس واستوردت منها منسوجات وصفيح . وكانت الآسيا (قبرص) أيضا تمد بلاد النهرين بالنحاس .

واشتهرت كل من الاسا (التى تقع فى وسط آسيا الصغرى) ودوراك (بالقرب من الساحل) بالصناعات المعدنية بمختلف الطرق بالصب فى الشمع وبالطرق وغيرها من الوسائل . وعرف أهلها ممارسة التطعيم فى المعادن . أما المعادن التى كانت معروفة فى كل من الاسا ودوراك فهى النحاس والبرونز .وجميع

---

(١) د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨ .

(٢) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، الجزء الأول (ترجمة د. جورج حداد وعبد الكريم رافق) ، ص ١٦٦ .

هذه المعادن كانت موجود فى الأناضول فيما عدا القصدير الذى كان يستورد من الخارج .

ومن نبين الحجارة المتوفرة فى الأناضول : البللور الطبيعى ،والعقيق ، واليشب ، والنفريت ، والأبسيديان ، وطين الحقان ، حيث عثر عليه فى دوراك . وكان يصنع منه القشانى ، ولهذا امتازت دوراك بأسلحتها العديدة والممتازة : السيوف والخناجر ، وبلط المعارك ، والسهام ، وقد عثر فى الاسا على الأسلحة ، ولكن من نوع مختلف . وغالبا ما عثر عليه أوعية من المعدن فى الاسا أكثر من التى عثر عليها فى دوراك ، وكانت أكبر حجما .(١)

أصل القبائل الحيثية :

اعتاد علماء الآثار وتاريخ غرب آسيا القديم ، أن يطلقوا على القبائل ، التى كانت تقطن فى أواسط اسيا الصغرى خلال عصور ما قبل التاريخ اسم ما قبل الحيثيين ، وهم يشكلون السكان الأوائل وكانوا من اصل هندواوروبى ، ويقولون أيضا أن هذه القبائل لا تمت بصلة قربى إلى الحيثيين ، الذين شكلوا بعد قرون عديدة جزءا من هجرة ما تعرف بالشعوب والقبائل الهندوآرية .

ويعتقد أن القبائل الحيثية استوطنت بعض مناطق آسيا الصغرى في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد . وكانت تربطها صلات قربي قوية بقبائل الكنتوم التي كانت تقطن البلقان . وهذا دليل على أنهم نزحوا إلى اواسط الصغرى ، من المناطق الشمالية الواقعة على سواحل البحر الأسود .(٢)

مصادر دراسة تاريخ الأناضول القديم:

من مصادر دراسة تاريخ الأناضول القديم الآثار القليلة الباقية بالإضافة إلى

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٥٢٥ .

(٢) د. توفيق سليمان : دراسات فى حضارات غرب آسيا القديمة (من أقدم العصور إلى عام ١١٩٠ ق.م) ، ص ٢٦٧ .

بعض الإشارات التى وردت عن الحيثيين فى المصادر الآشورية حيث ذكرت تحت اسم " خاتى " وخاصة الفترة الواقعة ما بين عصر تيجلات بلاصو الأول (١١١٢ – ١٠٧٦ ق.م) وسرجون الثانى (٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م) الذى تمكن من القضاء على مناطق النفوذ للحيثيين فى شمال سوريا وأشارات أخرى وردت فى بعض النصوص المصرية القديمة وكانت تتحدث عن نوعية وطبيعة العلاقات التى كانت قائمة بين البلدين مثل النصوص التى تتحدث عن الصراع بين الحيثيين والمصريين فى بلاد الشام ونصوص معاهدة السلام التى وقعت بين البلدين وغيرها من نصوص ، وأخيرا بعض الإشارات التى وردت عن الحيثيين فى التوراة فى عدد من أسفارها .

بداية الاهتمام بآثار الأناضول القديمة :

ظل تاريخ الأناضول القديم مجهولا حتى أخذ الرحالة والمبشرون يجوبون شمال سوريا وآسيا الصغرى ، وبدأت الرحلات إلى آسيا الصغرى ابتداء من عام ١٧٦٤ م ، وفى عام ١٨١٢ عثر أحد الرحالة ويدعى بورخارت على أحد الأحجار فى مدينة حماة وأشار فى كتابة " رحلة فى سوريا " إلى أن هذا الحجر عليه نقوش وعلامات تشبه الكتابة الهيروغليفية . وفيما بين عامى ١٨٣٣ و ١٨٣٥ كان شارل تكسيبه فى مهمة من قبل الحكومة الفرنسية فى آسيا الصغرى ، فشاهد بالقرب من بوغازكوى بعض الخرائب التى قام بعمل رسم تخطيطى لها .[1] إلا أن أعمال الحفائر والتنقيبات لم تبدأ إلا فى حوالى عام ١٨٧٠ حينما أخذ " شليمان " فى البحث عن آثر طروادة حيث عثر على أحجار وتماثيل منقوشة بكتابات غريبة أطلق عليها اسم " الهيروغليفية – الحيثية " .

وفى عام ١٨٨٠ ألقى " سيس " محاضرة أمام جمعية الآثار الإنجيلية فى لندن قرر فيها أن ما عثر عليه من تحف هى من آثار الحيثيين . وقامت بعدها بعثة من المتحف البريطانى بالتنقيب فى قرقميش وعثرت على نقوش بهذه الكتابة ،

---

(١) د. أحمد سليم : العراق – إيران – آسيا الصغرى ، دار المعرفة الجامعية السكندرية ١٩٩٨ ، ص ٤٥٧ .

وعثرت بعثة ألمانية على نقوش مائلة فى زنجرلى فيما بين اعوام ١٨٨٨ و ١٨٩٢ ، وفى عام ١٩٠٦ بدأت بعثة ألمانية بإشراف " هوجزفنكلر " بالتنقيب فى بوغـــازكوى (خاتوشا) العاصمة الحيثية القديمة وكشف فيها عن آلاف اللوحات المكتوبة بـــالخط المسمارى (حوالى عشرة آلاف لوح) . وعكف العلماء على دراسة هذه النصـــوص الحيثية ونجحت محاولاتهم فى ترجمة بعضها وفهمها وكان من بيـــن هـــذه الألـــواح نسخة من المعاهدة التى عقدت بين الملك رمسيس الثانى وملك الحيثيين خاتوســـيل . واتضح أن هذا الارشيف يرجع إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر إلى أواخـــر القرن الثالث عشر ق.م .[١]

ومن جهة أخرى بذل العلماء الإنجليز وغيرهم محاولات عديدة فـــى ســـبيل حل رموز الكتابة " الهيروغليفية ، الحيثية " واتضح لهم بأنها تمت بصلـــة للكتابـــة المسمارية واللغة المصرية القديمة .

وتوقفت أعمال الحفائر فى آسيا الصغرى نظـــرا لقيـــام الحـــرب العالميـــة الأولى ، واستؤنفت عام ١٩٣٠ حيث قام المعهد الشرقى للآثار فى شـــيكاغو بعمـــل حفائر جنوبى شرق بوغازكوى فى منطقة " على شار " وفـــى عـــام ١٩٣١ واصـــل الفرنسيون حفائرهم حيث تم الكشف عن العديد من الآثـــار منـــذ العصـــر الحجـــرى الحديث ، ومنذ عام ١٩٣٥ أخذت البعثات الأمريكية والتركية فى العمل فـــى مجـــال البحث الأثرى .[٢]

وقد عثر فى الأناضول على نصوص بالمسمارية شملت لغات عديدة منـــها ما أطلق العلماء عليه " لغة ما قبل الحيثية [٣] وكتابات ســـومرية وأكديـــة وحوريـــة وآرية وقســـم العلمـــاء تـــاريخ الأناضول القديم إلى عدة عصور وذلك اعتمادا على

---

(١) د. أحمد سليم : المرجع السابق ، ص ٤٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٥٨ .

(٣) د. أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنـــى القديـــم ، ص ٣٠٤ – ٣٠٥ ؛ المؤلف نفسه : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص ١٧٢ .

دراسة الآثار المكتشفة ودراسة النصوص التى تحملها وهذه العصور هى :

العصور الحجرية القديمة :

لم تكن هضبة الأناضول مغرية للسكن وجذب السكان إلا فى الألف السابعة ق.م . وذلك نتيجة لشدة البرودة وطول فصل الشتاء فى المنطقة ولا تعرف الموطن الأصلى الذى نزح منه سكان الهضبة الأوائل وربما جاء هؤلاء السكان من القوقاز أو من منطقة بحر قزوين حيث وصلت فى نفس الوقت هجرات أخرى من مناطق بحر إيجة من الغرب .

وعثر على بقايا العصر الحجرى القديم فى منطقة آديامان وفى كهف كارين بالقرب من إيطاليا ، وعثر فى هذه المناطق على بقايا حيوانية منها دب الكهوف وأسد الكهوف . وعثر على بقايا العصر الحجرى الوسيط فى منطقة بلديبى على شاطئ البحر المتوسط ، وعلى الرغم من العثور على أدوات زراعية مثل المنجل لحصد النباتات البرية فيبدو أن السكان كانوا يعيشون على الصيد ، وعثر على بقايا العصر الحجرى الحديث فى منطقة هاسيلار إلى الشمال من هضبة الأناضول ، وترجع هذه الحضارة إلى الألف السابعة ق.م . وعثر فى منطقة هاسيلار على قرية صغيرة ، أعيد تشييدها سبع مرات قبل أن تهجر نهائيا . وكانت الجدران الخارجية مشيدة من الطوب اللبن والأساس من الحجارة ولم يعرف الفخار فى تلك الحقبة واكن الشائع استخدامه آنذاك ، هو أوانى من المرمر والخشب المفزع ، وكان السكان يعيشون على الصيد وقطف ثمار الأشجار وذلك قبل التوصل إلى معرفة الزراعة . ولم يعثر على مقابر ولكن عثر على جماجم منفصلة فى البيوت مما يبعث على الاعتقاد بأنه كان هناك نوع من العبادات تخص سلالة الأجداد مع الاحتفاظ بجماجمهم داخل المساكن . وظهر استخدام الفخار فى نهاية العصر الحجرى الحديث ، حيث ظهر فى منطقة مرسين وكيليكيا (خاليكو) وطارس وشاتال – هويوك [١] .

---

(١) المؤلف نفسه : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص ٢٩٤ – ٢٩٨ ، ٣٠٣ ؛
Amiet , les Civilisations Antiques du Proche- Orient , Paris (1971) , p. 32 – 40 .

تعتبر **شاتال – هويوك** من أهم المواقع الأثرية لهذا العصر فقد كشف عن هذا الموقع عام ١٩٦٥ . وهو يعتبر من أكبر المواقع فى الشرق الأدنى القديم والذى يرجع إلى العصر الحجرى الحديث . ويرجع تاريخه إلى حوالى عام ٦٥٠٠ أو ٥٧٢٠ ق.م . ويبدو أن المنطقة التى كشف عنها كانت منطقة معابد وبها مساكن للكهنة . وكانت هذه المساكن مبنية من الطوب اللبن ،ويغطى جدرانها طبقة من الجص وملونة . وكان السقف مبنيا من البوص ومسطح الشكل . وقد بنيت هذه المساكن بالقرب من بعضها البعض . لذلك يمكن الوصول إليها عن طريق السقف .

أما المعابد : فكانت مزينة بنقوش من الجص على جدران صلبة وتمثل هذه النقوش رؤوس حيوانات وخاصة رأس البقرة أو الثور . ولم يعثر على موائد للقرابين ، وقد عثر على معبد ، فى المستوى السابع للحفائر (١) ، كان مزينا فى الجانب الشرقى منه برأس ثور . وعثر إلى جانب هذه الرأس على فتحة كانت مخصصة لوضع الأدوات التى كانت تستخدم فى الطقوس .

ويبدأ عصر استخدام المعادن: وخاصة النحاس فى نهاة الألف السادسة وبداية الألف الخامسة ق.م ، وقد عثر على بقايا هذا العصر فى موقع يعرف باسم كاراز بالقرب من ارزروم وأيضا هاسيلار .

وكانت المساكن فى هاسيلار من هذه الفترة تشيد فى بداية الأمر من الطوب اللبن فوق أساسات من الحجارة . وشيدت هذه المساكن فيما يشبه القرية المحاطة بسور له ثلاثة مداخل . وكل مسكن من هذه المساكن يحتوى على قاعة وحجرة كبيرة وحجرة أخرى إضافية . وعثر فى الركن الشمالى الغربى من القرية ، على شونة للغلال ،وعثر أيضا فى نفس الركن على معبد أكبر مساحة من مساحة المساكن . وكان هذا المعبد يحتوى على بهو كبير ومقسم إلى جزأين ينتهيان بفتحة . وعثر على

---

(١) عن شكل هذا المعبد ، انظر د. أحمد سليم : تاريخ العراق – إيران – آسيا الصغرى ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٩٨ ، ص ٤٦٨ – ٤٦٩ ، شكل ٨٩ .

ثلاث مقابر محفورة فى باطن الأرض . ويبدو أن هذه القرية فى هاسيلار قد تعرضت لحريق مما ترتب عليه تهدمها بالكامل .

ويمتاز الفخار فى هذه الفترة بأنه متنوع الأشكال والزخارف وبألوانه البراقة . ووجد إلى جانب الفخار أقداح وأوان بيضاوية الشكل كانت فوهاتها مزينة بأشكال تمثل رؤوس آدمية .

عصر البرونز :

يوجد منجمان للفضة بسهل كونيا فى طوروس .ويوجد فى جنوبى غربى الأناضول النحاس والحديد والذهب . وقد كانت الأناضول فى نهاية العصر المبكر للبرونز سوقا كبيرا للمعادن . وكانت آشور وسوريا تستوردان ما يحتاجانه منها ، كذلك كان يصدر إلى مصر واليونان والبلقان .[١]

وينقسم هذا العصر إلى فترتين كبيرتين :

الفترة الأولى :

ونرى فيها ظهور وتحركات أقوام فى المنطقة شرق البقان عند ميخالتيس واندفعت إلى الأناضول فى العصر المبكر لعصر البرونز ووصلت حتى غربى أزمير وقد عثر على بقايا حضارة هذه الفترة فى عدة مناطق أهمها :

تروى : التى عثر على فخار هيئة أوانى قليلة الغور (مسطحة كالصحن) لها قاعدة مخروطية الشكل أو قصيرة ، وغالبا بها زخارف جانبية .

وعثر على بقايا مدن من هذا العصر كانت محصنة بحوائط من الحجارة . أما المساكن فى مجموعها مستطيلة الشكل . ويوجد بأرضيتها موقد ، وحفر كانت تستخدم كمرحاض .

وكان الطعام يحفظ فى أوعية كبيرة . وكان لمعظم المساكن فناء خارجى

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٣٩ .

أمام المسكن وزودت أغلب المساكن بنوافذ ومعظمها كان من طابق واحـــد وســـقفها مسطح وفصلت كل مجموعة عن الأخرى بشوارع وأزقة .

أما **عادة الدفن** : فى هذا العصر ، فهى واضحة فى منطقة يورتان فقد عـثر على جثث وضعت منحنية (على هيئة القرفصاء) وموسدة أما على جانبها الأيســـر والرأس متجهة إلى الشرق وأما موسدة على جانبها الأيمـــن والـــرأس متجهـــة إلـــى الغرب .

أما فيما يخص ما عثر عليه من الأشياء **الأدوات المصنوعة من المعـــدن** . فأغلب هذه الأشياء كان من النحاس والقليل من البرونز .والقليل من الآثار كان مـــن الفضة ومن النادر العثور على أشياء من الذهب . أما عن المقتنيات المعدنية من هـــذا العصر فهى الخناجر ، ورؤوس الرماح والمدى المعقوفة والبلط المسطحة ،والدبابيس والمخارز والإبر والمثاقب والأزاميل .

وظل الفخار مستخدما وتعددت أشكاله ، وقد صنع باليد ، وقد أمكن تقســيمه على حسب المناطق . ففى المنطقة الشمالية الغربية نجد أوانى لها حافة مقلوبة وقـــاع بقاعدة أو بدونها ، وبعضها له أيدى ، وأن بعض حواف الأوانى بها بعض الزخـارف المحفورة .(١)

أما عن فخار المنطقة الجنوبية الغربية من هذا العصر يختلف تمامـــا عـــن غيره . فجميع أنواع هذا الفخار قد صقلت صقلا تاما ودقيقا وألوانه هـــى : الأســـود الحالك ، والأصفر ، والرمادى ، والبرتقالى والأحمر الفاتح ، والقرمـــزى ، وزينـــت أسطح الفخار برسوم هندسية ، وقد عثر على أباريق لها رقاب طويلة وأوان كرويـــة الشكل . وهناك أشكال مختلفة من الكؤوس منها المربعة الشكل وعلى قاعدة لها أربعة أرجل .

أما فخار المنطقة الجنوبية : (سهل كونيا وكيليكيا) من هذا العصر فيختلف عـــن غيـــره من الفخـــار . وعثر هنا على الفخار الأحمر المائل إلى اللون الأصفر،

---

(١) د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٤٤٠ – ٤٤١ .

وعثر على فخار مصقول رمادى أو أسود . أما فخار المنطقة الوسطى من الأناضول من هذا العصر ، فهو فخار مزخرف بزخارف حمراء بارزة أو غائرة .[١]

الفترة الثانية :

نجد أن الظاهرة الواضحة فى هذه الفترة هو القضاء على حضـــارة تـــروى وقد افترض بعض العلماء هروب أصحابها أما إلى الداخل إلى المرتفعات أو عبورهم البحر إلى أقطار أخرى .

ومما يدل على ثراء حكام هذه الفترة ما عثر عليه من مخلفات من الحجـــارة النصف كريمة من الازورد والفيروز فى مقابرهم .

العمارة :

عثر على أطلال هذه الفترة فى مدينة يوليوختى ، وهى تعطينا فكـــرة عـــن مدينة منظمة بها شارع رئيسى يبلغ طوله مائتى مترا تقريبا ، وقد تجمعت المســـاكن فى مجموعات على جانبى الطريق . وكانت هناك مساكن متوسطة وأخرى كبـــيرة . وكذلك وجدت مخازن ورداهات للاجتماعات وعثر على بقايا حصن أهلاتليبيـــل بيـــن أنقرة وجوليازى . ولم يبق من هذا الحصن إلا الجزء السفلى منـــــه . وعـــثر علـــى حجرات للدفن فى باطن أسوار الحصن بها أسلحة كالسيوف والخناجر والبلط .

ومن هذه الفترة بقى لنا **معبدان** فى بيسى سلطان وقد زود كل من المعبديـــن بمذبح يضم لوحتين ومن خلفهما جرار كبيرة كانت تستخدم بحفظ السوائل . وقد بنـــى المعبدين الوحيدان من الطوب اللبن . وقد غطيت الحوائط بـــــالملاط .وهـــذان همـــا المعبدان الوحيدان اللذان بقيا من العصر البرونزى فى الأناضول . وقد عثر فى كـــل منهما على كميات هائلة من الفخار .

وعثر فى طارسوس على مجموعة من المساكن الخاصة وبعض أسوار

---

(١) د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٤٤٢ .

المدينة .[١]

عادات الدفن : كشف في دوراك في شمال غرب الأناضول عن قبرين ملكيين وعلى ثلاثة عشر مقبرة في الاسا في وسط آسيا الصغرى . وكانت مقابر دوراك من الحجارة وأبعادها ١,٨ × ٢ متر . ونجد مقابر الاسا قد حفرت في الأرضية ويتراوح طولها بين ستة وثمانية أمتار وعرضها ٣,٥ متر . وقد غطيت مقابر دورك بكتل من الحجارة . أما مقابر الاسا فقد غطيت بكتل من الخشب وقد صنعت عليها رؤوس ثيران وهي بقايا قرابين جنائزية .

وكان المتوفى في مقابر دوراك إما بوضع ممد على ظهره أو يوضع على هيئة القرفصاء . وقد اتجهوا برؤوس الموتى ناحية الشرق . ووضع المتوفى في مقابر الاسا على هيئة القرفصاء في الركن الشمالي الغربي لحجرة الدفن ، على الجانب الأيسر والرأس متجهة نحو الغرب [٢] . وعثر في قبر دوراك الملكي رقم ١ على كليم الملك المتوفى موضوعا عليه . وفي المقبرة رقم ٢ وضع الملك على حصير من السمار وعثر على أثاث من الخشب منها أجزاء من كرسي مصري من الخشب وقد نقشت صفائح الذهب الذى تغطيه بنقش بالكتابة الهيروغليفية باسم وألقاب الملك ساحورع ثاني ملوك الأسرة الخامسة المصرية (٢٤٥٨ ق.م) . وعثر على أدوات للزينة وأشياء خاصة بالزينة كانت تخص الملكة وأسلحة تخص الملك . ودفن الملك بكل الشارات المميزة التي كان يحملها والأسلحة العديدة مثل السيوف والخناجر وبلط المعارك والسهام .

الصناعات المعدنية :

لقد اشتهرت كل من دوراك والاسا بالصناعات المعدنية بمختلف أنواع الطرق ، وبالصب في الشمع . أما المعادن التى كانت معروفة في كل من دوراك

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٤٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤٣

والاسا فهى النحاس والبرونز . وكشف فى الاسا على أوانى معدنيـــة صنعـت مــن البرونز والنحاس والذهب والفضة .

الفخار :

• وظل الفخار مستخدما ووجد بكثرة وبأشكال مختلفة وقد صنع على عجلـــة الفخار .وقد لوحظ أنه فيما عدا كيليكيا ، حيث استخدام عجلة الفخار ، فقد اســتمرت بقية المراكز الحضارية فى الأناضول على صناعة الفخار باليد .(١)

بداية العصور التاريخية :

لم تقع أحداث تاريخية ذات اهمية كبرى فى أنحاء آسيا الصغـــرى خــلال الألف الثالثة ق.م ، ولكن وقعت بعض الــهجرات ، فــى بعــض البــلاد الأخــرى المجاورة ، كان لها تأثير فى مجرى الأحداث بالنسبة لآسيا الصغرى . فدخلت موجـة شعوب " الويت " إلى البلاد وعبروا البسفور ، ويبدو أنها كانت عناصر سامية مــن الأكديين . وقد استقروا أيضا فى تلك البلاد منذ فترة ، واستقرت جماعات منهم فـــى بوردشكندا أو بورشخاندا ، وكانوا يعملون بالتجارة .

ويبدو أن هذه الجالية قد تعرضت لاضطهاد أحد الحكام المحليين فى البــلاد فأرسلت هذه الجماعة إلى سرجون الأكدى (٢٣٣٤ ق.م) وفدا يلحون عليه فى طلب إرسال قوات إلى مدينتهم ويصفون له الثروات التى تتمتع بها بلادهم . وقد جاء فـــى الرواية أن سرجون قد وافق بعد تردد على الاستجابة لرغبة هؤلاء التجار ، وأرســل وحداته العسكرية إلى بورشخاندا . وقد دفع ذلك بسكان الأناضول القدامى إلى اعتبـار العصر الأكدى القديم بداية العصر التاريخى لبلادهم .(٢)

وهناك احتمال أن تجار بورشخاندا لم يكونوا أكديين ولكــن مــن العاميين

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٤٤ – ٤٤٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤٩ .

الغربيين الذين كان لهم رغبة أكيدة فى الدخول فى علاقات مع الأكديين فى الشرق .

ومع مرور الوقت وقبل قيام مملكة آشور ، بدأت علاقات آسيا الصغرى (الأناضول) بآشور تتوطد . وكان الآشوريون يستوردون من آسيا الصغرى النحاس والفضة والذهب والرصاص والقمح والصوف . مما يؤكد هذه الصلات التجارية فى هذه الفترة من القرن التاسع عشر ق.م . العثور على الآف من ألواح الطين المنقوش عند كول تبه تشير إلى نشاط التجار الآشوريين الذين كانوا يرسلون السلع من آشور إلى الأناضول .

وفى الفترة التى قوت فيها نفوذ الآشوريين فى آسيا الصغرى كانت البلاد مقسمة إلى دويلات صغيرة أو دويلات المدينة، وكان يحكم على كل دويلة حاكم من أهلها . ولم يزعج الآشوريين هؤلاء الحكام وتركوا حكم الولايات فى أيديهم ، وكانت لهذه الجاليات الآشورية معابدها المحلية ومعبوداتها الوطنية [١] . ودخل مهاجرون جدد من الجنس الهندواوروبى إلى آسيا الصغرى فى الألف الثانية ق.م وأصبح لهؤلاء المهاجرون الغلبة فى البلاد . وانتشرت فى هذه الفترة خمس لغات :

اللغة الحيثية (اللغة الرسمية لبلاد خاتى) " الخاتية " واللوية والحورية والبالية ، إلى جانب اللغة الأكدية . وهى اللغة الدولية فى ذلك العهد . وقد جاء اللويون غالبا إلى الأناضول من الغرب عند بداية عصر البرونز . وانتشروا على الهضبة فى نهاية هذا العصر . وكتبت اللهجة بالحروف الهيروغليفية ، وكانت تعرف باسم الهيروغليفية – الحيثية[٢] ، والحيثية مثل اللوية ، لغة بناؤها هند أوربى لأنه اختلط بها الكثير من المفردات هندورأوروبية .

وكانت البالية ، هى اللغة الهندواوربية الثالثة منتشرة فى منطقة بالا ، وكانت ولاية متطرفة فى مملكة الحيثيين ، وربما تقع فى الشمال الشرقى من

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٥٣ .

أرمينيا . ودخلت اللغة الحورية مؤخرا إلى آسيا الصغرى . وكان الحوريون أمة غير معروفة فيما وراء المرتفعات الشرقية فى السنوات الأولى لظهور مملكة خاتوشـــا . وحتى بعد عام ١٥٥٠ ق.م . لم يتمكنوا من التأثير على الحيثيين وبدأوا يتسللون إلـى الأجزاء الجنوبية من آسيا الصغرى التى كانت أهلة باللويين من قبل .(١)

تأسيس المملكة الحيثية : (٢)

نشأت على مر الزمن دويلات مدن حقيقية فى الأناضول كـــان أشـــهرها " كوشار " و" نيشا " و" زالباونيشا " و" خاتوشا " (بوغاز كــوى الحاليــة) وكذلــك " بورشخاندا " .

ونشبت الحروب بين هذه الدويلات من أجل توسيع مناطق نفوذها ولتفـــوز بمركز الصدارة السياسية والعسكرية . وبقى الأمر كذلك إلى أن تبلور الموقف خـلال القرن التاسع عشر ق.م بتشكيل أول مملكة حيثية متحدة على أنقاض دويلات المدن .

وجاء وصف هذه الحروب فى نقوش " نيشى " المدعو " انيتا " بن " بيتخـا " حاكم كوشار . ومن بين هذه الحروب الانتصار العسكرى الساحق الذى أحرزه علـى المدعو " بيوشتى " ملك خاتوشا . حيث غزا هذا الملك خاتوشا وزالباونيشا ودمرهـا

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٥٤ .
(٢) قام د. أحمد سليم فى مؤلفه عن : تاريخ العراق – إيران – آسيا الصغرى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٨ ، ص ٤٥٣ – ٥١٢ بالحديث عن " آسيا الصغرى " وبدأ حديثه بمقدمة تمهيدية وتناول فى الفصل الأول عصور ما قبـل الكتابة والتدوين : العصر الحجرى القديم ، العصر الحجرى الوسيط ، العصـر الحجرى الحديث ، عصر الحجر والنحاس المبكر ، عصر الحجـر والنحـاس الأخير . وفى عصر الحجر والنحاس الأخير . وفى الفصل الثانى تحدث عـن ملوك عصر الدولة القديمة وفى الفصل الثـالث تحـدث عـن ملـوك عصـر الإمبراطورية .

شر تدمير وجعل عاصمة دويلته " نيشا " عاصمة للملكة الحيثيـة الجديـدة . ولكـن بمرور الوقت أقام الملـوك الحيثيـون عاصمتـهم فـى خاتوشـا بسـبب موقعـها الإستراتيجى .[١]

وقسم العلماء العصور التاريخية للملكة الحيثية إلى فترتين :[٢]

عصر الدولة القديمة وعصر الإمبراطورية أو الدولة الحديثة .

عصر الدولة القديمة (١٦٠٠ – ١٤٥٠ ق.م) :

من أهم ملوكه :

أنيتا : عمل الحيثيون على توطيد سيطرتهم فى البلاد . وتشير النصـوص الحيثية من بوغاز كوى إلى الملك " انيتا بن بيتخا " قد مد سلطانه ووسع حدود ملكـه حتى شمل أجزاء واسعة شرقي الأناضول . وقضى على مملكة خاتوشا لقب " الملـك العظيم " .[٣]

لابارناس (أو لابارناشى) (١٦٠٠ – ١٥٧٠ ق.م) :

تولى الملك بعد انيتا وكان ملكا عظيما ، وكان أولاده وأخوتـه وأصـهاره وأقاربه وعساكره متحدين سويا ، واضطر إلى القضاء على أعداء البلاد بالقوة وعيـن كل واحد من أولاده حاكما على جزء منها ، وحكموا البلاد ، وأصبحت المدن الكبرى فى قبضة يده وأنشأ عاصمة جديدة فى كوشار .[٤]

---

(١) د. توفيق سليمان : المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .
(٢) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٥٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٥٤ ؛ د. أحمد سليم : المرجـع السـابق ، ص ٤٨٣ – ٤٩٢ .
(٤) د. أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشـرق الأدنـى القديـم ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ ك المؤلف نفسه : معالم حضارات الشرق الأدنـى القديـم ، ص ١٧٢ – ١٧٣ ؛ Contenau, les Civilisations Anciennes du Proche-Orient , Paris (1963), p. 99 – 100 . وأيضا د.عبـد الحميـد زايـد : المرجع السابق ، ص ٤٤٥ .

ولقد أصبح من الأمور المتعارف عليها عند الحيثيين فى العصور المتأخرة أن يبدأوا تاريخهم بالملك لابارناس . وكان يوضع هو وزوجته تاوان نانـاش على راس القوائم الخاصة بتقديم القرابين إلى أرواح ملوكهم وملكاتهم السابقين . وقد اتخذت أسماء كل منهما كألقاب يحملها كل ملك وملكة من أيام تيليبينوس .

خاتوسيليس (١٥٧٠ – ١٥٣٠ ق.م) :

خلف لابارناس خاتو سيليس الذى كان يتولى الحكم فى كوشار وكان أول عمل قام به نقله مقر ملكه إلى مدينة خاتوشا لأنه اكتشف أهمية موقع هذه المدينة الإستراتيجى . وخرج هذا الملك من إطار التقوقع الإقليمى داخل أواسط اسيى الصغرى حيث اجتاز جبال طوروس فى مقدمة جيشه وغزا إمارة يمخاد الأمورية التى كانت تتخذ عاصمة لها فى حلب .ولكنه أصيب بجرح بالغ خلال تلك المعارك مما اضطر للانسحاب والعودة إلى بلاده وتوفى متأثرا بجراحه فى مدينة كوشار [١] . وكان خاتوسيليس قد أجرى تعديلات هامة فى وضع المملكة الداخلى تعلق بوراثة العرش ، حين سلم العرش لأبنه الأصغر مورسيليس بدلا من أن ينصب ابنه الأكبر . وخرج بذلك على إرادة مجلس الأشراف ، الذى كان يسمى بالحيثية الـ " بانكو " .

مورسيليس الأول (١٥٣٠ – ١٥١٠ ق.م) :

بعد أن تربع هذا الملك الشاب على العرش الحيثى زحف فى مقدمة جيش كبير نحو الجنوب ضد إمارة حلب للانتقام منها لأنها تسببت فى وفاة والده فأحتل حلب ودمر مملكة يمخاد . ولم يكتف بغزو شمال سوريا بل اتجه جنوبا وقضى فى نفس ذلك العام (١٥٣٠ق.م) على حكم اخر ملوك الدولة البابلية القديمة وعاد من بابل بالأسرى والغنائم . ولم يقصد مورسيليس من تنفيذ هذه الخطوة العسكرية الجرئية توطين الحيثيين فى بلاد النهرين، بل هدف منها تأكيد قوة الحيثيين أمام الآشوريين والحوريين – الميتانيين [٢] بدليل أنه انسحب من هذه البلاد بعد أن دمر

---

(١) د. توفيق سليمان : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

المملكة البابلية القديمة .

زادت المؤامرات في القصر الملكي في نهاية حكم هـذا الملـك وتعـرض لمؤامرات أدت إلى اغتياله في عام ١٥١٠ ق.م .

خانتيليس (١٥١٠ – ١٤٩٠ ق.م) :

تولى العرش أثر المؤامرة التي أودت بحياة عديله الملك مورسيليس وتوالـت الأزمات في عهده . فبدأ الحوريون – الميتانيون في مهاجمة الجـزء الشـرقي مـن مملكة الحيثيين وفقد خانتيليس وخلفاؤه جزءا كبيرا من الأراضي . وفي الفترة التـي كون فيها الكاسيون مملكتهم في العراق ، دخلت المملكة الحيثيـة فـي دور ضعـف سياسي ، ولهذا تنفس الكاسيون في بابل الصعداء لما تعرضت له مملكة الحيثيين .

تيليبينوس (١٤٦٥ – ١٤٥٠ ق.م) :

كثرت المؤامرات والفتن التي استمرت خمسة وعشرين عاما واشتد عنفـها بعد وفاة خانتيليس ، وصارت الاغتيالات هي العرف السـائد فـي دوائـر الدولـة الحيثية . ولذلك تعاقب خلال هذه الفترة أربعة ملوك على العرش الحيثي كان أخرهـم المدعو تيليبينوس . ولكنه لم ينعم بالحكم طويلا . وقد تعرض لمحاولة لاغتياله هـو وزوجته ، وأصدر الملك تيليبينوس أثر محاولة الاغتيال هذه قانونا جديدا نظـم فيـه مشكلة وراثة العرش الحيثي . ولكي يسبغ الملك على قانونه أو تشريعه ، الذي اصبح يعرف باسمه ، الصفة الشرعية ، حصل على موافقة مجلس الأشـراف (البـانكو) عليه .

وسرد تيليبينوس في قانونه بدءا بالفقرة الأولى وانتـهاء بـالفقرة السادسـة والعشرين منه قصة الصراعات الداميـة التـي دارت بيـن أفـراد البيـت المـالك والمؤامرات والدسائس التي سادت جو العلاقات بين الأفراد البارزين فـي الدوائـر الرسمية الحيثية . وذكر أسماء الملوك وأفراد البيت المالك ، الذيـن ذهبـوا ضحيـة الاغتيالات ، لذلك نصت المادة السابعة والعشرون صراحة على تحريم الحـاق الأذى والضرر بأحد أفراد البيت المالك ،أما في المادة الثامنة والعشرين فقد حدد تيليبينـوس

نظام وراثة العرش . ونصت المادة التاسعة والعشرين على وجوب نوافر المحبة والوئام والوحدة بين الملك الوريث وأبنائه وأخوته وعساكره ، ليبقوا جميعا أقوياء . وجاء فى المادة الثلاثين أنه يحظر على الملك العدر بأقاربه وعليه أن يصارحهم إذا ظن أنهم يحيكون مؤامرة ضده ، وذلك تحاشيا لإراقة الدماء .(١)

انهيار عصر الدولة القديمة :

يعتبر تيليبينوس آخر ملك قوى فى تاريخ المملكة الحيثية القديمة وخلفه بعد وفاته " توتخاليا الثانى " وحكم بعد هذا الملك مولك عديدون ونشب الصراع من جديد بين أفراد البيت المالك دون أن يستطيع مجلس البانكو وضع حد لاستمراره . هنا فقدت المملكة الحيثية السيطرة على المقاطعات فى شمال سوريا وانتعشت المملكة الحورية ثانية . واستمر الحال هكذا إلى أن تولى شوبيلوليوما الذى يعتبر أشهر الملوك الحيثيين ومعه يبدأ عصر جديد .

عصر الإمبراطورية (١٣٨٠ – ١١٩٠ ق.م) :(٢)

من أهم ملوكه :

شوبيلوليوما (١٣٨٠ – ١٣٤٦ ق.م).

رأى شوبيلوليوما أن أول عمل يجب القيام به هو إعادة بسط نفوذ الحيثيين على المناطق التى انفصلت عن مملكتهم فى سوريا وشرق آسيا الصغرى وغربها .

وخاض شوبيلوليوما أول حروبه ضد سكان مناطق شرق آسيا الصغرى وفى أعالى نهر الفرات ، وانتصر فيها جميعا. ولم تكد أنباء انتصاراته هذه تصل إلى

---

(١) د. توفيق سليمان :المرجع السابق ، ص ٢٧٢ – ٢٧٤ ؛ د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٤٦٨ – ٤٧١ ؛ د. أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص ٣١١ – ٣١٢ ، ٣١٥ – ٣١٨ ، ٣٢٢ – ٣٢٦ ؛ المؤلف نفسه : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص ٣٠٩ – ٣١٠ .

(٢) د. أحمد سليم : المرجع السابق ، ص ٤٩٥ – ٥١٢ .

مسامع أمراء الممالك الصغيرة الأخرى فى غرب آسيا الصغـــرى حتـى سـارعوا لإعلان الولاء من جديد للمملكة الحيثية والتحالف معها . وتوجه الملك الحيثـى بعـد ذلك إلى جبال طوروس ووصل إلى لبنان وغزا مناطق عمورو فى أواسط شمال بلاد الشام (سوريا) وعلى ساحلها وفرض على أمرائها الجزية . وهنـا أرسـل أمـراء وحكام الشام الموالون لملك مصر الوفود الرسمية ومعهم الرسائل الرسمية لاخنـاتون يذكرون فيها أنباء تقديم الجيش فى جنوب البلاد وأن الحيثيين فى طريقـهم لاحتـلال المدينة الساحلية "جبيل " التى أرسل ملكها بدوره بطلب النجدة من ملك مصر .[١]

واستعان الحيثييون ، خلال قيامهم بهذه العلميات العسكرية بأمراء بلاد الشام المناهضين للسلطة المصرية . وقد سهل هؤلاء الأمراء على الحيثيين الانتصار فـى هذه المعارك ، بحيث أصبح معظم النصف الشمالى من بلاد الشام خاضعا لنفوذهـم ، وبقى على الحيثيين بعد هذه الانتصارات بأن يقوموا بتصفية الحساب مع آخر مملكـة فى الشام وهى المملكة الحورية – الميتانية ، التى بقيت تشكل العقبة الكأداء الوحيـدة فى طريق السيطرة الحيثية الكاملة على جميع مناطق النصف الشـمالى مـن بـلاد الشام .

وبدأ الملك الحيثى أعماله العدائية ضد ميتانى عندما أقام علاقات دبلوماسـية مع أحد الملوك الحوريين ويدعى " أرتاتاما " ورأى الملك الحورى – الميتانى الأكـبر توشراتا فى خطوة الملك الحيثى عملا عدائيا موجها ضده .ووقعت الحـرب بينـهما واتجه الحيثيون إلى العاصمة شوجانى وهزموا توشراتا وحاصروا العاصمة إلـى أن استسلمت فدمرها الملك الحيثى وأنهى سلطة توشراتا عليها ، وأبرم معاهدة مع ابـن توشراتا الذى نصبه على عرش أبيه وقدم له الدعم وهى معاهدة دفاع مشترك ، وكان يبغى من وراء ذلك إقامة حزام واق أمام الأطماع الاشورية .

مورسيليس الثانى (١٣٤٥ – ١٣١٥ ق.م) :

تولى العرش بعد وفاة شوبيلوليوما ابنه المريض أرنووانداس ، الذى توفـى

---

(١) د. توفيق سليمان : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ – ٢٧٧ .

بعد حكم له لم يدم سوى بضعة أشهر .وخلفه أخوه مورسيليس الثانى الذى زحف فى مقدمة جيشه لإخضاع المناطق التى اغتنمت فرصة وفاة أبيه وأخيه وأعلنت الانفصال عن المملكة الحيثية . واستغلت قبائل جبلية فى مناطق جبال البونت هذه الفرصة وأغارت على الحدود الشمالية والشرقية لأراضى المملكة .وتصدى لها الملك الحيثى في سلسلة حروب متواصلة استمرت قرابة عشرين عاما . وبالرغم من أن هذه الحروب المتواصلة أنهكت قوى الجيش ، إلا أنها لم تحل بين تلك وبين أن يحقق طموحه ، إذ وسع مناطق نفوذه باتجاه الجنوب فى منطقة كيليكيا ونحو الشرق باتجاه أرمينيا . واستطاع أن يستعيد نفوذالحيثيين فى شمال بلاد الشام بما فيها المناطق الحور ية – الميتانية . وتوفى فى عام ١٣١٥ ق.م وخلفه على العرش الملك مواتلى .[١]

مواتلى (١٣١٥ – ١٢٩٠ ق.م) :

سيطر مواتلى بسرعة على مقاليد الأمور فى المملكة الحيثية وعادت حدود الأراضى الخاضعة للسلطة الحيثية إلى ما كانت عليه فى عهد الملك الشهير شوبيلوليوما وامتدت من أرمينيا وحدود دويلة آشور شرقا حتى كيليكيا غربا ومن شمال أواسط آسيا الصغرى شمالا حتى الحدود الجنوبية لأواسط بلاد الشام جنوبا .

وفى عهده بدأ الصراع مع رمسيس الثانى لتحديد مصير بلاد الشام وأقطار النصف الغربى من عالم الشرق القديم عامة ووقعت معركة قادش فى تلك المدينة التى تقع فى أواسط سوريا على نهر العاصى إلى الجنوب قليلا من مدينة حمص الحالية . وبالرغم من أن رمسيس الثانى ادعى الانتصار فى هذه المعركة ،إلا انه لم يستطيع إنكار الخسائر التى منى بها جيشه ، مما اضطره للعودة مسرعا إلى مصر .[٢]

أورشى – تيشوب (١٢٩٠ – ١٢٨٣ ق.م) :

تسلم أورشى – تيشوب السلطة بعد وفاة أبيه ، أى فى الوقت الذى كانت

---

(١) د. توفيق سليمان : المرجع السابق ، ص ٢٧٧ – ٢٧٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٨ – ٢٨٥ .

حالة التوتر تسود العلاقات بين الحيثيين والمصريين . حاول أن يبعد عمه ختو سيليس عن منصبه كحاكم لإحدى المقاطعات الحيثية فى آسيا الصغرى . وهنا وجد العم نفسه مضطرا للنهوض فى وجه ابن أخيه إلى أن أزاحه عن العرش الحيثى بعد سبع سنوات من الصراع المرير ضده .وقد حاول أورشى – تيشوب الهرب إلى الملك الكاسى (كاداشمان تورجو) .[١]

خاتوسيليس الثالث (١٢٨٢ – ١٢٥٠ ق.م) :

تخوف خاتوسيليس من تعاظم القوة العسكرية الآشورية الصاعدة وتهديدها للمصالح الحيثية وكان الوضع الداخلى فى البلاد دائم التوتر بسبب إزاحته لأبن أخيه أورشى – تيشوب عن العرش ، لأن أنصاره ظلوا يترقبون الفرصة الملائمة للانتقام من خاتوسيليس . وكان الملك يدرك أيضا قوة الجيش قد ضعفت بسبب معركة قادش وأصبح غير قادر على الحرب على جبهات متعددة . ولهذه الأسباب المتجمعة أدرك الأخطار المترتبة على إبقاء جو العلاقات متوترا بينه وبين عدو الحيثيين التقليدى ملك مصر ورمسيس الثانى . ورأى أن الحكمة تستدعى عقد معاهدة صلح وسلام بينه وبين الملك المصرى تنهى حالة التوتر والحرب التى سادت أجواء العلاقات بين الدولتين لعشرات السنين . وعندها فقط يستطيع أن يتفرغ لمجابهة أعدائه فى الداخل من أنصار أورشى – تيشوب والتصدى للآشوريين فى الخارج ، لذلك بعث إلى رمسيس الثانى وفدا لمفاوضات السلام ويحمل معه مشروع معاهدة صلح بين الجانبين مكتوبا على لوحة من الفضة .

ويعتبر النص النهائى الذى أمر خاتوسيليس الثالث نقشه على لوحة من الفضة أقدم نص لمعاهدة من هذا النوع ، كما أنه يلقى ضوءا ساطعا على العلاقات الدولية التى كانت سائدة فى القرن الثالث عشر ق.م .[٢]

تولى بعد خاتوسيل الثالث الملك تودها لياس الرابع الذى اهتم بالشئون

---

(١) د. توفيق سليمان : المرجع السابق ، ص ٢٩١ – ٢٩٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

الدينية وجاء من بعده أرنوواندلس الثالث الذى تدهور الأوضاع فى عهده إلى أقصى درجة وخاصة فى غرب هضبة الأناضول وحدثت تحركات ضخمة من شعوب هذه المناطق واتحدت مع شعوب البحر التى كانت تبحث عن مناطق نفوذ لها فى الشرق . فقضوا على دولة الحيثيين وغيرها من دول آسيا الصغرى واستولوا على قبرص ونزلوا فى شمال سوريا ووصلت القبائل أو الشعوب فى ذلك الوقت حتى حدود فلسطين متجهين نحو الحدود المصرية .

وبعد أن قضت شعوب البحر على مملكة الحيثيين فى عام ١٢٠٠ ق.م اضطرت الشعوب الحيثية إلى الفرار إلى سوريا ، وابتداء من هذه اللحظة أصبح سكان غرب وجنوب هضبة الأناضول من الآخيين والطروادیین .

الأناضول القديم وعلاقاته الخارجية :

فى بداية عصر الإمبراطورية تود هالياس الثانى مؤسس الأسرة وقام بغزو حلب . وعندما غزا تحوتمس الثالث فلسطين وسوريا والعليا ، أسرع ملك الحيثيين ، بتقديم الجزية للملك المصرى وفى رسائل تل العمارنة ، نجد رسالة من ذلك الحيثيين يعرض فيها على أمنحتب الرابع نوعا من التحالف .

وعندما أصبح شوبيلوليوما ملكا على الحيثيين ، بدأ يفكر فى التوسع فى سوريا ، ونجح فى الاستيلاء على النصف الشمالى من فلسطين ، ووضع أبنائه كحكام على المناطق التى غزاها فى قرقميش وحلب . واعتمد على مساعدة الأموريين ، ونجح فى الحد من هجمات القبائل المشاغبة فى آسيا الصغرى .وانقض على عاصمة الميتانيين شوجانى ودمرها . وواجه خليفته مورسيل الثانى الثورات المعتادة فى الشرق عقب تتويجه كملك جديد ، ولكنه التزم سياسة الدفاع عن مملكته وأقام علاقات صداقة أيضا مع الآخيين الذين استقروا فى جنوب غرب آسيا الصغرى . وبدأ يفكر فى الإعداد للحرب ضد المصريين الذين عملوا على استعادة سيطرتهم على فلسطين التى فقدوها حديثا .

الأناضول القديم وعلاقته بمصر :

أن علاقات مصر بمنطقة شرق البحر المتوسط لم تقتصر على فلسطين وسوريا ولكن تعدتها إلى المناطق الأكثر شمالا فى الأناضول أو آسيا الصغرى وذلك منذ عصر الدولة القديمة ففى منطقة " دوراك " الواقعة على الجانب الشرقى من جنوب بحر مرمرة وعلى بعد نحو ثلاثين كيلومترا على شواطئ بحيرة ابو ليونت عثر في إحدى المقابر الملكية على أجزاء خشبية من كرسى مكسو بالذهب وتحمله بعض نقوشه ألقاب الملك ساحورع من الأسرة الخامسة .[١]

وعلى هذه البقايا نقرأ على اليمين : " ... سيد الأرضين ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ، ابن رع ساحورع ... " . وعلى اليسار : " ... ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ساحورع.. معطى (الحياة مثل رع) أبديا ".[٢] ويرى البعض أن هذه الأثر نقل من موقع آخر على ساحل آسيا الصغرى .

وعثر على بعض الآثار من عصر الدولة الوسطي فى منطقة الأناضول فقد عثر اوستن فى منطقة قلعة " كوريجن " شرق انقرة ، على تمثال لأحد المصريين يدعى " كرى " ويبلغ ارتفاعه حوالى ٣٥ سم وهو محفوظ الآن فى متحف انقرة الجديد .[٣]

وبفحص هذا التمثال نجد على ظهره عمود من الكتاب بالخط الهيروغليفى ترجمته كالآتى : " قربان يعطيه الملك لاوزير سيد الحياة (والى) وانوبيس من أجل كرى ".[٤]

---

(١) د. عبد القادر خليل : علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية عصر الدولة الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ١٩٨١ ، ص ٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٨ لوحة رقم ١١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣١ – ١٣٢ لوحة رقم ٢٥ .

ويرى البعض أن كرى هذا ربما كان تاجرا [١] ، كـــان مــهتما بعمليـــات تجارية مع جالية التجار الآشوريين التى استقرت فى الأناضول خلال القرن التاســـع عشر ق.م وأنه ذهب إلى هناك من أجل شراء بعــض المنتجـــات مــن الآشــوريين وإحضارها إلى مصر ، وخاصة أننا نعرف أن هــؤلاء التجــار الآشــوريين كـــانوا يتاجرون فى سلع عديدة وخاصة المنسوجات [٢] ، بينما يرى البعض الأخر أن ســبب وجود تمثال كرى فى الأناضول غير معروف [٣] . ويرجع بعض العلماء تاريخ هــذا التمثال إلى حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م .[٤]

كما عثر كذلك في منطقة " اضنة " الواقعة فى سهل كيليكيــا علــى تمثــال للمربية المصرية " سات – نفرو " وهو مصنوع من الديوريت ويرجع إلـــى عصـــر الأسرة الثانية عشرة .[٥]

ويوجد على التمثال نقش بالخط الهيروغليفي :

" قربان يعطيه الملك من خبز وجعــــه ورؤوس ماشـــية وطيـــور وكتـــان والألبستر وكل شئ طيب من اجل المربية سات – نفرو " [٦]

ويرى البعض أن سات نفرو قد سافرت هناك أما لتربية أو لتعليم أطفال أحد الأمراء فى الأناضول أو لخدمة أحد الموظفين المصريين هناك .[٧] وبالنسبة لوجـــود هذين التمثالين فى منطقة انقره يبدو أن أصحابهما كانا موجودان هناك بسبب عمل مـــلـ وخاصة أنهما حاولا أن يحفظا على هويتهما المصرية المتمثلة فـــى المحافظة علـــى

---

(١) د. عبد القادر خليل : المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٥ – ١٣٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٣٣ – ١٣٤ لوحة رقم ٢٦ .

(٧) المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

صيغة القرابين المعتادة فى النصوص المصرية والمحافظة على أسماء بعض المعبودات المصرية أى أن وجود المصريين فى هذه المناطق لم يكن غريبا .

وخاصة وأننا نعلم مما يسمى بـ " نصوص اللعنة " التى تمدنا بأسماء بعض الرؤساء الأعداء لمصر فى سوريا ، نجدها تذكر إلى جانب ذكر أسماء هؤلاء الرؤساء الأعداء تذكر أسماء ثمانية من المصريين ومن بينهم أربعة يحملون لقب " مربى " أو " وكيل أعمال بعض السيدات المصريات " وقد جاء فى النص أنه صب على هؤلاء المصريين اللعنات ومن الجائز أن السبب فى ذلك أنهم خرجوا من مصر فى أداء مهام معينة ورفضوا العودة إليها مفضلين الإقامة فى هذه البلاد الأجنبية .

دون أن يناصبوها العداء وذلك فى نهاية الأسرة الثانية عشرة ولاسيما أنه يدخل فى أسمائهم أسماء سنوسرت وأمنمحات وسبك حتب " .[١]

وفى عصر الدولة الحديثة كانت الأوضاع مضطربة فى منطقة الهلال الخصيب بسبب الميتانيين الذين كانوا يكونون تحالفات معادية ضد مصر . وفى السنة الثانية والثلاثين من حكم تحوتمس الثالث (١٥٠٤ ق.م) قام بحملته الثامنة ، وهى من أقوى الحملات الحربية التى قام بها الملك ، وتقابل مع الميتانيين وانتصر عليهم وتتبعهم فى وسط الجبال واستولى على الأراضى التى تقع شرق الفرات وأقام على الشاطئ الأيمن لنهر الفرات لوحة حدود فى مواجهة اللوحة التى أقامها من قبل تحوتمس الأول .

وكان لهذا الانتصار رد فعل كبير ، ليس على الميتانيين فحسب بل على جيرانهم أيضا الذين لم يدخلوا الحرب بعد ضد مصر مثل الآشوريين والبابليين والحيثيين . والذين رأوا أنه من الأفضل وكنوع من الحرص إرسال الجزية إلى الملك المصرى المنتصر ومحاولة مهادنته .ويحتمل أن يكون زايدانتاشى الثانى او خوزياشى قد أرسل إلى تحوتمس الثالث هدايا.[٢]

---

(١) د. عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، ص ٤٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤٧ .

ويرى البعض أنه كانت هناك معاهدة بين تحوتمس الثـالث والحيثيين وأن هذه المعاهدة ظلت سارية المفعول خلال عهد أمنحتب الثـالث . ومضمون هذه المعاهدة أو الاتفاق هو الموافقة على ترحيل عدد من سكان مدينة " كوروشتاما " والتى تقع فى الجزء الشمالى الشرقى من المملكة الحيثية إلى داخل المناطق التى تخضع للنفوذ المصرى . وقد أبرمت المعاهدة بين تحوتمس الثالث وخوزياس الثانى (١٤٧٠ - ١٤٦٠ ق.م) .[١]

وهناك استقبل سفراء ملك بابل وخيتا ، الذين كانوا يحملون هداياهم من فضة وأحجار كريمة وأخشاب نادرة ، وقد قام ملك الحيثيين بعد ذلك بثمانى سنوات أيضا بمواصلة إرسال الجزية إلى ملك مصر .

وقد عهد أمنحتب الثاني (١٤٥٠ ق.م) قام بحملة إلى آسيا فى العام التاسع من حكمه ، لتهدئة الأوضاع هناك . وجاء فى نهاية لوحة منف من أيام أمنحتب الثانى التى تحدثنا نصوصها (السطر ٣٣) عن هذه الحملة أنه عندما سمع كبير نهارينا وكبير خاتى (Wr n Ḫ3ti) وكبير سنجر بالنصر العظيم الذى أحرزه الملك تسابق كل مع زميله بكل وسيلة حاملا الهدايا وقد حضروا ومعهم جزيتهم إلى قصر الملك .[٢]

وفى عهد تحوتمس الرابع (١٤٢٥ ق.م) بدأ يظهر خطر الحيثيين فى الطرف الشمالى من سوريا .

وقد جاء فى خطابات تل العمارنة ، خطاب من أمير قطنة المسمى أكيزى أرسله إلى أمنحتب الثالث (١٤٠٨ ق.م) يقول فيه أن عدم إرسال نجدة من ملك مصر قد شجع ايتاجاما ، حاكم قادش إلى أن يدفع الكثير من الأمراء إلى الوقوف جانب الحيثيين .

---

(١) د. عبد القادر خليل : علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية عصر الدولة الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ١٩٨١ ، ص ٢٠١ ، حاشية (٣) (٤) .
(٢) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٧٢ – ٤٧٣ .
A Badawi, ASAE 42 (1943), p. 20- 23

ومن وقاع ما تذكر بعض خطابات تل العمارنة نجد أن خاتى قد لعبت دورا هاما فى تقويض النفوذ المصرى فى سوريا .فلدينا خطاب أرسله ربعدى حاكم جبيل[١] الموالى لملك مصر أخناتون يقول فيه :

" ليعلم الملك سيدى ان ملك خاتى قد هزم جميع الأراضى التابعة لملك ميتانى . ويقول أيضا " لقد سمعت من شعب خاتى (أنهم أى أبناء عبد شرتا حاكم امورو والمناهضين للحكم المصرى) قد احرقوا الأرض بالنار وأنهم الآن يحضوون الجنود من أراضى خاتى لكى يهزموا جبيل " .[٢]

ويفهم من هذا الخطاب أن عبد شرتا كان على علاقة طيبة بالحيثيين كما كتب اكيزى حاكم قطنة خطاب إلى ملك مصر يذكر فيه ما يقوم به ايتاجاما حاكم قادش الموالى للحيثيين فيقول عنه :

" سار الآن : ايتاجاما ضدى ومعه ملك خاتى ، وهو يطلب أرضى . والآن قد ارسل لى ايتاجا ما يقول : تعالى معى إلى ملك خاتى وأجبته أنا : (بأنه) إذا كلفنى ذلك الأمر حياتى ، سوف لا أذهب إلى ملك خاتى ، فأنا خادم الملك سيدى ، ملك مصر "[٣] .

" لقد اخذ ملك خاتى ، معبودات قطنة ورجالها " .[٤]

وعندما تولى أمنحتب الرابع (أخناتون) (١٣٧٢ ق.م) كان يحكم فى بلاد خيتا شوبيلوليوما (١٣٨٠ ق.م) ويبدو أن هذا الأخير قد أرسل خطابا إلى أخناتون . وكانت الأوضاع فى آسيا فى حالة يرثى لها ، فقد استغل الحيثيون الاضطرابات الداخلية فى مصر والتى سببتها ثورة أخناتون الدينية ، فقاموا بإعداد تحالف ضد مصر ، وقد نجحوا فى ذلك .

---

(١) أرسل هذا الحاكم أكثر من ستين خطابا إلى الملك ولكن لم تأته النجدة ، هى أرقام :102-138, 95-96, 68-92 ، راجع : Knudtzon, Die El Amarna Tafeln, p. 361-435, 441-443, 455-587.

(٢) د. عبد القادر خليل : المرجع السابق ، ص ٢١٧ – ٢١٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

فملك قادش استعاد سهل شمال سوريا ، واستولى ملك امور أحد المتحالفين مع الحيثيين على الموانئ الفينيقية . وعلى الرغم من كل هذا لم يتحرك إخناتون ، وقد عثر فى ودائع المراسلات فى أرشيف تل العمارنة ، على مجموعة من الخطابات وهى المعروفة باسم " خطابات تل العمارنة " [١] وهى عبارة عن لوحات صغيرة من الطين المحروق ، مغطاة بكتابات مسمارية . وهى عبارة عن المراسلات المتبادلة بين أخناتون وأمراء فلسطين وسوريا العليا وبابل وآخرين . فقد كان عدو مصر " ايتاجاما " يحكم قادش ، بينما كان شوبيلوليوما يفرض سيطرته على حلب وكذلك على كل شمال سوريا ، وتقدم الآموريون بطول الشاطئ واستولوا على المدن التى

---

(١) يبلغ عددها الآن ٣٧٩ رسالة ، وهى موزعة بين متاحف العالم فنعرف منها ١٩٩ بمتحف برلين ، و٨٣ بالمتحف البريطانى ، و٥٠ بالمتحف المصرى ، و١٨ بمتحف اكسفورد ، و١ بمتحف اللوفر ، و١١ بمجموعة خاصة ، يضاف إليها قطعا صغيرة ولا تحمل أرقاما ، راجع : Knudtzon , Die EL Amarna Tafeln . AAllen 1964 , p. 991 – 996 ; Helck , LAI , p. 173 . ؛ وعن هذه الرسائل ، راجع :

د. أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ص ٧٧ – ٨٥ . وقد قسمها د. فخرى إلى ثلاثة أقسام : الأول : ما بعث به الحكام والموالين لمصر ومنهم حاكم مجدو وحاكم بيروت وحاكم صيدا . وما أرسله الأمراء فى بلاد الشام إلى الملك أمنحتب الثالث يطلبون منه العون ويعلنون فيها ولائهم له . الثاني : خاص بالصداقة بين ملوك مصر وملوك البلاد التى لم تخضع لحكم المصريين مباشرة . وكانت هذه الممالك ثلاثة فى آسيا هى : بابل وآشور وميتانى . فكتب ملك ميتانى إلى امنحتب الثالث ، وكتب ملكى آشور وبابل إلى أمنحتب الرابع . وكان ملوك ميتانى وآشور وبابل يرسلون الجزية ويطلبون من ملك مصر أن يرسل إليهم الذهب ويلحون فى ذلك حتى أن أحدهم يقول فى خطاب له : " أرسل إلى ذهبا ، إن الذهب فى مصر فى كثرة الرمال " . الثالث : خاص بعلاقات المصاهرة التى كانت تربط بين أمنحتب الثالث والرابع وبنات أمراء وملوك ميتانى وبابل .

كانت موالية للمصرين الواحد بعد الأخرى ، وقد استخدم عازيرو كل ذكائه ودهائه تارة والقوة والتهديد تارة أخرى لكى يستولى على مدن الشاطئ بين صيدا وأوجاريت .. وفى أقصى الجنوب أى فى فلسطين عمل مبعوثوا الحيثيون على إقصاء الموالين الأوفياء لمصر وكان على رأسهم عبد خيبا حاكم أورشليم الذى أرسل ستة خطابات إلى الملك .[١] وعلى الرغم مما جاء فى كل هذه الخطابات لم يتحرك أخناتون واكتفى بإيفاد رسول لبحث الموقف فى فينيقيا ولكن هذا الأخير ، ثبت ملك آمور فى الأراضى والممتلكات التى انتزعها من مصر ، أما فى فلسطين فقد قام البدو بدورهم بثورة واستولوا على مجدو ثم مناطق أورشليم القديمة . وأخيرا سقطت ميتانى حليفة مصر تحت ضربات الحيثيين والآشوريين المتوالية .

وأصبح الحيثيون الآن فى أوج قوتهم وأرغموا ملك آمور على توقيع معاهدة تحالف معهم ، ودخل شوبيلوليوما عاصمة الميتانيين " شوجانى " وقام بتدميرها . وتقدم بعدها إلى سوريا نفسها حيث أنقسم أمراؤها المحليون إلى فريقين : فريق كان يناصر الحيثيين والآخر يناصر الميتانيين .

وعقب وفاة توت عنخ آمون (١٣٤٣ ق.م) يقال ان أرملته عنخ اس إن آمون أرسلت بخطاب إلى ملك الحيثيين تطلب فيه أن يرسل إليها واحدا من أبنائه ليتزوجها ووعدته بأنه سيصبح ملكا على مصر . وقد شك الملك الحيثى فى جدية هذا الطلب وأرسل رسولا من قبله لاستطلاع الأمر ومعرفة الحقيقة . فاحتجت الأرملة ، وعندئذ أرسل ملك الحيثيين أحد رجاله للتأكد من الأمر ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل . وكانت دولة الحيثيين تمثل فى ذلك الوقت أعظم القوى فى شمال سوريا وفى الشرق الأدنى القديم .[٢]

---

(١) هى أرقام : 285-290 ، راجع : Knudtzon, op. cit., p. 856-877

(٢)عثر على هذا الخطاب فى حوليات شوبيلوليوما التى جمعها ابنه مورسيل والتى عثر عليها فى خرائب مدينة بوغازكوى ، راجع د. أحمد فخرى : المرجع السابق ، ص ٢٥٠ – ٢٥٢ .

تولى الملك سيتى الأول (١٣١٠ ق.م) وحاول استعادة بعض النفوذ المصرى فى آسيا وخاصة فى جنوب سوريا ، حيث عمل الحيثيون على إثارة السكان وحرضوهم على الوقوف ضد المصريين ، ولكن سيتى الأول نجح فى هزيمة المتحالفين قبل أن يتوافر لديهم الوقت الكافى للترابط فيما بينهم . وقد حاول الحيثيون الحد من تقدم الجيش المصرى بعض الوقت . وكانوا على قدر كبير من القوة . ولكن دون جدوى ، وأصبح الهجوم الذى قام به سيتى الأول ضد القوات الحيثية المتقدمة – حدثا ذا أهمية كبرى – لذلك عند عودته إلى مصر ، كان فى انتظاره استقبال كبير .

جاء على العرش الحيثى مورسيليس الثانى الذى نجح فى إخضاع المناطق السورية التى قامت بالثورة ضد الحيثيين ، ثم جاء من بعده ولده مواتلى وفى عهده أعيد تنظيم المقاطعات الشمالية الشرقية من المملكة الحيثية واضطر سيتى الأول للذهاب مرة أخرى لآسيا وحارب فى قادش ضد الحيثيين ، ونجح فى هزيمة الحيثيين بالقرب من قادش إلا أن هذا الصراع لم يحقق نتائج هامة لأنه لم ينجح فى استعادة شمال سوريا .ويبدو ان الحيثيين قد تراجعوا ، وفى حملة ثالثة عاد سيتى الأول مرة أخرى إلى آسيا وتقابل للمرة الثالثة مع الحيثيين فى شمال قادش وربما وقع فى هذه المرة معاهدة مع ملك الحيثيين ولكن لم تصلنا نصوصها .[1] وليس لدينا أى تفاصيل عن الحرب التى دارت بين المصريين وبين قوات مواتلى ملك الحيثيين ، وإنما تذكر النصوص المصرية أن سيتى الأول عاد منتصرا من هذه الحملة وكان من نتائج هذه الحملة هو ان مصر مدت نفوذها على جزء من شمال سوريا إذ إن سيتى الأول يذكر قطنة وتوينب (بعلبك) ضمن المناطق التى انتصر عليها . وقد زين سيتى الأول صالة الأعمدة الكبرى فى الكرنك بمناظر تشير إلى انتصاره على البدو والليبيين والآموريين الحيثيين بالقرب من قادش .

وعندما تولى رمسيس الثانى (١٢٩٠ ق.م) عرش البلاد كان الموقف فى آسيا خطيرا للغاية . فقد أخذت قوة الحيثيين فى النمو شيئا فشيئا ، خلال الفترات

---

(١) راجع : د. عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول مصر والعراق ، ص ٢٧٢ .

السابقة وأخذ مواتلى ملك الحيثيين يتقدم نحو الجنوب – تجاه قادش – المدينة الشهيرة منذ حروب تحوتمس الأول . وكانت قوة الجيش الحيثى تعادل ضعف قوة الجيش المصرى فى العدد والعتاد ، وكان لابد ان تتصارع الدولتان لبسط النفوذ على سوريا . وكان الحيثيون يسعون إلى هذا الصراع أكثر من مصر . وقد قبل رمسيس الثانى التحدى . وفى خريف العام الخامس من حكمه عام ١٢٨٥ ق.م . قام بحملته الشهيرة ضد مواتلى بقصد السيطرة على سوريا ، وعرفت هذه الحملة " بموقعة قادش " ونقش رمسيس الثانى أخبارها على كثير من دور العبادة فى الكرنك والأقصر والرمسيوم وأبو سمبل على ثلاث برديات [١] . وفى الواقع أن كلا الخصمين كانا فى قوة متساوية ولم يدخلا فى معركة حقيقية وبقيت سوريا تحت التهديد الحيثى [٢] . ولكن الخسائر كانت فادحة جدا من كلا الطرفين . وفى خلال الأيام التى تعاقبت ، كان هناك نوع من الهدنة ، وقد نجح الملك رمسيس الثانى فى القضاء على حدة شوكة الحيثيين ، الذين كانوا قد كونوا تحالفا من عشرين شعبا ، وكل ما فعله رمسيس الثانى هو انه نجح فى اختراق صفوف أعدائه ولم ينجح فى تحطيم الجيش الحيثى أو الاستيلاء على قادش . ومن الواضح أن الحيثيين اضطروا فى النهاية إلى التراجع تاركين أكبر جزء من سوريا تحت التهديد المصرى . وقد حاول الحيثيون التدخل لتأليب مدن ضد فلسطين ضد المصريين ولكن ازمة الخلافة على العرش أضعفت ملك الحيثيين . فبعد وفاة مواتلى (أو مورواتاليس) تولى ابنه أورشى – تيشوب العرش ولكنه كان صغيرا جدا وبعد عدة سنوات من الحكم ، حل محله عمه الملك خاتوسيليس الثالث (خاتوسيل الثالث) وكان مشهورا له بالحكمة والذكاء

---

(١) ومن بينها قصيدة بنتاؤرة وهى نصوص طويلة توصف حاليا بانها أشعار ، وحقيقة الأمر أنها ليست شعرا بل هى حوادث تاريخية لغيرها . أما عن نسبتها إلى بنتاؤرة فلم يكن ذلك إلا لأنه ناسخها وليس كاتبها الأول . وقام بتدوينها من أصل كان موجودا وقتها ولكنه فقد ، راجع : د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٥٠٢ – ٥٠٧ .

(٢) Kuschke , LAV , p. 27 – 31 .

والنشاط .

نعمت الإمبراطورية الحيثية في عهد خاتوسيل بفترات ازدهار انتهز رمسيس الثانى هذه الفرصة لكي يعاقب مدن فلسطين التى كانت موالية للحيثيين واراد أن يستعيد موانئ الشاطئ الفينيقى وتقدم نحو تونيب ونجح فى إعادة الهدوء إلى فلسطين ، واستولى على تونيب من أيدى الحيثيين . وعندما وصل إلى هذا الحد تطور الموقف الخارجى فجأة فقد ظهر فاتح ثالث فى آسيا مستغلا الصراع بين الحيثيين والمصريين ، وهى آشور ، وقد أراد خاتوسيل أن يستعيد السيطرة الحيثية ولكنه تصادم مع هذه القوة الجديدة ، التى بلغت أوج مجدها وقوتها فى عهد الملك أداد نيرارى وشالما نصر الأول . فقد استولى ملك آشور على الجزء الكبر من ميتانى القديمة ، ثم استقر على نهر الفرات ومن هناك بدأ يهدد الممتلكات المصرية من ناحية والإمبراطورية الحيثية من ناحية أخرى . وبدأ الحيثيون والمصريون يشعرون بهذا الخطر ولجأوا إلى التفاهم معا ونصح معاونو خاتوسيل الملك بعقد معاهدة سلام مع مصر .

وبدأ الحيثيون الخطوة الأولى على حد قول المصادر التاريخية ، فأرسل ملكهم خاتوسيل مبعوثين إلى قصر الملك رمسيس فى عاصمته ، وعرض الرسولان على الملك مشروع أو مسودة معاهدة تحالف بين مصر وخاتى ، وكان المشروع مسجلا بالخط المسمارى (البابلى) (وكان هناك من الكتبة المصريين فى بلاط الملك من يفهمون هذه اللغة قراءة وكتابة) على لوحة من الفضة باسم خاتوسيل ، فقبله رمسيس الثانى من حيث المبدأ بعد أخذ رأى مستشاريه . وكتب رجاله أو مستشاريه نصا أخرا أو مشروعا آخر باللغة المصرية على لوح من الفضة أيضا كان مقبولا فى أغلب بنوده مع المشروع الخاتى او معدلا عنه تعديلا بسيطا أو حذفت منه بعض المواد . حتى توصلا فى النهاية إلى وضع الصيغة النهائية لها . ووقع الملك رمسيس الثانى عليها فى العام الحادى العشرين من حكمه أى حوالى ١٢٧٠ ق.م (١)

---

(١) د. عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، ص ٧٢٨ ؛ د. عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول : مصر والعراق ، طبعة ١٩٧٦ ، ص ٢٣٢ .

وكتبت بعدها على لوحة أقيمت على أحد جدران معبد الكرنـــك [١] وعــثر على أصل المعاهدة على لوحين من الطين المحروق في حفائر بوغازى كوى فى عام ١٩٠٦ [٢] . ولكن هذا النص الأصلى الذى كتب بالمسمارية البابلية لم يدرس إلا فــى عام ١٩١٦ وعكف بعض العلماء على ترجمة وعكف الآخرون على ترجمة النـــص المصرى .[٣]

وإذا كانت هذه المعاهدة هى الأولى من نوعها فقد سبقتها من قبل فى عــهود سابقة عدة اتفاقات لم تحترم بنودها لسبب أو لآخر .[٤]

وتحتوى نصوص هذه المعاهدة على تسـع فقــرات ذكرهــا بــالتفصيل د. ميخائيل [٥] ، وهى كما ذكرها :

(١) بروتوكول :

يتكون من ذكر اسمى طرفى المعاهدة خاتوسيل (خيتاسار) ووسر ماعت

---

(١) د. احمد فخرى : مصر الفرعونية ، طبعة ١٩٨١ ، ص ٣٥٤ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٧٢٨ ، ص ١٠٤٢ ، حاشية ٥٢٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥٤ حاشية (١) .

(٣) بالنسبة لترجمة هذا النص بنسختيه ، راجع د. أحمد فخرى : المرجع الســابق ، ص ٣٥٤ حاشية (١) .

(٤) يرى البعض أن أول معاهدة أو اتفاق بين المصريين والحيثيين كانت بين حـور ومحب ومورسيليس الثانى ، راجع : د. عبد الحميد زايــد : الشـرق الخــالد ، ص ٥١٤ ؛ د. عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول : مصــر والعراق ، ص ٢٣٢ .

(٥) د. نجيب ميخائيل : مصروالشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول ، الكتاب الثانى : مصر، دار المعارف ١٩٥٨ ، ص ٢٢٥ – ٢٢٨ ؛ د. عبد الحميد زايد : مصـر الخالدة ، ص ٧٢٧ – ٧٢٩ .

رع (رمسيس الثانى) ، على لوحة من الفضة ، وهو مشروع معاهدة سلام واخوة بينهما وتم الاتفاق على أن ينسخ منها نسخة لتوضع بأرض الحيثيين لمنع وقوع عدوات بينهما إلى الأبد .

(٢) الشروط :

أتفق خاتوسيل مع رمسيس على ان يكون بينهما سلام وأخوة دائمة إلى الأبد وأن تسود بينهما علاقات طيبة وأن تمتد هذه العلاقات الطيبة من أبناء الملك الحيثى وأحفاده إلى أبناء وأحفاد رمسيس الثانى وسوف لا تفصل بينهما عداوة لكى تصبح أرض مصر والحيثيين فى سلام وأخوة دائمة . وتعهد الطرفان بالا يتعدى أحدهما على حدود الأخر ليستقطع منها جزءا أى احترام تقسيم الحدود بينهما على الرغم من أننا لا نعرف الخطوط الفعلية لهذه الحدود فى شمال بلاد الشام .[١]

(٣) التأكيد على تنفيذ الاتفاقات السابقة :

وبالنسبة للمعاهدة العادلة من زمن " سابا رورو " كالمعاهدة العادلة ومن زمن " موتتورومارسار ؟ " سوف يقوم الملك الحيثى بتنفيذها بعدالة وأيضا رمسيس الثانى اعتبارا من اليوم .

(٤) بنود المعاهدة :

معاونة أحدهما الآخر فى حالة اعتداء عدو خارجى على أحداهما فإذا جاء عدو إلى أرض رمسيس الثانى وأرسل رسالة إلى ملك الحيثيين يستنجد به . فسوف يرسل إليه الحيثى جنده وعرباته وإذا حدث أن أغار بدو الحدود على البلاد وذهب رمسيس الثانى ليضربهم فسينضم ملك الحيثيين إلى ملك مصر (ويلى ذلك مثل هذه

---

(١) د. عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، ص ٧٣٠ – ٧٣١ ؛ د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ . ويرى د. زايد أنه كان هناك خطوط معينة لا يجوز لأحد من الطرفين تجاوزها فى شمال سوريا والطرف الشمالى لساحل فينيقيا .

الفقرة ولكن بالعكس ، اى يرسل الملك رمسيس النجدة إلى ملك الحيثيين) .

(٥) رد الفارين :

فإذا جاء رجل من المدينة أو من المراعى او من الصحراء من أرض رمسيس إلى ملك الحيثيين فلن يستقبله بل سوف يرده إلى رمسيس . وإذا جاء رجل أو اثنان مجهولان إلى أرض الحيثيين ليقوموا بخدمة فلن يسمح لهم ملك خاتى بالبقاء فى البلاد بل سوف يعيدهم إلى رمسيس . وإذا جاء رجل عظيم (لاجئ) إلى أرض الحيثيين سوف يعاد مرة أخرى إلى رمسيس (ونفس الفقرة – العكس بالعكس) .[1]

(٦) تثبيت المعاهدة :

أى إعطائها حق القداسة وذلك باستدعاء كل المعبودات ذكورا وإناثا للشهادة عليها من أرض الحيثيين ومصر . (وبعد ذلك يجئ ذكر أسماء المعبودات) .

(٧) القسم :

الاتفاق على تسجيل بنودها على لوحتين من الفضة لأرض الحيثيين وأرض مصر . وهناك تهديد لمن سوف لا يقوم باحترام بنودها ويقوم بتنفيذها بإن ألف معبود حيثى وألف معبود من أرض مصر سيلحقون اللعنة ببيته وأرضه وخدمه .

ومن يحافظ على بنودها ويحترمها ويقوم بتنفيذها فإن الألف معبود الحيثى والألف معبود المصرى سوف يمنحون الصحة والحياة له ولبيته ولأرضه ولخدمه ..

(٨) ملحق :

الاتفاق على تبادل المهاجرين السياسيين : فإذا هاجر واحد أو اثنين أو ثلاثة

---

(١) تحدث عن البندين ٤ ، ٥ ، د. عبد القادر خليل (نقلا عن د. نجيب ميخائيل) فى مؤلفه : علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية عصر الدولة الحديثة ، ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

من أرض مصر ولجأوا إلى أرض الحيثيين سوف يقبض عليهم ويعادون إلى رمسيس . وتم الاتفاق على أن يعود إلى رمسيس وإلا يتعرض لعقاب نتيجة هذا العمل هو وزوجته أو أولاده أو أى لا يدق عنقه أو تقلع إحدى عينيه أو تصلم أذنيه أو يقطع جزء من فمه أو قدميه ولا يوجه إليه أى عمل أجرامى (وبالمثل العكس بالعكس) .

* وحذفت من النص المصرى المادة الخاصة بوراثة العرش الحيثى والفقرة التى يتحدث فيها خاتوسيل عن العلاقات المصرية الحيثية التى نشأت من قديم ورعاها بعنايتهما المعبودان رع وتشوب وعمل على إحيائهما كل من الملوك شوبيوليوما ومورسيل والتى قضى عليها للأسف فى زمن أخيه ماتيلا .

(٩) ختم المعاهدة :

على الوجه الأمامى من اللوحة الفضية نقشت داخل دائرة صورة " ست " يحتضن قائد (أى ملك) الحيثيين وحولها الكلمات : " ختم ست أمير السماء " . ختم المعاهدة بين " خيتا سار " قائد الحيثيين العظيم القوى ابن مارسار قائد الجيش العظيم القوى وما هو داخل الدائرة المحفورة " ختم ست أمير السماء " . وعلى الجانب الآخر حفرت صورة معبود الحيثيين تيشوب يحتضن صورة معبودة الحيثيين العظيمة ابنة أرض فيزا ملكة أرانا سيدة الأرض كلها خادمة الآلهة . وما هو داخل الدائرة المحفورة " ختم الشمس – ارانا سيدة الأرض كلها ".[1] وعادة المراسلات بين البلدين وتشير وثائق بوغازكوى[2] إلى التهنئة التى كتبتها زوجة رمسيس الثانى نفرتارى

---

(١) د. نجيب ميخائيل : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .
(٢) من بين النصوص التى عثر عليها فى بوغازكوى ، وتوجد منها أكثر من نسخة واحدة هى نقوش تخص خاتوسيل عن حروب أبيه مع مصر ، راجع : د. أحمد فخرى : المرجع السابق ، ص ٢٥٢ (٢) . كما تحدث د. فخرى عن أصل المعاهدة التى وقعها خاتوسيل ورمسيس الثانى ، المصدر نفسه ، ص ٣٥٤ حاشية (١) ؛ د. عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ٥١٠ – ٥١٥ .
وقد عثر على كبر مجموعة من الوثائق الحيثية فى عام ١٩٠٦ – ١٩١٢ فى بوغازكوى . واتضح أن هذه الوثائق هى محفوظات الدولة وتتألف من اكثر من ١٠ آلاف لوح جمعها الملوك عام ١٣٠٠ ق.م وكتبت هذه الألواح الخزفية بالمسمارية . وقام بترجمتها العالم التشيكى هروزنى ، راجع : د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ١٧٠ .

إلى بودوهيبات ملكة الحيثيين .[١]

واحترام كل من خاتوسيل ورمسيس الثانى كل ما جاء فى هذه المعاهدة ، وبعدها بثلاثة عشر عاما أراد خاتوسيل أن يوثق هذه الصلة ، تم الاتفاق على أن يتزوج رمسيس الثانى من ابنة خاتوسيل . فجاء الملك خاتوسيل فى زيارة رسمية إلى مصر مصطحبا معه زوجة رمسيس وجاءت في موكب فى فصل الشتاء فى العام الرابع والثلاثين من حكمه ، وصور خاتوسيل وابنته واستقبال رمسيس الثانى لهما على لوحة كانت وجودة أمام معبد أبو سمبل . وتلقيت الأميرة الحيثية بالاسم المصرى " ماعت نفرورع " .

ومما يدل على العلاقات الطيبة التى كانت سائدة بين البلدين ، ما نقش على لوحة محفوظة فى متحف اللوفر جاء عليها أن الأخت الصغرى لزوجة رمسيس الثانى الحيثية والتى وضفت على اللوحة بانها أبنة ملك من قطر بعيد يسمى " باختان " كانت تعانى من مرض عصبى وأصابتها روح شريرة فأرسلوا إليها من مصر الطبيب " تحوتى أم حب " الذى لم يستطيع أن يشفيها من مرضها فعاد إلى مصر وأرسلوا إليها على وجه السرعة تمثال شافى للمعبود خونسو معبود طيبة لكي يذهب الأذى عن جسد الأميرة [٢] وسواء أكانت الرواية لها دافع فعلى أم لا فهى من ابتكار البطالمة او ممن سبقوهم وهى تدل على الثقة فى المعبودات المصرية وقدراتها .

وظلت المعاهدة مع الحيثيين سارية المفعول طوال مدة حكم رمسيس الثانى واستمر هذا السلام لمدة ستة وأربعين عاما حتى أيام ولده مرنبتاح ، فقد ارسل هذا الأخير شحنة من الحبوب إلى الحيثيين الذين واجهتهم مجاعة .[٣]

---

(١) د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٥١٥ .

(٢) المرجع السباق ، ص ٥١٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥١٨ .

بعض المظاهر الحضارية في الأناضول القديم:

أولا : نظم الحكم والإدارة :

فى البداية كان الملك ينصب عن طريق الانتخاب ، بعد ذلك أصبحت الملكية وراثية بعد أن وضع أحد الملوك تيليبينوس قانونا لوراثة العرش . وكانت المدن الكبرى تحت سلطة " الملك الكبير " الذى لم يكن فقط القائد الأعلى للجيش ، والقاضى الأول فى الدولة ولكن كان أيضا كبيرا للكهنة [١] ، على حين كانت الأم الملكية التى يطلق عليها اسم " تافاننا " كاهنة للمعبودة الأم . ويمكنها أن تحكم فى غياب الملك . وعلى الرغم من أن الملك لم يقدس أثناء حياته إلا انه اكتسب لقب ابن الإلهة ويدخل بنفس العلاقة مع المعبودات عن طريق الأم الملكة التى تقوم بدور الكاهنة الكبرى .[١]

كان هناك ما يسمى بالمجالس المحلية التى تتكون من عدد من الشيوخ الذى يتولون الإشراف على كافة الشئون الإدارية . أما فى دور العبادة فإن المعبد هو الذى يشرف على تلك الإدارة فكان الكاهن الأعظم هو الحاكم المدنى فى نفس الوقت وكان الملك هو الذى يشرف على الأقاليم وأحيانا كان هناك حكام دائمين يقيمون فى الأماكن التى يعهد إليهم بإدارتها .[٢]

أما ما نعرفه عن القوانين الحيثية . فهو يدل على أنهم كانوا على دراية بالقوانين ولكن تشريعاتهم لم تكن بالكثرة كما عند ملوك عصر الأحياء السومرى والبابلى والآشورى .وقوانين مملكة حيثا المعروفة لها أصل قديم . وكانت المسئولية تقع دائما على صاحب الحدث ، وهو الذى يتحمل عقوبتها . ويتم فحص الأخطاء طبقا لنوعيتها ونتيجتها وتحدد العقوبة طبقا لذلك .[٣] ولم تكن القوانين فى المملكة الحيثية ثابتة بل كانت عرضة للتعديل والإضافات . وكانت هذه القوانين تأخذ بمبدأ

---

(١) Contenau , op. cit ., p. 78 .

(٢) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

(٣) Contenau , op. cit ., p. 81 .

العين بالعين والسن بالسن .[١]

وهناك حق التعويض من الجانى للمجنى عليه . أما المحاكمة فكانت بسيطة الإجراءات إذ أن المنازعات تنظر أمام الشيوخ الذين كانوا يشرفون على الإدارة المحلية وكانوا يمثلون ما يشبه المحكمة الشعبية . وكان أحد ضباط الملك هو الذى يتعاون مع السلطات المحلية فى إقامة العدل دون تحيز وفى حالات القضايا الكبرى التى يحكم بها الإعدام كانت القضية ترفع إلى الملك للبت فيها .[٢]

الجيش :

وصلت الجيوش الحيثية إلى درجة كبيرة من الخبرة فى التاريخ القديم على الرغم من أننا نجهل الكثير عن تكوينها ووسائلها غير أنه من المرجح أن مشاة الجيش الحيثى كانت أكثر عددا من جنود مركباته . وكانت المركبات الحيثية تختلف فى شكلها اختلافا بسيطا عن المركبات المصرية إذا أنها كانت تتسع لحمل ثلاثة رجال بدلا من اثنين . وكان سلاح الهجوم يتكون من الرمح والقوس والدرع .

وإلى جانب المشاة والمركبات كانت توجد الفرق الخفيفة التى تقوم بالهجمات السريعة . وكانوا يعرفون استخدام المنجنيق وإقامة الروابى المرتفعة .[٣]

ثانيا : النظم الاجتماعية :

من العادات التى كانت سائدة فى المجتمع فى بلاد الأناضول هو أنه قبل الزواج كانت الخطبة مصحوبة بهدية الزوج وبعدها يتم الزواج بعد حصول الفتاة على هدية من زوجها كصداق وفى حالة وفاة الزوج تتزوج الأرملة بأقرب المقربين . وكانت القوانين تجعل من الزوج هو رب الأسرة وسيدها وراعيها .[٤]

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

ثالثا : الحياة الاقتصادية :

اعتمدت على الزراعة ، واستخراج المعادن . فالأشوريون الذين كانوا يعيشون في منطقة كابادوكيا كانوا يصدرون النحاس ، كما أن توافر المادة بدرجة كبيرة ساعد على استخدامها في صك العملة ومع أن الحديد كان متوافرا أيضا إلا أنهم عجزوا عن صهره فاستعاضوا عنه بالنحاس في صناعة الأسلحة وكذلك البرونز . ولهذا عد الحديد من المعادن الثمينة . وكانت المعادن وخاصة النحاس تصدر إلى بلاد النهرين في مقابل المنسوجات .(١)

أما مصادر دخل الدولة فكانت كما في بلاد النهرين وبلاد فارس تعتمد على الضرائب وغنائم الحروب .

رابعا : الديانة والمعتقدات :

المعبودات :

كان يعيش في بلاد آسيا الصغرى ، مجتمعات متباينة من الآسيويين ، وما يطلق عليه اسم " السابقون على الحيثيين " الذين نجهل الجزء الكبير من معتقداتهم ، وعلى الرغم من انهم كانوا تحت سيطرة الآشوريين في نهاية الألف الثالثة ق.م وربما منذ بداية عصر الأسرة الأكدية ، فإن التأثير السامي لم يغير من خصائصهم الرئيسية ، التي نقلت بعد ذلك إلى ديانة الحيثيين الهندوأوروبية .

السابقون على الحيثيين :

كانوا يتعبدون إلى معبودات الخصب والأخصاب . ونرى على الآثار المصورة نقوشا عديدة يبدو أنها تتصل بعبادة تمثال على هيئة ثور وقد تركت لنا الإمبراطورية الحيثية الهندوأوربية ، نقشا من هذا النوع في الكا – هويوك الذي يخلد عبادة كانت تنتمي في الواقع إلى الروح البدائية عند الأسيويين في آسيا الصغرى وعندما اندثرت

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ١٨٧ – ١٨٨ .

حضارة السابقين على الحيثيين ، نجد أن الديانة على الرغم من انها كانت تتكون من عناصر مختلفة ، إلا أنها كانت ذات معالم واضحة . فقد أثرت الديانة الآسيوية فى حضارة السابقين على الحيثيين ، وأمكننا التعرف على المعبود الكبير والمعبودة الكبرى التى انتشرت أسمائها من قبل مثل وروسمو والابن المقدس .أما بالنسبة للحيثيين فقد تاثروا بديانات أخرى أيضا أولا من الآسيويين وثانيا من أهل بلاد النهرين . ومن هذه الديانات أمكننا أن نميز معبودة السماء ، والأرض ، والعالم السفلى ومعبودات قديمة قد اندثرت لصالح معبودات أخرى صغيرة .

ويمكننا معرفة قائمة هذه المعبودات عن طريق النصوص الدينية ، ومن نصوص المعاهدات والمراسيم التى كانت تسجل تحت حماية هذه المعبودات وهم " ألف معبود من خيتا " كما يسميهم الكتبة ، وكانوا يقدرون فى الواقع بأكثر من سبعمائة معبود .

ويأتى على رأس هذه المجموعة المقدسة ، معبودة مدينة أرانا ، وهى مدينة لم يعرف مكانها حتى الآن وهى المعبودة أرانا ربة الشمس، والمعبودة وروسمو. وكانت أرانا تعد سيدة البلاد وكان الملك يطلعها على سياسة حكومته . والمعبود الكبير تيشوب الآسيوى ، الذى كان يعد معبودا رئيسيا فى آسيا الصغرى ، وقد عبد فى الجزء الجنوبى منها _ جبال طوروس والسهول الشمالية لسوريا) وكان يعد معبودا للطقس والرعد ويلقب بلقب : " ملك السماء ورب بلاد خاتى " ويرمز إليه بالثور الذى يصور واقفا وحيدا على مذبح أو يمثل راكبا مركبة تجرها الثيران على رؤوس الجبال التى مثلت فى هيئة البشر أو يمثل واقفا وسمكا برمز الصاعقة وبلطه[١] وواقفا على ثور.[٢] أو ممسكا بمطرقة وعصا معكوفة .[٣] وكان يتشابه من ناحية أخرى مع المعبود إداد . وكان له عبادة فى عدة مدن . وكان للمعبود تيشوب زوجة هى " خيبات " وتمثل على هيئة سيدة تقف على أسد وابنها " شاروما " .[٤]

---

(١) صور هكذا على لوحة عثر عليها فى تيل بارسيب من نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى ، وهى موجودة الآن بمتحف اللوفر ، راجع : Parrot, Assur, p. 77 Fig. 87.

(٢) صور هكذا على لوحة أخرى عثر عليها فى تيل بارسيب من نفس الفترة ، وهى موجودة فى متحف حلب ، راجع : Id., op. cit., p. 78 Fig. 89

(٣) صور هكذا على لوحة عثر عليها فى تل حلف من بداية الألف الأولى ، راجع : Id., op. cit., p. 89 Fig. 98.

(٤) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

وزوجة أخرى هى أرانا معبودة الشمس وكان لهما ابنتان وحفيدة . وكانت معبودة الدولة الرسمية هى معبودة الشمس وتعبد على أنها " ملكة بلاد خاتى والسماء والأرض " سيدة ملوك وملكات بلاد خاتى ومرشدة الحكومة .[1] وكان هناك معبود للشمس اخر ولم يكن زوجا للمعبودة الشمس .

وكانت المعبودة أرانا هى مصدر الديانة الرسمى ، وكانت تعد من أهم المعبودات الحيثية مع زوجها .

وكان هناك معبودا للزراعة . وقد وجدت أسماء عدد كبير من المعبودات التى لا نعرف عنها شيئا ، وربما كانت أصلا من المعبودات المحلية وعبدت فى المجتمعات المحلية الأولى . فإلى جانب تيشوب وخيبات من مجموع المعبودات الحورية ، نجد عشتار وتسمى شاوشكا ، نى سابا معبودة الحبوب ، انليل ، نى نورتا ، هنجالو ، آلاتو معبودة العالم السفلى ، وجميعهم من مجموعة معبودات بلاد النهرين (سومرية وأكدية) . وهى لا تقل أهمية عن المجموعة الأولى .

واعتقد الحيثيون بأن معبود الشمس يمر فى العالم السفلى من الغرب إلى الشرق أثناء الليل . ويبدو ان الحيثيين لم يستطيعوا أن يبذلوا مجهودا كبيرا لكى يضعوا بعض النظام والترتيب فى هذه المجموعة المتعددة من المعبودات . وأخيرا نذكر التأثير الهندواوروبى الفعال الذى يتمثل فى المعبود " كامروسبا " وهو من المعبودات المحيطة بتابينو ، واسكاسما ثم بى روا . ونجد أن بعض العقائد ، على الرغم من أصالتها إلا أنها نفس نوع من معتقدات اهل بلاد النهرين ، فمثلا تابينو كان يشير إلى توالى الفصول ، وأيضا كامروسبا والثعبان الويانكا كان يأتيان لمساعدة ضحايا الإنسانية .

معبودات ياسيلى – كايا :

عثر على معبد كبير منحوت فى الصخر فى منطقة ياسيلى – كايا ، على بعد حوالى ثلاثة كيلومترات من العاصمة بوغازكوى ، ونجد فى هذا المعبد ان

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ١٨٣.

المعبودة الرئيسية لمجموعة المعبودات ، تحمل اسم " خيبات " وتصور وهى تعتلى فهدا مع معبود الرعد ربما " تيشوب " ومن خلفها يوجد شخصى قصير جدا يمتطى فهدا أيضا . وهو يمثل بالتأكيد ابنها " شاروما " وخلفه معبودتان ربما " مازولا " ابنة معبودة الشمس " أرانا " وزنتوهى ابنتهما الصغرى . وتبين جدران المعبد مواكب المعبودات السفلى مقسمة إلى مجموعتين :

الذكور على اليسار بقيادة معبود الرعد ، والإناث على اليمين بقيادة معبودة الشمس أرانا ، وكلتا المجموعتين تتقدمان نحو المعبود والمعبودة يتبعهم الكهنة والكاهنات . ويوجد فى غرب المدخل تماثيل لأثنى عشر شخصا وأيضا لمعبودات أخريات يصطحبهن كاهنات . وفى داخل حجرة صغيرة داخلية مخصصة للمعبود الصغير ، نجد نقشا آخر يمثل أثنى عشر رجلا . وهناك نحت فىالصخر يمثل ملكا ، يدعى تودهالياس الرابع الذى يعانقه معبود آخر .

ومن المحتمل أن هذه النقوش قد نفذت وحفرت فى معبد ياسيلى – كايا لأن الملك والملكة كانا يأتيان غالبا لكى يستقرا بعض الوقت أثناء عيد الخريف للاحتفال بالحصاد وإقامة طقوس العام الجديد كما كان شائعا فى غرب آسيا .(١)

بعض الأساطير :

نجد فى بلاد الأناضول ، مجموعة من المعتقدات ، التى تتركز حول معبود الطقس أو الطبيعة ، الذى قضى على قوى الشر الممثلة فى عدة أشكال وصور مختلفة . وقد وجد بعض هذه النصوص الخاصة بتلك المعتقدات فى أرشيف بوغازكوى ، وما هى إلا نسخ حيثية من أساطير أصلها بابلى وبعضها من أصل حورى .

ذبح التنين : وتسمى **الأسطورة الأولى** " ذبح التنين " وتقص الصراع بين معبود الطقس ومعبود الشمس الويانكا ، ومؤداها إن معبود الشر انتصر فى بداية

---

(١) James , Mythes et Rites dans la Proche-Orient Ancien , Paris (1960) , p. 130 .

الأمر وهزم معبود الخير ، واضطر معبود الطقس إلى الاستعانة بكل المعبودات الأخرى . واستجابت المعبودات لهذا النداء وأعدت المعبودة انارا وليمة كبيرة ، ودعت إليها معبود الشر وعائلته وأخذ هؤلاء يشربون الكثير من النبيذ حتى الثمالة ولم يستطيعوا العودة إلى مقرهم . وهنا تدخل المعبود هوباسيا وقام بقيدهم واستطاع معبود الطقس أن يقضى عليهم . كمكافأة لهوباسيا شيدت انارا منزلا له فوق صخرة فى بلاد " تاروكا " ومنعته من النظر من النافذة خوفا من أن يرى زوجته وأولاده . ولكن بعد مضى عشرين يوما ، اضطر إلى فتح النافذة ورأى عائلته . وعادت إنارا ، وللأسف لا نعرف بقية القصة فيما عدا حدوث صراع وقتلت المعبودات خلاله فيما يبدو هوباسيا على حين لجأ معبود الطقس إلى وضع الأعشاب على حطام المنزل .

وفى نسخة أخرى حديثة ، يقال إن معبود الشر قد نزع قلب وعيون معبود الطقس بعد هزيمته ، وبعد ذلك أنجب معبود الطقس ابنا له لكى يستعيد قلب وعين أبيه وينتقم له ، وجعل ابنه يتزوج ابنة معبود الشر الويانكا ، وطلب منه استعادة قلبه وعيونه ، وبالفعل نجح الابن فى استعادة تلك الأعضاء لأبيه ، وعندئذ استعاد المعبود قوته مرة أخرى وقام بصراع الويانكا ، ولكن الويانكا انتصر عليه مرة أخرى وقتله وطلب الأب أن يقتل الويانكا ابنه أيضا ولكن الويانكا رفض هذا الطلب وسوف يحاول الابن استعادة قوة أبيه والانتقام له [١] (وهنا يؤدى الابن نفس الدور الذى أداه المعبود حورس فى العقيدة المصرية القديمة) .

الأسطورة الثانية : تعلق بعودة الحياة إلى الأرض وتسمى " أسطورة المعبود المفقود " وهى تتلخص فى أن الحياة تتوقف على الأرض بسبب اختفاء معبود الخصب ثم البحث عنه وبإعادته إلى بيته تعود الحياة إلى الأرض .[٢]

وإلى جانب هذه المعتقدات يمكن إضافة أساطير بلاد النهرين المترجمة إلى الحيثية . وقد خلدت الطقوس والعبادات الآسيوية فى الديانة اليونانية بفضل نفوذها

---

(١) James , op. cit ., p. 190 .

(٢) د. أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص ١٦٨ .

وانتشارها وذلك بعد أن انطوت .. المجتمعات الأسيوية فى سجل النسيان ولم تعد إلا ذكرى على هامش التاريخ .

المعابد:

كانت أماكن العبادة تتخذ أشكالا عديدة :

فمنها ما كان مكشوفا به هيكل حجرى ، ومنها ما كان مشيدا بالأحجار الضخمة ويتكون من عدة غرف حول فناء مرصوف . ويفصل قدس الأقداس عن هذا الفناء حجرة بها فتحة تسمح للذين فى الفناء برؤية تمثال المعبود فى محرابه الذى يقع فى الجدران البعيدة لقدس الأقداس . وكان المعبد يعتبر بيت المعبود ، ويقوم الكهنة بخدمة المعبود يوميا . وكان الملك يرأس الاحتفالات والأعياد الدينية الكبرى . وكان الكهنة يؤدون دور الوسيط بين المعبود والبشر وذلك عن طريق استشارة وحى المعبود فى أمور كثيرة وتفسير الكوارث والمصائب التى تحيق بالبشر .[١]

العادات:

كان من المتبع حرق جثة المتوفى عند الدفن ثم تطفأ النار بالجعة والنبيذ ثم تجئ بعض النسوة لجمع العظام وغمسها فى شراب خاص ثم يضعونها فى زيت طيب الرائحة فى جرة فضية . ثم تخرج بعد ذلك وتلف بكتان وتوضع على مقعد ويقدم الطعام لمن قام بجمع العظام كما يقدم الشراب لروح المتوفى ثلاث مرات ، ويصاحب ذلك التضحية بالماشية . أما بالنسبة للملوك فلم تتعرض جثثهم للحرق .[٢]

خامسا : الحياة الثقافية :

الكتابة واللغة :

إلى اللغة الأسيوية ينتمى ما يسمون " ما قبل الحيثيين " وإلى الهندوأوروبية ينتمى الحيثيون أنفسهم .

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ١٨٤ – ١٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

لغة السابقين على الحيثيين :

هى لغة من نفس العائلة الآسيوية ، وكانت لغة للحديث اليومى فى آسيا الصغرى ، وفى أواسط شبه الجزيرة . ولم يترك السابقون على الحيثيين ، إلا النصوص النادرة جدا ، ونعرف منها بالأخص أسماء الأشخاص التى لقب بها الهندواوربيون فى معظم الحالات .

لغة الحيثيين :

أطلق على اللغة الرسمية للحيثيين اسم " اللغة الحيثية " كما عرفت بلادهم باسم " حيثا " ولم تكن اللغة الحيثية إحدى لغات آسيا الصغرى المحلية ولكن هى إحدى اللغات الهندوأوروبية ، ولكنها تختلف عن اللغات الأخرى من نفس العائلة اللغوية الهندوأوروبية ، فمثلا نجد أن الضمائر والنهايات والتصريفات وجزء من المفردات كانت أصل من هندوأوروبى .

ولكن معظم هذه الكلمات جاءت أصلا من لغة ما يسمى " بالسابقين على الحيثيين " أى من الآسيوية التى كانت لا تزال شائعة . وام تستخدم اللغة الحيثية فى المكاتبات الرسمية واستخدمت بدلا منها لغات أخرى وخاصة الهيروغليفية – الحيثية .[1]

الهيروغليفية – الحيثية :

كان هناك كتابة أخرى أقل انتشارا ، وفى نطاق محدود ، فى جزء من آسيا الصغرى ، وسوريا العليا ، وتسمى الهيروغليفية – الحيثية التى بقيت فى مرحلة الرسم للعلامات . ومعظم نصوص هذه الكتابة الموجودة على الآثار تشبه إلى حد كبير فى أصل علاماتها الهيروغليفية المصرية . وسمحت بعض النصوص من هذه الكتابة المزدوجة (ولاسيما النصوص الموجودة على الأختام الأسطوانية) ، بالتوصل إلى حل رموزها التى يبدو أنها قد اكتملت فى خطوطها العريضة . أما اللغة

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ١٨٨ – ١٨٩ .

المكتوبة بهذه العلامات فكانت هندوأوروبية مثل الحيثية التى كتبت بالمسمارية ولكن باختلاف بسيط .

إلى جانب اللغة الحيثية ذات الاصل هندواوروبى والهيروغليفية – الحيثية عرفت ثلاث لغات أخرى : اللغة اللوية التى تنسب إلى اللويون الذين يرجح أنهم جاءوا إلى الأناضول من الغرب وذلك فى بداية عصر البرونز واستقروا فى جنوب الأناضول ، واللغة البالية التى كانت منتشرة أساسا فى الهضبة الإيرانية ، ولم يعرف حتى الآن المكان الذى استقر فيه هؤلاء الباليون فى آسيا الصغرى ، وأخيرا اللغة الحورية واستقر الحوريون فى المناطق الجنوبية التى كانت آهلة أصلا باللويين من قبل .(١)

الأدب وفروعه :

عرف الحيثيون ، أدب التنبؤات ، عن طريق الوحى المقدس ، وعرفوا السحر . وارتطبت النصوص الأدبية فى آسيا الصغرى بالديانة فقد احتلت نصوص الاتفاقات ومعاهدات التحالف مكانة خاصة ولدقة تسجليها نجد ان نصوص هذه المعاهدات تشبه إلى حد كبير نصوص المعاهدات الحديثة وكانت توضع تحت حماية المعبودات الحيثية. كما أن الاهتمام بالنواحى العسكرية لم يتح الفرصة لوجود نهضة أدبية كبيرة . فقد عثر على قصص بسيطة بدائية ترجع إلى أصول بابلية وحورية .(٢)

العلوم المختلفة :

لم يترك الحيثيون من أثر أو نص أو نقش ما يعطينا فكرة عما توصلوا إليه فى مجال المعارف العملية المختلفة كالفلك والطب والهندسة .

---

(١) د. أحمد سليم : تاريخ العراق – إيران – آسيا الصغرى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٨ ، ص ٤٥٦ – ٤٥٧ .

(٢) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

سادسا : الحياة الفنية :

العمارة والفنون :[١]

عمل الحيثيون على بناء مساكنهم فوق مسطح مرتفع من الطوب اللبن مثل أهل سومر . وعثر على بقايا قرى على هيئة أكوام صناعية والتى عرفت باسم " هويوك " فى آسيا الصغرى . ونجد أن الحيثيين كانوا يشيدون القصور التى كانت تسمى "بيت هيلانى " وهى أكثر اتساعا من ناحية العمق ولها مدخل يسبق قاعة عرضية مفتوحة بها أروقة بأعمدة على الجوانب .

ولم تتطور العمارة إلا منذ بداية القرن الرابع عشر ق.م . أى منذ تطور الإمبراطورية الحيثية ، أى فى فترة تل العمارنة فى مصر . وقد عثر من هذه الفترة ، على آثار ضخمة . وقد لجأت الملكية الحيثية إلى الاستعانة بالفنانين الأجانب خاصة البابليين لتحقيق أهدافهم ... وهكذا ولد فن انعكست فيه الاتجاهات والتأثيرات المختلفة ولكنه مع ذلك احتفظ بطابع محلى متميز . وترجع أصالته إلى الترابط بين فن النحت والعمارة . فالمدن الحيثية كانت دائما محاطة بسور تتخلله بوابات يعلوها أبراج . وكانت الجدران مغطاة أحيانا بكتل ضخمة من الحجارة . وقد استخدمت هذه الكتل من أسفل للنقش الغائر . وذلك لتزين القصور والجدران الخارجية . ومن أعلى كانوا يشيدون مبانى من الطوب اللبن ويضاف إليها عنصر الخشب فى بعض أجزائها .

أما بالنسبة للمقابر ، فكان الحيثيون يدفنون موتاهم فى جبانات ، وبوضع

---

(١) فى مؤلف سيتن لويد : فن الشرق الأدنى القديم (ترجمة محمد درويش) دار المأمون بغداد ١٩٨٨ ، ص ١٢٢ – ١٢٣ نجد أنه يتحدث عن الفن فى الأناضول باختصار شديد ومن واقع ما عثر عليه فى الكاهويوك من أثاث. وفى مؤلف د. شمس الدين فارس – د. سليمان عيسى : تاريخ الفن القديم ، دار المعرفة ، بغداد ١٨٨٠ تركز الحديث عن الفن فى بلاد النهرين بوجه عام .

المتوفى فى توابيت من الحجارة أو الفخار .

فن الرسم والنحت :

كان للفنان أوضاع فنية معينة فى الرسم ، وعموما كانت أشكال الأشخاص والحيوانات والكائنات الأخرى تبدو غالبا وكأنها مضغوطة الأعضاء أو بعبارة أخرى تتميز بالقصر والامتلاء وعدم التناسق والرقة .(١)

أما فن النحت فلم يظهر إلا ابتداء من عصر الإمبراطورية وتأثر الحيثيون فى بعض أساليبهم الفنية بما كان متبعا فى شمال بلاد النهرين وسوريا العليا ، وبلغ فن النقش مرتبة عالية ، وظهرت النقوش الغائرة على الأحجار ويصاحبها نص كتب بالخط الهيروغليفيي - الحيثى .. ويلاحظ أن الفنان كثيرا ما كان يلجأ إلى تمثيل الأشخاص متجهين سواء في موكب أو موكبين نحو نقطة واحدة .(٢)

وعكست لنا الوثائق والآثار الحيثية العديد من مظاهر الحضارة الحيثية فى نظم الحكم والإدارة السياسة الخارجية والحياة الاقتصادية والتشريعات والنظم القانونية وفنون الحرب والحياة الثقافية والفنية وقد تأثر الحيثيون بالحضارة البابلية ، وخاصة فى مجال الثقافة فقد اقتبس الحيثيون اللغة والكتابة الخاصة بالبابليين واستخدموها فى مراسلات - المعاملات التجارية الخارجية مع ملوك وأمراء غرب آسيا ومصر وتأثروا باللغة المصرية فى شكل الكتابة الهيروغليفية - الحيثية وترجموا أيضا إلى لغتهم الأصلية أى الحيثية ، روائع التراث الأدبى والدينى البابلى والسومرى مثل ملحمة جلجامش بكافة صورها .

بقايا العواصم القديمة :

الكاهويوك :

قبل قيام بوغازكوى بدور العاصمة ، كان هناك عاصمة أولى للحيثيين تسمى

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

الكاهويوك وهى تقع بالقرب من حاتسو على بعد ٢٠٠ كم شرق انقرة . وكانت مدينة محصنة ، بقى منها بوابة مزينة بتماثيل أبى الهول المنحوتة فى كتلة واحدة . وتحمل هذه التماثيل الطابع المصرى ولكن نجد أن النحت هنا بوجه عام أكثر جمودا او خشونة ربما ، لكى يتناسب مع ضخامة العمارة (١) . وقام بالحفائر فى هذه المدينة العالم الألمانى هوجزفنلكر .(٢)

بوغازكوى :

منذ حوالى خمسين عاما ، لم تكن الحضارة الحيثية معروفة وفى عام ١٩٠٦ بدأ العالم الألمانى هوجزفنلكر فى التنقيب أيضا بالقرب من قرية – بوغازكوى – على بعد مائة كم ، إلى الشرق من أنقرة ، وعثر على موقع دلت الحفائر على انه عاصمة الإمبراطورية الحيثية خلال الألف الثانية ق.م (٣) . وكانت هذه العاصمة تسمى " هاتوسا أو خاتوشا " وكانت محاطة فى الأصل بسور خارجى مزود بحصون دقيقة بها بوابات . وكانت إحدى هذه البوابات تسمى " باب الملك " وكانت مزينة بصور المعبود الحارس (٤) . وقد عثر فيها على بقايا كتل ضخمة ومعابد (عثر على خمسة منها) وأحياء عديدة ، وعثر فى هذا الموقع على نقش بارز يمثل المعبود تيشوب المعبود الحيثى الكبير ممسكا بفأس وسيف فى وسط حزامه (يوجد هذا النقش الآن فى متحف أنقرة) .

وكشفت لنا الحفائر فى بوغازكوى عن أرشيف القصر الملكى فى هذه المدينة . وعثر فى هذا الأرشيف على خطابات بين الملك شوبيلوليوما الأول وأرملة الملك المصرى توت عنخ آمون تطلب فيه الزواج من أحد أبناء الملك ، وبالقرب من العاصمة فى الأناضول الوسطى عثر على معبد منحوت فى الصخر فى منطقة

---

(١) Amiet , op. cit ., p. 104 ; Eydoux, A la Recherche des Mondes Perdus , Paris (19677) , p. 78 .

(٢) Eydoux, op. cit ., p. 78 – 79 .

(٣) Amiet , op. cit ., p. 104 .

(٤) Eydoux, op. cit ., p. 78.

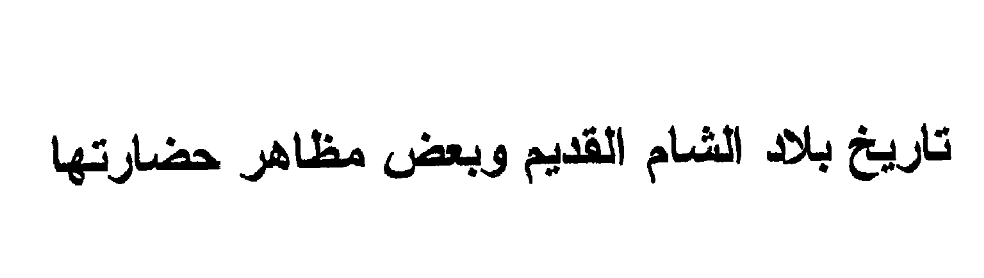
ياسيلى – كايا التى تقع بعد بضعة كيلومترات من حاتسو ، وكان هذا المعبد الكبير مكشوفا ويقع بين صخرتين ، وكان مغلقا بواسطة مبانى اختفت اليوم . وفى الممر الكبير نجد تمثيل لموكبين كبيرين متقابلين لسبعين شخصا ، وكانت كل مجموعة تقابل الأخرى وعلى رأس كل منها مجموعة من المعبودات كتبت أسماؤها فوق رؤوسها ، ونرى بالنقش البارز الملوك فى حضرة المعبودات منها المعبود الذى يحمل السيف [١] ويمسك بيده عنق أحد الملوك وذلك دلالة على الحماية [٢] . وقد تحدثنا عن هذه المعبودات فيما سبق . وعثر أيضا على نقش على حجر من البازلت ، يحمل نصل مكتوبا بالخط الهيروغليفى – الحيثى يمثل ملكة تحمل طفلا على يديها وتسحب حيوانا من ورائها ويرجع هذا النقش إلى النصف الثانى من القرن الثامن ق.م .[٣]

---

(١) Eydoux, op. cit ., p. 78 .

(٢) Id., op. cit ., p. 81 ; Amiet , op. cit ., p. 104 .

(٣) Eydoux ., op. cit ., p. 77 .



تاريخ بلاد الشام القديم وبعض مظاهر حضارتها

تاريخ شمال بلاد الشام القديم

(تاريخ سوريا ولبنان القديم)

البيئة الجغرافية :

كانت سوريا تشمل ضمن حدودها القديمة لبنان وفلسطين[١] أيضا . ولكننا سنفصل هنا بين سوريا (سوريا ولبنان معا) وفلسطين وإن كانت سوريا صغيرة جدا فى حجمها الجغرافى لكنها كانت كبيرة وعالمية فى تأثيرها الحضارى .[٢]

إن الصفة البارزة لجغرافية سوريا هى تناوب الأراضى المنخفضة والأراضى المرتفعة بحيث تحازى بعضها بعضا وتتجه من الشمال إلى الجنوب ويمكن تمييز سلسلة من خمس مناطق .

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، الجزء الأول (ترجمة : د. جورج حداد وعبد الكريم رافق ، ص ٣ ؛ د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٢٢٦ - ٢٢٩ . وعن جغرافية لبنان ومناخها ونباتاتها وحيواناتها ومواردها الطبيعية ؛ راجع : د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر ، ص ١٣ - ٥٠ .

(٢) قديما أشار هيرودوت إلى أهمية البلدان الصغيرة بقوله : " أننى سأهتم بالبلدان الصغيرة اهتمامى بالكبيرة منها ذلك لأن أكثر الأمم التى كانت فى سالف الزمان عظيمة أصبحت صغيرة ، والأمم العظيمة فى يومنا هذا كانت فى سالف الزمان صغيرة ، ولأننى موقف بأن أقدار البشر عرضة للتغير الدائم فلن أفرق فى دراستى هذه بين أمة كبيرة وأمة صغيرة " راجع : د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٢ حاشية (١) .

السهل الساحلي :

وأول هذه المناطق من جهة الغرب هو السهل الساحلي الذي يمتد على ساحل البحر الشرقي من شبه جزيرة سيناء إلى خليج الإسكندرونة (إسوس القديمة) . وينحصر هذا السهل بين البحر والجبل فيتسع في الشمال والجنوب ويقتصر على مجرد شريط ضيق في سفح جبل لبنان . ويرجع أصل معظم السهل الساحلي إلى ارتفاع قاع البحر القديم في ذلك العصر الطبقي البعيد المعروف بالزمن الثالث . وقد ترسب فوق الطبقة الطباشيرية في بعض الأماكن طمي أتت بها المياه الجارية من المنحدرات الجبلية ونشرته . والترسبات الرملية التي تحيط ببيروت قد تركتها أمواج البحر المتوسط التي تتلقاها بدورها من نهر النيل .

ويشمل السهل الساحلي في الجنوب تلك السهول المشهورة في الأزمنة القديمة وهي سهل صارونة وسهل فلسطيا (من الفلسطينيين ومنها جاء اسم فلسطين) كما يشمل ساحل النصيرية في الشمال ومنطقة الساحل في لبنان .[١]

السلسلة الغربية :

تشرف على الساحل السوري سلسلة من الجبال والهضاب تبدأ بالأمانوس في الشمال وتمتد حتى جبل سيناء المرتفع في الجنوب وأهم أجزائها لبنان الغربي وهو لبنان الحقيقي . والأمانوس هو التواء فرعي يمتد من جبال طوروس (التي تفصل سوريا عن آسيا الصغرى) باتجاه الجنوب ليتصل بكتلة الجبال السورية ويحيط أمانوس بخليج الإسكندرونة فيشكل حاجزا بين سوريا وكيليكيا ويرتفع إلى نحو ٥٠٠٠ قدما عن سطح البحر . ويشق نهر العاصي (الأورنتس) طريقه إلى البحر في الطرف الجنوبي من أمانوس . وتستمر السلسلة الغربية جنوب مصب العاصي في جبل الأقرع (وهو جبل كاشيوس في العصر الكلاسيكي) الذي يرتفع إلى ٤٥٠٠ قدما ومن هناك تمتد إلى جوار اللاذقية حيث تعرف بجبال النصيرية ثم

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٣١ - ٣٢ .

تتابع سيرها إلى نهر الكبير الجنوبى وسلسلة النصيرية تتألف من صخور كلسية جوارسية مع مواد بازلتية .[١]

وتبلغ السلسلة الغربية ارتفاعا شبيها بالارتفاعات الألبية فى جبال لبنان التى تمتد من النهر الكبير حتى نهر القاسمية شمالى صور على مسافة ١٠٥ ميلا . ويأتى اسم لبنان من الأصل " لابن " بمعنى البياض[٢] وقد سميت الجبال كذلك بسبب الثلوج التى تغطى قممها نحو ستة شهور فى السنة ، ويبقى الجليد فى الفجوات الكائنة فى قمم الجبال على مدار السنة . وترتفع أعلى قمة فى لبنان وهى القرنة السوداء إلى ١١,٠٢٤ قدما عن سطح البحر .

وقبل العصور الجليدية بعصور طويلة كانت مياه البحر المتوسط تغطى أراضى سوريا بأسرها والبلاد الواقعة بجوارها حتى شمالى الهند وكان ذلك فى العصر الجوارسية والكريتاسية البعيدة . وخلال هذه الأحقاب الطويلة تراكمت الرسوبيات الآتية من الكتل القارية الشمالية والجنوبية فى قعر هذا الامتداد السابق للبحر المتوسط (المعروف باسم تثيس Tethys) لكى تشكل الصخور الكلسية التى يتألف منها معظم السلسلة الغربية فى سوريا .[٣]

وتضم صخور لبنان سلسلتين عليا وسفلى من الصخور الكلسية بينهما طبقة متوسطة من الصخور الرملية .

إن التشكيلات الكلسية الواسعة التى تتجه فى لبنان نحو البحر فى شكل رؤوس وتحفر فيها الأمواج بعض التعرجات يمثلها لنا جبل الكرمل الذى يرتفع ١٧٤٢ قدما عن سطح البحر . وقد وجدت فى كهوفه هياكل أقدم العظام البشرية فى

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣ ؛ المؤلف نفسه : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر ، ص ١٤ - ١٦ .

(٣) المرجع السابق ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٣٥ .

الشرق الأدنى القديم .[١] واستخدمت بعض الكهوف كمساكن أو كملاجئ أو كمكان للدفن .

ويتراوح عرض البقاع وهو الجزء الكائن بين سلسلتى لبنان بين ستة وعشرة أميال ويرتفع فى جوار بعلبك إلى ٣٧٧٠ قدما عن سطح البحر . وبالقرب من هذه المنطقة تقع نقطة توزيع المياه حيث يتجه العاصى ببطء نحو الشمال بينما يتجه الليطانى نحو الجنوب ، والعاصى هو أطول أنهار سوريا ، والعاصى والليطانى هما النهران الكبيران الوحيدان فى سوريا .

السلسة الشرقية :

وتشكل السلسلة الشرقية المنطقة الرابعة فى تضاريس سوريا . وتبدأ السلسلة فى نقطة جنوبى حمص وتقابل لبنان الغربى بلبنان الشرقى على طول واحد وارتفاع واحد تقريبا ثم تنحدر من حرمون بسرعة نحو هضبة حوران ومنطقة التلال التى تجاورها فى الغرب وهى الجولان ومن هناك تستمر فى شرقى الأردن فى تلال جلعاد وهضبة نواب المرتفعة وتنتهى فى جبل سعيد جنوبى البحر الميت .

حوران :

يمتاز سطح هضبة حوران بأنه بركانى فى قسمه الأعظم وفيه صخور بازلتية وتربة غنية . وتبدأ الأراضى البركانية فى التلال جنوبى دمشق وتشمل مساحة طولها ستون ميلا بما يعادلها عرضا وهى أكبر مساحة من هذا النوع فى سوريا . ويحد هذه الأراضى فى الشمال الشرقى منطقة اللجأ ذات الحجارة السوداء وهى ملجأ أو مأوى للإنسان . وترتفع هذه الكتلة الجبلية فى شرقى حوران إلى ما بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ قدما وتقوم بين حوران والبادية . وتمتد المنطقة البركانية غربا حتى تشمل الجولان وتتألف التربة من مواد بركانية سوداء ضحلة ومن غرين

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

أحمر.[١] وهى غنية بالمواد المغذية للنبات وتحتفظ بالرطوبة وتغطى الصخور الكلسية التى تشكل الصخور السطحية فى سائر الأماكن . وتمتد أراضى حوران البركانية باتجاه الجنوب الشرقى فى صحراء الحماد إلى تلك الحقول الحجرية فى الحجاز المعروفة باسم " حرات " .[٢]

ومن أهم أشجار لبنان شجر الأرز وكان يصدر إلى مصر وبلاد النهرين واليوم لم يعد يشكل لسوء الحظ جانبا من مجد لبنان كما كان فى الماضى . ولا يزال يوجد الأرز فى مجموعات صغيرة توجد فى منطقة بشرى حيث تقوم أكثر من أربعمائة شجرة يبلغ عمر بعضها ألف سنة .[٣] ويبلغ ارتفاع أعلاها نحو ثمانين قدما . وهناك غابة أرز اصغر وأحدث وموقعها فى الجنوب وتسمى " أبهل " .[٤] أما عن الحيوانات فقد أدخل الهكسوس الحصان إلى سوريا ومنها إلى مصر قبل عام ١٨٠٠ ق. م . ومن سوريا انتقل قبل القرن القرن الأول إلى بلاد العرب حيث حافظ فيها الحصان العربى على نقاوة دمه أكثر من أى مكان آخر . وقد استورده الكاسيون فى بلاد النهرين على نطاق واسع قبل الميلاد بنحو ألفى سنة . وقد أعطاه الحيثيون إلى الليديين ومنهم انتقل إلى اليونان .[٥]

وأقدم رسوم معروفة للجمل ترجع إلى العصور الحجرية . وقد اكتشفت حديثا فى كلوة فى شرقى الأردن حيث ظهر فى رسمين من العصر الحجرى الوسيط . كما اكتشفت صورة جميلة لهجين وراكبه فى تل حلف ويرجع تاريخها إلى ٣٠٠٠ أو ٢٩٠٠ ق. م . ووجود الراكب لا يترك شكا فى أن الحيوان كان مدجنا .

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٣) عن الأرز سيد الغابات فى لبنان ، راجع : د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ٤٢ – ٤٦ .

(٤) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٥٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

وفى جبيل عثر على تمثال صغير يمثل جملا باركا يعود إلى النصف الأول من الألف الثانية ق. م .

وأول إشارة معروفة للجمل فى الأدب نجدها فى سفر القضاء ٦ : ٥ حيث يوجد وصف لغزو المدينيين (عناصر من مدين) لفلسطين فى القرن الحادى عشر ق . م .[١]

وقد تعرضت سوريا قديما لحوادث زلازل ، فتعرضت إنطاكية وكذلك بعلبك وأريحا فى القرون الستة الأولى الميلادية لهزات كثيرة .[٢]

دور سوريا فى التاريخ القديم:

تقع سوريا فى قلب الشرق الأدنى ، الذى يقع هو أيضا فى وسط العالم القديم ، ولهذا فقد أصبحت منذ عصر بعيد جدا ناقلة للمظاهر الحضارية فى العصور القديمة . فهى ذات موقع استراتيجى بين القارات القديمة الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا . وقيامها كجسر لنقل التأثيرات الثقافية من مراكز الحضارة المجاورة لها ولنقل البضائع التجارية أيضا . وهذا الدور الذى لعبته تفسره لنا أعمال الفينيقيين الذى كانوا أول التجار الدوليين . وليس هناك من اختراع يعادل فى أهميته اختراع الأبجدية التى اخترعها الفينيقيون القدماء ونشروها . فاليونان فى الغرب نقلوا حروفهم الأبجدية عن الفينيقيين ، ثم أعطوها إلى الرومان وبالتالى إلى شعوب أوروبا الحديثة . كما أن الآراميين الذين استقروا فى وسط شمالى سوريا نهاية القرن الثالث عشر ق. م . استعاروا حروفهم من المصدر نفسه أى الأبجدية الفينيقية ونقلوها إلى العرب والفرس والهنود وسائر شعوب آسيا وأفريقيا . ولو أن هؤلاء السوريين لم يقدموا للعالم أى خدمة أخرى لكان ذلك كافيا بأن يتميزوا كأعظم مؤسسين للحركة الثقافية فى العالم القديم .

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٢) د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٢٢٧ .

غير أن فضل السوريين لم يقف عند هذا العامل فقط . فقد تفاعلت على أراضيهم الضيقة أحداث تاريخية وثقافية تتصف بفاعليتها أكثر مما جرى على أى أرض أخرى بنفس المساحة ، ففى العصر اليونانى الرومانى ظهر فى هذا البلد مجموعة من المفكرين ، فكان بعض مؤسسى الفلسفة الرواقية والأفلاطونية الحديثة من السوريين ، وازدهرت فى بيروت مدرسة من أعظم مدارس الحقوق الرومانية وأدخلت الآراء القانونية لبعض علمائها فى مجموعة قوانين يوستنيان التى اعتبرت بحق أعظم ما قدمته العبقرية الرومانية للأجيال .[١]

اسم سوريا قديما :

ظهر اسم سوريا فى مصادر أوجاريت من أوائل القرن الرابع عشر ق. م . تحت مسمى " شرين – Shryn " . وكانت إحدى مناطق شمالى الفرات معروفة عند البابليين باسم سورى Su- ri . وفى العبرية أطلق اسم سيريون Siryon على المنطقة شرقى لبنان ، واستخدم هذا الاسم فيما بعد ليشمل البلاد كلها .

وذكر اسم سوريا لأول مرة عند هيرودوت . وظل مستخدما فى العصور اليونانية وما بعدها وتوسع فى استعماله وأطلق على البلاد كلها واستخدم بهذا المعنى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . وقد شمل عموما المساحة الواقعة بين جبال طوروس وسيناء وبين البحر المتوسط والبادية . وكانت فلسطين بالنسبة لـهيرودوت جزءا من سوريا وكذلك بالنسبة للأتراك . واعتبر وليم الصورى وغيره من مؤرخى الحروب الصليبية فلسطين جزءا من سوريا أيضا .

وكان اسم سيروس (سورى) بالنسبة للرومان يعنى كل شخص يتكلم اللغة السريانية ، غير أن ولاية سوريا الرومانية كانت تمتد من الفرات إلى مصر وكانت هذه هى حدود سوريا كما وصفها الجغرافيون العرب .[٢]

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣ – ٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٢– ٦٣ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

مصادر دراسة تاريخ سوريا القديم:

تعد النقوش والكتابات السورية القديمة ونقوش بلاد النهرين ونقوش الآثار المصرية ونقوش المصادر الحديثة وكتاب التوراة[١] وما سجله الكتاب الكلاسيكيون من أهم مصادر دراسة تاريخ سوريا القديم جاء ذكر الفينيقيين فى أكثر من موضع عند هوميروس منذ منتصف القرن التاسع ق. م .[٢] ونقرأ فى الإلياذة والأوديسية عن الأقمشة الشفافة الموشاه الآتية من صيدا ، والأدوات المصنوعة من الذهب الآتية من فينيقيا عموما . كذلك كان الرقيق ضمن واردات بلاد اليونان وفى هذا المجال يشير يومأيوس (الراعى الذى كان يعمل عند اوديسيوس) فى حديثه مع أوديسيوس إلى جارية فينيقية فى قصر والده كانت ابنة لأحد الموسرين ثم اختطفها القراصنة وباعوها فى سوق الرقيق .[٣] فقد زار هيرودوت صور فى حوالى ٤٥٠ ق. م . وذكر أن الكهنة قالوا له أن معبد ملقارت قد بنى منذ عام ٢٣٠٠ ق. م.[٤]

وجاء فى مواضع فى جغرافية سترابون وفى تاريخ بلينيوس أو بلينى أن العرب كانوا قد توغلوا فى بلاد الشام قبل الميلاد ، وأنهم كانوا قد تحصنوا بجبال لبنان واتخذوا فيها معاقل لغزو القرى والفلاحين وسكان ساحل البحر . وتحدث بطلميوس فى كتابه " الجغرافيا " عن أشهر القبائل والمواضع فى بلاد الشام وعلى

---

(١) د. توفيق سليمان : دراسات فى حضارات غرب آسيا القديمة ، ص ٢٥١ يذكر المؤلف خمسة مصادر نعتمد عليها فى دراستنا للتاريخ السياسى والحضارى القديم لبلاد الشام .

(٢) انظر الأوديسية ، نشيد ١٣ : ٢٧٢ ؛ نشيد ١٤ : ٢٨٨ ؛ نشيد ١٥ : ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٧٣ ؛ الإلياذة ، نشيد ٢٣ : ٧٤٤ . راجع : د. لطفى عبد الوهاب : هوميروس تاريخ حياة عصر ، مركز التعاون الجامعى ، الإسكندرية ١٩٦٨ ، ص ١٥ حاشية (١٣) ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٣) د. لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٤) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ٢٥٢ .

مقربة من بلاد النهرين .[١] يذكر د. شعبان قائمة بأعمال الكتاب الذين تعرضوا لتاريخ فينيقيا واستقرت أعمالهم فى مكتبة الإسكندرية ولكن لم يصلنا منها شئ سوى مقتطفات ، من بين هؤلاء المؤلفين يذكر أسماء تسعة هم :

١- مينا ندر الصورى ، الإفسوسى وربما البرجامى ، صاحب كتاب تاريخ صور أو تاريخ فينيقيا أو وقائع اليونانيين والبرابرة فى عهد ملوك صور .

٢- ديوس ، صاحب كتاب تاريخ فينيقيا الذى نقل عنه يوسيفوس المؤرخ اليهودى مقتطفات كثيرة وطويلة تتعلق بسيدنا سليمان واحيرام .

٣- هيبسكريتس ، صاحب كتاب تقرير فينيقيا وقد كتب بالفينيقية وترجمه اسيتوس أو لايتوس .

٤- ثيودوتوس ، صاحب عمل مستفيض عن تاريخ فينيقيا ترجم كذلك إلى اليونانية .

٥- فيلوستراتوس ، كتب عن تاريخ فينيقيا وعن تاريخ الهند كما كتب عن حصار صور .

٦- هيرونيموس ، من كانديا فى عهد انتيجونوس وهو أحد المؤرخين الفينيقيين المعدودين ، وكتب أيضا عن تاريخ فينيقيا .

٧- موخوس ، مؤرخ فينيقى ورد ذكره كثيرا فى كتب اثينايوس ، وربما كان أصلا من صيدا .

٨- سانخونياتون ، مؤلف فينيقى مجهول ربما كان مسئولا عن الكتب المقدسة الفينيقية . كما سجل الأساطير الفينيقية وكلها ترجمت إلى اليونانية وإن لم يصلنا منها شئ سوى مقتطفات .

---

(١) د. جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثالث، ص ٣٦٠ - ٤٥٣ .

٩- فيلون من بيبلوس ، كتب عن الأساطير والديانات الفينقية وقام بكتابة قصص سان شونيا تون وهو كاهن من بيروت ولم يصلنا من إنتاجه سوى مقتطفات .[١]

كما يقترح د. شعبان أن جميع الكتابات التى كتبها اليونانيون منذ هوميروس حتى القرن السابع الميلادى ، كان يوجد منها نسخة فى مكتبة الإسكندرية هذا غير الكتب الغير إغريقية والتى تجمعت من مصر وفينيقيا والهند وروما وغربى أوروبا .[٢]

بداية الاهتمام بآثار بلاد الشام القديمة :

شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر نهضة علمية للبحث عن الآثار . ففى عام ١٨٥٣ – ١٨٥٥ قام فوج بالتنقيب فى سوريا وفلسطين ، وفى عام ١٨٦٠ قام رنان بعمل عدة حفائر فى مواقع فينيقيا ونشر كتابه عن فينيقيا عام ١٨٦٤ . وتوالت البعثات الأجنبية بعد ذلك .[٣] وقسم العلماء تاريخ سوريا القديم إلى المراحل الآتية :

---

(١) د. شعبان خليفة : مكتبة الإسكندرية ، الحريق والاحياء ، كتاب الجمهورية ٢٠٠٠ ، ص ٧١ – ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٢ – ٧٣ .

(٣) عن أهم التنقيبات الأثرية فى سوريا ولبنان من عام ١٩٢٢ إلى عام ١٩٨٢ ، راجع : د. توفيق سليمان : المرجع السابق ، ص ٣٤٤ – ٣٥٠ ؛ د. عفيف البهنسى : الآثار السورية (مجموعة أبحاث أثرية تاريخية) ، ص ٣٦٠ – ٣٦٥ . ونذكر هذا أن بعثة إيطالية من معهد الدراسات الأثرية فى جامعة روما برئاسة مثيى وعضوية فلورانى وآخرين قد أجريت حفريات أثرية هامة فى تل مرديخ (= ابلا) على بعد ٥٥ كم جنوبى حلب . وكانت البعثة قد بدأت حفائرها فى عام ١٩٦٤ . وقسمت عصور هذه المنطقة إلى عصرين : الأول : عصر السلالات الملكية الأولى حتى بداية العصر الأكدى من ٣٥٠٠ إلى ٣٣٠٠ ق.م ، والثانى من ٥٣٠ إلى ٦٠ ق.م . وبرهنت الحفائر الأثرية ==

العصور الحجرية القديمة :

عرفت سوريا حضارات العصر الحجرى القديم (العصر الباليوليثى) بمراحله المختلفة .[١] فقد عثر على بقايا العصر الحجرى القديم الأسفل فى كهوف عدلون بين صيدا وصور والزطية (شمال غرب بحيرة طبرية) ورأس الشمرا (أوجاريت) .[٢] وهى بقايا عبارة عن أدوات حجرية بسيطة . ولم يعثر على بقايا بشرية من هياكل عظمية تمثل سكان هذا العصر . وأقدم الإشارات إلى استيطان بشرى فى منطقة دمشق تعود إلى العصر الحجرى القديم الأسفل .[٣] وعثر على بقايا العصر الحجرى القديم الأوسط فى شمال غرب بحيرة طبرية . وعثر على بقايا العصر الحجرى القديم الأعلى فى كهوف أنطلياس وفى حوض نهر الكلب وفى كهوف بالقرب من بحيرة طبرية . وتغير المناخ فى هذا العصر ، فهطلت الأمطار ،

= على وجود علاقات حضارية وفنية وثيقة بين هذه المنطقة وأرض أكد فى أواسط بلاد النهرين ، راجع : د. عفيف البهنسى : المرجع السابق ، ص ٦١ – ٦٣ ، ٩٨ – ١٠١ . والغريب فى هذه الحفائر أنها كشفت لنا عن ألواح طينية عليها أسماء سيدنا " إبراهيم وإسماعيل وداود ... إلخ " وهى أسماء وردت فى نصوص العد القديم . وهذه الأسماء ليست لها صلة بما جاء فى العهد القديم ، وتدل على قدم التراث العربى القديم فى هذه المنطقة ، وهو تراثنا الذى بعدنا عنه ، فقام اليهود وتبنوه لمصلحتهم بدون وجه حق ، راجع : د. توفيق سليمان : المرجع السابق ، ص ٣٤٨ ؛ د. فيصل عبد الله : مجلة دراسات تاريخية ، العددان ٣١ ، ٣٢ ، دمشق آذار – حزيران ١٩٨٩ ، ص ١٥٥ وحاشية (١) ، ص ١٦٤ .

(١) د. أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص ٢٦٥ – ٢٦٨ .

(٢) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٥١ .

(٣) د. عيد مرعى : دمشق القديمة ، تحليل لكتاب وين بيتارد ، فى مجلة دراسات تاريخية العدد ٣١ – ٣٢ ، حزيران ، دمشق ١٩٨٩ ، ص ١٧٠ .

وبذلك حدثت فترة ممطرة أخرى . وفى الفترة الأخيرة من هذا العصر بدأ الجفاف يزحف على البلاد .[١] وقد عثر على بقايا العصر الحجرى الوسيط (العصر الميزيوليثى) فى يابرود فى لبنان وفى أريحا وتل الجديدة (شمال سوريا) ورأس الشمرا . وعثر فى هذه المناطق على بعض القطع من عظام الغزال وتماثيل من الطين لبعض الحيوانات فى مقبرة فى أريحا . وعثر أيضا على أوانى للطعام والقرابين فى أماكن الدفن .[٢]

أما العصر الحجرى الحديث (العصر النيوليثى) : فقد وجدت آثاره فى تل الجديدة وساكجى جوزى (فى أقصى الشمال) ومرسين فى كيليكيا . وعثر أيضا على بعض الفؤوس والمناجل الحجرية لا شك أنها استخدمت فى الزراعة كما عثر على أجران وأوانى فخارية .

وقد أمدتنا الحفائر التى تمت فى طبقة عميقة فى رأس الشمرا على وجود بقايا من العصر الحجرى الحديث ، وكان السكان لا يعرفون فيها استخدام الفخار وترجع هذه البقايا إلى الألف السابعة ق. م . ونجد نفس الوضع فى موقع آخر فى تل راماد وتل أسود بالقرب من دمشق[٣] ويطلق على هذه الطبقة (الخامسة س) .

ثم بدأ يظهر استخدام الفخار الخشن فى تل راماد بعد ذلك بقليل ، وظهر هذا الفخار فى رأس الشمرا ، وأيضا فى بيبلوس ، وذلك فيما يسمى بالطبقة الخامسة ب ، ويرجع هذا التطور فى تلك الطبقة الأخيرة إلى نهاية الألف السادسة ق. م . وقد عثر فى هذه الطبقة على بقايا بعض الأكواخ المبنية والمغطاة بطبقة من الجير . وكان الموتى يدفنون فى مقابر بجوار المساكن على سطح الأرض أو فى حفرة مغطاة

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٣١ ؛ د. أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ، ص ٢١ – ٢٦ .

(٢) عن العصور الحجرية فى لبنان . راجع : د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ٥١ – ٦٨ .

(٣) د. عيد مرعى : المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

بالأحجار .

بعد ذلك جاءت فترة فى أواسط العصر الحجرى الحديث التى استخدم فيها الإنسان الفخار الخشن الملون ، وقل خروج الإنسان فيها للصيد ، وأصبح الإنسان يهتم بصناعة أدواته من الخشب .

وعندما حل العصر الحجرى الحديث الأعلى تقدمت صناعة الفخار وأصبح ملونا بخطوط مستقيمة .

استخدام المعادن :

بدأ استخدام المعادن فى بيبلوس ، فى بداية الألف الرابعة ق. م . ولم يحدث أى تطور آخر ، واستمرت هذه الحضارة أغلب فترات الألف الرابعة ق. م . وعثر على حضارة هذا العصر فى رأس الشمرا (أوجاريت) ، وجزر وتليلات غسول .[1] وقد عثر فيها على مساكن من اللبن أساساتها من الحجارة ويلاحظ أن كل مسكن كان يتكون من حجرة واحدة ذات مساحة كبيرة ، ولوحظ وجود مساكن مستديرة أو مستطيلة ومقسمة فى بعض الأحيان إلى حجرتين .

وكان الأطفال يدفنون عادة فى جرار تحت أرضية المنازل . أما البالغون فكان بعضهم يحرق والبعض الآخر يدفن فى جرار ويوضع على هيئة القرفصاء . واقترنت الزراعة بالرعي واستئناس الحيوان كالثور والماعز والأغنام . وكان الحمل يرمز عادة إلى المعبودة الأم أو رمز الأمومة .

وفى نهاية الألف الرابعة ق. م . طرأ نوع من التغيير الكبير حيث نجد أن التجمعات التى كانت حول بيبلوس قد بدأت تنتظم فى أسلوب إدارى أكثر رقيا ، وأصبحت المساكن المستطيلة تتكون من حجرة واحدة مبنية بكتل من الحجر الرملى ، وكان السقف محمولا على أعمدة من الأخشاب قائمة على أرضية من البلاط

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٦٩ - ٧٣ .

الحجرى . وعثر أيضا على بناء ربما كان معبدا وكان يتخذ نفس الشكل المستطيل ويحتوى على حجرتين ويبدو أنه بفضل هذه المساكن نشأت قرية كبيرة ذات مساكن متعددة . وعثر فى هذه الفترة على فخار كان يصنع على عجلة الفخار ، كما استخدم اللبن فى البناء وعثر على تماثيل صغيرة من النحاس مما يدل على أنهم عرفوا صهر المعادن ، كما عثر على أوانى زخرفت بطلاء خارجى .

وعثر على حضارة الألف الرابعة ق. م . فى أريحا (يريحو) ومجدل والعفولة وبيت شان (بيسان) وأوجاريت (رأس الشمرا) وبيبلوس (جبيل) .[١]

الشعوب الكبرى والممالك الصغرى التى قامت فى سوريا والأحداث التى أثرت فى تاريخها من منتصف الألف الثالثة حتى نهاية الألف الأولى ق.م.

وفدت على سوريا فى موجات متتابعة هجرات يقال عنها أنها من عناصر سامية[٢] واستقرت فى أنحاء مختلفة منها ، وأهم هذه العناصر السامية ثلاثة :

أولا : الأموريون فى سوريا (ويسميهم البعض باسم العموريين) :

هم أول شعب سامى عاش فى سوريا ، وقد وفدوا عليها من الجزيرة العربية فى هجرة واحدة مع الكنعانيين فى حوالى منتصف الألف الثالثة ق. م . أى حوالى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد تقريبا [٣] وأخذوا ينتشرون فى باديتى الشام والعراق

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ؛ د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ - ٢٧٦ .

(٢) عن علاقات شعوب الشرق الأدنى القديم العرقية ، راجع : د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ٧٣ - ٧٦ .

(٣) يرى د. لطفى عبد الوهاب فى : العرب فى العصور القديمة ، ص ٦٠ (٢) ، أن الكنعانيين (بما فيهم الفينيقيين) والأموريين قد استقروا فى سوريا ووادى بلاد النهرين خلال الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد .

وامتدوا حتى غربى الفرات واستقروا عند أواسط هذا النهر .

وكان يسكن هذه المناطق من قبل عناصر سومرية ولكن بعد وفود الأموريون إليها أصبحوا يمثلون غالبية السكان . وسماهم السومريون القدماء " أهل مارتو " أى أهل الغرب أى الغربيين الذين سكنوا إلى الغرب من بلادهم . ثم سماهم بنو عمومتهم الأكديون باسم " الأموريين " وهو اسم يؤدى نفس المعنى القديم أى أهل الغرب (وإن كان أحد معبوداتهم الكبرى قد سمى امورو) (كما ذكر د. صالح) .[١]

نجح الأموريون فى بداية الألف الثانية قبل الميلاد فى تأسيس سلسلة من الدويلات الصغيرة فى سوريا وفلسطين وعلى حدود بلاد النهرين . فما أن حل القرن العشرون ق. م . حتى أصبحت منطقة وسط الفرات آمورية فى سكانها ومظاهر حضارتها ، حيث أسسوا دولة عاصمتها ماري جنوب مصب نهر الخابور بالقرب من فرع الفرات . وفى خلال الألف الثانية أصبحت مارى وما حولها آمورية .

وأول إشارة إلى أرض الأموريين ظهرت منذ عهد سرجون الأول (حوالى ٢٣٧١ ق. م) . وأخذ الأموريون يظهرون بالتدرج فى وسط سوريا ولبنان حتى فلسطين فى الجنوب . ويقال أن أسماء لبنان وصيدا وعسقلان أسماء آمورية . وقبل أن يجتاح سرجون الأول بلاد آمور كانت عاصمتها مارى قاعدة لإحدى السلالات السومرية القديمة . وفى خلال القرن العشرين أصبحت مدينة مارى والبلاد المحيطة بها آمورية فى سكانها وحضارتها وحكومتها . ولابد أن الغزاة من الأموريين الساميين وطدوا أنفسهم فوق مجتمع سابق متمدن من سكان بلاد النهرين .

ولم يقتصر الأموريون على تأسيس دولة فى منطقة وسط الفرات واجتياح سوريا وإنما اجتاحوا بلاد النهرين أيضا وحكموها وقد أسسوا عدة سلالات قدمت من آشور فى الشمال حتى لارسا فى الجنوب بين ٢١٠٠ و ١٨٠٠ ق. م ، وأهم هذه السلالات كانت سلالة بابل وهى أول سلالة ظهرت فى هذه المدينة وانتسب إليها

---

(١) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٤٤٣ .

حمورابى . وهو الذى فتح بلاد آمور وضمها إلى إمبراطوريته البابلية .[١]

دويلة مارى (تل الحريرى) :

يرجع تاريخها إلى الألف الثالثة والثانية ق. م . وظهرت أهميتها عندما سيطر الأموريون فى بداية حكمهم على مناطق الحواف فى بداية الشام فخضعت مدينة مارى القريبة لنهر الفرات لنفوذهم ، وهى تقع جنوب مصب نهر الخابور فى شمال وشمال شرقى أبو كمال على الضفة الغربية لنهر الفرات . وبسبب هذا الموقع فى أطراف بادية الشام ولقربها أكثر من نهر الفرات فإن بعض العلماء يضعها ضمن حضارة بلاد النهرين .[٢]

وعندما استولى عليها الأموريون انقسم ولاء أهلها أو حكامها بين الولاء لهؤلاء الغزاة الجدد وبين الولاء للعرش السومرى فى بلاد النهرين . وهذا ما اتبعه أحد حكامها ويدعى إشبى – إرا الذى أخذ يظهر الولاء للفريقين حتى يتضح له الجانب الغالب فينضم إليه . وتصور لنا هذه الأوضاع رسالة أرسلها ابى – سين آخر ملوك اور إلى قائد من قادته ويدعى بوزور – نوموشدا تولى حكم مدينة كازاللو (تقع شرقى دجلة) عاب عليه فيها تردده فى مهاجمة رجل مارى إشبى – إرا . ورد عليه ابى سين أسباب المحنة إلى القضاء والقدر وإرادة الأرباب .[٣] ويبدو ان إشبى – إرا كانت له أطماع فاستمر فى خداعه وادعى الغيرة على مدن أخرى غير مارى ، فنقل نشاطه إلى مدينة نيبور ثم إلى اسين . ومن هناك أرسل إلى ابى – سين يدعى أنه سوف يدافع عن المدينتين ويطلب المدد منه لهذا الغرض ولكن الملك

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٧٣ – ٧٤ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ – ٢٣٩ ؛ د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .

(٢) د. عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول : مصر والعراق ، طبعة ١٩٧٦ ، ص ٤١٥ ؛ وأيضا Parrot, Assur, p. 328 .

(٣) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٤٤٣ – ٤٤٤ .

السومرى كان يعرف أطماع إشبى - إرا . فانتهز هذا الأخير الفرصة وكشف عن أطماعه وسيطر على المدينتين واتخذ من اسين عاصمة له .(١)

تعرضت دويلة مارى لأكثر من هزة فبعد انتصار سرجون الأول (الأكدى) على لوجال زاجيزى حاكم مدينة اوما فى حوالى عام ٢٣٧١ ق.م . نجده يجتاح بعد ذلك بلاد الأموريين ق.م . كان يدخل ضمن طموحاته السيطرة على المناطق المجاورة لحدود بلاده ، لتأمين حدودها وتأمين سبل تجارتها الخارجية . فتوجه بجيشه إلى الدويلات التى تقع إلى الغرب من مملكته . وبدأ بالمنطقة المحيطة بدويلة مارى . واستولى عليها وضمها إلى حكمه و " جعل فمها واحدا " أى وحد كلمتها .(٢)

فى عصر حمورابى (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م) نجد أنه اتبع فى بداية حكمه سياسة التحالف مع المدن القوية فى الجوار . وتحالف مع دويلة مارى تحالفا ظل هو الجانب الأقوى فيه واستعان برجالها على بعض أعدائه حتى إذا ما ضعفت مارى نفسها تحت ضغط أعدائها أخضعها وضمها إلى دولته .(٣)

ومن الوثائق التى عثر عليها فى أرشيف القصر الملكى بمارى رسالة من الملك يشمخ اداد (١٧٩٦ - ١٧٨٠ ق.م) ملك مارى أرسلها إلى حمورابى ملك بابل يخبره فيها بأن قافلة تجارية كان قد أرسلها إلى دلمون قد تعرضت للتأخير .(٤)

كان آخر ملوك مارى الذى قضى على دولته حمورابى هو زمرى - ليم (الذى حكم حوالى عام ١٧٨٢ - ١٧٥٩ ق.م) .

---

(١) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٤٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

(٤) د. رمضان عبده : تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته ، الجزء الثالث ، دار نهضة الشرق بحرم جامعة القاهرة ٢٠٠١ ، ص ٤٥ (٨) .

وفى عصر الملك الآشورى شمشى - اداد (١٧٢٦ - ١٦٩٤ ق.م) فى العصر الآشورى القديم حاول أن يحقق لدولته كيانا ينافس به دولة البابليين ، وجعل نينوى عاصمة لأول مرة ، واتسع غربا ناحية دويلة مارى وعثر له على عدة رسائل فى أرضها .(١)

ومن الأمور التى عجلت بنهاية دويلة مارى هو ظهور الحيثيون كقوة فى الشمال ، الذين عملوا على إخضاع الجزء الشمالى من سوريا والذى كان خاضعا فى الأصل لسيطرة مملكة يمخاد الأمورية التى أسست عاصمتها فى حلب حتى نجح الحيثيون فى النهاية فى القضاء على الإمارات الأمورية فى شمال سوريا ووسطها واقتصر النفوذ الأمورى على الجنوب . وظلت بعض الدويلات الأمورية تتأرجح بين الولاء لحكام مصر وبين الخضوع لنفوذ الآشوريين إلى أن قضى الآشوريون والكلدانيون والفرس على كيان الأموريين .

كان لوقوع مدينة مارى بالقرب من مواطن حضارة بلاد النهرين أثر كبير فى تنوع أساليبها الفنية فيما عثر فيها على آثار . فقد جمعت هذه الأساليب بين الفنون السورية والعراقية فى آن واحد . فتخير فنانوها ما يناسب أذواقهم من الحضارتين . ولهذا تعتبر فنون مارى من أرق الفنون أسلوبا وتعبيرا .

قام العالم الفرنسى باروه بعمل حفائر هامة فى هذه المدينة ابتداء من عام ١٩٣٣ حتى أعوام ١٩٣٥ - ١٩٣٨ وكشف فيها عن آثار عديدة والقصر الملكى وأرشيف ديوان القصر الملكى .(٢)

---

(١) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٤٩٥ .

(٢) راجع : Parrot, Assur, p. p. 2, 132, 138,146 , 179, 218- 222, 224, 228 - 229, 233, 235, 245, 254, 259 - 261, 280, 284, 290, 292 - 293, 304, 308 .

ويعطينا باروه فى مؤلفه نماذج من النحت والجص والرسم .[١]

وكان لقصر زمرى ليم فى مارى شهرته الكبيرة نظـرا لاتسـاع مسـاحته ورسوم جدرانه وكثرة ملحقاته وكثرة الألواح المكتوبة التى عثر عليها فـى ديـوان سجلاته . ويذكر د. صالح " أن القصر كان يشغل نحو ستة أفدنة ، وتضمن مـائتين وستين حجرة عدا مسكن الملك . ورصعت بعض جدرانه الرئيسية لوجايت مرسـومة ملونة أخذت مناظرها بما أخذ به فن النحت المحلى فى عهدها من واقعيـة الملامـح وتفاصيل الأزياء . وعبرت الجدران المرسومة عن منـاظر عسـكرية وأسـطورية

---

(١) هذه الآثار أغلبها بمتحف اللوفر منها : ختم أسطوانى ، وبلطة ، وآنية بمقبض ، نقوض صوارى ، محارب ببلطة ، ومنظر تضحية ، وشخشيخه مـن الطيـن المحروق ، وتمثال لموسيقيين ومعـهما بـوف ؛ وبمتحـف حلـب : نقـوش صوارى ، وتمثال لشخص يدعى لامجى مارى وايدى – نـاروم ؛ وبمتحـف دمشق جزء من تمثال اور – نينا وهناك رسم يمثل نافخ البـوق رسـم علـى جدران القصر الملكى ، راجع : Parrot, op. cit., p. 162 Fig. 206, p. 233 Fig. 290, p. 241 Fig. 298 a, p. 254 Fig. 324 - 325, p. 260 Fig. 333, p. 284 Fig. 355 - 356, p. 304 Fig. 381, p. 306 Fig. 384, p. 308 Fig. 389 - 390 ، كما عثر فى قصر زمرى ليم على تمثـال لمعبودة تمنح الماء ارتفاعه ١,٤٢ بمتحف حلب ، وعلـى رأس محـارب مـن الرخام الأبيض ارتفاعه ٢٠ سم بمتحف حلب ، وعلى تمثال ايشتوب – ايلـوم أمير مارى من الحجر الأسود ارتفاعه ١,٥٢ بمتحف حلب ؛ وأخيرا عثر فـى خارج مارى فى بابل على تمثال بوزور – عشتار أمـير مـارى مـن حجـر الديوريت ارتفاعه ١,٧٠ سم بمتحف اسطنبول ، راجع : د. هورست كلنغـل : حمورابى ملك بابل وعصره (ترجمة د. غـازى شـريف مراجعـة د. علـى يحيى) دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٧ ، ص ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ؛ د. د. أحمد فخرى : دراسات فى تـاريخ الشـرق القديـم ، ص ١٢٠ الصور ؛ د. سيد توفيق : المرجع السابق ، ص ٣٥٥ صورة ٢١١ .

وقصصية ودينية لم يبق منها للأسف غير أجزاء يسيرة وكانت أكثر مناظر القصر حيوية مناظر ومواكب القرابين وتصور رجالا بوجوه نحيفة دقيقة ولحى طبيعية قصيرة يغطون رؤوسهم بقلانس بعضها مرتفع وبعضها عريض منخفض . ويرتدون ثيابا مقفولة بحلقات واسعة تحت الرقبة ، وعباءات زركشت أطرافها بأهداب تشبه ريش الطيور . ويسوق بعضهم ثيرانا كسيت أطراف قرونها بحليات معدنية وتدلت على جباهها حليات هلالية . وعبر الرسام عن تجعدات جلودها وشعور رؤوسها تعبيرا بارعا بألوان متدرجة " .(١)

ولعل أهم هذه المناظر الجدارية ما يعرف اصطلاحا باسم " تنصيب زمرى ليم " ويظهر في القسم الأعلى من المنظر الرئيسى الحاكم زمرى ليم ويرتدى ثوب واسع ذى شرائب وقبعة بيضاوية الشكل وقد رفع يده بالتحية للمعبودة الواقفة أمامه (عشتار) . وتقدم بيدها اليمنى الصولجان والقرص إلى الملك ، وهما رمزا السلطة . وقد صور فى القسم الأسفل من المنظر الرئيسى معبودتان تحمل كل منهما آنية يخرج من كل منهما نبتة بين جداول أربعة ، وقد صوروا بخطوط متموجة تسبح عليها اسماك . وعلى جانبى هذا المنظر الرئيسى يوجد شجرتان محورتان ونخلتان وقد وقف على كل منهما طائر كبير . ويبلغ ارتفاع هذا الجدار ١٧٥ سم وعرضه ٢٥٠ سم . وهو معروض الآن بمتحف اللوفر .(٢) ويعتقد باروه أن هذه المناظر المصورة تلقى الضوء على العقائد الدينية فى بلاد النهرين عام ١٧٦٠ ق.م .

وعثر على بقايا تصوير جدران آخر فى مارى بين بقايا سور القصر ومعروض الآن بمتحف اللوفر أيضا ارتفاعه ٨٠ سم وعرضه ١٣٥ سم . وتصور بقايا هذا المنظر رجلا ضخما بقى منه الجزء الذى بين الوسط والركبة ، وارتدى ثوبا

---

(١) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٤٥٤ .

(٢) د. سيد توفيق : تاريخ الفن فى الشرق الأدنى القديم : مصر والعراق دار النهضة العربية ١٩٨٧ ، ص ٣٤٨ – ٣٥٠ شكل ١٢٥ ؛ وأيضا : Parrot, Assur, p. 260 Fig. 334 .

طرزت حواشيه . وظهر خلفه صفين من الرجال يعلو بعضهما الآخر .[١] وعثر في منزل في مدينة ماري على حجرتين اشتملتا على صفوف من المصاطب مختلفة السعة شيدت من الآجر ، تتسع الواحدة منها لشخص أو شخصين أو أربعة أشخاص ، وقد تكونان مكتبا أو مدرسة .[٢]

وحين اكتشف أرشيف ديواني القصر عثر فيه على أكثر من ٢٠ ألف لوحة طينية . ويعتبر هذا الأرشيف على جانب كبير من الأهمية وذلك بالنسبة لتاريخ وأحداث معالم المناطق التي كانت متاخمة لحدود العراق في هذا العصر . لأن تلك المنطقة كانت مركزا تجاريا هاما ، كما كانت مركزا لانطلاق الحركات السياسية المتعددة المناهضة للغزو البابلي وأطماع البابليين . وعثر في هذا الأرشيف على مجموعة من الرسائل التي كانت متبادلة بين ملوك وأمراء المدينة وغيرهم من ملوك وحكام الشرق القديم .

وقد كشفت دراستها عن كثير من الجوانب الحضارية في سوريا في عهد زمري ليم . وذكرت فيها أسماء كثيرة من دويلات المدن التي لعبت أدوارا هامة مثل مدينة حلب التي كانت عاصمة لدولة يمخاد ومدينة جبيل التي كانت مركزا هاما لصناعة الثياب والمنسوجات ، ومدينة قطنة (تل المشرفة شمال شرقي حمص) وحرانو (حران الحالية) وكلها دول آمورية .[٣]

---

(١) د. سيد توفيق : المرجع السابق ، ص ٣٥٠ – ٣٥١ صورة ٢٠٨ .

(٢) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٤٤١ ، وأيضا : Parrot, op. cit., p. 293 Fig. 365.

(٣) ليوا وبنهايم : بلاد ما بين النهرين (ترجمة سعد فيضي عبد الرازق) ، ص ٤٩٦ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ ؛ د. أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ، ص ٧٣ ؛ د. عفيف البهنسي : الآثار السورية (مجموعة أبحاث أثرية تاريخية) ، ص ٩٣ – ٩٨ .

ويسدل الستار بعد ذلك على الأموريين فى وسط سوريا وعلى حدود بلاد النهرين وينتقل مركز الحوادث إلى الجنوب . وعندما دخل الخبيرو فلسطين وجدوا أن ساميين من قدماء الآموريين يحتلون قسما منها على الأقل . وأن حلقات الاتصال التاريخى بين الممالك والجماعات الآمورية الكثيرة فى سوريا التى كانت موزعة فى المكان مفقودة ولا يمكننا التأكيد أيضا من أن التحركات الآمورية نحو الجنوب كانت حركة جماعية .[١]

مملكة ابلا :

قامت مملكة ابلا فى الألف الثالثة ق. م . من ٢٤٠٠ إلى ٢١٠٠ ق. م . وذلك إلى الجنوب من حلب ، فى ابلا (تل مرديخ) .

بدأت بعثة علمية من معهد دراسات الشرق الأدنى القديم فى جامعة روما برئاسة باولو ماتييه التنقيب فى تل مرديخ عام ١٩٦٤ ، وفى عام ١٩٧٥ عثرت على مكتبة القصر واستخرج أكثر من ١٥ ألف لوح ، وهى أقدم وثائق رسمية لدولة ظهرت فى العالم .[٢] ومن خلالها أطلعنا على قسم كبير من تاريخ ابلا التى قامت سياستها على السيطرة على التجارة بين بلاد النهرين والأناضول وسوريا ومصر ولتأمين مرور المواد الأولية .

وهذا الكيان السياسى والإدارى الواسع كان يتطلب تنظيما وظيفيا كاملا ، لذلك فإننا نجد ملكا على رأس الدولة (ماليكوم) باللغة الأبلوية ، يساعد فى حكمه وإدارة مملكته ، مجلس شيوخ أو قضاة ، وكان جهاز ابلا الإدارى مكون من ١١,٧٠٠ شخص . وهذا مؤشر لندرك منه حسن تنظيم الدولة واتساع رقعتها

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٨٠ - ٨٤ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

(٢) عن الآثار التى عثر عليها فى ابلا وأغلبها معروض بمتحف حلب من أرقام ٧٣ إلى ٨٠ ومن ٩٨ إلى ١٠٦ ، راجع : د. عفيف البهنسى : المرجع السابق ، ص ٨٢ - ٨٩ ، ١١٩ - ١٢٥ .

السكنية . وتم العثور على لوحات تضم تمارين مدرسية كل لوحة تحمل اسم الطالب الذى كتبها مع توقيع أستاذه أو معلمه . وينقسم تاريخ مدينة ابلا إلى مرحلتين : [١]

المرحلة الأولى : من ٢٤٠٠ إلى ٢١٠٠ ق. م . وهى المرحلة التى خضعت فيها لسيطرة مارى واكد .

المرحلة الثانية : من ٢١٠٠ - ١٦٠٠ ق. م ، وبقيت فيها ابلا ضمن إطار محدود وأشهر ملوك هذه الفترة ابن زيكو عام ١٨٥٠ ق. م . الذى تنافس مع ملك حلب شماس حدد فأقام تحالفا مع مملكة الآلخ (توتول) من خلال زواج ملكى . ولم يعد بلا منفذ على الساحل فى هذه الفترة وبعد عام ١٨٠٠ ق. م . أصبحت ابلا تحت وصاية مملكة حلب (يمخاد) وأتتها الضربة الموجعة من خلال توسع حمورابى ، الذى دمر ابلا عام ١٧٥٠ ق. م . إلا أنها عادت إلى الظهور من جديد إلى أن أتتها الضربة القاضية من قبل الحيثيين الذين انحدروا من الشمال عام ١٦١٠ ق. م .

مملكة يمخاد :

عثر عالم الآثار ليونارد وولى خلال عمليات تنقيب ناجحة عن الآثار فى الطبقة السابعة من تل العطشانة فى سهل العمق ، على عدد ضخم من الألواح الطينية نقشت بالكتابة المسمارية يقارب الـ ٦٠٠ . وتتعرض هذه الكتابات لأحداث سياسية هامة جرت فى القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد . وظهرت فى الطبقة الرابعة من هذا التل مجموعة أخرى من الألواح تحدثنا كتاباتها عن بعض أحداث القرن الخامس عشر قبل الميلاد وتقص علينا هذه النصوص أخبارا عن بعض حكام مملكة يمخاد التى كانت عاصمتها مدينة حلب وعن حكام مملكة موكيش وعاصمتها الالخ (تل العطشانة) التى أقيمت على أنقاض مدينة أقدم زمنا منها . وكانت مملكة موكيش تابعة لمملكة يمخاد فى حلب .

---

(١) عن تاريخ ابلا ؛ راجع : د. عقيف البهنسى : المرجع السابق، ص ٦١ - ٦٣، ١٠١ .

ومن بين حكام مملكة يمخاد الذين وردت أسماءهم فى هذه النصوص هـم : " ابعل " و " نقمانا " و " اركابتوم " ، " اميتا كوم " و " يريم ليـم " و " حمورابـى " (وهو غير حمورابى البابلى) وهى أسماء كلها كنعانية ، وكان حمورابى هذا علـى علاقة بحمورابى البابلى .[١] وبالرغم من معرفتنا لأسماء هؤلاء الحكام ، إلا أننـا لا نستطيع وضع تنظيم دقيق لتاريخ حكمهم لهذه المملكة ، وكل ما نستطيع قوله أنـهم كانوا معاصرين لملوك مارى . وتذكر المصادر التاريخية أن " ابعـل " أخمـد نـار عصيان اندلعت ضده في المقاطعات التابعة لمملكته والواقعة على الجانب الأخر مـن نهر الفرات . وقد ورد فى هذه المصادر أنه خرب مدينة " أريتى " .[٢]

وبالنسبة للأحوال الاجتماعية فى مملكة يمخاد فنعـرف أن العبيـد كـانوا يكونون الطبقة الدنيا فى المجتمع . وكان هؤلاء العبيـد مـن المدنييـن والحرفييـن والفلاحين والملاك الصغار الذين عجزوا عن سداد ديونهم مع الفوائد التـى ترتبـت عليها . والأمر الواجب إثباته هنا أن وضع العبيد فى مجتمعات غرب آسـيا القديمـة عامة اختلف عما أصبح عليه خلال العصـر الرومـانى . إذ أن العبيـد فـى تلـك المجتمعات كانوا بصورة عامة يخدمون فى بيوت سادتهم وفى قصورهـم ، وكـان أبناؤهم وبناتهم ينشأون سويا مع أبناء وبنات سادتهم ويعملون أيضا سويا فى المزارع والحقول .[٣]

كانت مملكة يمخاد تمثل العدو اللدود للحيثيين ، وتشير نصوص الحيثيين أن ملوك حلب كانت لديهم مملكة كبيرة ، وأن خاتو سيليس بدأ مهاجمة أراضـى هـذه المملكة للقضاء عليها ، والظاهر أنه فشل وغالبا ما تلقى ضربة قاتلة وأتم هذا العمـل ابن خاتو سيليس مورسيليس ونجح فى تدمير حلب .[٤]

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ١١٠ .
(٢) د. توفيق سليمان : دراسات في حضارات غرب آسية القديمـة ، ص ٣٥٥ – ٣٥٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥٨ .
(٤) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٦١ .

مملكة موكيش (حطينا العمق) :

اتخذت هذه المملكة عاصمة لها فى الالخ (توتول) (تل العطشانة) شمال حلب وكانت هذه المملكة قائمة فى نفس وقت مملكة يمخاد فى حلب .

وقد تعرضت هذه المملكة للتدمير من جانب خاتو سيليس أيضا فى بداية حكمه ودمر عاصمتها الآلخ .[١] ونعرف من ملوك هذه المملكة " اميتا قوم " .[٢] الذى كان يحكم وقت هجوم خاتوسيليس ، وأشهر ملوك هذه المملكة هو :

الملك أدريبى (١٥١٠ – ١٤٨٠ ق. م) :

حكم الملك " أدريبى " فى الألخ حوالى ثلاثين عاما عندما أمر كاتبه الحورى الأصل المدعو " شاورا – وا " أن ينقش كتابة مسمارية على تمثاله النصفى المحفوظ حاليا فى المتحف البريطانى . وتتألف الكتابة من مائة وأربعة سطرا ويقص علينا الملك فيها تاريخ حياته والصعاب التى اعترضت سبيله خلالها . ويذكر فى بداية النقش قصة هربه مع جميع أفراد أسرته الملكية من حلب إلى أخواله .

لقد اندلعت نيران العصيان فى بيت والده فى حلب وهرب إلى أخواله سكان امار . ويجوز أن يكون أحد الملوك الحوريين الميتانيين هو الذى أوقد نار هذا العصيان الذى أنهى حياة " **ايليم – ايليما** " والد الملك " **أدريبى** " ولكن أدريبى لم يمكث طويلا فى منفاه بين أخواله . ووصل " أدريبى " إلى الألخ فى الوقت الذى شن فيه تحوتمس الأول حملة ضد أمراء أواسط شمال بلاد الشام والمملكة الميتانية .

مر الحيثيون بفترة ضعف فى عهد أوموناش واستغل أدريبى الفرصة وقام بغزو سبع مراكز على حدود بلاد الحيثيين ، ولم يستطع أحد التعرض له . ومن بين هذه المراكز زارونا ، التى جاء ذكرها فى الغزوة التى قام بها خاتو سيليس فى السنة

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٥٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٦٠ .

السادسة .[١]

وأثناء التنافس بين الحيثيين والميتانيين نجد أن العلاقة بين الميتانيين ومملكة موكيش قد توطدت .[٢]

وبعد ذلك قام شوبيلوليوما بوضع خطة لحكم الولايات فى شمالى سوريا وذلك بعقد معاهدات معهم . وقد جاء نيقماد ملك أوجاريت إلى الألخ عاصمة موكيش ، ليقدم فروض الطاعة والولاء إلى شوبيلوليوما ويتولى السلطة من ملك الحيثيين . ونظمت الحدود بينه وبين موكش .[٣]

وبالنسبة للأطماع الخارجية فى سوريا أو فينيقيا فى منتصف الألف الثانى ، عرفنا عن طريق اكتشاف مقابر ملوك بيبلوس فى تلك الحقبة ، أن الشاطئ الفينيقى استمر على ولائه لملوك مصر وكان الملك ابى - شمو معاصرا للملك أمنمحات الأول ، وكان هو والملك الفينيقى ابشمو - ابى يتلقيان الهدايا مقابل تأمين سبل التجارة المصرية إلى سوريا .[٤] ولكن فى عصر الأسرة الثامنة عشرة كان أهل أرواد مناوئين للنفوذ المصرى فى سوريا وغير راضين عنه ، وربما يرجع سبب ذلك إلى المنافسة الشديدة التى كانت بين أرواد وجبيل . وفى أثناء حملة الملك تحوتمس الثالث (عام ١٥٠٤ ق. م) على سوريا لتوطيد نفوذه فى هذه المناطق نجد أنه أثناء حملته الخامسة بدأ يهتم بتأمين سبل مواصلاته مع الساحل الفينيقى ومعاقبة أرواد التى ثارت ضد نفوذه ، فسار إليها واستولى عليها ويتحدث عنها نقش له سجله فى معبد الكرنك قائلا :

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ٤٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٧٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٨٦ .

(٤) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ٩٠ .

" وقد هدم جلالته مدينة أوراد بما فيها من مخازن للحبوب وقطع جميع أشجارها وكانت الحدائق فيها مليئة بالفواكه . وكان النبيذ يملأ المعاصر وينساب كالماء ، بينما كان القمح على الشواطئ أوفر من رمال الشواطئ ، حتى أن القوان كادت تضيق من كثرة الغذاء وما قرر لهم .. وكان الجنود مستريحى البال وكانوا يدهنون أجسادهم بالزيت كل يوم كما كان يحدث فى مصر أثناء الأعياد .[١]

، وعندما تكونت مملكة الحوريين والميتانيين ، نجد أنها بسطت نفوذها على سوريا ويبدو أنها نجحت أيضا فى بسط نفوذها على جزء من فلسطين .[٢]

وعندما أصبح شوبيلوليوما ملكا على الحيثيين ، اتجه بأطماعه التوسعية نحو سوريا على حساب النفوذ المصرى . ونعرف من أرشيف تل العمارنة ، الذى هو عبارة عن مجموعة المراسلات التى تبادلها ملوك مصر مع أمراء سوريا وأيضا أمراء المدن الداخلية ، مدى الضعف الذى أصاب سوريا . وكان هؤلاء الأمراء يطلبون الهدايا وكان بعضهم يطلب المزيد من الذهب . وكان أمراء سوريا وحكام الأقاليم يشعرون بخطر تقدم الحيثيين ، ولكنهم لم يتلقوا المعونة أو المساعدة المطلوبة من ملك مصر ، ولم يدم هذا الوضع غير المستقر فترة طويلة فما لبث الحيثيون أن استولوا على عدة مناطق من سوريا بالتدريج ، حتى أصبحت لهم السيادة فى النهاية على النصف الشمالى من فلسطين وعين شوبيلوليوما أبناؤه كحكام فى المناطق التى غزاها فى قرقميش وفى حلب كما اعتمد على مساعدة الآموريين .[٣]

حاول المصريون فيما بعد إنقاذ الموقف واسترداد ما فقد ودخل المصريون الحرب ضد الحيثيين فى معركة قادش الشهيرة بين رمسيس الثانى ومواتلى ، ولكن

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٩٤ – ٩٥ ، ١٠٠ .

(٢) عن الميتانيين فى سوريا، راجع : د. فيليب حتى : المرجع السابق، ص ٩٦ – ٩٧ .

(٣) عن الحيثيين فى سوريا ، راجع : د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٩٧ – ٩٨ .

نتيجة هذه المعركة لا تزال محل نقاش حتى الآن بين العلماء وانتهى الأمر بعقد معاهدة سلام بين خاتوسيل الثالث ورمسيس الثانى .[١]

وفى القرون الأخيرة من الألف الثانية ، أصبحت فينيقيا مركزا تجاريا ذا نشاط كبير وعلى أوسع نطاق . ويبدو أن جنوب البلاد كان على صلات طيبة بالمصريين حيث نلمس فى مقبرة الملك احيرام فى بيبلوس تأثير الفن المصرى الذى يظهر فى نقوش تابوته . كما عثر على أوانى من المرمر تحمل اسم الملك رمسيس الثانى ، ولكن هذا التأثير السياسى والفنى ، لم يمنع من وجود علاقات تجارية مع بقية العالم القديم . وسوف تلعب مدن الدول الفينيقية دورا كبيرا فى التجارة فى العالم القديم . وفى أقصى الشمال نجد مدينة أوجاريت (رأس الشمرا) التى كانت تغص بالسكان من أجناس متعددة والتى كانت تخضع لتيار النفوذ الحورى . ودلت الحفائر التى قام بها شيفر Schaeffer وكشف فيها عن أرشيف القصر الملكى[٢] ، على تعدد الصلات والعلاقات بين أوجاريت والحيثيين .

وفى نهاية الألف الثانية ق. م . تعرضت سوريا كبقية أجزاء غرب آسيا لهجرات شعوب البحر واستولى المهاجرون على سوريا وقبرص ، وأصبحت كل السهول السورية تحت سيطرة هؤلاء المهاجرون الذين ما زالت أسماء الكثيرين منهم غير معروفة حتى الآن . وكان يحكم فى مصر فى تلك الفترة رمسيس الثالث الذى نجح فى إبعاد هذا الغزو عن مصر . ولهذا لجأ بعض الغزاة إلى جنوب أوربا أو الشاطئ الشمالى لأفريقيا . واستقر جزء من هؤلاء المهاجرين فى فلسطين .[٣]

وعندما قضت شعوب البحر على الإمبراطورية الحيثية فى آسيا الصغرى قضاء نهائيا ازدهرت بعض الدويلات الصغيرة التى كان ينتشر فيها التأثير الأرامى والحيثى معا . وعلى الرغم من التباين الواضح بين هذين الاتجاهين فى مختلف

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) د. أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ص ١٠٦ .

(٣) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٠٩ ، ١١١ - ١١٢ .

المجالات فإن النفوذ الآرامى كان هو السائد فى دمشق ومؤثر بدرجة أقل فى مملكة سامال أو شمال حيث كان الملوك يسجلون نصوصهم بالآرامية ، على حين كانت الخصائص الحيثية هى السائدة فى فنونهم .

ونشأت فى خلال الألف الأولى ق. م . بعض الدويلات الآرامية الصغيرة فى سوريا فى جورجوم (منطقة ماراش) ، وفى تيان ، وفى منطقة افريز .[١]

ثانيا : الكنعانيون (الذين سماهم اليونان فيما بعد باسم الفينيقيين) :

وفد هؤلاء الكنعانيون مع الآموريين فى هجرة واحدة فى حوالى سنة ٢٥٠٠ ق. م . ولكنهم كانوا أكثر عددا واستقر الكنعانيون فى مناطق الساحل[٢] وهم الذين أطلق عليهم اليونانيون اسم الفينيقيين . وقد اختلف الباحثون فى أصل التسمية كنعان ، فيرى البعض أنها جاءت من " **كنع أو خنع أو قنع** " بمعنى الأراضى المنخفضة التى سكنوها ومنهم من يرى أنها من أصل هندوأوربى من كلمة حورية " كناجى " بمعنى الصبغة الحمراء إذ كانت هذه المنطقة تشتهر **بهذه الصبغة الحمراء عندما اتصل الحوريون** بتلك البلاد فى القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد . وفى الكتابة البابلية كتبوا اسمها " كنغى أو كناجى " ووردت فى الكتابة الفينيقية نفسها تحت اسم " كينغ " وحرفت إلى " كنعان " فى العبرانية .[٣] أما أصل كلمة " فينيقيا " فهى مشتقة على الأرجح من كلمة يونانية (Phoinix) والتى تعنى بلاد الأحمر الأرجوانى أى الصبغة الحمراء نظرا لشهرة هذا الساحل بصناعة الأصباغ القرمزية

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٢) المرجع السابق ، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ٧٩ – ٨٣ .

(٣) جاء اسم كنعان كاسم لمدينة غزة الفلسطينية فى نصين أحدهما من عهد الملك سيتى الأول ، والآخر من عهد مرنبتاح ، راجع : د. رمضان عبده : معالم تاريخ مصر القديم ، ص ٤٦٥ – ٤٨٧ .

والملابس الأرجوانية اللون .[١] لذلك أطلق اليونانيون على كنعانى الساحل اسم فينيقيا (أى بلاد الأحمر الأرجوانى) .

وأطلق المصريون القدماء كلمة فنخو من عصر الدولة القديمة (٢٧٨٠ ق. م) للدلالة على شعب من سكان سوريا ، والمرجح أن اليونانيين استعملوا هذه التسمية بعد تحريفها إلى فينكس للدلالة على فينيقيا[٢] ويدل هذا اللفظ عند المصريين القدماء على " الآسيويين عامة " .[٣] كما أطلق المصريون القدماء لفظ رتنو على سوريا العليا .[٤]

وكانت التسمية " فينيقيا " تدل فى بداية الأمر على الساحل السورى وغربى فلسطين ثم أصبحت تدل على جزء كبير من سوريا ولبنان كلها وفلسطين كلها .[٥]

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٨٦ - ٨٧ ؛ المؤلف نفسه : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ٨٢ - ٨٣ ، ١٣٠ - ١٣٥ ؛ د. أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ص ١٠٧ حاشية (١) ؛ د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٣٤١ - ٣٤٥ ، ٣٧٣ ؛ د. أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ، ص ٥٣ .

(٢) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٣) د. أحمد بدوى - هرمن كيس : المعجم الصغير فى مفردات اللغة المصرية القديمة ، ص ٨٩ ؛ د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ٨٨ حاشية (١) .

(٤) د. أحمد بدوى - هرمن كيس : المرجع السابق ، ص ١٤٤ ؛ د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٨٨ حاشية (١) . ويذكر د. بدوى أن رتنو اسم عام لسوريا وفلسطين .

(٥) في وثائق العهد القديم الأولى أطلق اسم " كنعانى " بمعناه الواسع على جميع سكان البلاد دون أى مدلول عرقى، راجع : د. فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٨٧؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق، ص ٢٤٠ - ٢٥٠ .

كان الفينيقيون أول أمة بحرية فى التاريخ ، وذلك لأن السهول الزراعية ضيقة محدودة مثل التى تقع بالقرب من مصب نهر اليتير ويسمى فى أيامنا هذا بالنهر الكبير ، كذلك حول عكا ، وسهل فينيقيا حاليا الذى يقع عند نهر اسكليبيو ويسمى حاليا نهر الأولى . ووجود مجارى المياه الموجودة فى فينيقيا عبارة عن نهيرات صغيرة تجرى فيها المياه فى فترة الفيضان فقط وتجف فى شهور الصيف وذلك لقرب الجبال من الشاطئ .. ووجود حاجز جبلى بين الساحل والداخل ، فتمتد جبال لبنان التى هى امتداد لجبال النصيرية إلى حوالى ١٠٠ كم شمالا من النهر الكبير ، وتنتهى جنوبا عند منحنى نهر القاسمية . ويبلغ أقصى ارتفاع لها ثلاثة آلاف مترا . وإلى الشرق من جبال لبنان جبال أخرى تقل قليلا عن الغربية فى الارتفاع إذ تبلغ أحيانا حوالى ٢٨٠٠ متر . وكانت جبالها قريبة من الشاطئ فلم تكثر بها السهول وافتقرت البلاد للأراضى السهلة المنبسطة . ووفرة الأخشاب التى تأتى من أشجار الأرز والسرو والصنوبر والأرو . وقد انقرض الأرز تقريبا ولم يبق منه إلا غابة بسيطة فى منطقة بشرى . وأخيرا وقوع بلادهم على الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، ويمتد هذا الساحل من خليج إسوس شمالا إلى جبال الكرمل جنوبا ، وهو يعد من أكثر السواحل استقامة فى العالم[١] لكل هذه العوامل البيئية بالإضافة إلى عوامل أخرى ترجع إلى طبيعة الفينيقيين أنفسهم لم يجد الفينيقيون مجالا لانطلاقهم سوى البحر فركبوه على متن سفنهم .

إن تقسيم فينيقيا إلى مدن مستقلة ، وتمتع البلاد بنعمة الاستقلال بعث فى نفوس الفينيقيين نشاطا جديدا وأثار فى نفوسهم مطامع جديدة . وقد أظهروا من العزم على تحقيق هذه المطامع ما يثير الإعجاب . فإنهم فى هذه الفترة أنشأوا لهم تجارة واسعة مزدهرة ، وتقدموا فى الفنون والصناعات تقدما كبيرا . وأسسوا لهم مراكز تجارية على جانبى حوض البحر المتوسط ، وركبوا البحار لارتياد مجاهل جديدة فلم يكن المجهول ليثنى عزائمهم بل كان المجهول والبعيد يستهويهم لمعرفته

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

واكتشافه .[١] وأعطوا البشرية العديد من مظاهر الحضارة فى نظم الحكم والإدارة ، وفى المجال الاقتصادى فى التجارة والصناعة وأيضا فى الزراعة وفى الحياة الثقافية بما توصلوا إليه فى الكتابة من حروف هجائية ونقلهم لثقافات الشرق القديم إلى شواطئ جنوب أوروبا وشمال أفريقيا . ولعل دورهم هذا كان من أهم الأدوار . فقد أدخل الفينيقيون البردى إلى بلاد الإغريق حيث كان استعماله معروفا حتى القرن السادس ق. م .

كتب بلوتارخ فى القرن الأول الميلادى عن الفينيقيين ما يأتى :

" إنهم شعب مملوء بالصرامة والمشاكسة ، مطيع لحكامه ، مستبد مع أولئك الذين حكمهم ... عنيف إذا ما غضب ، لا يتزعزع إذا ما صمم على شئ أو إذا قرر شيئا ، وصارم حتى أنه يكره الملاطفة والشفقة " . وذكر بومبيوس - ملا الأسبانى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى عن الفينيقيين قائلا :

" إن الفينيقيين جنس مجتهد ، نجحوا فى الحرب والسلام فقد برعوا فى الكتابة والأدب وفى الفنون الأخرى ، وفى الملاحة وفى الحروب البحرية وفى حكم الإمبراطورية " .[٢]

لم يستطع الفينيقيون تأسيس دولة قوية موحدة بل انتظموا فى دويلات صغيرة يحكم كل منها ملك الذى كان يستقر فى مدينة محصنة ، تحميها الأسوار والأبراج . وكثيرا ما نشبت الحروب بين هذه الممالك الصغيرة التى كانت مستقلة عن بعضها البعض وأن جمعت بين البعض منها ، من حين إلى آخر ، اتحادات أو كتل متحالفة . وكان لكل مدينة أسطولها التجارى والحربى .

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١١٥ - ١١٦ .
(٢) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

وفى فترة القرنين الأولين من الألف الأولى (بين ١٠٠٠ - ٨٠٠ ق.م) ظهر من دويلات المدن هذه فى فينيقيا : صور وصيدا وأوجاريت (رأس الشمرا) .[1] وبيبلوس (جبيل) وارواد ، (ارادوس) .[2] ولمعت أسماء مدن أربع

---

(١) يذكر د. أحمد فخرى " إنه فى عام ١٩٢٨ عثر أحد المزارعين بطريق الصدفة فى مكان يسمى " المينا البيضا " على الشاطئ فى شمال سوريا ، على سرداب تحت الأرض يؤدى إلى مقبرة . فكان هذا الكشف بداية لفحص المنطقة كلها فى السنوات التالية ولم يمض غير قليل من البحث حتى تأكد الباحثون أن هذا المكان ليس إلا موقع أوجاريت ، وعثر فى الحفائر على الكثير من التماثيل والحلى والفخار . ولكن أهم ما عثر عليه هو ذلك العدد الهائل من اللوحات الطينية الصغيرة المكتوبة بالخط المسمارى ، وكانت هذه اللوحات جزءا من أرشيف ديوان القصر الملكى ، وقد ألقت دراستها ضوءا كبيرا على الحياة الدينية والاجتماعية فى مدينة أوجاريت القديمة . وتوقفت الحفائر فى الموقع فى عام ١٩٣٩ بسبب الحرب العالمية الثانية . واستؤنفت فى عام ١٩٤٨ وعثر على الكثير من الوثائق ذات الأهمية السياسية والإدارية وأكثرها مكتوب بالأكدية المسمارية . وفى عام ١٩٥٣ عثر على مجموعة من المراسلات الدبلوماسية بين ملوك أوجاريت وملوك الحيثيين . وهى ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وعثر أيضا على لوحات سجلت عليها الأساطير والقصص الدينية التى كان لها تأثير كبير على أدب التوراة الدينى . واتضح من فحص النصوص أنه كانت هناك أبجدية خاصة بأوجاريت قامت على أساس الاقتباس من الأكدية " راجع : د. أحمد فخرى : المرجع السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٧ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٥٢ - ٣٥٣ ؛ د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ، وعن الجهود الأثرية فى بعض المدن الفينيقية ، راجع : د. أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ، ص ١٧ - ٢٠ ؛ د. عفيف البهنسى : الآثار السورية (مجموعة أبحاث أثرية تاريخية) ، ص ١٢٧ - ١٦١ وتحدث عن أغلب الآثار التى خرجت من بيبلوس ومواقع أخرى .

(٢) عن دور هذه المدن ، راجع : د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٢١ - ٥٢ ؛ د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١١٧ - ١٢١ .

من هذه المدن على صفحات الإلياذة وخلدت ذكرها اسفار التوراة وهى : صور وصيدا فى الجنوب وجبيل وارواد فى الشمال . ومعلوماتنا الأثرية عن هذه المدن يرجع تاريخها إلى ١٩٢٠ - ١٩٤٠ م . وتعتبر مدينتى أوجاريت المدن على صفحات الإلياذة وخلدت ذكرها اسفار التوراة وهى : صور وصيدا فى الجنوب وجبيل وارواد فى الشمال . ومعلوماتنا الأثرية عن هذه المدن يرجع تاريخها إلى ١٩٢٠ - ١٩٤٠ م . وتعتبر مدينتى أوجاريت (رأس الشمرا) وبيبلوس (جبيل) من المناطق التى تمت فيها أغلب الاكتشافات الأثرية .

عاشت هذه المدن الفينيقية عصرها الذهبى فى بداية الألف قبل الميلاد وتمتعت بفترة ازدهار ورخاء اقتصادى وبخاصة مدينة صور التى لم تقتصر أساطيلها التجارية على نقل البضائع والمنتجات بين الموانى المعروفة فى البحر المتوسط ، بل أسست مراكز تجارية جديدة فى مناطق بعيدة ، كما خرجت من مضيق جبل طارق إلى عرض الأطلنطى لنقل التجارة إلى الشواطئ الغربية لأوربا . وكان من أهم أسباب قوة صور هو تبعية مدينة قرطاجة لها . وعثر على أسماء بعض ملوك هذه المدن منقوشة على البقايا الأثرية وعلى التماثيل التى يرجون فيها حماية المعبودات والتى عثر عليها فى الحفائر التى تمت فى هذه المدن ، وعرفنا أيضا بعض الأسماء مما جاء فى النصوص الآشورية والمصرية ومما جاء فى التوراة ، ومن ملوك صور (وصيدا) نعرف : احيرام الأول (١٠٠٠ ق. م) وتبعه فى الحكم ولده بعل اتسار الذى ظل فى الحكم سبعة عشر عاما (٩٣٥ - ٩١٩ ق. م) ثم تبعه عبد عشتارت[1] الذى حكم تسع سنوات (٩١٨ - ٩١٠ ق. م) ثم قتله أبناء مربيته واغتصبوا العرش ، وأول من تولاه منهم ميثو عشتارت الذى حكم اثنتى عشرة عاما (٩٠٩ - ٨٩٨ ق. م) ثم تبعه عشتار - يمو الذى حكم تسع سنوات (٨٩٧ - ٨٨٩ ق. م) ثم ازاحه ايتوبعل كاهن عشتارت عن العرش وقتله ، وظل يحكم من بعده اثنين وثلاثين عاما (٨٨٧ - ٨٥٦ ق. م) مؤسسا أسرة حاكمة جديدة

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

ظلت فى الحكم قرنا من الزمان على الأقل .[١]

وهناك بعض المؤرخين الذى يعطى ترتيبا آخر على النحو الآتى احيرام (حوالى سنة ١٠٠٠ ق. م) وايتوبعل (٩٨٠ ق. م) ابى بعل (٩٤٠ ق. م) وبيحي - ملك (٩٢٠ ق. م) وايلي بعل (٩٠٠ ق. م) وشيبيت بعل (٨٨٠ ق. م) .

• وقد جاء ذكر أسماء بعض الملوك فى النصوص الآشورية لأنهم كانوا يقومون بدفع الجزية لملوك آشور منهم احيرام الثاني (الذى كان معاصرا لتيجلات بلاصر الثالث ٧٥٤ ق. م) وميتينا (أو متان) (الذى تلى احيرام الثانى ودفع الجزية هو الأخر لملك آشور) وايلو - ايلي (لولى) (الذى كان معاصرا لشالما نصر الخامس ٧٢٧ ق. م) . واسم ايلو - ايلى يعنى " إلهى هو الإله " ويظهر اسم هذا الملك كحامى لمدينة صور البحرية فى النصوص الآشورية . ومن النصوص الكلدانية نعرف أن نابوخذ نصر هزم ملك صور ايتو - بعل (الثانى)[٢] وعين مكانه بعل الثانى الذى أخلص له فبقى على عرش صور من سنة ٥٧٥ إلى سنة ٥٦٤ ق. م . وكان يعاونه مسئول بابلى . وبانتهاء حكم بعل (الثانى) توقف تتابع الملوك مؤقتا وتولى الحكم قضاه لمدة سبع سنوات باستثناء ملك واحد حكم سنة ثم جاءت بعد ذلك سلالة من الملوك بدأها ميربال الذى حكم أربعة أعوام ثم تبعه أخوه احيرام (الثالث) (٥٥٢ - ٥٣٢ ق. م) .[٣]

أما عن أعمال بعض هؤلاء الملوك فنعرف أن احيرام الأول كان معاصرا للملك سليمان فى فلسطين . واهتم احيرام بتجميل مدينة صور وتوسيع رقعتها وشيد فيها عددا من القصور والمعابد الجديدة ، وكان معبد ملقارت _ بعل صور) قائما

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٢٠ - ١٢١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٧ .
(٣) د. أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية، ص ٣٥ - ٣٦ ، ٤٠، ٤٢ - ٤٣ ، ٤٥ - ٤٦ ، ٤٩ ؛ د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

على جزيرة منفصلة عن جزيرة صور الكبيرة فردم احيرام ما بينهما وأنشأ بهذا السد ميناثين أحدهما فى الشمال والآخر فى الجنوب . وينسب إلى احيرام أنه كان حكيما ذكيا تبادل مع سليمان الأحاجى وكانت تربطه به صداقة قوية وهو الذى أمد سليمان بالمعمارين والعمال والفنيين ومواد البناء اللازمة لإقامة هيكل (؟) أو بيت أورشليم ، وقصر له . وظل احيرام وسليمان صديقين حميمين وشريكين فى التجارة وهو الذى ساعد سليمان أيضا فى إنشاء أسطول تجارى فى البحر الأحمر وأمده ببحارة فينيقيين للعمل على السفن مع بحارة سليمان .[١] واتسعت تجارة احيرام وصلاته البحرية مع جزيرة قبرص وأسبانيا[٢] ودفن فى تابوت مزخرف بالنقوش والنحت البارز وتصور لنا جنازة كبيرة تظهر فيها النساء النادبات وحاملات القرابين .[٣]

ومن الجدير بالذكر أن عهد الفوضى والحروب الأهلية التى انتهت بارتقاء ايتو بعل على العرش فى صور صاحبتها فترة مظلمة فى دويلة إسرائيل حيث انقسمت المملكة واشتد الشقاق فى القصر . ويتفق ارتقاء ايتو بعل فى صور مع ارتقاء عمرى على عرش دويلة إسرائيل وتأسيس أسرة جديدة ظلت فى الحكم بضعة عشرات من السنين سادتها علاقات صداقة بين الدولتين . وتشير التوراة إلى أن ايتو بعل زوج ابنته إيزابيل إلى آحاب بن عمرى الذى حكم حوالى سنة ٨٥٤ ق. م .

ولا شك فى أن صور كانت قوية فى عهد ابتو بعل ، ومما يؤكد ذلك أن الكتاب المقدس يشير إليه باعتباره ملك الصيدويين ، بينما أشار إلى احيرام الأول على أنه ملك صور فقط .

وتشير إحدى الأساطير إلى أن صور كان لها الفضل فى تأسيس قرطاجة ، فهى تروى أن ابنة متان هى التى أسست قرطاجة بمعاونة أنصارها الصوريين من كافة الطبقات .

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٢٠ ، ١٢٩ ، ١٣٦ .
(٢) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٣٦ .
(٣) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

ودفعت صور الجزية لآشور فى عهد ملكها احيرام الثانى[١] الذى يظهر اسمه فى نص فينيقى عثر عليه فى قبرص يشير فيه صاحبه إلى أنه تابع للملك احيرام ملك الصيدويين ، ومعنى ذلك أن صور حكمت المنطقة المجاورة لها . وتلى احيرام الثانى ميتينا الذى دفع الجزية هو الآخر لملك آشور .

وكان الملك لولى يحمل لقب " ملك صور وصيدا " . ونعرف أن الذى قاد المقاومة ضد الإسكندر هو ملكها عز - ملك .[٢]

كانت صيدا ذات أهمية خاصة بين المدن الفينيقية فالكتاب المقدس يشير إلى أهل صيدا للتعبير عن الفينيقيين وعن ملوكها . ونعرف أن مؤسس الأسرة الحاكمة فيها كان يدعى اشمونازار الأول الذى لا تعرف عنه شيئا يذكر وخلف ولده تابنيت .[٣] ثم جاء من بعد هذا الأخير اشمونازار الثانى الذى ترك نقوشا تبين أنه بنى معابد للمعبودات وأنه زاد من مساحة حدود صيدا فى عهد الفرس .[٤]

ومن ملوك هذه الأسرة ثلاثة كل منهم يدعى بوداشتارت وفى نقش لأحدهم يذكر أنه حفيد اشمونازار وأن ولى عهده ياتون - ملك . ويدل طراز النقوش التى على توابيت هؤلاء الملوك على أنهم عاشوا فى القرن الخامس قبل الميلاد وفى عهد اسرحون (٦٨١ ق. م) . وتحالف عبد ملكوتى خليفة ايتوبعل الثانى ملك صور وصيدا مع الملك كيليكيا ضد الملك الآشورى الذى استطاع أن يدمر صيدا وأن يسوى مبانيها بالأرض فى سنة ٦٧٧ ق. م .[٥] وعثر فى نقوش رأس الشمرا على ذكر لاسم ملك صيدا كرت وتذكر التوراة أسماء أخرى مثل زبلون وآدوم .[٦]

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٨٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٩ .
(٣) كان هناك أكثر من ملك تسموا باسم " تابنيت " ، راجع : د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .
(٤) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .
(٦) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٤٠ - ٤١ ، ٥٠ .

وحينما احتل اليونان قبرص سنة ٣٩٢ ق. م . وهاجم المدن الفينيقية خضعت لهم صور ومدن فينيقيا أخرى ، ثم أصبح عبد عشتارت الثانى ملكا لصيدا سنة ٣٦٢ ق. م . وظل على علاقات ودية معهم حتى أطلق عليه لقب محب اليونانيين .

ومن ملوك صيدا أيضا تنيس الذى حكم عام ٣٤٦ ق. م . وقضى عليه الملك الفارسى ارتاكسركسيس الثالث بسبب قيامه بثورة . وثم تولى الحكم فى صيدا والى فارس ولكن ما لبث أن وصل الإسكندر فخضع له هذا الوالى خضوعا تاما .

ومن ملوك بيبلوس (جبيل) (التى كانت من أقدم المدن) والذى كان معاصرا لامنمحات الثالث فى مصر ، ابشم وابى ، الذى كان يلقب بلقب أمير بيبلوس ونقش اسمه بالخط الهيروغليفى على سلاحه وحلى قلائده . وربعدى حاكم جبيل الذى كتب رسالة إلى الملك المصرى أمنحتب الرابع يستنجد فيها ضد هجمات عبد شرتا حاكم آمورو الذى تعاون مع الحيثيين ضد النفوذ المصرى فى سوريا وأخذ يهاجم مدن الساحل الفينيقى . وتعرف أيضا أسماء ثلاثة ملوك انتن ويوناثان[١] وزكر بعل الذى جاء ذكره فى قصة ون آمون الذى أرسله ملك مصر من أجل شراء أخشاب الأرز اللازمة لترميم القارب المقدس لآمون .[٢]

وفى نقش عثر عليه الفرنسى دينان فى قلعة جبيل القديمة إشارة إلى بناء سور أقامه شفاط – بعل بن ايلى – بعل بن يهى – ملك من ملوك جبيل .[٣]

ومن ملوك أرواد نعرف الملك " عبد ليتى " و " ياكن لو " وكانا معاصرين لفترة الغزو الآشورى لمدن فينيقيا .[٤]

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٠ .

(٣) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٣٢ ، ٣٤ .

(٤) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١١٩ .

وكانت السيادة تنتقل من مدينتى صور وصيدا ، وقد حمل أغلب ملوك صور لقب ملوك صيدا ومن المرجح أن صيدا ظلت تحتفظ بزعامة الجزء الجنوبى من فينيقيا حتى الألف الأولى قبل الميلاد . أما بيبلوس فلم تكن لها هذه الشهرة ولم تلعب دورا كبيرا فى سياسة فينيقيا وربما رجع ذلك لتبعيتها للنفوذ المصرى أحيانا أما مدينة أوجاريت فلم نعد نسمع عنها أى شئ يذكر .

المحطات والمحلات والمراكز والمدن التجارية التى أسسها الفينيقيون فى الخارج :

قامت خطة الفينيقيين فى المجالين التجارى والصناعى على استغلال موارد بلادهم الطبيعية واستخدام الخامات فى الصناعات المحلية ذات القيمة التجارية وتسخير هذه المواد والخامات فى خدمة هذين المجالين فى الداخل والخارج . واهتموا بإعداد الموانى الطبيعية البحرية وبناء أسطول تجارى ضخم وإعداد البحارة ذوى الكفاءة العالية . فلم يكن الفينيقيون ملاحين يجوبون البحار على غير هدى وإنما كانوا يسلكن طرقا بحرية معينة ومدروسة طبقا لمهارة بحارتهم وقبطانهم .[1] فعندما طلب

---

(١) يصف سترابون الصيداويين بأنهم :

" فلاسفة فى علمى الفلك والحساب " ويضيف إلى ذلك قوله : " بأن المدن الفينيقية فى عصره كانت تعد أعظم موطن للمعرفة " ومن أولئك الذين اشتهروا فى حقل العلم فى النصف الأول من القرن الثانى الميلادى مارينوس الصورى مؤسس الجغرافية الرياضية التى كانت يعتمدها العالم القديم ، والذى سبق بطلميوس الجغرافى الشهير بزمن قصير . وقد كان بطلميوس فى مؤلفاته يشير إليه ويقول أنه كان يعتمد على مارينوس الصورى مصدرا لمعلوماته . وقد رسم مارينوس خرائط ذات فائدة عظيمة ، ذلك بأنه وضع خطوطا للعرض وخطوطا للطول لكل موقع جغرافى وقضى بذلك على التخمين الذى كان يلجأ المسافرون إليه عند تعيينهم المواقع الجغرافية ، راجع : د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .

سليمان إلى صديقه الملك احيرام ملك صور أن يبعث إليه ببحارة فينيقيين لمساعدته فى بناء أسطوله البحرى طلب منه أن يرسل إليه " بالنواتى العارفين بالبحر "[١] مما يدل خبرتهم وكفاءتهم . كما يرجع الفضل إلى البحارة الفينيقيين فى اكتشافهم لنجمة القطب الشمالى التى أسموها الإغريق بأسمائهم " فوينيكى " فهم الذين أدركوا أهميتها فى تحديد الجهات الأصلية فبواسطة هذه النجمة وبواسطة نجوم أخرى استطاعوا أن يحددوا الطرق البحرية والمسالك التى يجب عليهم أن يسلكوها بمراكبهم . وبذلك كانوا أول من أتقن فن الملاحة ليلا والسير حسب النجوم .[٢] ونجد أنهم اهتموا أيضا بالتجارة البرية وتأمين طرقها .

وعندما انطلقوا فى مجال التجارة الخارجية اتبعوا أيضا خطة مدروسة فعملوا على إنشاء الموانى البحرية الاصطناعية والمحطات البحرية فى الشواطئ المطلة على البحار . وعملوا أيضا على إنشاء مراكز تجارية ومدن جديدة أصبحت عواصم لها شأنها فى مجال التجارة فى البلدان الغنية بمواردها الطبيعية والاقتصادية ، للاستفادة من هذه الموارد فى إقامة صناعات يقومون هم باستغلالها وتصديرها واحتكار تجارتها مما يساعدهم على الرخاء الاقتصادى . وعملوا كذلك على فتح أسواق جديدة فى مختلف البلاد المطلة على البحر المتوسط يبيعون فيها بضائعهم وبضائع جيرانهم وبضائع بلاد بعيدة عنهم . وكان من ضمن سياستهم كذلك توثيق العلاقات التجارية مع بلدان بعيدة عنهم والدخول فى منافسة تجارية حرة . فإذا ما نزلوا فى مكان ما عملوا على الحصول على حق الاتجار والتبادل التجارى . وكان هؤلاء التجار كلما اتسعت نطاق أسواقهم التجارية ازدادت موارد الإنتاج عندهم حتى أصبحوا على ممر الأيام حلقة وصل بين الشرق والغرب ينقلون إلى الغرب

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٢) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ١٠٥ ؛ د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٣٢٩ .

منتجات الشرق ويرجعون إلى الشرق محملين ببعض منتجات الغرب .

وبمرور الوقت أيضا أصبحت بعض مراكزهم التجارية الجديدة أو مدنهم الجديدة التي أنشأوها بمثابة مراكز ثقافية تنقل إليها مظاهر الحضارة الفينيقية وبعض مظاهر حضارة الشرق الأدنى القديم . وعندما كانوا يحلون بمكان ما ، كانوا يبعثون النشاط والرواج الاقتصادى فيه[١] وكانت جماعة التجار الفينيقيين من أهل صور يأتون إلى هذه الأماكن ويستقرون فيها ، وجماعة تلو الأخرى حتى تشكل مع الأيام جالية كبيرة . وكان الفينيقيون ، أنى توجهوا ، يبنون وينشئون ، وبصفتهم جالية غير عدوانية ، فإنهم لم يثيروا الشك فى نفوس الشعوب التى كانوا يتسربون إليها كتجار . ولم تكن تربط هؤلاء التجار الفينيقيين عقيدة سياسية واحدة أو عقيدة دينية واحدة بل كانت تجمعهم صفة واحدة وهى حب التجارة ، وقد ساعدهم ذلك كثيرا فى تكييف حياتهم فى أية بيئة اجتماعية جديدة . فلم يكونوا مستعمرين بل أهل تجارة مسالمين .

كان الفينيقيون فى مجالى التجارة والصناعة وسطاء ، أى أنهم كانوا يقتبسون ويتعلمون ويتبنون ما حققه غيرهم . فبفضل مهارتهم وأساطيلهم كانوا يعنون بنقل البضائع والسلع للمقايضة فى بلدان حوض البحر المتوسط .

وكما أنهم كانوا وسطاء فى عالم التجارة والصناعة فإنهم كانوا أيضا وسطاء فى مجال الفكر والعلم والديانة والفن . فكانت مراكبهم وقوافلهم البرية التى كانت تنقل البضائع والسلع المختلفة كانت تنقل معها أيضا أمورا غير عادية ، أمورا غير ملموسة ، ولكنها كانت فى جوهرها أهم بكثير من البضائع المادية وتأثيرها أعمق من التأثير المادى للبضائع والسلع وكانت هامة لرقى الإنسان وتقدمه . وهذه الأمور غير المادية التى كان الفينيقيون ينقلونها أينما توجهوا سواء أكانت مظاهر حضارات الشرق القديم أو مظاهر حضارتهم ، فلم يقتصروا على نشر الحضارة التى نشأت على الساحل الفينيقى جنوبه وشماله بل أنهم جعلوا من البحر الأبيض المتوسط مركز إشعاع حضارى تنبعث منه تيارات فكرية وثقافية من بلاد النهرين وبلاد الشام

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٣٨ .

وجنوب الجزيرة العربية ومصر . وتعلم منهم الإغريق الكثير في مجال التجارة والحضارة .(١)

فكما كانت العلاقات بين فينيقيا ومصر تجارية وحضارية وتتميز بكثير من المودة والإخاء والتبادل من الطرفين ، كانت كذلك بين فينيقيا ومعظم بلدان الشرق القديم .

ولما تأثرت التجارة الفينيقية نتيجة للمنافسة اليونانية ، وفقدت المدن الفينيقية استقلالها السياسي نتيجة للغزو الآشوري ، أخذ أثر الحضارة الفينيقية بالتقلص في حوض البحر المتوسط كافة . وبعد ذلك نجد أن التجارة البحرية الدولية التي كانت تلعب فينيقيا فيها الدور الرئيسي انتقلت إلى أيدي الإغريق وقرطاجة ، وانتقلت تجارتهم البرية كذلك إلى أيدى التجار الآراميين .(٢)

ويرجع نزولهم فى جزر أواسط البحر المتوسط إلى منتصف القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، إن لم تكن قبل ذلك . وبلغ هذا النشاط التأسيسي التجاري في غربي البحر المتوسط ذروته كما يبدو بين منتصف القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد .

وكانت مراكبهم التجارية تخرج من موانئ جبيل وصور وصيدا إلى الموانى المصرية وسواحل شمال أفريقيا ، أو إلى قبرص ، ومن هناك كانت تتجه غرب محتمية بجبال طوروس إلى ليقيا فإلى جنوبي جزيرة رودس ومن ثم إلى جزيرة كريت وكورسيرا فصقلية . ومن صقلية كانوا يتابعون اسفارهم مارين بجزيرة كوسيرا (واسمها اليوم بنتلاريا وعرفها جغرافيو العرب بجزيرة قوصرة) إلى مراكزهم التجارية الجديدة التى أنشأوها فى شمال أفريقيا غربا فى محاذاة الشاطئ إلى مركزهم ومدنهم الجديدة أسبانيا . وإلى جانب هذا الطريق كان هناك طرق بحرية

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

أخرى من الجنوب إلى الشمال مباشرة .[١]

وهكذا أنشأوا لهم طرقا بحرية تجارية عبر البحر المتوسط من شرقه إلى غربه وظلت هذه الطرق البحرية مدة طويلة ملكا لهم يحتكرون تجارتها لا ينازعهم فيها منازع . وإلى جانب موانيهم التى استخدموها على الساحل الفينيقى نجد أنهم استخدموا أيضا ميناء عزيون جابر التى سميت فيما بعد ايلات وهى آيلة الرومانية والعربية وموقعها على رأس خليج العقبة . كما كانت لهم محطات بحرية على الخليج العربى ، فقد كان هناك على شاطئ الخليج مدن أسماؤها هى أسماء مدنهم فى صور وارواد فى فينيقيا .[٢]

وتعتبر صيدا (اسمها يدل على معنى الصيد) أقدم عهدا من جارتها صور وأما نها . وكان لصيدا ميناءان : داخلى وخارجى ، فهى تختلف من هذه الناحية عن صور (معنى اسمها صخر) وارواد[٣] وقد وصف ميناء صيدا قديما وعرفنا من هذا الوصف أنه كان لهذا الميناء أرصفة وحواجز وأحواض لبناء السفن وإصلاحها .

وكان لصور أيضا ميناءان مستقلان الأول مدخله إلى الجهة الشمالية وكانوا يسمونه الميناء الصيداوى ، ومدخل ثانى فى الجهة الجنوبية ، وكان يعرف بالميناء المصرى . وكان يوجد بجبيل حوض لبناء المراكب وذلك لقربها من موارد خشب الأرز . ومن موانيهم هذه انطلقوا لكى يؤسسوا المراكز والمدن والمحطات التجارية فى قبرص وجزر اليونان وإيطاليا وفى شبه جزيرة ايبيرية (اسبانيا والبرتغال) وجزر البحر المتوسط وشمال أفريقيا ومنطقة الخليج العربى . ونجد أنهم بدأوا بقبرص نظرا لقربها من الوطن الأم . وكانت أكبر المراكز التجارية فيها هى مدينة كيتيوم .[٤]

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١١٦ – ١١٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .
(٣) عن دور صيدا وصور ، راجع : د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١١٧ – ١٢١ ، ١٣٢ .
(٤) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٥٧ – ٦١ .

وفى بلاد وجزر اليونان تدل أسماء المدن والقرى فيها على مدى اتساع التجارة الفينيقية فى تلك المناطق . فيقال إن اسم مدينة كورنثوس يقترن باسم المعبود الفينيقى ملقارت . ومن أثر الفينيقيين فى بلاد الإغريق أسطورة قدموس (أى الشرقى) القادم من صور والذى يعزى إليه فضل إدخال حروف الهجاء الفينيقية إلى بلاد الإغريق وبناء مدينة طيبة التى كانت قلعتها العالية المحصنة تعرف باسم " قدميا " .

وكذلك تذكر لنا الأسطورة أنه كان فى تراقية (الجزء الشمالى من الإغريق) مناجم للذهب . وقد جاهد عمال المناجم الفينيقيون فى هذه المنطقة بحثا عن الذهب فى القرن السابع ق. م . وتذكر الأسطورة أيضا أن مقاطعة البرية أى البلاد المعروفة الآن بألبانيا ، إنما سميت باسم ابن قدموس الصورى : اليريوس . وتذكر الأسطورة كذلك أن قدموس قد جاء إلى بلاد الإغريق ليفتش عن أخت له خطفها معبود إغريقى وكانت تسمى " عربا " وهذا الاسم عربا يعنى " الغرب " ومن هذا الاسم جاء اسم القارة بأجمعها أوربا بمعنى الغرب أيضا . وهكذا نجد أن الإغريق يرجعون كثيرا من حوادث تاريخهم الأسطورى إلى الفينيقيين . وكذلك هناك جاليات فينيقية كثيرة استقرت فى بلاد اليونان لاسيما فى ميناء بيرية حيث كان لهم معابد ومقابر . فقد عثر فى أثينا على نقوش كتبت على مقابر فينيقية .[1] ومن جملة الجزر التى وقعت ضمن دائرة النفوذ الفينيقى جزيرتا ساموس وكريت فقد كان لهما مركز مرموق عند التجار الفينيقيين وكانت لهما مكانة بارزة فى مجال التبادل التجارى .

وفى إيطاليا كانت لهم مراكز فى صقلية وبالرمو وكورسيكا وسردينيا . وكانت صقلية تعد محطة هامة لهم خصوصا حينما كانوا يذهبون إلى مضيق جبل طارق (أعمدة هرقليس) فكانوا يحطون رحلهم فى مدينة بانورموس (بالرمو

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ١١١ – ١١٣ ؛ المؤلف نفسه : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٤٤ ، ١٨٩ .

الحالية) ويقال أن مدينة بالرمو شيدت على موقع فينيقى قديم .[١]

أما فى شبه جزيرة ايبيرية (اسبانيا والبرتغال) فقد أسس الفينيقيون فيها مدينة قادس فى حوالى ١١١٠ ق. م . أو ١٠٠٠ ق. م . وتعتبر من أقدم المراكز التجارية فى هذه البلاد . وقد اشتق اسم قادس من كلمة فينيقية معناها " المدينة ذات الجدران أو المدينة المسورة " . وقد أدى تأسيس قادس وراء أعمدة هرقليس (وهما الرأسان الصخريان عند مضيق جبل طارق) إلى دخول الفينيقيين إلى المحيط الأطلنطى . ويرى البعض أنهم وصلوا إلى كورنوال فى إنجلترا فى بحثهم عن القصدير أو جزر القصدير . وكان التجار الفينيقيون يبادلون القصدير والرصاص بالخزف والملح والأوانى النحاسية . وكان الفينيقيون وحدهم يقومون بهذه التجارة من قادس و يخبأون معرفة الطريق عن الناس ويذكر سترابون بأن السفن الرومانية تعقبت مرة سفينة فينيقية لكى تكتشف هى أيضا طرق تلك الأسواق . ولكن قائد السفينة الفينيقى قذف بسفينته عمدا على اليابسة وقبض من دولته ثمن الشحنة التى فقدها . ومدينة قادس كانت أيضا معروفة بإنتاج الملح .

وأسس الفينيقيون مراكز ومدن أخرى فى أسبانيا فى منطقة ترشيش (الأندلس) وخاصة فى المنطقة بين قرطاجة (على اسم المدينة الأم فى شمال أفريقيا) وقادس . واسم ترشيش هو اسم فينيقى بمعنى " المنجم أو مكان الصهر " . وكان هناك أيضا مدينة ملقة أو ملغا ومعناها " معمل أو مكان للعمل " وقد يبدو أنها سميت بذلك لأنها كانت مكانا لتمليح الأسماك وحفظه لأن سترابون يذكر لنا أن مكان تمليح وتجفيف الأسماك كان يوجد فى هذه المدينة ، وربما استقر الفينيقيون فى قرطبة . وأقدم عملة فيها كانت تحمل حروفا فينيقية استبدلت فيما بعد بالبونيقية . وربما كان اسم برشلونة الواقعة إلى الشمال مشتق من برقلونا أى من الكلمة الفينيقية براق وتعنى برق .

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٣٩ .

وفى جزر الباليار كان للفينيقيين نقاط ارتكاز تجارية ، ولكنهم لـــم يحتلـــوا البلاد أو يستولوا عليها وقد يكون اسم عاصمة الجزيرة مينوركا وربما كان مشتقا من كلمة ماجو بمعنى " الترس " .(١)

كما كانت لهم مؤسسات تجارية أو دائرة نفوذ فى جــزر صغـيرة بـالبحر المتوسط مثل مالطة وجولوس . وكان تقعان على الطريق المؤدى من شرقى البحـــر المتوسط إلى غربه . وقد ذكر ديودور الصقلى أن سكان جزيرة مالطة كـــانوا مــن الفينيقيين . واسم مالطة من ملط بمعنى هرب ، ولا عجب أن تسمى الجز يرة بالملجــأ أو بمكان للهرب لأن فى الجزيرة ميناء يعد من أفضل موانى البحر المتوسط . كمـــا احتفظت اللغة المالطية إلى يومنا هذا بكثير من المفردات الفينيقية التى طـــرأ عليـــها شئ من التغيير .(٢) وأسس الصوريون مراكز أخـــرى فـــى جزيـــرة رودس وفـــى ايداليون .

واتجه الفينيقيون بعد ذلك إلى شمال أفريقيا . فنجد أنهم نزلوا فـــى مصـــر وأقاموا عند مصبى فرع رشيد وفرع دمياط لقربهما من شاطئ البحـــر المتوســـط ، وأقاموا كذلك فى بعض نواحى منف حيث كان يوجد هناك ميناء تجارى هام وكـــان معسكرهم فى منف يحمل اسم " حى الصوريين " طبقا لما ذكره هيرودوت ، وحـــول معبد الكرنك من عهد الملك تحوتمس الثالث ، كان يوجـــد جاليـــة ســـورية وتجـــار سوريون أو فينيقيون يعملون بالتجارة المحلية . وحول المعبد الجنائزى للملك أمنحتب الثالث فى البر الغربى فى طيبة كان يوجد حى سورى يشرف عليـــه أحـــد الأمـــراء السوريين الذين أحضروا من سوريا .(٣) كما أنه كانت هناك جالية تجـــارية مصرية

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٤٢ – ١٤٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٣) د. رمضان عبده : حضارة مصـــر القديمـــة ، الجـــزء الأول ، ١٩٧٧ ، ص ٤١٩ .

تعيش فى أوجاريت وجبيل .[١] وجاء فيما كتبه هيرودوت أيضا أنهم بنوا معبدا هنـاك للمعبودة عشتارت . ويفهم من هذا أن الفينيقيين أقاموا فى مناطق الموانئ التجاريـة التى تحقق الكثير من أغراضهم وأهدافهم التى رسموها لأنفسهم من البداية .

ومن مصر انطلقوا إلى بقية شمال أفريقيا ، ويذكر أن ملك صور (صيدا) أيتو بعل أسس مدينة فى ليبيا ولم يتمكن العلماء من تحديد موقعها . كما كـان لـهم وجود فى الجزائر فقد عثر على لوحة مستطيلة فى قسطنطينية بالجزائر (هـى الآن بمتحف اللوفر بباريس) كانت مخصصة للمعبود تانيت ومكتوبـة بـالخط الفينيقـى القرطاجى .

كما أقام الفينيقيون فى تونس أكثر من مركز تجارى ، فأقاموا مركـزا فـى مدينة أوتيكا أو عوتيقة (بمعنى القديمة أو العتيقة) تمييزا لها عن قرطاجة (قـرط حداشت) ، وذلك فى حوالى عام ١١٠١ ق. م . وقام بذلك أهالى مدينة صور وكانت قريبة من مصب نهر مجردة ولكن هذه المدينة العتيقة خربت وهجرها أهلها وغطتـها الرمال . وهناك أيضا مراكز أخرى فى بنزرته وسرته وغيرها .[٢]

قرطاجة :

يعتبر تاريخ قرطاجة جزءا هاما من تاريخ الفينيقيين (البونيقيين) نظرا لمـا حققوه ونظرا للدور الذى أدوه فى مواجهة قوة روما وما أنجـزه عظمـاء رجالـها وقوادها .

---

(١) د. أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشـرق القديـم ، ص ١١٤ ؛ د. فيليـب حتى : المرجع السابق ، ص ٨٧ ، ١٣٩ ، ١٦٠ ، ١٨٣ ، ١٨٦ – ١٨٧ .

(٢) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ١٠٤ – ١١٦ ؛ المؤلـف نفسه ، تاريخ لبنـان منـذ أقـدم العصـور التاريخيـة ، ص ١٣٨ – ١٤٨ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السـابق ، ص ٢٤٧ – ٢٥٠ ، ٢٤٨ – ٢٧٩ ، ٣٣٢ – ٣٣٣ ؛ د. أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ، ص ٦٧ – ٧٠ .

وتحكى الأساطير أن الفضل فى تأسيس قرطاجة يرجع إلى ابنة ملك صور فهى تروى أن متان حفيد ايتو - بعل أنجب ابنة تدعى اليسا وأبا يدعى بيجماليون . وأن اليسا اعتلت العرش فترة قصيرة ثم عزلت وأصبح أخوها بيجماليون ملكا على صور وقام بقتل زوجها فهربت إلى قبرص بعد أن تعرضت لبعض المتاعب ومن قبرص اتجهت إلى شمال أفريقيا ونزلت بالموقع الذى عرف فيما بعد باسم قرط حداشت وقد حرفه اليونان إلى " كارتاجا " والرومان إلى " كارثاجو " والعرب إلى قرطاج أو قرطاجة أى المدينة الجديدة .[1] وهناك أمكنها أن تؤسس مركزا تجاريا ومدينة بمعاونة أنصارها الصوريين .[2] ولم يعثر حتى الآن فى أطلال قرطاجة أو فى مدينة صور على ما يؤيد هذه الأسطورة .

ويذكر د. الناصرى أنها " أسست ما بين أعوام ٦٧٣ - ٦٦٣ ق. م . وليس كما كان يعتقد سابقا ما بين ٨٦٠ - ٨١٤ ق. م " .[3] اعتبرت نفسها جزءا من مدينة صور ، وكانت ترسل كل عام رسولا ليقوم بتقديم القرابين فى صور فى معبد " ملك - قارت " (ملقارت أى ملك القرية) . وكان المبعوث فى بدء الأمر يحمل معه أيضا هدية أخرى وهو ما يمثل عشر دخل المدينة الجديدة من التجارة .

---

(١) د. سيد الناصرى : تاريخ الرومان من القرية إلى الإمبراطورية ، دار النهضة العربية ١٩٧٦ ، ص ١٣٣ حاشية (١) .

(٢) د. أحمد فخرى : المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ؛ أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٤١ ، ٦٣ - ٦٦ . ويذكر د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ ، أنه عثر فى قرطاجة على بقايا مرسى حربى ومرسى داخلى آخر .

(٣) د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

لعبت قرطاجة دورا هاما فى تجارة البحـــر المتوســـط ، وانـــهالت عليـــها الثروة ، ويذكر د. الناصرى بهذا الصدد أنها " أصبحت من كبريات المراكز التجارية الفينيقية على ساحل البحر المتوسط ، بل أصبحت بدورها مؤسسة لعديد مـــن المـــدن التجارية فى جزيرة صقلية وفى أسبانيا وسردسنسا . وكانت عبارة عـــن قلعـــة لـــها حصن طبيعى يحمى السفن من هياج البحر ويحتمى من خلفها التجار والزراع مممـــا أعطاها السيطرة على غرب البحر المتوسط ومن ثم استحقت لقب " ملكة البحـــار " . " وكانت أشبه بجمهورية صغيرة تحكم بواسطة النبلاء والأشراف الذين حافظوا علـــى نقاء دمائهم الفينيقية " .[١] " ولم يكن البحر هو مصدر الثراء الوحيد لهذه الجمهوريـــة الصغيرة بل هيمنت على سهل غنى بالخيرات هو سهل " باجراداحى " وعلمت سكانه من البربر طريقة فلاحة الأرض وزراعتها . كما عمل بالزراعة الجنـــود المرتزقـــة الذين كانوا يكونون نواة جيشها وذلك بعد تسريحهم " .[٢] " وكان نظام الحكـــم فـــى قرطاجة يقوم على أربعة مؤسسات هى : الشوفيتيم وهما القاضيان اللـــذان ينتخبـــان سنويا ، ثم مجلس الشيوخ الذى كان يتكون من ثلاثمائة عضو ، ومجلس العامة ثـــم المحكمة العليا وكان عدد أعضائها مائة عضو ، وباستثناء مجلس العامة كان الأغنياء يسيطرون على أجهزة الحكم سواء كانوا تجارا أم إقطاعيين . وحتـــى قـــادة الجيـــش القرطاجى كانوا عادة من الأثرياء " .[٣] وأخذت قرطاجة بدورها تؤسس لها مراكـــز جديدة ، مثل المدينة التجارية التى أسسوها فى جزيرة " ايفيشا " بين سردينيا وأســـبانيا فى حوالى عام ٦٦٥ (؟) ق.م . كما أسسوا مركزا آخر على شواطئ مينوركا فـــى جزر البليار وأصبحت مراكبهم تمخر عباب البحر المتوسط فتربط بين مركز وآخـــر وبين المدن الناشئة وبين المدينة الأم صور . ولم تمض برهـــة مـــن الزمـــن حتـــى أصبحت مراكزهم منتشرة فى جميع البلدان المطلة على المتوسط .

---

(١) د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

وفى الواقع أن الفينيقيين أنشأوا علاقات تجارية مع جميع المدن بالموانئ فى الغرب ولم يكتف الفينيقيون بهذا الخط البحرى الهام فى البحر المتوسط فنجد أنهم استخدموا ميناء أيلة لمراكبهم القادمة من المحيط الهندى وجنوب الجزيرة العربية والتى كانت تنقل الأخشاب والنحاس لتعود بالذهب من بلاد أوفير (ربما عمان قديما أو ربما بلد آخر (؟)) وبالبخور والعطور والتوابل من جنوب الجزيرة العربية . وقد عثر على تمثال يشبه معبود صور ملقارت في خرائب عمريت فى مأرب عاصمة سبأ مما يدل على وجود الفينيقيين بالمنطقة .(١)

ويذكر الجغرافى سترابون أسماء جزيرتين فى الخليج العربى اسم إحداهما صور والأخرى ارواد فيهما هياكل تشبه الهياكل الفينيقية . ويضيف قائلا أن أهل هاتين الجزيرتين يعتبرون المدينتين الفنيقيتين المسميتين صور وارواد مركزين من مراكز التجارة ، وهذتا هو الأرجح .(٢)

كانت التجارة الفينيقية فى معظمها بحرية ، وكانت السيادة البحرية من نصيب صيدا أولا ، فمارست هذه الرئاسة على جنوب لبنان ، بما فى ذلك صور حتى عام ١١٧٠ ق. م . وما أن استهل القرن العاشر حتى أصبحت صور مدينة دويلة قوية . غير أنهم إلى جانب اهتمامهم بالتجارة البحرية يمارسون التجارة البرية أيضا ، فكانت لهم تجارة برمائية . وقد أنشأوا لهم طرقا برية تربط بين موانيهم على البحر المتوسط وبين محطاتهم البحرية فى منطقة الخليج . ومن أهم قواعدهم البرية كانت مدينة الرها (ورفا) واسمها الكلاسيكي ايدسا ، وربما كانت مدينة نصيبيين . كما اهتموا بطرق القوافل البرية التى تأتى من جنوبى الجزيرة العربية والتى تمر بمحاذاة الشاطئ شمالا مارة فى صور وصيدا وجبيل ومدن ساحلية أخرى فكانت القوافل البرية تسلك طرقا عبر الجزيرة العربية فالصحراء السورية إلى أن تنتهى إلى

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٣٦ – ١٣٧ ، ٢٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٣ –١٣٧ .

المناطق الشرقية من شاطئ البحر المتوسط . وكانت القوافل القادمة من سبأ ومعين وقتبان وحضرموت وحمير تمر من الفاو متجهة إلى اليمامة والخليج وبلاد الرافدين وبلاد الشام فكانت الفاو مركزا تجاريا واقتصاديا هاما فى وسط الجزيرة العربية وتربط بين جنوبها وشمالها وشمالها الشرقى .(١)

والقوافل التى كانت تغادر المدن الفينيقية كان باستطاعتها أن تسير شمالا فى محاذاة الشاطئ إلى اللاذقية ، أو أن تنحرف شرقا شمالى طرابلس إلى حمص . أما إذا كانت وجهة القوافل جنوبا فإنها تنحرف شرقا إلى المدن الداخلية عند مشارف صور .

أما الطرق التجارية البرية فكانت توجد فى شمالى سوريا وكانتا تتشعب إلى طريقين . الأول يسير باتجاه غربى إلى آسيا الصغرى والآخر شرقا مارا بشمال العراق القديم وإيران إلى الطريق الكبير المؤدى إلى مصادر الحرير إلى الهند والصين ، ثم إلى الشرق الأقصى .(٢)

بالإضافة إلى الدور الذى قام به الفينيقيون فى تنشيط تجارة العالم القديم والمراكز والمدن التجارية التى أنشأوها ، نجد أنه كان لهم دور هام فى نقل مختلف السلع والبضائع . وكان قوام التجارة البحرية بضائع أو مواد من نتاج أرضهم مثل الأخشاب والمنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية الأصباغ الأرجوانية ودباغة الجلود والفراء والزجاج والمصنوعات المعدنية وغيرها .

ولم يهتم الفينيقيون فقط بالمؤسسات التجارية فى الخارج بل اهتموا أيضا برحلات الكشوف الجغرافية عن طريق البر والبحر .

---

(١) د. رمضان عبده : تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته ، الجزء الثالث ، دار نهضة الشرق بحرم جامعة القاهرة ٢٠٠١ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ حاشية .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٧ - ٢١٣ .

فقام هانون القرطاجي برحلة بحرية للكشف عن سواحل أفريقيا كما جاء ذلك في وصف بليني[١] وكان معه ٦٠ سفينة و ٣٠ ألف رجل وتوجه إلى الشاطئ الغربي لأفريقيا ووصل حتى وسط خليج غانا ومرتفعات كمرون .[٢]

ولم تكن رحلة هانون هي رحلة الكشف الوحيدة ، فقد قام هيميلكو برحلة أبحر فيها إلى الشمال حول أيبيرية . وقد جاء وصف هذه الرحلة في كتاب جغرافي روماني من القرن الرابع الميلادي . وقد جاء وصف هذه الرحلة أيضا عند بليني وكان الغرض من رحلة هيميلكو بدون شك هو فتح طريق للتصدير في الغرب ، وغالبا جاء ذلك نتيجة لنفاذ المناجم الأسبانية . وليس لدينا أدلة قاطعة عن تفاصيل رحلته وغالبا ما وصل إلى إنجلترا . أما الرحلة الثالثة فقد أمر بإرسالها الملك المصري نيكاو الثاني وكان ضمن بحارتها جماعة من الفينيقيين الذين أبحروا إلى البحر الأحمر للطواف حول سواحل أفريقيا . وقد قاموا بهذه الرحلة في ثلاث سنوات . وكانوا يتوقفون كل عام بين موسم البذر والحصاد للتزود بالمؤن قبل الاستمرار في رحلتهم .

كما ذكر ديودور الصقلي أن بعض سفن قرطاجة قد أبحرت إلى المحيط الأطلنطي[٣] أما من ناحية الكشف البري الذي قام به الفينيقيون في الصحراء ، فقد ذكر كاتب يوناني من القرن الثاني الميلادي أن أحد القرطاجيين واسمه " ماجو " قد عبر الصحراء ثلاث مرات . وقد ذكر هيرودوت أن خمسة أشخاص من جماعة تسمى " ناسا موتز " قاموا برحلة عبر الصحراء الكبرى إلى مدينة يسكنها أقزام زنوج .[٤]

---

(١) د. أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ، ص ١١٦ ؛ د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٢٨٠ .

(٢) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٢٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣٢ – ٣٣٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٣٣ .

الحروب التي نشبت ضد المدن الفينيقية في الداخل ومراكزها التجارية في الخارج :

تعرض هدوء واستقرار المدن الفينيقية في الألف الأولى ق. م . للاضطرابات بسبب ظهور دولة آشور في الشرق كدولة قوية اجتاحت سوريا ولبنان وأخضعتهما لسيادتها . وعجل ذلك بزوال سيادة صور وعظمتها في القرن الثامن وأوائل السابع ق. م . وهى المدينة الرئيسية التى احتفظت بدور الريادة ، وظلت هكذا حتى قضى عليها نابوخذ نصر وانتقلت السيادة بعدها إلى صيدا . ومما ساهم في ضعف صور هو قيام المراكز اليونانية المنافسة لها . فانتقل مركز الثقل إلى قرطاجة التى كان عليها الآن أن تحافظ على المراكز التجارية الفينيقية وتحميها من الأعداء اليونان والرومان وذلك بفضل موقعها الجغرافى وقوة أسطولها البرى .

حملات الآشوريين :

تهيأت الفرصة أكثر من مرة لملوك آشور ، للتدخل فى شئون سوريا خلال الألف الأولى ق. م . وخاصة فى شئون مملكة سامال (اليوم زنجرلى) إحدى المراكز الهامة إلى جانب قرقميش على نهر الفرات ، والتى كانت تدخل ضمن التحالفات الحيثية .

حاول الآشوريون أن يجدوا منفذا لهم على البحر المتوسط فتقدموا بجيوشهم إلى الناحية الشمالية من فينيقيا واستطاعوا أن يخضعوا بعض المدن هناك .[1]

فعندما اعتلى تيجلات بلاصر الأول عرش آشور (١١١٢ - ١٠٧٦ ق. م) قام بحملة أخضع فيها سوريا العليا لسلطانه وفرض الجزية على أرواد سنة ١١٠٠ ق. م . وبيبلوس وصيدا . مع أنه من المرجح أنه لم يخض معركة فعلية ضد هذه المدن .

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٧٣ - ١٨٣ .

ولما اعتلى آشور ناصر بال الثانى العرش فى آشور (عـــام ٨٨٣ – ٨٥٩ ق. م) قام بالزحف على شمال سوريا فدخل لبنان وســار بجيشــه جنوبــا بمحــاذاة الشاطئ دون أن يلقى مقاومة تذكر . وقام بفرض الجزية على صور وصيدا وجبيــل وارواد . وذكر فى نقش له حفره على جدران معبد شيده فى عاصمته فيه الكثير مــن المبالغة ، ويقول فيه :

" لقد استوليت على معظم جبال لبنان وبلغت بحر آمورو ، البحر العظيــم . وقد غسلت الدماء عن أسلحتى فى الغمر العظيم ، وقدمت ذبائح مــن الغنــم لجميــع المعبودات . وقد دفع الجزية أهل الساحل اللبنانى : أهالى صــــور وصيــدا وجبيــل ومهلاتا (؟) وميزا (؟) وكيزا (") وآمورو وارواد (الجزيرة) دفعــوا جزيــة ذهبا وفضة وقصديرا ونحاسا وآنية نحاس وثيابا كتانية مزركشـــة زاهيــة الألــوان وقروط كبيرة وصغيرة وأبنوس وخشب الصندل وعاجا وأنياب بقر البحــر وتقلبــت منهم الجزية وارتموا على قدمى يقبلونها ". [١]

أما شالما نصر الثالث (٨٦٠ – ٨٢٥ ق. م) فقد حارب ملك ارواد لأنــــه خرج عن طاعته واضطرت ارواد إلى دفع الجزية ابتداء مــن حوالــى ســنة ٨٥٠ ق. م . وعثر فى بلاوات بصور على ألواح من البرونز تشير إلــى هــذه المعــارك وأغلب هذه الألواح محفوظ بالمتحف البريطانى بلندن . وهى تعدد المدن الفينيقية وقد جاء أهلها يحملون لملك آشور هداياهم . ففى سنة ٨٤٢ ق. م . استســلمت المــدن الفينيقية للسيطرة الآشورية اسميا وهذا ما يقوله شالما نصر الثالث نفسه : " وقد تقبلت الجزية من أهالى صور وصيدا . وقد دفع الجزيـــة ملــك العــبرانيين جيحــو بــن عمرى " .

وبعد أن اعتلى اداد نيرارى الثالث العرش فى آشور قام بحملة على ســوريا سنة ٨٠٥ ق. م ، وهى الحملة الوحيدة التى قام بها هناك . ثم نعمت سوريا وفينيقيــا

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٧٣ ؛ د. أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ، ص ٢٨ – ٢٩ ، ٣٥ – ٣٦ .

بعد ذلك بهدوء نسبى .

وحارب تيجلات بلاصر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق. م) فى فينيقيا إلا أنه ترك بيبلوس وارواد تتمتعان بنوع من الحكم الذاتى ، ولكنه فرض غرامة على جبيل وارواد وصور على إثر حملة قام بها سنة ٧٣٤ ق. م . فى فينيقيا .

وقد دفعت صور الجزية فى عهد ملكها احيرام الثانى الذى يظهر اسمه فى نص فينيقى عثر عليه فى قبرص . وتلى احيرام الثانى ملك يدعى ميتينا الذى دفع الجزية هو الآخر لملك اشور .

وهاجم شالما نصر الخامس (٧٢٦ - ٧٢٢ ق. م) ملك صور وصيدا المدعو ايلو - ايلى ، أما سبب غزو شالما نصر الخامس لصور فهو أن ملك صور استطاع أن يدمر أسطول الآشوريين ، وحاول شالما نصر محاصرة جزيرة صور ، إلا أنه توفى قبل أن يقضى عليها ، وكانت مياه الشرب المخزونة فى آبار المدينة تكفى احتياجات السكان الضرورية مدة خمس سنوات .[١] وهذا ما ساعدها على الصمود أمام هذا الحصار . وعندما تولى سرجون الثانى عرش آشور ، قام بعدة حملات فى سوريا وفى فلسطين فنجد أنه فى عام ٧٢٢ ق. م. تقريبا ، قام بتدمير مملكة السامرة لأن الفينيقيين كانوا يتعاونون معها عندما شعروا بقوة الآشوريين . وقام فى عام ٧٢٠ ق. م . بحملة ضد تحالف سورى ضم هامات وقضى على طوروس فى عام ٧١٨ ق. م . وضم قرقميش فى عام ٧١٧ ق. م . واتجه بعدها إلى اورارتو واستولى على عاصمتها . وعندما تمت له السيطرة على سوريا ، اتجه إلى بابل .[٢]

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

(٢) Contenau, les Civilisations du Proche- Orient, p 117. وأيضا :
د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٢٨ ، ٤٢ - ٤٣ .

جاء بعد ذلك سنحاريب (٧٠٤ - ٦٨١ ق.م) الذى استطاع أن يهزم ملك صور ايلو - ايلى عام ٧٠١ ق.م . وهرب الملك إلى قبرص حيث توفى هناك ونصب سنحاريب اتبعل (ايتو بعل) الثاني بدلا منه الذى كان ملكا لصيدا أيضا . وخلد سنحاريب ذكرى انتصاره هذا بإقامة لوح إلى جانب لوح رمسيس الثانى على صخور نهر الكلب . ولما توفى اتبعل ، جاء من بعده عبد . ملكوتى ملك صيدا الذى ثار على اسرحدون (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م) الذى تولى الحكم فى آشور بعد سنحاريب . وجرد أسرحدون حملة على صور عام ٦٧٨ ق.م . قام أثنائها بتدمير صور بعد أن فرض حصار عليها وجاء فى حولياته :

" أنا فاتح صيدا الواقعة على ساحل البحر ، ومخرب مبانيها ، أخذت حصنها وقذفت به إلى البحر ، وضربت مواضع مياهها ، وأمام جيوشى هرب ملكها (عبد ملكوتى) إلى وسط البحر كأنه سمكة فاصطدته وسط البحر وقطعت رأسه وشيدت مدينة أخرى وسميتها أسرحدون " . وجاء أن الملك أخذ غنائم كثيرة من صيدا منها الذهب والفضة والأحجار الثمينة . ولم يعثر علماء الآثار حتى أيامنا هذه على موقع مدينة اسرحدون هذه فى صور .(١)

ولما تولى آشور بانيبال العرش فى ٦٦٨ - ٦٣١ ق.م. قام بحصار صور عام ٦٦٨ ق.م . وكان من الصعب عليه الاستيلاء على المدينة لأنها كانت تقع على جزيرة ، وقد عقد صلحا وفرض عليها جزية وأخذ بنات الملك وبنات أخته كرهائن . ولكن آشور بانيبال لم يفعل بصور ما فعله سنحاريب بصيدا .

أما ارواد فقد جاء ملكها ياكن لو إلى ملك آشور حاملا إليه جزية من ذهبا وحريرا وسمكا وطيورا . ولما توفى هذا الملك ذهب أبناؤه العشرة إلى آشور يقدمون إلى ملكها فروض الولاء والطاعة .

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ٢٤٦ - ٢٥٤ ، ٣٠٨ ؛ د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٢٧٤ - ٢٧٧ .

أما عن نفوذ مصر السياسى فى فينيقيا فنجد أنه أصبح ضعيفا فى الألف الأولى قبل الميلاد فقد أرسل المبعوث المصرى ون امون إلى بيبلوس من قبل ملك مصر حريحور فى الأسرة الحادية والعشرين لكى يحضر أخشاب الأرز اللازمة لترميم القارب المقدس للمعبود امون ، ولكنه تعرض لعدة متاعب ومغامرات حتى وصل أخيرا إلى بيبلوس ، وتقدم بالتماسه إلى الملك زكر – بعل ، ونجده أنه تعوض لكثير من المصاعب حتى حصل على الأخشاب المطلوبة .[١] وفى القرون التى تلت عثر فى بيبلوس على تماثيل باسم الملكين ششنق الأول ، واوسركون الأول ، كانت مخصصة للمعبودة حامية المدينة .

وحاول الملك طهرقا ان يتحالف مع ملك صور فى عام ٦٧٢ ق. م . ولكن اسرحدون استطاع أن يقضى على هذا التحالف . وقد كشف فى زنجرلى التى تقع فى شمالى سوريا عن لوح صور عليه اسرحدون قابضا على حبل يجر به ملك مصر وصور من شفاههما . ولا يفهم من هذا النقش أن كلا الملكين قد وقعا فى الأسر ، ولكن المقصود منه هو تسجيل هزيمتهم فقط . وفى عصر الأسرة السادسة والعشرين عمل ملك مصر ابريس على استرداد هيبة مصر وسلطانها فى فلسطين وسوريا ، وحمل كل من صور وصيدا عبء الدفاع عن أنفسهما ضد البابليين الذين احتلوا مكانة الأشوريين . ولكن ملك بابل الكلدانى نابوخذ نصر الثانى (٦٠٥ – ٥٦٢ ق. م) استطاع هزيمة صور وأقام عليها أحد أنصاره وهو بعل الثانى (٥٧٤ – ٥٦٤ ق. م) وظلت صور تقاوم نابوخذ نصر ثلاثة عشر عاما حتى ضعفت فى النهاية وخضعت كما خضعت صيدا وغيرها .

---

(١) د. أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ص ١١٤ – ١١٥ .

فينيقيا تحت الحكم الفارسي :

عندما قضى الفرس على مملكة بابل الكلدانية في عام ٥٣٨ ق. م . وصلت الكارثة ببابل سنة ٥٣٩ ق. م . وبقيت القلعة والقصر الملكي يقاومان حتى آذار سنة ٥٣٨ ق. م . الهجوم الفارسي الضاغط ، واضطرت المناطق التي كانت خاضعة للإمبراطورية البابلية بما فيها سوريا وفلسطين أن تعترف بالحكم الفارسي الجديد . وأصبحت دويلات سوريا وفلسطين جزءا من إمبراطورية كبيرة تعتبر من أكبر الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم . وعادت المدن الفينيقية إلى الازدهار في ظل الحكم الفارسي . وقسم دارا الأول (٥٢١ - ٤٨٥ ق. م) مملكته الفارسية إلى عشرين ولاية كانت الولاية الخامسة تشمل فلسطين وسوريا وفينيقيا .[١] واختيرت صيدا لتكون عاصمة هذه الولاية الخامسة وجهزها الفرس بقصر فخم ليكون مقرا لحاكم الولاية الفارسي وقصرا لإستضافة الملك الفارسي في حالة قيامه بزيارتها كما أعدوا فيها حديقة . وقسم الفرس فينيقيا إلى أربعة أقسام تابعة لخمس مدن شبه مستقلة صيدا وصور وبيبلوس وارواد وجبيل .[٢] وكان ملك صيدا عند زيارة الإمبراطورية الفارسي يحتل المركز الأول بين ملوك المدن الفينيقية كما تمتعت دمشق باستقلالها وكانت تعتبر المدينة الرئيسية في سوريا في العهد الفارسي . وكان حكام المدن الفينيقية المستقلة تحت رقابة مسئولين عسكريين من الفرس لكي يضمنوا ولاءها واستمرارها في دفع الجزية للفرس .

---

(١) جاءت أسماء الولايات العشرين التي أخضعها الملك دارا في نقوش بيستون وبالنسبة للولاية الخامسة فقد ذكرت بعد مصر بالترتيب الذي ذكرناه ، راجع :
د. رمضان عبده : تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته ، الجزء الأول ، مكتبة زهراء الشرق ٢٠٠٠ ، ص ٩١ (٢) (٣) (٤) .

(٢) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٨٥ - ١٩٠ ؛
د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ٤٦ .

وكان يطلق على الولاية الخامسة اسم مرزبانة " عبر نهرا " وتدفع جزية مقدارها ٣٥٠ وزنة ، وهى جزية بسيطة نسبيا بالمقارنة بالجزية التى تدفعها الولايات الأخرى .

لقد أفاد الفرس من الفينيقيين وخبرتهم فى الملاحة . كما استخدم الفرس الفينيقيين في حملاتهم . غير أنهم رفضوا أن يهاجموا قرطاجة وقد أرضاهم قمبيز فلم يهاجم قرطاجة نظير قيامهم بتأدية ما عليهم من التزامات ووقوفهم معه .

وكان للفينيقيين أكثر من وقفة مع الفرس ، فقد حسموا نزاعا قام به يونانيو اسيا الصغرى فى عام ٤٩٨ ق. م . وقضت الفرق الفينيقية البرية على ثورة قامت في قبرص . وانهزم الأيونيون فى معركة بحرية عام ٤٩٤ ق. م . كما اشترك الفينيقيون فى حملة على بلاد اليونان عام ٤٩٠ ق. م . كما اشتركت قوات فينيقية فى إعداد حملة قام بها أكسركسيس . وقاموا بحفر قناة فى برزخ بين جبل آتوس والقارة وأبدوا قدرات فائقة في موقعة سلاميس عام ٤٨٠ ق. م . وأظهرت البحرية الفينيقية تفوقا كبيرا على اليونانيين حتى أجبروهم على الصلح المعروف باسم صلح انطالسيداس .[١]

وأقام الحكام الفارسيون فى مدينة صيدا كثيرا من القصور والمبانى ، وقد عثر فى أواخر القرن الماضى فى قلب المدينة على أجزاء من أعمدة وتيجان أعمدة فارسية الطراز وتوجد الآن فى متحف بيروت الوطنى .

وفى عام ٣٤٦ ق. م . قام ملك صيدا ثنيس بثورة ضد الوالى الفارسى فأثارت هذه الثورة غضب ارتاكسركسيس الثالث ، فسار على رأس جيشه وأحرق مدينة صيدا . وقد ذكرت المصادر القديمة أن أكثر من أربعين ألفا من سكانها قد ماتوا فى هذا الهجوم . وكان السبب المباشر فى هذه الكارثة ما قام به ملك صيدا من خيانة شعبه ومحاولة إرضائه لملك الفرس لينجو بحياته ، ولكنه لم ينج فى هذا

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٨٧ – ١٨٨ .

الهجوم ولقى نفس المصير .

وهكذا دمرت صيدا[١] وهذه هى المرة الثانية التى تمحى فيها صيدا من الوجود وكانت المرة الأولى على يد اسرحدون وفى عام ٦٧٨ ق. م . واستسلمت بقية المدن الفينيقية متعظة بمصير صيدا المفجع . وهكذا أصبحت المدينة التى كانت فيما مضى سيدة البحر المتوسط رمادا وحرم العالم المثقف مما كان فيها من وثائق هامة .

وعندما وقع النزاع بين الإسكندر والفرس ، وانهزم دارا قودمان فى معركة إسوس عام ٣٣٣ ق. م . لم يتابع الإسكندر عدون الهارب إلى الشرق بل اندفع الإسكندر باتجاه الجنوب ليؤمن سيطرته على البحر وعلى كل خطوط المواصلات وراءه . وكانت الأساطيل الفينيقية بعيدة عن صيدا ، وكانوا يحسون بانتهاء إمبراطورية الفرس ، فتسابق أهل المدن إلى التقرب للإسكندر فقابله سكان ارواد وجبيل وصيدا ما عدا صور التى سبقت أن تحدت شالما نصر وسرجون الثانى ونابوخذ نصر وبعد حصار دام سبعة اشهر من البر والبحر خضعت صور للإسكندر فى عام ٣٣٢ ق. م . وكان أهل صور يعتقدون أن حصونهم مانعة وأنهم فى مأمن لأن المدينة كانت تقع على جزيرة تحيط بها المياه . ولديهم أسطول قوى . ولكن الإسكندر القائد الممتاز قام بردم المجرى المائى بين الجزيرة والساحل ووصل إلى منتصف المجرى ، ولكن حاول أهل صور إقامة العقبات أمامه ، ولم يثن ذلك الإسكندر على عزيمته ، وأجبر أساطيل صيدا وجبيل وارواد وقبرص على الانضمام إليه وعندما علم أهل صور أن الإسكندر نجح فى الاستعانة بثمانين مركب حربيا أدركوا أن النهاية قد قربت فجمعوا النساء والأولاد والعجزة الذين لا يقدرون على المقاومة وأرسلوهم إلى قرطاجة . وظلت المدينة تصد هجمات الغزاة طيلة سبعة أشهر طوال وكان الإسكندر يقود معارك الحصار بنفسه واقتصرت مقاومة أهل

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٩٠ ؛ د. أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ١١٢ .

صور على استعمال القوس والقلاع . وأعدو مواكب نار صغيرة محملة بالقار والكبريت ومواد أخرى شديدة الاشتعال لقذفها على العمال الذين كانوا يقومون بردم المجرى المائى . وقاد المقاومة حامى المدينة ملكها عز - ملك . وأخيرا فى منتصف شهر تموز عام ٣٣٢ ق. م . استسلمت وقد قتل من سكان صور نحو ثمانية آلاف رجل سقطوا فى المعركة . وقام بصلب ألفى رجل على الشاطئ المقابل وبيعوا فى سوق النخاسة ٣٠ ألف نسمة كما تباع العبيد .(١)

ولم تتلق صور من قرطاجة المعونة التى كانت قد وعدت بها ونجح الإسكندر فى الاستيلاء عليها بعد مقاومة عنيفة ، وقد لجأ الملك والزعماء والمبعوثين القرطاجيين إلى معبد ملقارت للاحتماء به فعفا عنهم الإسكندر وأعيد بناء المدينة فى هيئة قلعة مقدونية استعمرها المقدونيون : ولم يكن الإسكندر على استعداد للتخلى عن صور نظرا لموقعها الاستراتيجى . ولم يرد الإسكندر مثيلا للمقاومة التى أبداها أهل صور فى أى مدينة أخرى فى حروبه فى آسيا .(٢)

ولكن من الجوانب السلبية لحملة الإسكندر أنه ساهم فى تدمير ثقافات شعوب الشرق القديم والقضاء على تراثها الأدبى المدون . فعلى سبيل المثال ، فبعد أن احتل مدينة صور البرية حاصر صور البحرية فقاومته وصمدت فى وجه الحصار مدة تسعة أشهر . وأصدر أمرا بهدم مدينة صور البرية فأقام من أنقاضها جسرا بريا من البر إلى أسوار صور البحرية التى احتلتها قواته . وسوت مبانيها بأرضها وكان من بين المبانى معابد المدينة ومكتباتها بمحفوظاتها الهائلة الغنية بالمؤلفات والوثائق ، التى حوت خلاصة معارف شعوب الشرق القديم . وتعرضت قرطاجة للمصير نفسه على يد الرومان ، الذين اتخذوا مما فعله الإسكندر بمدينة صور قدوة لهم فحرقوا هم أيضا قرطاجة بمكتبات معابدها ومحفوظاتها ثم سووها بأرضها ، ومن الصعب على المؤرخ وعالم الآثار المعاصر تصور فداحة الخسارة

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٩٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٥ - ١٩٧ .

التى لحقت بالحضارة الإنسانية وتراثها بسبب ما فعله اليونان والرومان فى صور وقرطاجة .[١]

وبعد وفاة الإسكندر عام ٣٢٣ ق. م . سقطت إمبراطوريته الشاسعة الأرجاء ، وظهرت أربع ممالك على رأس كل منها قائد من قواده الأربعة بطلميوس في مصر ، وسلوقس في بابل ، وانطيغونس فى آسيا الصغرى ، وانطيباتر فى مقدونيا .[٢]

وفى عام ٣٢٠ انتقل حكم فينيقيا إلى بطلميوس الأول مؤسس حكم البطالمة فى مصر وبعد خمس سنوات انتقلت فينيقيا من يد بطلميوس إلى يد انطيغونس حاكم اسيا الصغرى . وفى عام ٢٩٦ ق. م . انتقلت من يد انطيغونس إلى سلوقس الأول مؤسس المملكة السلوقية فى سوريا وأصبحت إنطاكية عاصمة للسلوقيين ومركز الحكم فيها . وبعد عشر سنوات انتقلت فينيقيا مرة أخرى من يد السلوقيين إلى البطالمة فى مصر وظلت فينيقيا أحيانا بكاملها وأحيانا أخرى ببعض أقسامها - خاضعة لمصر لمدة ثمانية وثمانين عاما (٢٨٦ - ١٩٨ ق. م) . وفى عهد البطالمة عادت صيدا مرة أخرى لتعلب الدور الرئيسى على مسرح الحياة السياسية وأخذت تصك نقودا باسمها وحكم فيها حكام من أسرها .[٣]

عادت فينيقيا لأكثر من مائة عام للحكم السلوقى مرة أخرى من ١٩٨ إلى ٨٢ ق. م .[٤] وأخذت صور تقيم المهرجانات والاحتفالات الموسمية على النمط الإغريقى وعندما أخذ نفوذ السلوقيين فى الأفول بدأت المدن الفينيقية التجارية تتأهب

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٩٧ - ٢٠٠ ؛ د. توفيق سليمان : أسطورة النظرية السامية ، الجزء الأول (دلالتها وتطوريها - حقيقتها فى التوراة - أسباب وضعها) ، بيروت ، دار دمشق ، ١٩٨٢ ، ص ١٩ .

(٢) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٧ - ٢١١ .

لنيل استقلالها وتوكيد ذاتيتها . وكانت الخطوة الأولى نحو نيل الاستقلال الذاتي أن تحصل كل مدينة على اعتراف بحصانتها وحقها فى الشراء والبيع وصك عملتها والحماية ضد عدو خارجى والإعفاء الكلى أو الجزئى من الضرائب التى كانت تفرضها السلطة ، وممارسة التحكيم القضائى واعتبار المدينة مأمنا للاجئين السياسيين الذين يأتون هذه المدن هربا من ظلم سياسى وقع عليهم . وأول مدينة نالت هذه الامتيازات ارواد ثم صور التى استقلت استقلالا تاما ، وأخذت بصك سلسلة من قطع النقود مختلفة القيم بعضها من الذهب ثم تلتها فى نيل الاستقلال بقية المدن الفينيقية : طرابلس وجبيل وصيدا ومرثوس وبيروت . وصكت نقودا باسمها ونجد على وجهى قطعة النقود رموزا لأسطورتين إغريقية وفينيقية وصور رؤوس ملوك سلوقيين .

وفى عام ٦٤ ق. م . دخلت فينيقيا تحت الحكم الرومانى وأصبحت جزءا من الإمبراطورية الرومانية . وأدى ضعف صور ووقوعها تحت الاحتلال الأجنبى أكثر من مرة إلى ضعف مركزها التجارى فى الخارج . فضعفت قرطاجة وانفصلت عنها سياسيا عام ٥٢٠ ق. م . وكان على قرطاجة أن تصطدم بمنافسيها فى التجارة الخارجية : اليونان والرومان .

الصراع بين قرطاجة واليونان : (١)

ترجع أسباب هذا الصراع إلى توسع الفينيقيون فى تأسيس المراكز التجارية فى حوض البحر المتوسط ونشاطهم الدؤب فى مجال التجارة . وظهر هذا الصراع فى القرن السابع قبل الميلاد وأصبح اليونانيون يشكلون خطرا كبيرا على المراكز التجارية الفينيقية . وأخذ اليونانيون يبحثون لأنفسهم عن أماكن لبسط نفوذهم التجارى . فاتجهوا إلى الأماكن التى لم تكن بها مراكز تجارية فينيقية مثل بعض المناطق فى جنوب إيطاليا ومنطقة الغال (وهى تقابل فرنسا الحالية) . ولم يجرؤا

---

(١) عن تطور هذا الصراع ، راجع : د. أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ، ص ٧١ - ٨٢ .

على الذهاب إلى ساحل شمال أفريقيا فيما بين سبرتس وجبل طارق حيث كانت المراكز الفينيقية أكثر سيطرة وقوة . ولم يكن اليونان هم الخطر الوحيد الذى يهدد المراكز الفينيقية بل أنها كانت عرضة لهجمات السكان المحليين وخاصة فى أوقات الضعف السياسى .

ويذكر أحد الكتاب الكلاسيكيين " ثوكوديدس " أن القرطاجيين حاولوا عبثا الحيلولة دون ان يؤسس اليونان فى ايونيا مركزا لهم فى مرسيليا . فقد منيت قرطاجة بهزيمة منكرة ولكن لا نعرف مكان الموقعة التى نشبت بين الفريقين حوالى سنة ٦٠٠ ق. م . ولا شك فى أنها كانت ذات نتائج بعيدة المدى حيث أتاحت لليونانيين الفرصة فى أن يتحكموا فى مركز ملاحى هام فى البحر المتوسط ، وهو مرسيليا وهو فى الوقت نفسه المنفذ لوادى نهر الرون .

وبعد هذا التاريخ فى حوالى سنة ٥٥٠ ق. م . نجح القائد القرطاجى " مالخوس " فى الانتصار على اليونانيين فى صقلية . وأخضع جزءا من الجزيرة ، ويبدو أنه تدخل فيها لتدعيم وضع المراكز الفينيقية التى كانت فى طرفها الغربى ، ثم توجه بعد ذلك إلى سردينيا ولكنه منى بهزيمة ساحقة على أيدى السكان المحليين .

ويشير أحد المصادر الكلاسيكية إلى أن مالخوس وفلول جيشه قد أبعدوا عن قرطاجة بعد هزيمته الأولى فى سردينيا ، فنفاه القرطاجيون من المدينة عقابا له . ولكنه ثار وحاصر قرطاجة وتمكن من احتلالها إلا أنه ما لبث أن اتهم فيما بعد بالاستبداد والاتجاه نحو الطغيان فقتل .

وقد تبعه فى الحكم ماجون مؤسس الأسرة الماجونية التى حكمت قرطاجة لمدة ثلاثة أجيال وقامت بسلسلة من الأعمال العظيمة التى أدت إلى تطور قوة المدينة . وأهم أعضاء هذه الأسر هما " هاميلكار " بن " ماجون " و " هاسدروبال " . وتحالف القرطاجيين والاتروسكيين[١] مما أدى إلى هزيمة الأيونيين الذين كانوا قد

---

(١) يذكر د. الناصرى ما يلى " كان الاتروسكيون يحتلون جزءا من إيطاليا قبل مجئ الرومان إليها . وكانوا يعتقدون أن أجدادهم عاشوا فى ليديا ===

اتخذوا من الاليا فى كورسيكا قاعدة لهم ومارسوا القرصنة حتى أضروا بتجارة البحر المتوسط . فلم يجد القرطاجيون الاتروسكيون بدا من التصدى لهم وهزموهم فى معركة الاليا البحرية سنة ٥٣٥ ق. م .

وكان هذا الحدث بالغ الأهمية لأنه أوقف التوسع اليونانى فى كورسيكا وسردينيا وقد أبرمت معاهدات لاقتسام مناطق النفوذ بين الاتروسكيين والقرطاجيين أصبحت بمقتضاها ايطاليا ، من جبال الألب إلى كامبانيا من نصيب الاتروسكيين بينما أصبحت المنطقة الواسعة فى الجنوب بما فيها المنطقة التى احتلها اليونان من نصيب القرطاجيين .

ولا شك فى أن التحالف بين القرطاجيين والاتروسكيين قد زاد من روح العداء ضد اليونان . وقاد شقيق ملك أسبرطة " دوريايوس حملة إلى أفريقيا ثم إلى صقلية . ففى نهاية القرن السادس ق. م . رسا دوريايوس فى مكان يبعد ١٨ كم جنوب شرقى ليبتيس وأخذ القرطاجيون فى التصدى له يعاونهم الأهالى لمدة ثلاثة أعوام إلى أن استطاعوا أن يطردوه ، فعاد إلى البلو بونيز ولكنه سرعان ما عاد إلى صقلية حيث أسس بالقرب من جبل ايريكس مدينة سماها هراقليا وللمرة الثانية يتصدى له القرطاجيون وهزموه وقتلوه ودمروا هراقليا وقد عاونهم فى ذلك أهل اليمى (سكان منطقة صقلية) . وفى عام ٥٠٥ ق. م . ظهرت روما كجمهورية مستقلة وأبرمت مع قرطاجة معاهدة حددت فيها مناطق النفوذ لكل منهما . ويتبين من

= غرب آسيا الصغرى وأنهم هاجروا إلى إيطاليا تحت وطأة مجاعة اجتاحت وطنهم الأصلى . وعلى أى حال استوطن الاتروسكيون السهل الواقع شمال سهل لاتيوم وأقاموا فيه حضارة من أبرز حضارات العصور القديمة إذ بنوا المدن وعمروها وبلغ عدد مدنهم اثنتى عشرة مدينة أقامت فيما بينها اتحادا له مجلس شعبى كبير يعقد مرة كل عام فى إحدى الأماكن المقدسة " ، راجع : د. سيد الناصرى : تاريخ الرومان من القرية إلى الإمبراطورية ، دار النهضة العربية ١٩٧٦ ، ص ٥٦ - ٥٧ .

نصوص هذه المعاهدة أن قرطاجة كانت تمثل قوة لها مكانتها فــــى غربــى البحــر المتوسط .

كان تيريللوس حاكم هيميرا فى صقلية حليفــا لقرطاجــة وتعــرض حكــم تيريللوس للهزيمة بسبب هجوم ثيرون عليه وعلى ذلك أرسلت حملـــة إلــى هيمــيرا لنجدته ورأس هاميلكار بن ماجون الحملة مبحرا فى قرطاجة على رأس أسطول كبير ورغم هبوب عاصفة شديدة حطمت السفن التى تحمل الخيول والعربات اســتطاع أن يرسو فى بالرمو ومنها اتجه إلى هيميرا وفى المعركة انتصر ثيرون وتوفى هاميلكار فى المعركة وقتل جنوده أو استبعدوا وحرق أسطوله فى عام ٤٨٠ ق. م .

وعقب هذه الهزيمة نفى القرطاجيون أهم أعضاء أســرة مــاجون : هــانو وجيسكو ، وغيروا السلطة الحاكمة التى استمرت ثلاثة أجيال وقادتهم إلــى حــروب متواصلة حيث شكلوا سلطة حاكمة من مائة شخص وفى الوقت نفســه تغـير لقـب ووظيفة الملك إلى لقب قاضى . وفى خلال هذه الفترة أخذ القرطاجيون فى التوســع داخل أفريقيا والنهوض بالزراعة خلال القرن الخامس قبل الميلاد . كما أنهم عملــوا على تقوية اتصالاتهم ومدها إلى خارج دولتهم . ففى القرن الخــامس ق. م . قــاموا برحلات طويلة فيما وراء أعمدة هرقليس وجبل طارق ، بقيادو القائد هيميلكو الــذى أبحر بجوار سواحل أسبانيا وفرنسا إلى كورنوال رغبة على ما يبدو فــى الحصــول على موارد لم يمكن الحصول عليها من أوروبا بطريق الــبر مثــل القصديــر إذ أن اليونانيين قد قطعوا عليه كل الاتصالات البرية باحتلالهم مارسيليا .

وحدث أن استنجدت مدينة سيجيستة بقرطاجة عندما تعرضت لتهديد مدينــة سيلينونته ، فأرسلت قرطاجة جيشا إلى صقلية بقيــادة هانيبــال وهــو أحــد خلفــاء هاميلكار . ودمر هانيبال مدينة سيلينونته وهيميرا وقتل آلاف من الأسرى فى المكــان الذى سبق أن هزم فيه هاميلكار . وبعد وقت قصير أرسلت حملة قرطاجية جديدة فــى عام ٤٠٦ ق. م . بقيادة هانيبال أيضا وهيميلكــو وهــاجمت اجريجنتــوم وهزمتــها ودمرتها بعد حصار طويل وقد توفى هانيبال بالطاعون ولكن هيميلكو اســتمر

فى المغامرة ودمر بعد ذلك مباشرة مدينة جيلا ، وهكذا أصبحت صقلية اليونانية مهددة بأكملها .

وكان رد فعل اليونان سريعا بزعامة ديونيزيوس حاكم سيراكيوزة الذى أنهى حالة السلم مع قرطاجة سنة ٤٠٥ ق. م . ولكى يقوى من مركزه تحرك للهجوم فأحرز عدة انتصارات وأخضع موتيا وخربها سنة ٣٩٨ ق. م . وظلت الحرب غير متكافئة فتدخل الأسطول البونيقى بقيادة هيميلكو وهزم ديونيزيوس فى معركة بحرية بالقرب من كاتانيا ثم حاصره فى سيراكيوزة ولكن ديونيزيوس استطاع أن ينجو نظرا لانتشار وباء أو عدوى فى الجيش القرطاجى سنة ٣٩٦ ق. م . ثم حدثت بعد ذلك معارك بينهما فى سنة ٣٩٣ ق. م . وفى سنة ٣٩٢ ق. م . انتهت بعقد معاهدة ، وتلت ذلك معارك أخرى فيما بين سنة ٣٨٢ و ٣٦٧ ق. م . وبوفاة ديونيزيوس كان سلطان قرطاجة قد امتد إلى نحو ثلث صقلية .

واستؤنفت المعارك بين القرطاجيين واليونان فى عهد تيموليون الكورنثى الذى أحرز نصرا كبيرا على نهر كريميسوس سنة ٣٤٠ ق. م . وأبرم فى السنة التالية ٣٣٩ ق. م . معاهدة بمقتضاها أصبحت الحدود عند نهر هيميرا وهاليكوس . وفى سنة ٣٣٢ ق. م . سدد الإسكندر الأكبر ضربة قوية للفينيقيين فى سوريا حيث احتل صور بعد حصار طويل . ولابد أن القرطاجيين خافوا على مستقبلهم ولكن من المؤكد أن وفاة الإسكندر فجأة وضعت نهاية لمشروعاته وبددت مخاوفهم .

كان على قرطاجة أن تواجه خطرا آخر لم يكن متوقعا ، حيث أن اجاثوكليس حاكم سيراكيوزة الذى بدأ حكمه تحت سيادة القرطاجيين سرعان ما انقلب عليهم ولكنهم هزموه وحاصروه فى مدينته سنة ٣٣٠ ق. م . وحينئذ قام بتنفيذ خطة غاية فى الجرأة حيث هاجم أفريقيا بقوة مؤلفة من ١٤ ألف رجل تحملها ٦٠ سفينة حربية أبحر بها سرا ليتفادى الأسطول البونيقى ورسا قرب رأس بون ثم أشعل النيران فى سفنه واتجه بعزم نحو قرطاجة ولم يلق رجاله أدنى مقاومة وعسكر بالقرب من قرطاجة التى أرسلت جيشا لمقابلته ولكنه أوقع بهذا الجيش هزيمة ساحقة . وعندما رأى اجاثوكليس أن بطلميوس الأول عين اوفيلاس (وكان من

الحرس الخاص بالإسكندر) محافظا على المدن اليونانية فـــى ســـيرينايكا (برقـــة) عرض عليه أن يتحالف معه ضد القرطاجيين على أن يحكم اوفيلاس شمال أفريقيـــا بينما يحكم اجاثو كليس صقلية . وعندئذ تقدم أوفيلاس على رأس ١٠ آلاف رجل إلـــى معسكر اجاثو كليس . ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الحلفين فدبر اجـــاثو كليـــس مكيدة لاوفيلاس وقتله وتملك جيشه .

وفى الوقت نفسه تعرضت قرطاجة لأزمة داخلية حيث كان بوميلكار يناضل من أجل الحصول على سلطة مطلقة ولكنه قتل ، وقد انتهز اجاثو كليس هذه الفرصـــة واستولى على اوتيكا وهيبواكرا التى عرفت فيما بعد باسم بيزرتا . وحينئ١ بدأ فـــى بناء أسطول وأبحر فى الوقت إلى صقلية بجيش صغير ليحرر سيراكوزة ولكن تغيبـــه أدى إلى كارثة فقد هاجم القرطاجيون قواته التى تركها بأفريقيا وهزموها وتمكنوا مـــن إعادة حلفائهم السابقين إلى جانبهم ، وعاد اجاثو كليس مسرعا إلى أفريقيـــا وحـــاول عبثا أن ينقذ الموقف ولكنه فشل ففر إلى صقلية بينما توصلت قواته إلى الاتفاق مـــع القرطاجيين وسرعان ما أبرمت قرطاجة معاهدة مع أجاثو كليـــس ســـنة ٣٠٥ ق. م. أدت إلى نهاية الحرب بينهما وبمقتضاها احتفظت قرطاجة بكل ممتلكاتها فى أفريقيـــا وفى صقلية إلى نهر هاليكوس . بينما حصل اجاثو كليس علـــى كميـــة مـــن المـــال كتعويض رمزى على مناطقه التى تركها .

وهكذا كانت قرطاجة أول دويلة دفعت بأفريقيا إلى لعب دور فـــى تـــاريخ البحر المتوسط القديم وأصبحت رمز المقاومة ضد اليونان ثم الرومان من بعدهم فـــى عالم الغرب .

الصراع بين قرطاجة والرومان : [١]

بدأت روما تظهر كقوة ذات شأن فى بداية القرن السادس ق. م. وفى عـــام ٥٠٦ ق. م. أبرمت روما مع قرطاجة أول معاهدة حددت مناطق النفوذ لكل منـــهما .

---

(١) عن طبيعة هذا الصراع ، راجع : المرجع السابق ، ص ٨٣ - ٩٧ .

وذلك لأن أبدت اهتمامها بوسط إيطاليا ولذا أبرمت روما المعاهدة معها ، وبمقتضاها وافقت قرطاجة على عدم التعرض لمدن لاتينية معينة سواء كانت خاضعة لروما أو لم تكن وأن لا تبنى حصنا فى لاتيوم شمال روما .

والمعاهدة الثانية التى أبرمتها قرطاجة مع روما سنة ٣٤٨ ق. م. ذات أهمية خاصة لأنه يتبين من نصوصها التى أوردها بوليبيوس أن نفوذ قرطاجة امتد إلى شمال أفريقيا وأسبانيا .

وعقدت معاهدة ثالثة تجديدا للمعاهدتين السابقتين سنة ٣٠٦ ق. م. ثم عقدت معها حلفا ضد عدوهما المشترك بيروس سنة ٢٧٩ ق. م.

ولكن حدثت نزاعات بين روما وقرطاجة من أجل السيطرة على جزيرة صقلية والسيادة على غرب البحر المتوسط . وكان لابد من اصطدام قواتهما ودارت بينهما حروب اشتهرت بالحروب البونيقية التى بدأت فى القرن الثالث ق. م.

الحرب البونيقية الأولى (٢٦٤ - ٢٤١ ق. م) :

أطلق الرومان على القرطاجيين اسم " البونيقيين " وهى تحريف لغوى لتميزهم عن أجدادهم الفينيقيين . ومن ثم عرفت هذه الحروب باسم الحروب البونيقية .[١]

أرادت روما أن تقضى على نفوذ قرطاجة فى صقلية بعد أن استولى جماعة من الجنود المرتزقة الصقليين على الحكم فى مدينة ميسانا وأصبحوا مهددين من قبل ملك مدينة سيراكوزة زعيمة المدن الإغريقية فى صقلية . ومن ثم أسرع هؤلاء الجنود إلى طلب النجدة من كل من قرطاجة وروما فى آن واحد . ولكن قرطاجة كانت أسرع فى تلبية هذا النداء وخاصة بعد عودة بيروس إلى اليونان فأخذت

---

(١) د. سيد الناصرى : تاريخ الرومان من القرية إلى الإمبراطورية ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦ ، ص ١٣٦ .

قرطاجة تبسط سيادتها على جزيرة صقلية بأكملها بما فيها مدينة ميسانا المقابنة لجنوب ايطاليا ، إذ رأت روما فى ذلك خطرا يتهددها ، هذا بالإضافة إلى أن قرطاجة كانت تبسط نفوذها على سردينيا مما جعلها تتحكم فى غرب البحر المتوسط . وعندما رأى القرطاجيون أن الرومان يسعون لتكوين قوة بحرية لهم . حدثت المواجهة بين القوتين وتمكنت القوة البحرية الرومانية الناشئة عن الانتصار فى سنة ٢٦٢ ق. م . ولكنها هزمت سنة ٢٥٩ ق. م . وظلت المناوشات بين الفريقين سجالا إلى أن عزمت روما على نقل الصدام إلى الأرض الأفريقية سنة ٢٥٦ ق. م. وتوجه الرومان إلى المغرب ونجحوا فى النزول بموقع شرق عناية الحالية وأصبحوا بذلك يهددون أن قرطاجة . واستدعى القرطاجيون هاميلكار - بارقا من صقلية واختاروا قائدين جديدين واستطاعوا هزيمة الرومان فى المغرب وأسروا القائد الرومانى رجولوس سنة ٢٥٥ ق. م . واستعادوا سيادتهم فى المغرب . حاول الرومان للمرة الثانية سنة ٢٥٢ ق. م. النزول إلى الساحل القرطاجى ولكنهم فشلوا فى ذلك فتحول اهتمامهم إلى صقلية حيث تمكنوا من الانتصار على القرطاجيين والسيطرة على صقلية تماما وإدخالها فى ممتلكات الجمهورية الرومانية عام ٢٤٢ ق. م ، وانتقل الصراع إلى البحر وهنا نجد أن القرطاجيين ينجحون فى أسر عدد من السفن الرومانية ، ثم اتجهوا إلى تدعيم قوتهم فى صقلية حيث أرسلوا إليها قوة جديدة تصدى لها الرومان وأوقعوا بها الهزيمة سنة ٢٤١ ق. م.(١)

واضطرت قرطاجة إلى عقد اتفاقية سلام مع روما للمرة الرابعة وأمنت على القرطاجيين شروطا قاسية منها الجلاء عن صقلية وعدم مهاجمتها ودفع غرامة مالية كبيرة لروما على مدى عشرين عاما .

وكان ذلك سببا فى ضعف مركز قرطاجة على الساحل الأفريقى فتمرد عليها بعض حلفائها الليبيين كما تمرد جنودها المرتزقة فحاربتهم بقيادة هاميلكار-

---

(١) عن تفاصيل هذه الحرب الأولى ، راجع : د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٣٦ - ١٣٩ .

بارقا لمدة ثلاث سنوات حتى أخضعتهم ، وفى أثناء ذلك انتهزت روما الفرصة وبسطت سلطاتها على سردينيا وكورسيكا . ويذكر د. الناصرى :

" كان القرطاجيون يستعدون لجولة جديدة مع الرومان بعد أن عاد إليهم الأمل فى النصر على يد قائدهم الفذ هاميلكار - برقا فقد كان جنديا بارعا ومخططا وموهوبا سياسيا واشترك فى الجولة الأولى ضد الرومان وألحق بهم عدة هزائم . وأدرك هذا القائد الفذ أن قرطاجة الأفريقية قد أصابها الضعف ، فقرر أن ينقل جبهة القتال إلى أسبانيا ، تلك الأرض العذراء ذات المصادر الغنية والعامرة بالرجال الأشداء حيث يستطيع تجنيد جيوشا منهم لكى يهزم الرومان " .[١]

الحرب البونيقية الثانية (٢١٩ - ٢٠٢ ق. م) :

أرادت قرطاجة أن تعوض ما فقدته من نفوذها فى أثر الحرب البونيقية الأولى فاتجهت إلى بسط نفوذها فى أسبانيا ، واختارت قائدها هاميلكار - بارقا لينفذ هذه السياسة ، وبالفعل غادر هاميلكار - برقا قرطاجة إلى أسبانيا عام ٢٣٦ ق. م. ومعه ولده هانيبال (الذى كان فى التاسعة من عمره) إلى أسبانيا وفى نيته أن يهاجم إيطاليا بالاتجاه من أسبانيا إلى جنوب فرنسا فإيطاليا . ومن الأساطير ما ينسب إليه أنه جعل ولده يقسم فى معبد الرب بعل - مولوخ على أن ينذر حياته للانتقام من روما وبعد أن وصل إلى أسبانيا أنشأ قرطاجة الجديدة التى عرفت باسم " قرطاجنة " ومن هذه المدينة أخذ يشن حربا بلا هواده ضد الرومان حتى سقط قتيلا فى إحدى المعارك عام ٢٢٨ ق. م .[٢] وقد نجح هاميلكار - بارقا فى نشر نفوذ قرطاجة فى أسبانيا بعد كفاح ثمانية أعوام اعتمد فيها على الدبلوماسية أكثر من اعتماده على الأساليب الحربية حيث استطاع أن يقنع القبائل التى تقطنها بحياة الاستقرار والرواج الاقتصادى فى ظل قرطاجة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٢) د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

وبعد مقتل هاميلكار – بارقا خلفه زوج ابنته هاسدروبال ولكنه لم يبق طويلا إذ اغتيل بعد سبع سنوات من توليه . عندئذ اجمع الجيش القرطاجى على اختيار هانيبال ابن هاميلكار – برقا قائدا وزعيما فى أسبانيا .[1] وفي سنة ٢٢٦ ق.م اخذت روما تبدى قلقها من تطور الموقف فى أسبانيا حيث كانت لها مصالح فى شمالها الشرقى ولما امتد نفوذها القرطاجى فى أسبانيا شمالا ازداد قلق مدينة مساليا وأرسلت إلى روما محتجة على اعمال هاسدروبال فقامت روما بإرسال بعثة لتحرى الحقائق وتم الاتفاق للمرة الخامسة فى سنة ٢٢٦ ق.م على أن لا يتعدى هاسدروبال نهر ابرو شمالا . وهكذا هذا الاتفاق بمثابة اعتراف من روما بقيام ولاية قرطاجة فى أسبانيا .

وعندما تولى هانيبال كان يبلغ من العمر الخامسة والعشرين وكان يتمتع بقوة الشخصية وقوة التحمل والجلد . وحينما تولى هانيبال القيادة فى أسبانيا اخذ يتحين الفرصة لشن حرب على روما ومهاجمة إيطاليا ، وهاجم مدينة ساجنتوم التى كانت حليفة لروما سنة ٢١٩ ق.م وحاصرها لمدة ثمانية أشهر حتى سقطت فى يده ، فلما احتجت روما على ذلك رفض احتجاجها مما ادى إلى إعلانها الحرب على قرطاجة سنة ٢١٨ ق.م.

غزو هانيبال لإيطاليا :

ترك هانيبال أخاه الذى كان يدعى هاذروبال [٢] أيضا فى أسبانيا للإشراف عليها وليرسل له الإمدادات بانتظام ، وفي سنة ٢١٨ ق.م خرج من أسبانيا قاصدا إيطاليا على رأس جيش قوامه تسعين الفا من جنود المشاة الأسبانيين والقرطاجيين واثنى عشرة الفا من الفرسان النوميديين (الجزائريين) وفرقة تتكون من سبع

---

(١) د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٢) سوف يقتل هذا الأخ فيما بعد فى معركة عند شاطئ نهر ميتاوروس ، على يد كلاوديوس نيرون وليفيوس ، راجع : المرجع السابق ، ص ١٥٠ – ١٥٢ .

وثلاثين فيلاً مدربا جئ بهم خصيصا من افريقيا .[١] ، وصل هانيبال إلى باسيليا (مارسيليا الحالية) ولكنه لم يستمر فى تقدمه على الساحل حتى لا تتعثر خطته فى الهجوم على إيطاليا إذا ما قابله الرومان ، بل اتخذ طريقا وعرا استنفذ منه جهدا كبيرا فى نقل قواته وعتاده عبر جبال الألب ، واستطاع بعد التعرض لكثير من المتاعب وقسوة المناخ ان يعبرها فى خمسة أشهر وتعد هذه العملية من اعظم الأعمال العسكرية فى التاريخ ولم تتكرر إلا مرة واحدة بعد ذلك عندما قام بونابرت بغزو إيطاليا .

وبعد ذلك عبر الألب ونزل إلى حوض نهر البو حيث كان الروسان يتجمعون للقائه وكانت جيوشهم تفوق جيوشه عدة أضعاف . وعلى أرض إيطاليا وقعت ثلاث معارك : موقعة نهر تريبيا سنة ٢١٨ ق.م ، وموقعة بحيرة تراسيمينوس سنة ٢١٧ ق.م ومعركة كاناى عام ٢١٦ ق.م . ففى المعركة الأولى انتصر هانيبال على الرومان انتصارا باهرا مما كان له اثره البالغ على موقف هانيبال فبعد ان كان يتعرض لكيد القبائل فى المناطق المرتفعة فى شمال إيطاليا أعلنوا له ولاءهم وبذلك اكتسب صداقتهم واطمأن إلى أنه سيستعين بهم كجنود فى جيشه وإلى انه سيضمن سلامة الاتصال بينه وبين أسبانيا حيث أصبح طريقه إليها آمنا لا تهدده هذه القبائل .[٢]

وفى موقعة بحيرة تراسيمينوس دمر جيشين للرومان وبذلك أصبح الطريق إلى روما مفتوحا أمامه . وتسببت هذه الهزيمة فى حدوث أزمة حادة فى المجتمع الرومانى ، وتم اختيار السناتو فابيوس – Fabius لمجابهة هانيبال ، وفى الوقت نفسه حرص على ان يبعد هانيبال عن روما بقدر الإمكان فاخذ يهاجم جيشه ومعسكره بجماعات صغيرة ، أى انه اتبع حرب العصابات مما عرقل تقدم هانيبال وأزعج جنوده . وقد

---

(١) د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٤ – ١٤٨ .

نجحت هذه الخطة حيث جنب روما هزيمة كبيرة ولهذا لم يستطع هانيبال ان يحاصر روما لعدم توافر أسلحة حصار للمدن معه ، فاتجه إلى الجنوب رغبة فى الاستيلاء على إيطاليا بأكلمها . وضاق الرومان بأسلوب فابيوس فى الحرب وعين السناتو لوكيوس ايميليوس باولوس وجايوس تيرنتيوس فارو قنصلين وأوكلت إليهما مهمة الحرب ضد هانيبال على رأس جيش قوامه ٨٠ ألفا من الجنود ، اتجه هذا الجيش إلى الجنوب لمقابلة الجيش القرطاجى المكون من ٥٠ ألف جندى والتقى الجيشان عند كانأى فى جنوب شرقى إيطاليا ولكن هانيبال نصب كمينا للجيش الرومانى فأسقط فى يد الرومان الذين أحيطوا من كل جانب بقوات ليبية وفقدوا السيطرة على حركاتهم واستعمال الأسلحة التى بأيديهم استعمالا مجديا ولم ينجح منهم فى الفرار سوى ١٠ آلاف رجل ومعهم فارو ، بينما قتل الاخرون هم والقنصل باولوس وثمانين عضوا من أعضاء السناتو .[١]

وبعد هذه المعركة كما يذكر د. الناصرى " جاء هانيبال إلى كاناى " لكى يتفقد ميدان المعركة تعلوه ابتسامه الرضا والزهو . وفى اثناء ذلك عرض عليه مساعده ماهرابال قائد فرسانه النوميدى ان يأذن له بالانطلاق إلى روما واعدا إياه ان يجعلها تجثو على ركبتيها وان يجعل هانيبال يشرب نخب النصر فيها بعد خمسة أيام فقط " .[٢] لكن هذا الأخير رفض إلا ان ينفذ خطته فى الاستيلاء على إيطاليا أولا وان يشجع حلفاء روما على التمرد عليها حتى تضطر إلى التسليم فى النهاية .

ويكمل د. الناصرى " فصاح ماهرابال فى وجه سيده قائلا :

" انك تعرف يا هنيبال كيف تحرز نصرا ولكنك لا تعرف كيف تستخدم مثل ذلك النصر " ولكن هانيبال كان يعرف جيدا عواقب هذه المخاطرة لطول الطريق إلى روما ، فهو طريق جبلى وعر يسيطر على جانبيه حلفاء روما مما قد يجعل من

---

(١) د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

رجاله صيدا ثمينا للكمائن " .[١]

وعلى الرغم مما بذله السناتو من جهود لإثارة حماسة الرومان فى مقاومة غزو هانيبال ورغم تحصين المدن الرومانية فإن معركة كاناى كانت ذات اثر بعيد المدى فأكثر حلفاء روما من الإيطاليين وخاصة فى الجنوب احتجوا على روما ، فانسلخت سيراكيوزة فى صقلية عن حلفها مع روما ، وأعلن فيليب الخامس ملك مقدونيا انه سيعقد حلفا مع هانيبال لأن السناتو الرومانى حاول التدخل فى شئون شبه جزيرة اليونان ، وأمام هذه المتاعب اجتهد الرومان فى منع قيام هذا الحلف واستطاعوا إثارة حرب أهلية فى اليونان تحالفت فيها ايتوليا وأسبرطة وبرغاما ضد مقدونيا وشغلت هذه الحرب مقدونيا نحو تسع سنوات انتهت بهزيمتها سنة ٢٠٦ ق.م. وارغم فيليب على الصلح .

وفى النهاية وجد هانيبال نفسه فى موقف صعب إذ عجز عن فتح المدن الإيطالية المحصنة التى ظلت على ولائها لروما ، وفى الوقت نفسه كان عليه ان يدافع عن المدن التى ثارت على روما وانحازت إليه . وبدأ الرومان يسترجعون المدن التى ثارت ضدهم مبتدئين بتلك التى فى صقلية . وبالفعل سقطت سيراكيوزة فى أيدى الرومان بعد حصارهم الطويل لها . ثم انتقل الرومان بعد ذلك إلى جنوب ايطاليا حيث حاصروا مدينة كابو بثلاثة جيوش ، فحاول هانيبال أن يفك حصارها بتحويل أنظارهم للدفاع عن روما ، التى نصب خيمته على بعد ثلاثة أميال منها . وبدأ الهجوم عليها ولكنه لم ينجح فى حصارها لعدم وجود آلات حصار معه . وسقطت كابو بعد قتال مريرا راح ضحيته كثيرون من الطرفين سنة ٢١١ ق.م . وفى العام التالى تمكن الرومان من استرداد تارينتوم أيضا . وبعد هذه الانتصارات نقل الرومان جزءا من جيوشهم إلى أسبانيا التى كان موقفهم فيها حرجا .[٢]

---

(١) د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

وفى تلك الأثناء عينت روما أثنين من كبار أسرة سكيبيو لقيـادة الجيوش الرومانية فى أسبانيا ولكنهما هزما وقتلا سنة ٢١١ ق.م على يد هاذدروبال القائد القرطاجى فى أسبانيا . وعينت روما قائدا جديدا هو الذى عرف باسم سكيبيو الأفريقى الذى أظهر مهارة فائقة فى قتاله فى أسبانيا مما عوض الرومان كثيرا من خسائرهم وعادت الثقة إلى نفوسهم . وفى سنة ٢٠٩ ق.م هاجم هاذوروبال هجوما خاطفا كان من نتيجته ان استولى على مدينة قرطاجنة الجديدة عاصمة القرطاجيين فى أسبانيا واتجه إلى إيطاليا برا ليقف إلى جوار أخيه هناك لعلمه بانه فى حاجة لمزيد من الجنود والإمدادات ، وأدرك الرومان خطورة انضمام الجيشين القرطاجيين معا فى ايطاليا حيث يصبح أمل روما فى النصر ضعيفا وخاصة لن حروبها الطويلة استنزفت مواردها ودمرت أراضيها .

ورغم حرج موقف هانيبال استطاع ان يصمد فى إيطاليا لمدة عامين بعد سنة ٢٠٧ ق.م . ولكنه لم يحرز نصرا بالطبع لعدم وصول إمدادات إليه وأصيب باليأس وعاد إلى قرطاجة بعد ان قضى فى حروبه خمسة عشر عاما دون هزيمة واستولى على إيطاليا بأسرها ودمر نحو ٤٠٠ مدينة . اما سكيبيو القائد الرومانى الشاب فقد اخضع أسبانيا بأسرها واتجه إلى قرطاجة لمحاربة هانيبال فى عقر داره ، وساعده الحظ بقيام ثورة من الجنود المرتزقة فى جيش قرطاجة أثناء المعركة التى دارت عند زاما بالقرب من قرطاجة وتخلوا عن هانيبال الذى منى بهزيمة فادحة سنة ٢٠٣ ق . م . وكانت هذه أول وآخر مرة يهزم فيها وعلى أثرها فر هانيبال إلى الشرق حيث تعاون مع ملك ليديا فى حربه ضد الرومان ولكن هؤلاء انتصروا على الليديين فانتحر هانيبال سنة ١٨٢ ق.م واعترف الرومان بان هانيبال قام يوم معركة زاما الكبرى بكل ما فى استطاعة البشر القيام به .[١]

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٢ ـ ١٥٤ . وعن مسئولية وأسباب اندلاع الحرب البونيقية الثانية ، راجع : المرجع السابق ، ص ١٥٤ ـ ١٦٦ .

يذكر د. الناصرى ان " القائد هانيبال كان يقيم فى قصر الملك انطيوخوس الثالث ملك سوريا منذ هزيمته . واشترط الرومان على انطيوخوس تسليم هانيبال لهم لأن بقاءه حيا يعنى احتمال اندلاع الحرب بين روما وقرطاجة مرة أخرى . ووافق الملك السورى على ذلك . ولكن هانيبال تمكن من الهرب ولجأ إلى قصر ملك بيثينيا الدويلة التى تقع فى شمال آسيا الصغرى . ولم علم الرومان بذلك طالبوا هذا الملك بتسليم هانيبال وعندما أدرك هانيبال أن الرومان يتعقبونه وسوف يقبضون عليه ، انتحر بتناول سما كان يخفيه فى خاتمه .. وهكذا مات أحد الأبطال العظام الذين أذاقوا روما ويلات الحرب مما جعلها لا تنساه أبدا على طول تاريخها فقد كان هانيبال اعظم عبقرية عسكرية عرفها التاريخ " .(١)

وقد فرضت روما شروطا قاسية على قرطاجة بعد هزيمتها فى معركة زاما الكبرى منها : التنازل عن أسبانيا ، وان تدفع قرطاجة لروما غرامة مالية ضخمة ، وان تتخلى عن استخدام الفيلة فى قواتها العسكرية وان تتخلى عن سفنها الحربية فيما عدا عشر منها ، ان لا تعلن حربا فى داخل ليبيا أو خارجها دون إذن من روما .

وحينما عاد سكيبيو من معركة زاما استقبلته روما بأقواس النصر ومنح لقب سكيبيو الأفريقى تخليدا لانتصاراته .

الحرب البونيقية الثالثة (١٤٩ - ١٤٦ ق.م) :

أخذت روما تؤلب جارات قرطاجة على مهاجمتها والاستيلاء على بعض أراضيها ، واستغلت بعض الدول مساندة روما أو تغاضيها عن بعض التجاوزات فتحالف ملك نوميديا (الجزائر) الذى كان تابعا لقرطاجة مع روما وأخذ يطالب بتوسيع رقعة بلاده وكثيرا ما هاجم الأراضى القرطاجية متذرعا بهذا السبب أو ذاك ، ولم تستطع قرطاجة رد هجماته بل كانت مضطرة لأن تقدم شكوى إلى مجلس السناتو

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

فى روما فكانت روما تكتفى بإرسال لجنة للتحقيق وكانت عادة ما تبرر تصرف ملك نوميديا .[١]

وفى إحدى المرات أرسلت روما أحد المحاربين القدامى وهو سياسى يدعى كاتو فلاحظ ان قرطاجة استعادت قدرا من الرخاء وانتشرت تجارتها ، واعتقد بأن ذلك قد يساعد قرطاجة على أن تصبح قوة عسكرية من جديد ، ولذا بادر بتنبيه روما إلى القضاء عليها واخذ يردد فى كل خطبة فى مجلس السناتو شعار " لابد من تدمير قرطاجة " . وبمرور الزمن قرر اعضاء السناتو إرسال حملة لمحاربة قرطاجة سنة ١٥١ ق.م متذرعين بالرغبة فى معاقبتها لخلافاتها مع ملك نوميديا . ويذكر د. الناصرى : " تقدمت قرطاجة لشكوى إلى روما تشتكى فيه تصرف جارتها نوميديا وملكها ماسينا صديق الرومان الوفى ، وتطلب من روما التدخل . ولكن روما لم تفعل شيئا إزاء مطالب قرطاجة عام ١٥٠ ق.م ، فاضطرت الأخيرة إلى اخذ حقها بيدها وهاجمت نوميديا عام ١٥٠ عندئذ أعلنت روما الحرب على قرطاجة بحجة مخالفة معاهدة الاستسلام التى وقعتها قرطاجة عام ٢٠٢ ق.م . ووجدت قرطاجة نفسها محاصرة بين القوات الرومانية من الشرق وقوات النوميديين الذين عرفوا بمهارة فرسانهم وجرأتهم فى الحرب وتمكن النوميديون من هزيمة قرطاجة "[٢] وهنا تدخلت روما وفوجئ القرطاجيون بالحملة التى لم يكونوا قد استعدوا لها ولم يرغبوا فى أول الأمر خوض غمارها وعرضوا على روما ان تأخذ ثلاثمائة طفل من أبناء أسرها الكبيرة كرهائن ولكن الرومان لم يقبلوا ذلك وطالبوا القرطاجيين بأن يجلوا عن مدينتهم إلى مسافة عشرة أميال بعيدا عن الساحل ليتمكنوا من تدميرها . فأدرك القرطاجيون أن الرومان يرغبون فى القضاء عليهم وعلى مدينتهم نهائيا فآثروا القتال بدلا من الاستسلام . وعلى الرغم من عدم استعداد القرطاجيون مسبقا لهذه الحرب إلا انهم استطاعوا ان يهيئوا أنفسهم لها على وجه السرعة واستبسلوا فى الدفاع عن وطنهم مستميتين فى القتال إلى درجة أثارت إعجاب الرومان أنفسهم ، ومما يروى

---

(١) د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

فى هذا الصدد انهم حولوا كل معبد وكل حانوت إلى مصنع لإنتاج الأسلحة وآلات للقتال وظلوا يقاومون ثلاثة أعوام ، ثم رأت روما ان تغير قائدها وعينت قائدا جديدا يدعى اميليانوس الذى استطاع بعد حصار مرير أن يقهر قرطاجة سنة ١٤٦ ق.م . وان يدمرها عن آخرها ثم احرقها وأشعل النار فيها لمدة سبعة عشر يوما . وبعد ان صب جام غضبه على المدينة أمر بمرور العربات الحربية وحرث الأرض حتى لا تبعث فيها الحياة مرة أخرى ، وبيع سكانها كرقيق .(١)

لقد اشتكبت قرطاجة منذ أواخر القرن الخامس ق.م حتى هزيمتها الأخيرة سنة ١٤٦ ق.م فى حروب متكررة ولكنها لم تنشئ جيشا دائما تحت السلاح ولكن اعتمد القرطاجيون على كل المدنيين و الرعايا الذين لم يكونوا مدربين على القتال وقد كان هؤلاء بالإضافة إلى تعزيزات من المدن الحليفة فى صقلية ومن المرتزقة قوة هائلة التى استطاعت أن تصمد خلال هذه الحروب ضد الرومان ويذكر د. الناصرى " واختفت قرطاجة من الوجود عام ١٤٦ ق.م وظلت غائبة عنه مائة عام أخرى عندما أمر القائد الرومانى يوليوس قيصر عام ٤٦ ق.م بإعادة بنائها بشرط أن تكون مدينة رومانية وذلك أثناء الاحتفال بمرور مائة عام على تدمير قرطاجة . وعلى أى حال أعلنت روما زوال اسم قرطاجة من الوجود وضمها إليها كولاية رومانية تحت اسم " ولاية افريقيا " وهكذا دمرت روما قرطاجة من أجل إبعاد منافس تجارى عن طريقها ولتصبح هى سيدة بلا منازع على حوض البحر المتوسط " .(٢)

ومهما يكن من أمر تدمير الرومان للمدينة واشتعال النار فيها إلا انهم لم يستطيعوا هدم المقابر التى حفرت على عمق كبير فى باطن الأرض . وقد حدث أول

---

(١) د. احمد فخرى : المرجع السابق ، ص ١١٥ - ١١٦ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ - ٢٨٤ ؛ د. أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٢) د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

كشف أثرى فى المدينة عام ١٨٧٨ ولم يشمل هذا الكشف المقـــابر وبعـد الحــرب العالمية الأولى عثر عن طريق الصدفة على بعض الآثـــار منــها لوحــات كـانت مخصصة للمعبود بعل هامون معبود قرطاجة الكبير وللمعبودة تانيت . كما عثر على جبانة للأطفال كانوا كضحايا لهذا المعبود . وقد تحدث ديودور الصقلــى عــن هــذا الأمر وليس لنا أن نحكم على هذا العمل طالما ان هذا العمل كان فيه تضحية للمعبـود وكان الشعب يطيع معبودة . كما عثر أيضا على بعض الآثار فى مدينة قرطاجة التى ترجع إلى العصر الرومانى وكانت المدينة فى هذا العصر تتعبد للقديس " اغســطس " فى نهاية القرن الرابع .

ونعود مرة أخرى إلى بقية الشعوب الكبرى التى لعبت دورا فى تاريخ بــلاد الشام القديم .

ثالثا : الآراميون :

هم قبائل رحل عاشوا فى شمال شبه الجزيرة العربية ثم هاجروا إلى ســوريا وذلك فى منتصف الألف الثانية ق.م . ولقد ظهر اسم " ارام " فى المصادر التاريخيــة منذ القرن الرابع والعشرين ق.م . كما ورد أيضا فى وثائق مدينة مارى وفى وثــائق أوجاريت فى النصف الثانى من الألف الثانية ق.م (١) وفى الوثائق الآشورية المبكــرة فى القرن الرابع عشر عندما تحدث الملك الآشورى " اريك – دين ايلـو " (١٣١٧ ـ ١٣٠٦ ق.م عن انتصاره على الاراميــن ، ومــا ذكـره تيجـلات بلاصــر الأول (١١٢٠ ـ ١٠٧٤ ق.م) عن انتصاره على الآراميين – الاخلامو الذين جاءوا مــن الصحراء وبثوا الفوضى على الشواطئ الفرات .(٢)

أسس الآراميون العديد من المدن والدويلات فى وسط بلاد النــهرين وفــى شمال سوريا وجنوبها منذ القرن الحادى عشر ق.م . وقبلها ، وكان اسم إحدى هــذه

---

(١) د. أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص ١١٦ ـ ١١٧ .
(٢) د. أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص ١٦٧ .

الإمارات " ارام - نهرايم " أى آرام النهرين . ولكن الأشوريين قضـــوا علـــى هـــذه الإمارة فى القرن التاسع ق.م . ومن هذه الإمارات أيضا كانت دولة أخرى عاصمتـــها فى حران وتسمى آرام فدان (بيت بخيانى) ولكن الدولة التى اصبح لها شان كبـــير كانت مملكة دمشق " آرام دمشق " التى تأسست فى أواخر القرن الحادى عشر ق.م . أى وقتٍ تأسيس مملكة العبرانيين على الساحل ، وأصبحت لها مكانة كبيرة واتســعت رقعتها . وامتدت مملكة دمشق من الفرات شرقا حتى نهر اليرموك غربـــا . اختـــار الآراميون كعاصمة لهم مكانا يسمى صوبا (زوباء) [١] ويرجح ان مكانها الآن بلدة عنجر فى البقاع جنوبى زحلة . وجاء فى الكتاب المقدس ذكر إمارات أخرى مثل :

آرام بيت رحوب وآرام معكة وجشور . وتقع إمارة بيـــت رحـــوب إلـــى الجنوب ، فى الإقليم الوسط من مجرى الليطانى ، وكانت تحتل معكـــة بـــدون شـــك منطقة دان (تل - القاضى) . اما جشور فقد كانت فى الناحية الشرقية بين الـــيرموك ومنطقة دمشق .

أما مدن السواحل فقد بقيت بعيدة عن التأثير الآرامى الرئيسى ويضع معظـــم العلماء آرام صوبا فى البقاع الشمالى مع الامتداد إلى شرق جبـــال لبنـــان الشـــرقية وشمال دمشق حتى سهول حمص ، باتجاه الشرق حتى البادية .

أخذت أهمية دمشق تزداد مع مرور الوقت لأنها كانت واحدة من محطـــات الطرق التجارية العديدة بين الجنوب والشمال ، من الجزيـــرة العربيـــة إلـــى شـــمال سوريا ، وبين الغرب والشرق ، من البحر المتوسط إلى بـــلاد النـــهرين . وقـــامت حروب كثيرة بين الآراميين وبين العبرانيين .[٢]

ولما تولى الملك داود على عرش مملكة إسرائيل كان الصراع مع الآراميين عنيفا فتكون تحالف آرامى من بيت رحوب ومعكة وصوبا . وشارك مع ملك صوبـــا

---

(١) د. احمد فخرى : المرجع السابق ، ص ١١٧ .

(٢) د. أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنـــى القديـــم ، ص ٢٨١ - ٢٨٣.

رحوب ابنه هدد عازر وشارك معه الآخرون من الجانب الآخر لنـــهر الفـرات أى آراميو النهرين . وهكذا تحرك آراميو الجنوب ضد داود . ولكن انـــهزم الآراميـون أمام جيش داود .

ويقص الكتاب المقدس غزوة أخرى لداود ضد الآراميين . وكـــان الخصـم الرئيسى هو هدد عاز بن رحوب الذى أراد ان يقيم من الفرات إلى الأردن اتحادا مـن الدويلات الآرامية من الفرات إلى الأردن . وكان يعمل على أن تكون صوبا عاصمـة تلك المملكة الآرامية . ولكن قضى د'ود على أحلامه وهزمه وأخذ منه ١٧٠٠ فارسـا وعشرين ألف رجل . وبالإضافة إلى ذلك أخذ منه الدروع الذهبية التى كانت مع ابـن هدد عبيد ، وكذلك كمية كبيرة من البرونز جئ بها من مناجم صوبـــا وقضـــى داود على آرامى دمشق المتحالفين مع عبيد . وأقام معسكرات فى آرام دمشـــق . وبذلـك اضطر الآراميون إلى الخضوع إلى داود ودفعوا له الجزية .

وأشار المصدر نفسه إلى ان " توعى " ملك حماه كان عدوا لهدد عازر ملـك صوبا فلما علم بهزيمته أرسل لولده يورام إلى داود الملك ليقرئه السلام ويباركه لأنـه قاتل هدد عازر وهزمه . وقدم له أوانى من فضة وذهب وبرونز .

واستطاع دواد بعد هذه المعارك القضاء علـــى صوبـا وعلـــى الدويـلات الآرامية الأخرى المجاورة لها . ولقد قاسى ملك صوبا أيام داود من هزائـــم مـــرة . وعلى الرغم من ان صوبا قد قوضت شوكتها إلا أن أحد ضباط مملكة صوبا يدعـــى رزون خرج على الخضوع لداود وكوّن هو وبعض الرجال الأشداء الأحــرار فرقـا لمقاومة جنود داود وطردهم من دمشق وأقام نفسه ملكا عليها . وليس لدينا أية وثيقـة عن تفاصيل الحروب بين هذا الملك وسليمان . ولكن سرعان ما تخلصت دمشق مـــن هذه السيطرة .

وبعد موت سليمان وتفرق كلمة العبرانيين استطاع الآراميون الاستيلاء على بلادهم وأصبحت مملكة إسرائيل نفسها تحت حمايتهم وكان ذلك حوالـــى عـام ٨٧٠ ق.م .

وعندما بدأت الدولة الأشورية فى توسعها فى القرن التاسع ق.م واصطدمت بالآراميين وهددت جميع الأراضى السورية ، كون ملك دمشق اتحادا من اثنى عشر ملكا كان على رأسه ملكها (بن هدد " أو " بن حدد الأول) (حوالى ٨٧٩ - ٨٤٣ ق.م) وكان عليه ان يراجع شالما نصر الثالث فى عام ٨٥٣ ق.م وكان من أشهر الذين انضموا إلى هذا الاتحاد آحاب ملك إسرائيل ، وملك حماه ارخولينا وبعض المدن الفينيقية وبلغ عدد جيشهم ٦٠ ألف جندى . فقابلوا الآشوريين بقيادة شالما نصر الثالث فى معركة القرقار على نهر العاصى عام ٨٥٣ ق.م . ولم يكتب النصر الكامل لأحد الجيشين وانسحب الآشوريون . واتسع نفوذ مملكة دمشق فى عهد ابن هدد ويسمى أيضا حزائيل (فى حوالى ٨٠٥ ق.م) فهاجم مملكة إسرائيل ووسع سلطانه جنوبا حتى ضم شرق الأردن ووصل إلى سهل فلسطين الساحلى وتمكن بذلك من السيطرة على طرق التجارة التى كانت تسير فى ذلك الوقت بين بلاد النهرين والساحل ومصر والجزيرة العربية وأصبحت مملكة إسرائيل تحت رحمتها ، كما قبلى مملكة يهوذا دفع الجزية لها .

ولكن حروب حزائيل المستمرة أدت إلى ضعف مملكة دمشق فاستطاع يربعام الثانى ان يستقل ثانية ، بل استطاع مهاجمة بعض بلاد المملكة الآرامية نفسها ، ومن بينها دمشق وحماه ، حوالى عام ٧٨٥ ق.م وأخير انتهز الملك الأشورى تيجلات بلاصر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) فرصة النزاع بين ممالك دمشق وإسرائيل ويهوذا واستطاع أن يهزم الآراميين ، وصب غضبه ونقمته على دمشق فى عام ٧٣٢ ق.م . ولم تقم للمملكة الآرامية بعد ذلك قائمة .

كان الآراميون أهل تجارة فانتشرت معهم اللغة الآرامية وكانت بين اللغات التى انتشرت مع التوسع الآشورى ، وزاد انتشارها حتى أصبحت لغة التجارة الرسمية فى جميع بلاد الشام قبل القرن الخامس ق.م . وكانت اللغة شبه الرسمية فى عهد الفرس . وكانت اللغة التى يستخدمها يهود فلسطين فى جميع البلاد التى تفرقوا فيها فيما بعد سبى بابل . كما كانت اللغة التى يتحدث بها الناس فى كل من سوريا وفلسطين عند ظهور المسيحية ، وكتبت بها الأناجيل وانتشرت مع اللغة الآرامية الكتابة الآرامية أيضا فاستخدم اليهود من الآراميين ، بين القرنين السادس والرابع

ق.م الكتابة الآرامية وكانوا قبل ذلك يستخدمون الكتابة الفينيقية . كما أخـذ العـرب الشماليون من الأنباط كتابتهم التى كانوا يستخدمونها ، وهذه بدورها مشتقة من الكتابة الآرامية . كما نعلم ان الكتابـة الآراميـة قـد انتشـرت بيـن الفـرس والأرمـن والهنود . أما اللغة الآرامية فقد بقيت فترة طويلة من بعدهم ، وظلت فى مملكة سامال فى الشمال (فى زنجرلى بين إنطاكية ودمشق) وفى حماة وفى تدمر وفى فلسـطين وفى الجنوب بين الأنباط . وقد ظلت حتـى اليـوم اللغـة الرسـمية فـى الكنيسـة السوريانية .

رابعا : الحوريون والميتانيون : (١)

ظهر الحوريون فى التاريخ فى منتصف الألف الثالثة ق . م. وقد جاءوا من المرتفعات الواقعة شمال شرقى الـهلال الخصيـب بيـن بحـيرة أورميـة وجبـال زاجروس ، وأصبح لهم كيان سياسى فى شمال بلاد النهرين وشمال سوريا وبعـض مناطق الأناضول فى منتصف الألف الثانية ق.م وكان الآموريون قبل ذلك قد سـكنوا هذا الجزء من سوريا .

وامتدت هجرة الحوريين ، فى أعقاب هجرة الكاسيين ، إلى البحر المتوسـط وإلى فلسطين ، ووصلت معها عناصر أخرى من الكنعانيين الذين أسهموا هم أيضـا فى نشاط تلك التحركات . وكانوا بدون شك اكثر عددا ، كما كانوا يمثلـون الكيـان الموحد والمؤثر فى تلك الهجرات .

كون الحوريون لأنفسهم مملكة فى سوبارتو وفى سوريا العليا وذلك أثنـاء غزو الهكسوس لمصر . وكونوا فى المناطق التى تركزوا فيها فى شمال العراق دولة قوية عرفت باسم مملكة ميتانى . وابتداء من عام ١٥٠٠ ق.م بدأ نفوذهم فى التقلـص من المنطقة . وقد أقام الميتانيون مملكتهم إلى كـان يحدهـا مـن الغـرب ممـالك

---

(١) د. أبو المحاسـن عصفـور : المرجـع السـابق ، ٢٩٢ - ٢٩٣ ؛ د. لطفـى عبد الوهاب : العرب فى العصور القديمة ، مدخل حضارى فى تاريخ العـرب قبل الإسلام ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٦ ، ص ٥٩ - ٦٠ ؛ Contenau, op . cit., p. 101 .

أخرى صغيرة للحوريين ، وكانت هذه الممالك الصغيرة عرضة لهجمات الميتانيين أحيانا ، وكانوا يضمونها إلى مملكتهم ، وأحيانا أخرى كانت هذه الممالك تنعم باستقلالها لفترة ما ، ولم يكن لهذه الممالك الصغيرة أية أهمية تذكر فيما بعد .

وكان كل من الحوريين والميتانيين يمثلان القوة السائدة فى غرب آسيا ، وقبل ظهور قوة الحيثيين . وبعد زوال نفوذ الحوريين أصبحت شوجانى (الفخارية الحالية فى شرقى تل حلف) عاصمة للملكة ميتانى الجديدة ، ومن أهم مراكزها نوزى ويوزغان تبة وارنجا جنوب كركوك الحالية .

وقد عرفت هذه المملكة فى النصوص المصرية باسم نهارينا . وفى المصادر الآشورية باسم هانيجاليا . واعتلى عرش المملكة الحورية - الميتانية ملوك عديدون وكان من أشهرهم شوتارنا الأول وبارسا شاتار وشاوشاتار وارتاتاما الأول وشوتارنا الثانى وشوشراتا ثم ماتيوازا وآخرهم المدعو هوربا - تيلا .

ويلغ من قوة هذه الدولة أنها كانت تسيطر على المساحة الممتدة من البحر المتوسط حتى مرتفعات ميديا بما فى ذلك آشور التى خضعت لنفوذها نحو قرن من الزمان حتى تحررت فى عهد ملكها آشور أو بللط الأول .

تقابلت جيوش ميتانى مع جيوش الملك المصرى تحوتمس الثالث أثناء حملاته على آسيا ولكن مملكة ميتانى لم تكن قادرة على الصمود أمام الهجوم المصرى ، فأخذت تبحث عن حليف لها ، ولكن سارع الأمراء المجاورون لها إلى تقديم فروض الطاعة والجزية للملك المصرى .

ومن أقدم ملوك ميتانى المعروفين الملك ارتاتاما الذى بسط سيطرته على آشور ، انتظارا للأخذ بالثأر من المصريين . ولكن فجأة غير الملك من سياسته بعد أن اطمئن من ناحية آشور . وعرض نوع من التحالف على الملك المصرى تحوتمس الرابع (١٤٢٥ ق.م) الذى قبل هذا التحالف وتزوج من حفيدة ارتاتاما التى سميت بالاسم المصرى موت أم ويا . واستمر هذا الترابط بين الأسرتين المملكتين فترة طويلة لدرجة أنه يقال أن امنحتب الثالث (١٤٠٨ ق.م) تزوج بدوره من أميرة

ميتانية هى جيلوهيبا وكانت ابنة لشوتارنا . ثم زوج أمنحتب هذا ابنه وخليفته أمنحتب الرابع من اميرة ميتانية كانت أختا لشوتارنا .

لم يستمر رخاء المملكة الميتانية طويلا ، فبعد فترة أصبحت المملكة عرضة للاضطرابات والهجوم من جانب القبائل المجاورة . وفى هذه الفترة توج شوبيلوليوما ملكا على الحيثيين ، وأخذ يهدد مصالح الميتانيين فى سوريا فى عهد ملكها توشرتا . وفى تلك الأثناء أيضا استغل الآشوريون فرصة قيام تمرد فى القصر الميتانى ، وكشفوا النقاب عن أغراضهم وبدأوا يتدخلون فى السياسة الداخلية لميتانى ووجهت دولة الحيثيين الضربة الحاسمة للحوريين وقضت عليهم وكان الملك شوبيلوليوما قد استضاف أحد النبلاء الميتانيين الذى كان قد أقصى عن العرش ، وكان يسمى ماتيوازا ، وقد زوجه الملك الحيثى من إحدى بناته ، وساعده على استعادة عرش آبائه .

أخذت قوة الحيثيين تزداد شيئا فشيئا ، واستمرت حملاتهم ضد سوريا وانتهت هذه الحملات باستيلاء الحيثيون على الجزء الشمالى من سوريا الذى كان يحده نهر الفرات فى الشرق ولبنان فى الجنوب ، ثم ما لبث أن استولى الآشوريون على الجزء الباقى منها فى عهد ملكهم اداد نيرارى (١٣٠٤ - ١٢٧٣ ق. م) وهكذا انتهت دولة ميتانى من الوجود . وكانت فى أحد العصور تشارك مصر وخيتا السلطة فى سوريا .

وفى عام ٦٤ ق. م. دخلت فينيقيا تحت الحكم الرومانى وأصبحت جزءا من الإمبراطورية الرومانية . ويذكر د. الناصرى فى هذا الصدد " سار بومبى من آسيا الصغرى جنوبا إلى سوريا (٦٤ - ٦٣ ق. م) للقضاء على حالة الفوضى التى كانت سائدة فى تلك المنطقة منذ أن طرد لوكو للوس تجرانيس الثانى منها ، وأعاد إليها ملكها انطيوخوس الثالث عشر الذى كان ضعيفا مثل ملوك البطالمة المتأخرين " عندئذ قرر بومبى عزله وأعلن ضم سوريا وفينيقيا كولاية جديدة من ولايات روما باسم " ولاية سوريا " . بعد ذلك سار بومبى جنوبا إلى فلسطين ووضع حدا للصراع

الذى شــهدته مملكة يهوذا اليهودية " .(١)

ولفتح بلاد الشام تمهيدا لدخولها فى الإسلام اختار سيدنا أبو بكر أربعة قــواد هم : أبو عبيدة بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص وأمرهم على أربعة جيوش ، زحفت على بلاد الشام لتحريرها من الرومــان . وعلم هرقل قائد الرومان بمسير القوات الإسلامية التى وصل عددها قرابـــة ثلاثيــن ألف ، فجهز جيشا كبيرا لمباغتة الجيوش الإسلامية وأخذ كل واحد منها على انفراد ، تدارس القادة المسلمون الموقف العسكرى من كل جوانبه فقـــرروا مواجهــة العــدو مجتمعين ، وأرسلوا للخليفة أبى بكر يطلبون إمدادات جديدة ، فكتب الخليفة أبو بكــر إلى خالد بن الوليد فى العراق يأمره بالتوجه بجزء من جيشه لمساعدة المسلمين فـــى بلاد الشام وسار خالد ومن معه من جنوب العراق فى طريقه إلى بلاد الشام فسلك فى الصحراء طريقا صعبا . ونزل بعدها عين التمر وأغار على بعض القرى ، ثم تقــدم نحو مرج راهط ومنها إلى بصرى وبعدها إلى اليرموك فى ١٣ هجرية حيث وقعــت فيها المعركة الشهيرة . ونال عدد من الصحابة الشهادة ثم واصل المسلمون فتوحاتــهم فى شمال الشام ففتحت دمشــق وحمــص وقنســرين وحلــب وإنطاكيــة وبـيروت وطرابلس . ولما علم هرقل بهزيمة جيشه فى سوريا حزن كثيرا وقال :

" سلام عليك يا سوريا ، سلاما لا لقاء بعده " وهذا ما حدث بالفعل .

أقدم العلاقات بين شعوب شمال بلاد الشام ومصر :

ارتبط تاريخ مصر القديم ارتباطا وثيقا بتاريخ سوريا وفلسطين وبمــا يقــع فيهما من أحداث وتأثير ذلك على السياسة الخارجية لملوك مصر القديمة منــذ أقــدم العصور . ولم نعثر على وثيقة مكتوبة فى مناطق فينيقية تحدثنا عما كان يفكر فيــه الفينيقيون وعلاقاتهم بالشعوب الأخرى خصوصا المصريين والآشوريين واليونــانيين وسلوكهم السياسى والتجارى مع جيرانهم ، او عــن فنونــهم المختلفــة وصناعتــهم

---

(١) د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

المعدنية وبناء الأساطيل ولكن نعتمد فى أغلب الأحوال فى معرفتنا لتاريخهم وعلاقاتهم عما ورد عند الشعوب الأخرى وكذلك من نصوص الآثار التى كشف عنها فى بعض المناطق .

وهناك إشارات في بعض النصوص تدل على وجود اتصال ما أو تأثير ما بين مصر وجيرانها فى الشمال الشرقى من أقدم العصور [١] . فطبقا لأسطورة أوزير التى سجلت أول ما سجلت في سياق متون الأهرام الدينية المنقوشة داخل هرم ونيس آخر ملوك الأسرة الخامسة والتى ترجع إلى عصور اسبق منها . كان أوزير وايزيس أخوين وزوجين من مجموعة رباعية يكملها ست وأخته نفتيس . وكان الأربعة رعيلا أول جمع بين الألوهية وبين البشرية فى أعقاب انفصال السماء عن الأرض ، اختبر أوزير ملكا على البشر يحكم بينهم ، إلا أن أخاه ست نقم عليه ودبر مكيدة محبوكة فدعى لحفل أقامه فى داره ، وأعد صندوقا فاخرا ووعد بان يهبه لمن يطابق جسمه ، فتهافت المدعون يتمددون فيه ، ولما جاء دور اوزير نزله فطابقه ، وهنا اطبق اخوه الصندوق عليه وأحكم غطاؤه وألقاه فى النيل فحمله التيار حتى مصبه ثم أنزل فى البحر الأخضر (المتوسط) فحملته أمواج البحر بدورها حتى ألقت به على شاطئ جبيل (فى لبنان) فاظلته هناك شجرة مقدسة واحتوته وأخذت ايزيس تبحث عن جسد زوجها ، حتى بلغت جبيل واهتدت إلى الشجرة ، واستخلصت زوجها منها وحملته إلى مصر ، حيث أعادت إلى بدنه الحياة [٢] .

---

(١) Erman – Ranke, la Civilisation Egyptienne, p. 10.
د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٤٦ ؛ د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٢٥٣ .

(٢) Montet, la Vie quotidienne en Egypte au temps de Ramses (1946), p. 175 ; Pirenne, Histoire de la Civilisation de L'Egypte ancienne, p. 53 – 54.

وقد تطورت العلاقات فيما بعد ومنذ عصر بداية الأسرات كان ملوك مصر يتبادلون الهدايا مع حكام وأمراء جبيل لتسهيل سبل التجارة وإقامة علاقات سليمة بينهما . فقد عثر على اسم الملك خع سخموى اخر ملوك الأسرة الثانية منقوشا على جزء من آنية . كما عثر على بقايا اسم الملك خوفو من الأسرة الرابعة على جزء من إناء من الألبستر [١] كما عثر على اسمه على إناء آخر من الديوريت وعلى اسم زوجته مريت ايت اس على قطعة من إناء[٢] . كما عثر على اسم الملك منكاورع على قطعة إناء من الألبستر .[٣]

كما عثر على بعض ملوك الأسرة الخامسة على بعض الآثار . فقد عثر على اسم الملك ساحورع على ختم اسطوانى وكذلك جد كارع اسيسى . كما عثر على اسم ونيس آخر ملوك الأسرة على قطعة من الألبستر .[٤]

ولم يقف الأمر على تبادل الهدايا ، بل نعلم أيضا أن الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة قد أرسل إلى جبيل أربعين مركب لإحضار أخشاب الأرز اللازمة والتى استخدم بعضها لتثبيت بعض الكتل الحجرية فى داخل هرمه الجنوبى فى دهشور [٥] . كما نرى من نقوش معبد الملك ساحورع الجنائزى فى أبى صير من

---

(١) Contenau , op. cit. , p. 95

(٢) Montet , Byblos et l'Egypte . p. 74 .

(٣) Montet, op cit , p. 68 (45)

(٤) Montet, Quelques objets provenant de Byblos , dans Revue Syria , (1929), p. 15 ; Montet , Egypte et Syrie pendant le 111 et II millenaires, dans Melanges de l'Universite Saint – Joseph, t. 37 fasc . 2, Beyrouth (1961) , p. 34 .

(٥) Weigell, Histoire de L'Egypte ancienne , p. 32 ; Gardiner , Egypt of the Pharaohs , p. 78, 89 ; Montet , Byblos et l'Egypte , p. 69 (46) , p. 74 ; Id., Quelques objets, p. 14 . د. احمد فخرى: المرجع السابق ، ص ٦١ – ٦٣ ، ٦٦ – ٧٢ ؛ د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ اقدم العصور التاريخية ، ص ٧٩ – ٨٠ .

الأسرة الخامسة منظرين يمثلان رحيل وعودة الأسطول المصرى من جبيل ويـــرى مونتيه ان من بين الأشخاص الرئيسين على ظهر الأسطول ، يوجد أمـــيرة ســورية ربما أرسلت لكى تصبح زوجة للملك ساحورع .[١]

كما عثر على بعض الاثار التى تحمل أسماء بعض ملوك الأسرة السادســة فقد عثر على اسم الملك تيتى واسم بيبى الأول على قطعة من مائدة قرابين وجزء من آنية وعثر فى أساسات معبد ربة جبيل على عدد كبير من الجعارين التى ترجع إلـــى عصر الدولة القديمة ، ربما كانت من عصر الملك بيبى الثانى . وقد عثر أيضا علـــى معبد مصرى هناك ووجد فى ودائع أساس المعبد أربع أوان تحمل أسماء بيبـــى الأول وبيبى الثانى ، وختم أسطوانى كتب عليه اسم إن رع .[٢]

وعن الرحلات البحرية إلى كبن (جبيل) وبونت فى عصر الأسرة السادسة لدينا نقش للملاح خنوم حتب فى مقبرة حامل ختم المعبـــود " خـــوى " فـــى مقبرتـــه بالفنتين ويقول فيه :

" مدير المقصورة خنوم حتب يقول : خرجت مع سيدى الأمـــير الوراثـــى حامل ختم المعبود تثى (وأيضا) خوى إلى كبن (جبيل) وبونـــت إحـــدى عشـــرة مرة ، حاملا بسلام ما أنتجته (هذه) البلاد الأجنبية " .[٣]

---

(١) Montet, le Roi Sahure et la princesse lointaine , dans Melanges Syriens (1939) , p. 191 – 195 ; Gardiner , op. cit ., p. 88 ; Erman – Ranke , op . cit ., p. 688 .

(٢) Montet , un Egyptien , Roi de Byblos sous la XII dynastie , dans Revue Syria (1927), p. 86 ; Montet , Byblos et L'Egypte, p 38, 62 , p. 70 – 71 (45-50) , 72 – 73 (51m 56-57) .

(٣) Urk I, 140 – 141 (291 , 1 . 14 – 15 , 1-2) ; Breasted , AR I, p. 361 .

ومنذ عصر الدولة الوسطي كانت التوابيت الخاصة بكبار الشخصيات في مصر ، تصنع من خشب الأرز ، كما أن زيوت الأرز كانت تستخدم كذلك فى تحنيط المومياوات وذلك طبقا لنصوص من عصر الدولة الوسطى [١] . ولدينا من الأسرة الثانية عشرة ، قصة سنوهى ، ذلك المصرى الذى خرج وعبر الحدود الشرقية وذهب إلى فلسطين ثم لجأ إلى رتنو (سوريا العليا) وتزوج هناك وعاش لفترة من الزمان ثم كتب إلى الملك سنوسرت الأول يطلب منه العودة لكى يدفن فى ثرى مصر ويذكر د. فخرى : " وكان سنوهى أحد موظفى البلاط الملكى . ويقص علينا قصة هروبه من مصر ومغامراته مع حراس الحدود الشرقية ، ووصوله إلى سيناء وتنقله من بلد إلى آخر حتى وصل إلى رتنو (سوريا العليا) وهناك أغراه أمير البلاد عامونتشى بالبقاء معه ورفع من قدره وزوجه من كبرى بناته وأعطاه جزءا من ممتلكاته . وحدث أن تحداه رجل قوى من اهل البلاد ودعاه للقتال دون ان يكون هناك اى عداء بينهما . ويقص سنوهى كيف نجح فى القضاء على خصمه . وعندما أدركته الشيخوخة اخذ يفكر فى نهايته وكتب إلى ملك مصر وعندما وصله رد الملك ترك أولاده جميعا فى رتنو ووزع بينهم كل ثروته . وعاد إلى مصر فأحسن الملك استقباله فى قاعة العرش وأمر الملك بان يصطحب إلى منزل أحد الأمراء حيث أعدوا له حمام وعطروه وألبسوه أفخر الثياب ويقول : " وجعلوا السنين تغادر جسمى وانسلخت عنى ، وسرحوا شعرى وألقوا إلى الصحراء بحمل من المخلفات وألقوا بملابسى إلى ساكنى الصحراء وألبسونى أفخر الثياب وعطرونى بأحسن أنواع العطور ونمت على سرير وتركت الرمال لمن هم فيها وزيت الخشب لمن يدهن نفسه به " [٢].

---

(١) Erman – Ranke , op . cit , P. 688 ; Contenau , op. cit ., p. 95 ; Montet , Byblos et L'Egypte , p . 57 .

(٢) د. احمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ص ٩٥ – ٩٩ ؛ د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٧٧ – ٨٥ ، ٩١ – ١٠١ ، المؤلف نفسه : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ٨٨ – ٨٩ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق، ص ٢٥٣ – ٢٦٩ ; Erman– Ranke , op cit ., p. 689 ; Vergote , Joseph en Egypte (1969) , p. 16 .

وهناك نقش من عصر الملك سنوسرت الأول فى الكرنك ، يتحدث عن حملة للملك فى سوريا تحت إمرة قائد مصرى وكان الرؤساء جبيل يقطعون له أخشاب أشجار الأرز .(١)

ويبدو أن ملوك الأسرة الثانية عشرة قد حرصوا على المحافظة على العلاقات السلمية بينهم وبين حكام وأمراء بلاد الشام وذلك حرصا على تأمين سبل التجارة بين البلدين . فقد عثر فى بلاد الشام وفى مدنها على تماثيل وأوانى وجعارين وأختام نقشت بأسماء أشخاص مصريين ترددوا على بلاد الشام وتعاملوا مع اهلها وحكامها ، وكان منهم رسل من البلاد الملكى المصرى وحكام أقاليم ، ومنهم تجار يعمل لحسابه الخاص او يعمل لحساب ملكه ، وعثر على هذه الآثار فى جزر ومجدو وجبيل ورأس الشمرا وقطنه شمالى حمص وتل عطشانة وغيرها ..

كما عثر على تماثيل صغيرة لمعبودات مصرية فى شمال بلاد الشام . كما شاع فى أسماء بعض النساء المصريات اسم ربة جبيل التى اعتبرها المصريون صورة من معبودتهم حتحور .(٢)

ويؤكد الأثاث الجنائزى الذى عثر عليه فى المقبرتين رقمى ١ ، ٢ فى بيبلوس فى حفائر المعهد الفرنسى فى بيروت عام ١٩٢٢ والتى كان يعاصر صاحبيهما عصر الملكين أمنمحات الثالث والرابع ، ان بيبلوس كانت فى نهاية الأسرة الثانية عشرة موالية لمصر (٣) وكان الملك ابى – شمو معاصرا للملك امنمحات الثالث وابنه ابشمو – ابى كان معاصرا لأمنمحات الرابع . وكان هذان

---

(١) Montet, le Pays de Negau , dans Revue Syria (1923), p. 183.

(٢) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ١٧٧ – ١٧٨ .

(٣) Montet, Un Egyptien , roi de Byblos , sous la XIIe dynastie, p. 91 ؛ د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ اقدم العصور ، ص ٩٠ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٠٦ .

الأميران يتلقيان الهدايا من ملكي مصر لتسهيل سبل التجارة المصرية . وكان لقب الأمير المصرى معروفا فى جبيل [١] وكان يحمله أمراء جبيل المعاصرين للأسرة الثانية عشرة المصرية على الأقل . فقد ورد فى نقش عثر عليه فى جبيل على اسم أميرين كتبا بالخط الهيروغليفى مع ألقابهما . [٢]

كما عثر على اثار للملك أمنمحات الثالث أرسلها هذا الملك كهدايا لتكريم ربة جبيل وأمرائها . فنعلم أن الملك أمنمحات الثالث أرسل كأسا إلى أبى - شمو (صاحب المقبرة رقم ١) وأرسل أمنمحات الرابع صندوقا للحلى مصنوعا من الاوبسيديان ومطعم بالذهب إلى ابنه ابشمو - أبى (صاحب المقبرة رقم ٢) . وربما أرسل هذا الملك سيفا كتب عليه بالخط الهيروغليفى إلى الابن .[٣]

واتسع النفوذ المصرى فى عصر الدولة الوسطى حتى شمل بيروت وقطنة شمالى حمص وأوجاريت . وكان المصريون القدماء يتركون فى تلك المناطق التماثيل التى تمثل أبا الهول . ولكن اهم المناطق انتشارا لنفوذهم كانت جبيل . وكان اميرها يتفاخر بثقافته المصرية ، فشيد لنفسه مقبرة تحمل طابع الفن المصرى وزين اثاثه الجنائزى على الطريقة المصرية وكتب اسمه عليه (هو وأمير آخر) بالخط الهيروغليفى .[٤]

وقد عثر فى قطنه شمالى حمص على تمثال لأبى الهول يمثل الأميرة " إتا " ابنة امنمحات الثانى . وتمثال للميرة خنميت زوجة سنوسرت الثانى ، وتمثالين لأبى الهول يمثلان أمنمحات الثالث وكل ذلك يدل على ان مدينة جبيل كانت وجهة لزيارة

---

(١) Montet , Egypte et Syria pendant la 111 et 11 . Millenaire, p. 34. ؛ وأيضا : د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٩٨٨

(٢) Montet , Notes et Documents , p. 91 – 95 .

(٣) Id., op. cit ., p 92 .

(٤) Id ., op. cit ., p. 93 .

المصريين أيضا فى عصر الأسرة الثانية عشرة .[١]

ولدينا من أواخر الأسرة الثانية عشرة وبداية الأسرة الثالثة عشرة أى الفترة ما بين ١٨٥٠ و ١٧٣٠ ق.م ما يسمى " بنصوص اللعنة " وهى النصوص التى كتبت على أوانى فخارية حمراء أو على قطع صغيرة من الطين او تماثيل من الطين وتذكر أسماء حكام ورؤساء الدويلات والمدن والقبائل فى فلسطين وسوريا الذين كانوا يناصبون مصر العداء . وتنص على صب اللعنات والدعوات بالفناء على هؤلاء الأعداء لشل حركتهم والقضاء عليهم وذلك بكسر هذه الأوانى اعتقادا منهم بأن فى كسرها وتحطيمها فيه قضاء تام أو الحد من شر هؤلاء الأعداء الذين جاء ذكر أسماؤهم عليها [٢] . ومن أسماء المدن فى بلاد الشام التى جاء ذكرها فى هذه النصوص : بعلبك ، اكسوبا ، مقعتم (البقاع) ، عشتاروت ، ميشى ، شاينو ، جوادى ، كبن أو كبنى (جبيل) .[٣]

---

(١) Montet , Quelques objets provenant de Byblos , p. 12 – 13 ; Id ., la Vie quotidienne en Egypte au Temps de Ramses , p. 16 ; Id ., Byblos et L'Egypte , p. 25 ; Id ; Egypte et Syria , p. 34 – 35 ; Posener , Princes et pays dAsie et de Nubie , p 39 , 43 – 45 .

وأيضا : د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

(٢) د. أحمد فخرى : مصر الفرعونية ، طبعة ١٩٨١ ، ص ٢٣٥ ؛ د. عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، ص ٣٨٨ ، ٤٥٥ – ٤٥٦ ؛ د. عبد القادر خليل : علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية الدولة الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ١٩٨١ ، ص ١٦٣ – ١٧٢ ؛ د. رمضان عبده : تاريخ مصر القديم ، الجزء الثانى ، دار نهضة الشرق بحرم جامعة القاهرة ٢٠٠١ ، ص ١٣ – ١٤ حاشية (٣) .

(٣) د. عبد القادر خليل : المرجع السابق ، ص ١٦٤ – ١٦٨ .

ويقدم لنا د. فخرى ترجمة لمثال واحدا لما هو مكتوب على أحد التماثيل : " باكويت المسمى جاى ، حاكم اياتس بن اهاسى واونكات وجميع حنفائه الذيـــن معــه وجميع رجالهم الأقوياء وعدائيهم وجميع أصدقائهم واتباعهم ، وكل من تحدثه نفســه بالثورة أو التآمر ، والذين يحاربون او يفكرون فى الحرب أو الذيــن يفكـــرون فــى الخروج عن الطاعة (أى طاعة ملك مصر) فى جميع تلك البلاد " .[١]

وتذكر لنا هذه النصوص بالإضافة إلى أسماء هؤلاء الحكام الأعداء أســماء ثمانية من المصريين ومن بينهم أربعة يحملون لقب " مربى " أو " وكيل أعمال بعض السيدات المصريات " . وقد جاء فى النص انه صب على هؤلاء المصريين اللعنـــات أيضا ، ربما لأنهم خرجوا من مصر لأداء مهام معينة ورفضوا العودة إليها مفضليـن الإقامة فى هذه البلاد الأجنبية دون أن يناضبوا مصـــر أو ملوكـــها العـــداء . ومـــن الصعب القول بأنهم خرجوا من مصر نتيجة لاشتراكهم فى مؤامـــرة ضـــد القصـــر الملكى أو نتيجة لشقاق سياسى .[٢] ولكن يبدو ان الأمر يتخلص فى أنهم أبدوا عـــدم تأييدهم لم يحدث فى البلاد من عدم استقرار الأوضاع السياسية فـــى بدايـــة الأســـرة الثالثة عشرة . فكانت هناك اضطرابات داخلية لا نعرف عنها شيئا فقد مـــرت ســـت سنوات على بداية الأسرة الثالثة عشرة دون اختيار ملك يعترف به الجميع .

ويحتفظ متحف بروكلين بأجزاء من بردية كتب على وجهها الآخـــر قائمـــة طويلة تشمل ٤٥ آسيويا من رجال ونساء وأولاد ألحقوا بخدمة موظـــف كبـــير فـــى صعيد مصر [٣] وهى مؤرخة بالسنة الأولى والثانية من حكم الملك سبك حتب الثـــالث من الأسرة الثالثة عشرة .

---

(١) ترجمة د. أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ٢٣٥ .
(٢) د. احمد فخرى : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ؛ د. عبد الحميد زايـــد : المرجع السابق ، ص ٤٥٦ ؛ د. عبد العزيـــز صـــالح : المرجـــع الســـابق ؛ ص ١٨٥ - ١٨٦ ؛ د. عبد القادر خليل : المرجع السابق ، ص ١٦٨ - ١٦٩.
(٣) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٥٠ ؛ د. عبـــد القـــادر خليـــل : المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

وعثر فى فينيقيا على لوحة غير كاملة صور عليها أمير جبيل يوناثان جالسا أمام شخص عظيم اختفت صورته ، ولكن النصوص المدونة إلى جانبه تشير إلى انه الملك خع سخم رع - نفر حتب من بداية الأسرة الثالثة عشرة [١] وهى فى الواقع صورة تجمع بين صديقين أو حليفين .

انقطعت الصلات بين مصر والشاطئ السورى فترة احتلال الهكسوس لمصر ، تلك القبائل التى جاءت فى هجرة واسعة من أواسط آسيا وانتشرت بالتدريج فى بعض بلاد الشرق القديم . وكانت إحدى هذه الهجرات هى التى قادت الهكسوس إلى مصر الذين دفعوا أمامهم القبائل والشعوب التى كانت تعيش فى جنوب فلسطين .

ولكن بعد ان نجحت مصر فى طرد الهكسوس فكر ملوك الدولة الحديثة ان الغزو والفتح هما الوسيلة الأفضل لمنع الغزوات المهينة التى تعرضت لها البلاد على غرار الهكسوس ، فتركز اهتمامهم على الجيش وتنمية قدراته الحربية . وقد أثبتت الأحداث نفسها - صحة هذه الفكرة - وكانت هذه السياسة تتطلب اتصالات دائمة مع آسيا وتكوين مناطق نفوذ مصرى فيها . فأخذ الملوك فى التوسع اكثر وبقدر الإمكان نحو الشرق حتى يضعوا أكبر فراغ ممكن بينهم وبين تلك القبائل الأسيوية المشاغبة الطامعة التى كانت تثير القلاقل على الحدود الشرقية لمصر .[٢]

وقد أثرت هذه السياسة الجديدة بعمق فى مظاهر الحضارة المصرية وكان طبيعيا أن تتجاوب وتدخل فى اتصالات مباشرة مع الحضارات الكبرى فى آسيا ، ولم يغب عن أذهان ملوك مصر الرواج الاقتصادى الناتج عن وجود مناطق نفوذ واسعة وجنى المصريون ثمار انتفاضتهم القوية عندما أبعدوا خطر الغزو الأجنبى وتغير المناخ السياسى فى البلاد الذى كان أساسا وليدا لمجهوداتهم الحربية وكان ينهمر على مصر فى كل عام سيل من الجزية المختلفة . وكان المستفيد منها هو الملك والكهنة

---

(١) د. أحمد فخرى : المرجع السابق ، ص ٢٣٨ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٥١ ؛ د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(٢) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٩٠ - ٩٢ .

والجنود والموظفون الذين كان لهم نصيب من موارد الدولة . وقد حافظت مصر بقدر الإمكان على أصالتها ويمكن القول " مصريتها " وسوف تخرج من كل هذه الاتصالات بنوع من التغير الشكلى.(١) وكان نجاح السياسة الخارجية والاستقرار والتقدم فى الداخل ، مرتبطا بشخصية الملك الجالس على العرش ، فمن المعروف أن أغلب ملوك هذه الفترة كانوا يتمتعون بقوة الشخصية وكان لهم تأثير لا يمكن إنكاره على مجريات التاريخ المصرى فى هذا العصر وأولهم أحمس الذى اضطر إلى الذهاب إلى سوريا فى العام العشرين من حكمه ، وذلك لكى يقضى على البقايا الباقية من قوات الهكسوس ، ووصل حتى جاهى فى شمال فلسطين (٢) . أما عن نشاط امنحتب الأول فى آسيا فهو ضئيل ولدينا إشارتين أولهما عن بلاد قدمى (وهى جزء من فلسطين) فى مقبرة أمنمحات ، والثانية عن ميتانى فى نفس المقبرة السابقة ، وهذان النصان هما الإشارة الوحيدة عن نشاط أمنحتب فى آسيا ، وهما لا يذكران اى إشارة عن عمليات حربية (٣) . أما تحوتمس الأول فيعتبر أول من وضع اللبنة الأولى فى صرح هذه العلاقات وكسب مناطق عديدة تخضع للنفوذ المصرى . فقد خرج من شرق الدلتا وعبر الصحراء ، ووصل إلى جنوب فلسطين ، ثم اتجه شمالا بأمتداد الشاطئ حتى حلب ، وقام بصيد الأفيال فى منطقة المستنقعات بناحية " نى " بالقرب من أعالى سوريا ، ووصل أخيرا إلى نهر الفرات بالقرب من قرقميش وأقام هناك لوحة تسجل انتصاراته (٤) . وتمتع تحوتمس الثانى بنوع من الهدوء خلال سنوات حكمه فيما عدا حملة قام بها ضد قبائل البدو فى الصحراء الشرقية .(٥)

---

(١) Erman – Ranke , op. cit ., p. 690 – 683 , 724 ; Montet , le Pays de Negau , dans Revue Sryia (1923) , p. 183 ; Eydoux , A le Recherche de Mondes perdus , p. 28 .

(٢) د. رمضان السيد : تاريخ مصر القديمة ، الجزء الثانى ، ص ٤٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٤ – ٥٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٦٤ ؛ د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٩٢ – ٩٤ .

أما تحوتمس الثالث فكان أكثر ملوك مصر القديمة ذكاء فهو الذى دفع بسيطرة بلاده إلى أبعد الحدود . ففى آسيا استغل الميتانيون فرصة الهدوء الذى ساد عهد حتشبسوت فى السياسة الخارجية ، فلجأوا إلى تكوين تحالف معاد ضد مصر وكان يرأس هذا التحالف ملك قادش ، الذى حرض اكثر من مرة شعوب آسيا ضد المصريين واضطر تحوتمس الثالث إلى القيام بحوالى سبع عشرة حملة حربية لكى يقضى نهائيا على تلك التحالفات وقد نجح فى فرض سيطرة مصر مرة أخرى على منطقة الهلال الخصيب .[١]

وقام بحملته الأولى فى السنة الثالثة والعشرين من حكمه وكان عدوه الرئيسى هو أمير قادش (تلك المدينة التى تقع على نهر العاصى على بعد ١٥٠ كم شمال دمشق وتسمى حاليا تل النبى مند) وهى مدينة ذات موقع حربى ممتاز . إذ تقع فى الطريق الشمالى من سهل البقاع . وقد وضع أمير قادش نفسه على رأس تحالف من الملوك الصغار والأمراء السوريين ، الذين ثاروا ضد السيطرة المصرية التى فرضها عليهم تحوتمس الأول . وكان أمير قادش قد تقدم حتى مدينة مجدو إلى الغرب من سهل اسدرالون ودعا هناك إلى تجمع كل قادة الثوار الآخرين وبعد سير مجهد بطول الشاطئ وصل إليهم تحوتمس الثالث ونجح فى القضاء على أعدائه . وكان نظام الحكم فى مناطق النفوذ قائما على ان تبقى الحكومات المحلية فى أماكنها طبقا لمدى طاعتها . ويقومون بدفع الجزية سنويا ويرسلون الأمراء الصغار إلى مصر ليتعلموا مظاهر حضاراتها ويصبحون بعد ذلك موالين أوفياء . وبعد ذلك قام بستة عشرة حملة ، كل منها لها ظروفها ونتائجها ، ففى الحملة الخامسة اهتم بتأمين سبل مواصلاته واستولى على بعض مدن الشاطئ الفينيقيى وتغلغل حوالى ٢٥٠ كم إلى الشمال أكثر مما فعل من قبل واستولى أيضا على أحد موانئ فينيقيا، وهى أرواد [٢]، وفى الحملة السادسة انطلق عن طريق البحر واتجه نحو قادش واستولى

---

(١) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ٧٨ – ٨٣ .

(٢) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٩٤ – ٩٦ ، ١٠٠ .

عليها كما استولى على مدينة تونيب ، أما الحملة السابعة فقد خصصها للاستيلاء على العديد من الموانئ في فينيقيا . وكانت الحملة الثامنة من أقوى غزواته الحربية ورحل فيها عن طريق البحر ونزل في فينيقيا وعبر سوريا ووصل إلى نهر الفرات الذي عبره بواسطة مراكب شيدت طبقا لأوامره في بيبلوس وقطعت أخشابها من هناك . وتقابل مع الميتانيين وانتصر عليهم وتتبعهم في وسط الجبال واستولى على الأراضي التي تقع شرق الفرات وأقام على الشاطئ اليمن لنهر الفرات لوحة حدود في مواجهة اللوحة التي كان قد أقامها من قبل تحوتمس الأول . وبفضل الانتصار على ميتاني ، أصبح جزءا كبيرا من آسيا خاضعا لنفوذ مصر .[١]

وفي الحملة التاسعة استولى فيها على جاهي على الساحل ، وفي الحملة العاشرة انتصر فيها على بلاد النهرين التي قامت بثورة ، وفي الحملة الثالثة عشرة توجه إلى شمال سوريا وقضى على ثورة قامت هناك وفي الحملة السادسة عشرة حاصر فيها قادش التي اتحدت من جديد واستولى عليها مرة أخرى . وقد أرسل تحوتمس الثالث أحد رجال بلاطه سن - نفر لإحضار أخشاب الأرز من جبيل .[٢] كما أوكل للمدعو مين - مس تجديد معبد ربة جبيل خلال فترة هذا الحكم . كنوع من سياسة التقرب إلى حكامها [٣]

---

(١) في نصوص تحوتمس الثالث المسجلة على جدران معبد الكرنك ، ورد أول ذكر لأسم دمشق : تا - مس - قو وتظهر التهجئة نفسها في نصوص امنحتب الثالث وفي نصوص تل العمارنة يذكر الاسم نفسه ثلاث مرات ، راجع : د. عيد مرعى : دمشق القديمة ، تحليل لكتاب لوين بيتارد (يحمل العنوان نفسه) ، في مجلة دراسات تاريخية ، العدد ٣١ - ٣٢ حزيران ، دمشق ١٩٨٩ ، ص ١٦٩.

(٢) Urk IV, p. 535.

(٣) Montet, Byblos, p. 286.

وفى عهد أمنحتب الثانى استغل السوريون فرصة وفاة تحوتمس الثالث وقاموا بثورة ومعهم بعض الإمارات الأسيوية . فخرج إليهم الملك ووصل إلى نهر العاصى وقضى على الثوار . ولما سمع أمير نهرينا وأمير سنجر بهذا النصر الذى أحرزه الملك تسابقوا لإحضار هداياهم ، ففى الفترة ما بين قيام الدولة الوسطى والدولة الحديثة ، كون ملوك من أصل آرى المملكة الميتانية على أعالى نهر الفرات وسوريا . ولأول مرة نرى مملكة ميتانى ترسل مندوبين بالهدايا . وسعى الميتانيون إلى التقرب من ملك مصر خوفا من تزايد قوة الحيثيين .[١]

جاء بعد ذلك تحوتمس الرابع وأثناء الفترة القصيرة التى أمضاها فى الحكم ، قاد جيوشه إلى آسيا ، وكانت مجرد حملة تفتيشية أكثر منها حملة حربية بالمعنى المفهوم . وفى هذه اللحظة كان الموقف فى آسيا قد تطور بالفعل وبدأ يظهر خطر الحيثيين . وفى شرق الفرات كانت تمتد مملكة ميتانى ، وكانت دولة متحضرة يحكمها الملك ارتاتاما وكان نهر الفرات يفصل هذه المملكة عن ممتلكات مصر فى آسيا . وقد رأى تحوتمس الرابع أنه من الأفضل عقد معاهدة مع ارتاتاما لكى يتفادى بهذه الطريقة أن تتعرض ممتلكاته البعيدة ومناطق نفوذه لأى هجوم ، ولهذا الغرض أرسل السفراء إلى بلاط ميتانى طالبا الزواج من إحدى بنات الملك . ولم يتردد الميتانيون فى البحث عن صداقة الملك المصرى نظرا لتزايد خطر الحيثيين . ولهذا عقدت معاهدة بين البلدين ، ولا نعرف أى شئ عن تفاصيلها وكل ما نعرفه أن الملك تحوتمس الرابع تزوج بالفعل من الأميرة الميتانية موت ام ويا وهى التى سوف تنجب ولده أمنحتب الثالث ، الذى يجرى فى عروقه الدم الهندواوروبى . وقد أعطى لها هذا الاسم عند وصولها إلى مصر . ومنذ عصر تحوتمس الرابع أصبح ملوك ميتانى يرتبطون بملوك مصر أو البلاط الملكى المصرى - بعلاقات مصاهرة .[٢]

---

(١) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٣ .

وقد جاءت إشارات عن نشاط تحوتمس الرابع فى عدة نصوص منها إشارة فى قوائم القرابين التى قدمها الملك إلى المعبود امون على أنه استولى على بلاد النهرين . وفى مقبرة أحد رجال عصره خع أم حات ترى صورة لتحوتمس الرابع ومن ورائه أوانى من الذهب والفضة جاء بها بعض الآسيويين .

تولى بعده أمنحتب الثالث ولم يكن له نشاط حربى كبير . فقد عثر على لوحة في معبده الجنائزى فى طيبة تشير إلى أنه انتصر فى الشمال والجنوب دون أية تفاصيل أخرى .

ونعرف أنه تزوج من الأميرة الميتانية " جيلوهيبا " ابنة شوتارنا التى وصلت ومعها ثلثمائة من حريم الشرف وتزوجت من الملك ولكنها نحيت إلى الصف الثانى بواسطة الملكة تى فيما بعد . ووصفت الأميرة الميتانية فى النصوص المصرية بأنها " ابنة أمير نهارين مع ٣١٧ من اتباعها اختيروا من بين النساء الأكثر جمالا فى الحريم الملكى " وقد تزوج الملك أيضا من إحدى الأميرات البابليات ، لذلك نجد أن أخاها الملك البابلى " كاداشمان – انليل " يشكو من أنها اختفت بعد الزواج وهو يجهل ما إذا كانت على قيد الحياة أم لا . ولدينا خطاب طويل من ملك ميتانى – توشراتا – قد أرسله بعد وفاة أمنحتب الثالث إلى ملكة مصر ، يطلب منها أن تستخدم نفوذها لدى العاهل الجديد (أمنحتب الرابع) لكى تستمر علاقة الصداقة بين البلدين . ونلمس أيضا فى الخطابات التى أرسلها توشراتا إلى أمنحتب الرابع نفسه ، عدة ملحوظات منها أن الملكة الأم كانت على علم بكل الرسائل الدبلوماسية بين ميتانى ومصر . وأكثر من ذلك فقد ذكر فى إحدى الخطابات أن الملكة أرسلت إليه خطابا بعد وفاة زوجها ، وطبقا لظواهر الأمور يعتقد أن الملكة تى أخذت زمام أمور الدولة بدلا من ابنها الصغير .[١]

وعندما تولى الملك اخناتون كانت الأوضاع فى سوريا وفلسطين فى حالة يرثى لها . فقد استغل الحيثيون فرصة انشغال الملك المصرى بشئونه الدينية فى

---

(١) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ٩٨ – ٩٩

الداخل ، لكى يقودوا التحالفات والمؤامرات ضد مصر ونفوذها فى بلاد الشام . وقد نجحوا فى ذلك هم وأعوانهم من الأموريين . ومن الوثائق الهامة التى تلقى لنا الضوء على الأوضاع السياسية التى سادت سوريا وفلسطين أثناء فترة حكم الملكين أمنحتب الثالث واخناتون ، خطابات تل العمارنة التى عثر عليها عام ١٨٨٧ وهى ألواح طينية كتبت بالخط المسمارى بلهجة أكدية وكان يحتفظ بها فى أرشيف الديوان الملكى الذى تم العثور على مكانه بطريق الصدفة .[١] وعرفت هذه الرسائل بالاسم الشهير

---

(١) وكان هذا المكان يقع فى الأصل خلف قصر الملك اخناتون حيث كانت توجد مجموعة متواضعة من المكاتب الصغيرة وكان الغرض منها حفظ الأرشيف الملكى وكان يطلق عليها اسم " مكتب مراسلات الملك " . وعثر على هذه الرسائل إحدى الفلاحات عندما كانت تبحث عن بعض الأحجار والطوب لبناء فرن لها وعثرت على مكان هذه الألواح الطينية . وقضى سوء الحظ أنه لم يعرف قيمتها فى ذلك الوقت . بل حدث أن نهب جزءا منها تجار الآثار ، ووصل بعضها إلى بعض العلماء الذين حكموا بأنها مقلدة ولا قيمة لها . وأن ما عليها من نقوش ليس إلا عبث أطفال مقلدين . ولهذا لم يبق من المئات الكثيرة التى عثر عليها إذ ذاك إلا عدد قليل . وعندما جاء الوقت الذى عرف فيه المتخصصون قيمتها كان أكثر من نصفها قد تحطم نظرا لعدم صلابتها ولم يبق منها إلا نحو ثلثمائة . وعندما بدأ بترى فى عام ١٨٩١ حفائره فى تل العمارنة باحثا عن بعض منها لم يعثر إلا على القليل ولهذا ارتفع العدد الكلى الآن إلى ٣٧٩ موزعة كالآتى : ١٩٩ بمتحف برلين ، ٨٣ بالمتحف البريطانى ، ٥٠ بالمتحف المصرى ، ١٨ بمتحف أكسفورد ، ١ بمتحف اللوفر ، ١١ بمجموعة خاصة ، يضاف إليها قطعا صغيرة لا تحمل أرقاما راجع : Knudtzon, Die El Amarna Tafeln, AAllen 1964, p. 991 – 996; Helck, LA I, p. 173.

ومن أهم ما عثر عليه بين هذه الألواح جزء من لوح عبارة عن قاموس كانت كل صفحاته مقسمة إلى ثلاثة أعمدة سجلت فى العمود الأول الكلمة بالمصرية وأمامها فى العمود الثانى معناها بالمسمارية الأكدية ، وهى لغة المراسلات الدبلوماسية فى ذلك العصر . وفى العمود الثالث النطق الأكدى مكتوبا بالأحرف المصرية . وكان هذا القاموس فى أيدى كتبة " مكتب مراسلات الملك " التابع للديوان الملكى للاستعانة به عند ترجمة ما جاء فى هذه المراسلات وعند تحرير الرد عليها ، راجع : د. أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ص ١٠٨ – ١٠٩ ؛ بارى كيمب : تشريح حضارة (ترجمة أحمد محمود) المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومى للترجمة ، ٢٠٠٠ ، ص ٣١١ .

" خطابات تل العمارنة " . وهى عبارة عن مراسلات كانت متبادلة بين هذين الملكين وبعض ملوك بابل وميتانى وآشور وخاتى والازا (شمالى طرابلس)[١] وأمراء وحكام المدن السورية والفلسطينية . وكان بعض هؤلاء الأمراء والحكام يخضع للنفوذ المصرى ويدين بالولاء لملكها . والبعض الآخر لم يخضع لحكم ملك مصر مباشرة . وبعض أصحاب هذه الرسائل كانت تربطهم ببعض ملوك مصر صلة المصاهرة والبعض الآخر كان يتظاهر بولائه . وللأسف الشديد أننا لا نعرف العدد الأصلى الذى كانت عليه هذه الرسائل .

ويفهم منها أنه كان من بين الموالين لملك مصر فى سوريا : ربعدى حاكم جبيل ، امونيرا حاكم بيروت[٢] ، واكيزى حاكم قطنه شمالى حمص ، وأبو ملكى حاكم صور ، وزيمردا حاكم صيد (؟) ، ومدينة تونيب (بعلبك) وسيميرا المجاورة لجبيل . وفى فلسطين كان : عبد خيبا حاكم أورشليم ، وديا حاكم عسقلان ، وبريديا حاكم مجدو .[٣]

أما حكام المدن المعادية للنفوذ المصرى فى سوريا : حاكم ارواد ، وايتاجاما حاكم قادش ، وحاكم آمور وعبد شرتا وخلفه وولده عازيرو . وفى فلسطين : لابايا حاكم سشم وولده تاجى وزوج ابنته ملكى - ايلى .[٤]

---

(١) د. عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، ص ٦٣٨ ؛ د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢١٨ ؛ بارى كيمب : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .
(٢) د. عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، ص ٥٩٠ ، ٦٣٨ .
(٣) د. نجيب ميخائيل : الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، الكتاب الثانى : مصر، دار المعارف ١٩٥٨، ص ١٧٤ - ١٨٤؛ د. عبد الحميد زايد : مصر الخالدة، ص ٥٩٠ - ٥٩١ ، ٦٣٨ - ٦٣٩ ؛ د. عبد القادر خليل : علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية عصر الدولة الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٨١ ، ص ٢٠٥ - ٢١٢ ، ٢١٤ - ٢١٩ .
(٤) د. نجيب ميخائيل : المرجع السابق ، ص ١٧٤ ، ١٨٤ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٥٨٩ ، ٦٣٨ ؛ د. عبد القادر خليل : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ - ٢١٢ ، ٢١٤ - ٢١٩ .

وبينت لنا هذه الرسائل من كان مواليا لمصر ولملكها ومن كان عدوا لها ولملكها ويسعى للتخلص من النفوذ المصرى تحت ضغط الحيثيين وأعوانهم . وأيضا تحت ضغط الأموريين الذين لعبوا دورا فى تقويض النفوذ المصرى فى سوريا . فكان شوبيلوليوما حاكم خيتا يفرض سيطرته على حلب وكذلك على كل شمال سوريا كما عمل مبعوثو الحيثيين على إقصاء الموالين والأوفياء لمصر عن الحكم . وتقدم الأموريون بطول الشاطئ واستولوا على المدن التى كانت موالية للمصريين الواحدة بعد الأخرى .

وكان ايتاجاما حاكم قادش يسعى بكل قواه للقضاء على النفوذ المصرى فى هذه المناطق . كما استخدم عبد شرتا وولده عازيرو كل ذكائهما تارة والقوة تارة أخرى للاستيلاء على الشاطئ بين صيدا وأوجاريت . وكان ربعدى حاكم جبيل الذى كان أكثرهم وفاءا وولاءا وأكثر من كتب من خطابات يكافح ويقاوم فى أقصى الشمال هو وحاكم تونيب (بعلبك) وحاكم أورشليم عبد خيبا يكافح فى الجنوب ووقف ضد أعداء الملك المصرى . ولو أنه من الصعب أحيانا فى ضوء ما جاء فى هذه الخطابات فهم من هو العدو ومن هو المخلص ، فالعدو يمكن أن يكتب إلى الملك متظاهرا بعكس ما هو متهما به . فبينما رسائل ربعدى حاكم جبيل تظهر حاكم آمورو على أنه العدو هذا لم يمنع هذا الأخير من أن يكتب إلى الملك معربا عن وفائه .[١] كما أننا لا نعرف بالضبط هل كان زيمردا حاكم صيدا مخلصا أم لا لأنه كتب إلى الملك معربا عن إخلاصه[٢] فى حين تظهره رسائل ابو ملكى حاكم صور على أنه عدو .[٣]

---

(١) راجع د. عبد القادر خليل : المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

(٢) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٥٩٠ – ٥٩١ .

(٣) د. عبد القادر خليل : المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

وقد أرسل ربعدي وحده أكثر من ستين من هذه الخطابات[١] خطابا وراء الآخر طالبا قوات مساعدة ولكن لم تأته النجدة فكتب ربعدى إلى أمنحتب الثالث خطابا يعرض فيه الأخطار التى تتعرض لها بيبلوس فيقول :

" جبيل الجارية أمينة للملك منذ أيام آبائه .. ها هو ذا الملك قد سمح أن تخرج المدينة المخلصة من يده .. ليقلب الملك سجلات بيت آبائه ليرى إن كان الرجل الذى فى بيبلوس ليس خادما مخلصا " .[٢]

وكان ربعدى يتهم أمير أو حاكم آمورو عبد شرتا بأنه يسعى لتقويض النفوذ المصرى واحتلال الأراضى الخاضعة لنفوذ الملك ، فكتب يقول أيضا :

" عبد شرتا كلب يسعى لامتلاك مدن الملك " ..

ويرسل ربعدى فى طلب نجدة من مصر مكونة من عشرين زوجا من الخيل وثلاثمائة رجل حتى يستطيع أن ينقذ المدينة .[٣]

ومن ناحية أخرى نجد أن أمير أو حاكم امورو عبد شرتا يدافع عن نفسه فيرسل خطابا إلى الملك أمنحتب الثالث ، يقول فيه :

" إلى الملك ، شمسى ومولاى ، يقول عبد شرتا وتراب قدميك : أجثو عند قدمى مولاى الملك سبعا وسبعا فأنا خادم الملك وجرو بيته واحرس أرض امور أو

---

(١) هى أرقام : 68 – 92, 95 – 96, 102 – 138

راجع : Knudtzon, Die El Amarna Tafeln AAllen 1964, p. 361 – 435, 441 – 443, 455 – 587.

(٢) ترجمة د. عبد القادر خليل : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧ وراجع أيضا: د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق، ص ٥٩١(٢) حيث نجد ترجمة لخطاب آخر من ربعدى .

(٣) د. عبد القادر خليل : المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

كلها من أجل مولاى وسيدى " .[١]

وفى خطاب آخر إلى اخناتون يشرح ربعدي الوضع العـام فيذكـر لـه أن والده ، أمنحتب الثالث ، قام بإرسال عدد كبير من الجنود إليه عندما طلب هو ذلـك . وكان رد الملك على ربعدي قوله له أن يحمى نفسه ، فرد ربعدى قائلا :

" لما كتب الملك يقول دافع عن نفسك وسيدافع عنك بغير شك ؟ ضد مـن أدافع عن نفسى ؟ ضد أعدائى أم ضد رعاياى ؟ من سوف يدافع عنـى ؟ إذا دافـع الملك عن عبيده فإن فى هذا خلاصى ، ولكـن إن لـم يدافـع عنـى فمـن يدافـع عنى ؟ " .[٢]

وانتهى الأمر بربعدى بأن قبض عليه وأقصاه أخوه عن الحكم .[٣]

ولم يكن هدف عازيرو ابن عبد شرتا هو التخلص من ربعدى فقـط ولكـن كان يريد التخلص من أبو ملكى أمير أو حاكم صور واكيزى أمير قطنه اللذين اتـهماه بالعمل ضد النفوذ المصرى .

ويبدو أن تصرفات عازيرو هذه قد أغضبت الملك أمنحتب الرابع فكتب إليه قائلا :

" والآن أن هؤلاء الذين استمالوك إلى صفوفهم إنما يهدفون إلى القذف بـك فى النار ... ولو أنك انحنيت إلى الملك سيدك ، واحطته علما بما جرى هناك ، فمـا الذى لم يفعله الملك من أجلك " .[٤]

---

(١) ترجمة د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

أرسل هذا الحاكم ستة خطابات هى أرقام : 67 – 62 ، راجع : Knudtzon, Die El Amarna Tafeln AAllen 1964, p. 349 – 360.

(٢) د. عبد القادر خليل : المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

(٤) ترجمة المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

وفى خطاب آخر محذرا يقول :

" انك تعلم بالتأكيد أن الملك لا يرغب في القيام بهجوم عنيف يشمل كل أرض كنعان ... تأكد أن الملك يمكنه التحرك كتحرك الشمس فى السماء ، وقواته وعرباته موجودة فى الشمال والجنوب بكثرة " .[1]

ولكن عازيرو استمر في مؤامرته واستمال إليه أمير صيدا الذى لجأ إليه ربعدى فى آخر مطافه فسلمه إليه ، واستولى هو على الازا (شمال طرابلس) ، واردانا (قرب زغرتا) ، وحرق أوجاريت ودمر سيميرا ، وظل يرسل خطاباته المخادعة إلى اخناتون يظهر ولاءه فيها ويدعى أنه إنما يستولى على المدن ليحميها من الحيثيين وأنه يخرب بعضها حتى لا يستفيدوا منها ، وبلغت به صفاقته إنه كان يراسل الملك معبرا عن خضوعه وولائه ".[2]

كما أن هناك خطابات أخرى أرسلت من : امونيرا حاكم بيروت وابو ملكى حاكم صور واكيزى حاكم قطنة و زيمرد؛ حاكم صيدا . فكتب امونيرا حاكم بيروت خطابين يقول فى أحدهما :

" أيها الملك ، سيدى ، شمسى ، كتبت لى وأنا خادمك وتراب قدميك أن أعد (كل شئ) من أجل قوات الملك سيدك (هذا) ما نمى إلى سمعى والآن انظر فقد جهزت خيولى وعرباتى وكل ما يمتلكه خادم الملك سيدى ، من أجل قوات الملك ، سيدى ، شمسى " .[3]

كما كتب ابو ملكي حاكم صور عشرة خطابات يقول فى إحداها : " زيمودا حاكم صيدا وعازيرو عدو الملك ، قوم ارواد ، قد أقسموا وأقاموا حلفا فيما بينهم وجمعوا سفنهم وعرباتهم ، ومشاتهم لكي يهزموا صور خادمة الملك . (ولكن) يد

---

(١) ترجمة المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٢) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٣) د. عبد القادر خليل : المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

الملك القوية قد وصلت وتمكنت صور من سحقهم ، ولم يتمكنوا من هزيمتها ، ولكنهم تمكنوا من هزيمة سيميرا . . " .

وفي خطاب آخر يقول : " لقد أدار الملك وجهه نحو خادمه وأعطاه ضباطا لكي يحمي مدينة الملك ، سيدى ، وكنت بمفردى ". وفي خطاب ثالث : " لقد أصابهم (أى الأعداء) الذعر من مشاة سيدى " . وفي خطاب رابع يذكر : " ان ما قاله الملك ، سيدى ، قد فعلته ، إن الأرض كلها ترتعد عند رؤية جنود الملك ، سيدى وقد أذنت لقومى بأن يعدو السفن من أجل استقبال جنود الملك سيدى " .(١)

ويقول أيضا في إحدى رسائله : " هذه رسالة من عبد إلى سيده بعد أن سمع ما قاله الرسول الطيب من لدن الملك لخادمه عند وصوله إلى هنا ، (وشعر بـ) العبير الحلو الذى خرج من فم جلالتكم نحو عبده " .(٢)

ويقول أيضا : " لقد بدأ ايتاجاما ملك قادش وعازيرو العداء .. " .(٣) وكتب اكيزى حاكم قطنة يقول :

" سار الآن ايتاجاما ضدى ومعه ملك خاتى وهو يطلب أرضى ، والآن قد أرسل لى ايتاجاما ، يقول : تعال معى إلى ملك خاتى وأجبته أنا : (بأنه) إذا كلفنى ذلك الأمر حياتى ، سوف لا أذهب إلى ملك خاتى ، فأنا خادم الملك ، سيدى ، ملك مصر " . ويذكر في خطاب آخر : " لقد أخذ ملك خاتى ، آلهة قطنة ورجالها " .(٤)

وأرسل زيمردا حاكم صيدا خطابين يقول في أحدهما : " إلى سيدى الملك وإلهى وشمسى ونفسى حياتى وعند قدمى سيدى وإلهى .. أسجد سبع مرات وسبعا ، وأعلم يا سيدى الملك أن صيدا مطمئنة خادمة لسيدى الملك الذى أودعها بين يدى ..

---

(١) هى أرقام : 155 - 146 ، راجع : Knudtzon, op. cit., p. 633 – 637
وأيضا : المرجع السابق ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٣) د. عبد القادر خليل : المرجع السابق ، ص ٢١٨ – ٢١٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

وأعلم أيها الملك إنى أقود جند سيدى الملك وإنى أنفذ كل ما يأمر به ، وأعلم أيضا أيها الملك أن لى أعداء أقوياء وإن كل المدن التى أولانيها الملك سقطت فى يد اللصوص فهل يأذن الملك بأن أضع نفسى تحت حماية قائد جنده لاسترداد البلاد التى سقطت فى يد اللصوص ... " .[١]

وكتب حاكم مدينة تونيب إلى الملك اخناتون راجيا أن يرسل إليهم بمساعدته وكتب إليه قائلا : " إلى مولانا ملك مصر . نحن أهل تونيب أتباعك ندعو لك بالحياة والسعادة ونقبل قدميك . إن آمتك مدينة تونيب تقول من ذا الذى كان يستطيع أن ينهب تونيب دون أن ينتقم لها منخبريا (أى تحوتمس الثالث) ويفعل بالناهب ما فعل بها . إن معبودات مولانا الملك وتماثيله موجودة لدينا ، وليسأل مولانا فى ذلك المتقدمين فى السن من رجاله ليعرف ما إذا كنا نقول الحقيقة أم غيرها .. إذا لم يدركنا مشاة ملك مصر وعرباته قبل فوات الفرصة فإن عازيرو سيصنع معنا مثل ما صنعه فى مدينة " نى " وحينئذ لن نبكى وحدنا بل سيبكى معنا أيضا ملك مصر مما يرتكبه عازيرو من أعمال لأنه سيرفع يده حينئذ ضد مولانا " .[٢]

ويبلغ مجموع الرسائل التى أرسلها أهل تونيب عشرين رسالة[٣] خطابا وراء الآخر طالبين قوات مساعدة ولكن لم تأتيهم النجدة . وكان آخرها هذا الخطاب :

---

(١) هما أرقام 145 - 144 ، راجع : Knudtzon, op. cit., p. 603 – 605
د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٥٩٠ .

(٢) انظر ترجمة د. أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ص ١١٠ ؛ ود. عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول : مصر والعراق ، ص ٢١٨ .

(٣) د. أحمد فخرى : المرجع السابق ، ص ١١٠ ؛ د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

" إن مدينتك تونيب تبكى ، ودموعها تجرى ، ولا ناصر لنا ، أرسلنا عشرين رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم نتلق ردا منه " .(١)

هكذا كان الوضع فى الشمال فى سوريا . أما فى الجنوب فى فلسطين فكان لابايا حاكم سشم وولده تاجى وزوج ابنته ملكى – ايلى يسعون جميعا لتقويض دعائم النفوذ المصرى . ومن ناحية أخرى كان هناك من أخلصوا لملك مصر فى هذه الناحية وكان على رأسهم عبد خيبا حاكم أورشليم وبريديا حاكم مجدو وياشدانا حاكم تاعا ناخ (سوف نتحدث عن مراسلاتهم عند الحديث عن فلسطين ، فيما بعد ص ٢٩٤) .

وفى أثناء ذلك الوقت ، كانت شعوب الخابيرو قد بدأت تتسلل إلى سوريا من الجنوب ، وأرسل الأمراء الموالين لمصر خطاباتهم العديدة ، شاكين طالبين حماية الملك ويعلنون أن الغزاة ينتصرون فى كل مكان .

وعلى الرغم من كل هذه الخطابات وما جاء فيها لم يتحرك اخناتون واكتفى بإيفاد رسول لبحث الموقف فى فينيقيا ولكن هذا الأخير بطريقة غريبة جدا ، ثبت ملك آمور فى الأراضى والممتلكات التى انتزعها من مصر ، تلك الأراضى التى سوف تشمل فيما بعد بيبلوس أيضا . وهذا يعنى أن الملك قد اعترف بالأمر الواقع واكتفى باعتبار ملك آمور موال له يخضع لأوامره . أما فى فلسطين فقد قام البدو بدورهم بثورة واستولوا على مجدو ثم مناطق أورشليم أو (رو – سا– ليم) ، وفى حالة من اليأس أرسل المواطنون يطلبون مساندة مصر ، ولكن اخناتون لم يرسل إليهم أية نجدة وأخيرا سقطت ميتانى حليفة مصر تحت ضربات الحيثيين والآشوريين المتوالية ، وأصبح الحيثيون الآن فى أوج مجدهم وقوتهم وأرغموا ملك آمور على توقيع معاهدة تحالف معهم .

---

(١) د. أحمد فخرى : المرجع السابق ، ص ١١٠ ؛ د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

وظلت السياسة الخارجية فى تدهور مستمر خلال عهود خلفاء اخنـاتون : سمنخ كارع ، توت عنخ أمون ، وآي . ويبدو أن شرق الدلتا كان عرضة فى ذلـك الوقت لتسربات من عناصر جاءت من اسيا وعندما بلغ الملك توت عنخ امون مبلـغ الرجولة ، قاد بنفسه حملة عسكرية ضد هؤلاء الغزاة وتحدثنا النقـوش عـن يـوم القضاء على الآسيويين .[١] ويبدو أنه كان هناك لقاء بينهم وبين جيش الملك أثنـاء طردهم من حدود مصر الشرقية .

وفى عهد حور محب قام بقيادة الجيش المصرى من جديد إلى آسيا ، ونجـح فى استعادة جزء صغير من الأراضى التى فقدت هناك .[٢]

وفى بداية الأسرة التاسعة عشرة تولى الملك سـيتي الأول الـذى بفضلـه عرفت مصر من جديد فترة من المجد ولكن دون أن تصل إلى درجة التوسـع التـى وصلت إليها فى عهد تحوتمس الثالث .[٣] فبعد مرور عامين من وفاة أبيه رمسـيس الأول وصعوده على العرش نجد أنه أعاد سياسة الغزو المصرى فى آسيا واسـتعاد بعض النفوذ والسيطرة حتى جنوب سوريا . فقد حاول العـبرانيون إثـارة الشـغب واستغلوا فرصة تولى ملك آخر وأعلنوا ثورتهم ودفعوا ببـدو الصحـراء الشـرقية الشاسعة إلى الحدود المصرية واستولوا على الحصون والحاميات المصرية التى تمتـد بطول الطريق البرى من الحدود المصرية إلى فلسطين فخرج إليهم فى السنة الأولـى من حكمه على رأس جيش كبير وقضى على هذه الثورة واستعاد الحاميات وتغلغـل فى فلسطين وقد حاول السكان المدفوعين بواسـطة الحيثيين إلـى الوقـوف ضـد المصريين ولكن سيتى الأول نجح فى هزيمة المتحالفين قبل أن يتوافر لديهم الوقـت الكافى للترابط فيما بينهم . ثم واصل مسيرته بعد ذلك إلى لبنان وأعاد لمصـر مـرة

---

(١) د. رمضان السيد : تاريخ مصر القديم ، الجزء الثانى ، طبعة هيئة الآثار ، ص ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٧ – ١٣٨ .

أخرى نفوذها فى غرب آسيا وسوريا العليا . وهكذا حققت الجيوش المصرية النصر حتى فى المناطق التى تقع شمال لبنان . وقد تحقق كل ذلك خلال أربع سنوات(١) وسجلت على الجدران الخارجية لصالة الأعمدة الكبرى فى الكرنك أخبار هذه الحملة وصور أهالى بيبلوس وهم يقومون بقطع أشجار الأرز للملك . وقد عثر على لوحات صغيرة فى قادش وفى تل شهاب ذكر على كل منها اسم الملك سيتى الأول وعثر فى بيت شان (بيسان) على لوحة تؤكد وصول جيوشه إلى مدينة حماه . وقد حاول الحيثيون الحد من تقدم الجيش المصرى بعض الوقت ولكن دون جدوى . وعاد سيتى الأول مرة أخرى إلى آسيا لكى يتابع حملته الأولى التى طرد فيها الشاسو وأخضع فلسطين وكنعان ، ولا نعرف تفاصيل هذه الحملة الأخيرة ، لأن نصوصها قد ضاعت معالمها على جدران معبد الكرنك . وتذكر نقوش تمثال له عثر عليه فى معبده الجنائزى بالبر الغربى بطيبة أنه أخضع ستة عشر بلدا فى فلسطين وربما قد وصل فى هذه الحملة الثانية حتى قادش ، وتذكر نصوص تمثاله أيضا أنه استولى على سامرا وبلاد آمور . وفى حملة ثالثة وصل فيها إلى وادى نهر العاصى كما يتضح من نصوص معبد الكرنك أنه كان يحارب فى قادش ضد الحيثيين ، ويبدو أن الحيثيين قد تراجعوا ولكن لم ينجح فى استعادة شمال سوريا . وفى حملة رابعة عاد مرة أخرى إلى آسيا وتقابل مع الحيثيين شمال قادش وربما وقع فى هذه المرة معاهدة مع ملك الحيثيين ولكن لم تصلنا نصوصها . وليس لدينا أى تفاصيل عن هذه الحرب التى دارت بين المصريين وبين قوات مواتلى ملك الحيثيين ، إنما تذكر أن سيتى عاد منتصرا من هذه الحملة .

وعندما تولى رمسيس الثانى الحكم كان الموقف فى آسيا خطيرا للغاية ، فقد أخذت قوة الحيثيين فى النمو شيئا فشيئا وأخذ مواتلى ملك الحيثيين ، يتقدم نحو قادش وقام رمسيس بحملته الأولى فى السنة الرابعة من حكمه وعبر فيها فلسطين حتى نهر

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٠٦ ؛ د. توفيق سليمان : المرجع السابق ، ص ٣٨٣ – ٣٨٤ .

الكلب على بعد قريب من بيروت حيث أقام هناك لوحة تذكارية .[١] ويذكر مونتيه ان رمسيس الثانى أسس مدينة تحمل اسمه فى وادى الأرز (؟)[٢] وكان أحـد حكـام جبيل يدعى احيرام صاحب المقبرة رقم (٥) وكان معاصرا للملك رمسيس الثـانى . فقد عثر لهذا الأخير على إناء من الألبستر فى مقبرة هذا الحاكم . وفى خريف العـام الخامس من حكمه عام ١٢٩٣ ق. م . قام بحملته الشهيرة ضد مواتلى بقصد السيطرة على سوريا ونقشت أخبار معركة قادش على جدران العديد من المعابد : الكرنـك ، والأقصر ، الرمسيوم وأبو سمبل وذكرت على ثلاث برديات . وفى الواقـع أن كـلا الخصمين كانا فى قوة متساوية ولم يدخلا فى معركة حقيقية وبقيـت سـوريا تحـت التهديد الحيثى . ولكن الخسائر كانت فادحة جدا من كلا الطرفين . وقد نجح الملـك فى الحد من شوكة الحيثيين ، الذين كانوا قد كونوا تحالفا من عشرين شـعبا ، وفـى خلال العشر سنوات التى مرت بعد ذلك ، قام بعدة حمـلات إلـى آسـيا .[٣] ومـن الواضح أن الحيثيين اضطروا إلى التراجع قليلا ولكنهم عادوا مـرة أخـرى لتـأليب

---

(١) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ١٤٣ – ١٥١ .

(٢) Montet, Byblos, p. 286.

(٣) إذ لم يمض عامان على معركة قادش حتى كانت فلسطين قـد ثـارت بأسـرها وامتدت الثورة حتى وصلت حدود مصر إذ كانت عسقلان من بين المدن التـى وجد رمسيس الثانى نفسه مضطرا للاستيلاء عليها . وكذلك جـزء مـن بـلاد الأموريين وبخاصة حصن دبور التى دارت عنده إحدى المعارك الهامة وبعض المدن على الساحل الفينيقى ، راجع : د. أحمد فخـرى : مصـر الفرعونيـة ، الطبعة الخامسة ، ص ٣٥٣ . وعند صخور نهر الكلب يوجـد نحـت بـارز لاسرحدون أقيم إلى اليسار من نصب رمسيس الثانى . وكمـا روى رمسـيس الثانى فى نقشه كيف استولى على عدة مناطق فى سوريا وفلسـطين ، نجـد أن اسرحدون يروى خبر الاستيلاء على منف فى مصر وعسقلان وصور، راجع : د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، الجـزء الأول ، ص ١٥٤ – ١٥٥؛ المؤلف نفسه: تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية، ص١٠٥– ١٠٧.

المدن الفلسطينية ولكن أزمة الخلافة على العرش أضعف ملك الحيثيين . وفى أعقاب وفاة مواتلى تولى ابنه الذى كان صغيرا جدا وبعد عدة سنوات من الحكم حل محله عمه الملك خاتوسيل الثالث ، وانتهز رمسيس هذه الفرصة لكى يعاقب مدن فلسطين التى كانت موالية للحيثيين وأراد أن يستعيد موانى الشاطئ الفينيقى وتقدم نحو تونيب وأيضا حتى نهرينا ونجح فى إعادة الهدوء إلى فلسطين واستولى على تونيب من يد الحيثيين . وعندما وصل إلى هذا الحد ، تطور الموقف الخارجى فجأة ، فقد ظهر فاتح ثالث فى آسيا ، وهى آشور التى استولت على الجزء الأكبر من ميتانى القديمة ، ثم استقر ملك آشور على نهر الفرات ومن هنا بدأ يهدد الحيثيين والممتلكات المصرية ولهذا نصح معاونو خاتوسيل الملك بعقد معاهدة سلام مع ملك مصر ووقعت المعاهدة بين الملكين . ولدينا النسختين المصرية والحيثية من هذه المعاهدة . وبعدها بثلاثة عشر عاما تقريبا ، جاء الملك الحيثى خاتوسيل فى زيارة رسمية إلى مصر مصطحبا معه ابنته لتصبح زوجة للملك المصرى ولقبت هذه الأميرة بالاسم المصرى ماعت نفرو رع . وظلت هذه المعاهدة سارية المفعول طوال حكم رمسيس الثانى ، واستمر هذا السلام لمدة ستة وأربعين عاما حتى أيام ولده مرنبتاح ، فقد أرسل هذا الأخير حبوبا إلى الحيثيين الذين واجهتهم مجاعة .[١]

وعندما تولى مرنبتاح الحكم اضطر فى بداية حكمه إلى قيادة حملة فى سوريا ، ولكن لا نملك وثائق عن هذه الحملة . وعلى لوحة أمنحتب الثالث التى اغتصبها مرنبتاح يذكر بعض المدن الآسيوية التى عاقبها مثل كنعان وعسقالون وجزر وينعام ثم يضيف عناصر " اليسيريارو قضى عليها ، ولم تصبح لها ذرية ، وأصبحت خارو (سوريا وفلسطين) أرملة لمصر واتحدت كل البلاد فى سلام ، لقد قضى على كل قاطع طريق " وعلى الرغم مما يعتقده الكثيرون من العلماء فإن كلمة " اليسرياريو " هنا ، فى راينا ، لا تعنى إسرائيل ن ولكن يقصد بها عناصر بدوية كانت تتجول فى جنوب فلسطين .[٢]

---

(١) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦١ ، ١٦٦ - ١٦٨ .

وفى الأسرة العشرين كان على رمسيس الثالث أن يواجه الغزو الهندواوروبى ، فقد جاء الغزاة ومعهم زوجاتهم وأطفالهم من الشرق ومن الشمال . وهددوا مصر من البر والبحر فى نفس الوقت . ويبدو أن تلك الشعوب قد فشلت فى اتحادها مع الليبيين فى شمال أفريقيا ، فأخذت تبحث عن مجال جديد فى آسيا الصغرى وفي سوريا . وليس لدينا معلومات محددة عن الحملة البرية ولكن يبدو ان الجيش المصرى قد نجح فى محاصرة الهندو اوربيين على الحدود الفلسطينية السورية ، أى خارج حدود مصر ، وقد أرخ هذا الحدث بالسنة الثامنة من حكم رمسيس الثالث [١] . وقد سجل الملك معاركه معهم على جدران معبد مدينة هابو ، وقد صور لنا الفنان قتال المصريين فوق مراكبهم وشوهد العدو أمامهم وكان من بين تلك الشعوب : الشردانة ، الدانو ، والبلست الذين اشتهروا فيما بعد ، والتككر او التكر ، وعلى أية حال فقد تحطم اسطول الغزاة من شعوب البحر اما شواطئ الدلتا ولم يعاودوا الكرة مرة أخرى ، ومن ثم فقد عادت السيطرة المصرية كاملة على سوريا وعاد رمسيس الثالث إلى آسيا مرة اخرى ، واضطر للقيام بحملة أخرى على سوريا للقضاء على ثورة هناك وقد قضى بذلك على جماعة من البدو كانوا يتنقلون فى الصحراء جنوب فلسطين . ولم يكن هذا غير مجرد غارة لم تكر ثانية . وأصبح الجزء الجنوبى م الشاطئ الفينيقى عامرا بواسطة البلست (الفلسطينيين) [٢] . وأصبحت حدود مصر وشواطئها آمنة وغدت السفن التجارية تستطيع التجوال بين شواطئ مصر وفينيقيا دون التعرض لأى خطر .

وكانت مراكب الأسطول المصرى تشيد فى بيبلوس أو تباع إلى مصر بواسطة الفينيقيين او أنها تشيد فى الترسانة المصرية باخشاب الأرز على نماذج من بيبلوس [٣] . ويذكر نص من عصر الأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرين ، انه لم

---

(١) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

(٢) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١١١ – ١١٢ .

(٣) Montet, la Vie quotidienne en Egypte au temps de Ramses , p. 181 .

يكن هناك شئ إلا واستوردته مصر من سوريا . فمصر كانت تستورد أخشاب القوارب والعربات والأسلحة (السيوف والحراب) والعصى وأدوات الموسيقى (القيثارة وأنواعا مختلفة من الغاب) ، وأوانى ثمينة متنوعة خاصة بالزيوت والنبيذ والجعة وأنواعا مختلفة من الخبز والبخور والأسماك والثيران والأبقار .(١)

ازدادت تبعا لذلك الهجرات الأجنبية من الشمال الشرقى فى عصر الأسرة الثامنة عشرة وبدأت هذه الهجرات اولا فى صورة أسرى حرب ، وثانيا فى صورة عمال . وكان لهؤلاء العمال الأجانب أحياء خاصة بهم حول معبد الأقصر أو معابد البر الغربى فى عصر الدولة الحديثة ، وكان يتولى أمرهم و من بنى جنسهم ومنهم من حاول ان يتمصر ووصل بالفعل إلى المناصب الهامة فى الدولة . ففى عهد مرنبتاح نجد أحد السوريين يعمل فى خدمة الملك . ونجد فى بلاط رمسيس الثالث أحد الأجانب الذين يعيشون بالقرب منه ويحمل اسما فينيقيا . ونعلم أنه فى نهاية الأسرة العشرين ، اغتصب أحد السوريين المقيمين فى مصر ويسمى أرسو العرش وأرغم البلاد كلها على أن تدفع له الجزية .(٢)

ونتيجة لهذا نجد ان بعض المعبودات الفينيقية مثل عشتارت قد ذكرت فى البرديات بكثرة ابتداء من الأسرة التاسعة عشرة . كما دخل اللغة المصرية كلمات عديدة من اصل سامى (٣) . ومن الناحية الفنية حاول الفنانون المصريون أن يمثلوا الشعوب الآسيوية فى أوضاع غير مألوفة بالنسبة للوضاع التى اعتادوا عليها . مثل تمثيل بعض السوريين فى أحد مقابر البر الغربى فى طيبة ن الذين جاءوا للكشف عند طبيب الملك . وكان ملك بيبلوس احيرام الذى كان معاصرا للملك رمسيس الثانى يفتخر بانه يكتب ويتحدث باللغة المصرية إلى جانب لغته الأصلية التى استخدمت

---

(١) Erman – Ranke, op. cit ., p. 693 .

وأيضا د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ٨٦ .

(٢) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ١٧١ .

(٣) د. فيليب حتى :المرجع السابق ، ص ١٦٣ . Erman- Ranke , op. cit., p. 693 .

حروفا أبجدية من الكتابة الهيروغليفية المبسطة .(١)

وقد بقى هذا النفوذ الثقافى لمصر فى مطقة الهلال الخصيب على الرغم من زوال نفوذها السياسى ن ويرى بعض العلماء فى قصة ون آمون التى حدثت فى أواخر الأسرة العشرين وأوائل الأسرة الحادية والعشرين دليلا على ضعف هذا النفوذ السياسى لمصر فى سوريا . فقد ذهب هذا المبعوث لإحضار أخشاب الأرز اللازمة لترميم القارب المقدس لآمون . ورحل فى مركب مع بضائع سورية . وعدما رسا على أول ميناء على الشاطئ الفينيقيى ، سرق أحد البحارة من الثككر (أو صقلية) كل فضته ، وعندما ابلغ ون آمون حاكم المدينة عن السرقة لم ينل اى رد اعتبار او نوع ما من التعويض ن لذلك لجأ هو وبعض معاونيه إلى الأستيلاء على كمية معينة من الفضة فى الميناء التالى ، والتى كانت تخص أحد التجار من الثككر على أمل ان يحتفظ بها حتى يرد إليه ما سرق منه من البحارة من نفس جنسية التاجر . وعندما وصل ون امون إلى بيبلوس كانت السلطات على علم بموضوع احتفاظ آمون بفضة التاجر ، لذلك احتجز لمدة معينة حتى يتم التحقيق فى هذا الموضوع . وبعد ايام من الانتظار اصطحب إلى قصر أمير بيبلوس ، ذكر بعل الذى استمع إلى قصته وما حدث له . وطلب منه الأمير ان يحدد طبيعة مهمته الحقيقية ، فاخبره ون آمون انه جاء ليحصل على كمية من أخشاب الأرز ، ومن ثم أخذ الأمير يبحث فى وثائقه ووجد ان المصريين الذين جاءوا لشراء مثل هذه الأخشاب من قبل كانوا يدفعون فيها ثمنا باهظا . وفى النهاية اتفق معه على إرسال مبعوث إلى مصر للتحرى عن صحة أقوال ون آمون . وعاد الرسول فى الوقت المحدد ، حاملا من طرف حريحور كبير الكهنة فى مصر الهدايا المختلفة . وأعلن الأمير رضاءه وأمر بقطع الأخشاب له ، وبعد ثمانية أشهر من رحيل ون آمون من تانيس ، كانت الأخشاب مكدسة كلها على الشاطئ استعدادا لتصديرها إلى مصر . ولكن جاء أسطول من إحدى عشرة مركب

---

(١) Montet, la Vie quotidienne en Egypte au temps de Ramses, p. 177 .

عليها بحارة من الثككر ودخلوا الميناء وأعلنوا أنهم يطلبون محاكمة ون امون ويجب القبض عليه . وعندئذ أجابهم أمير بيبلوس أنه لا يستطيع أن يقبض علـــى مبعـوث لآمون رع ولكنه منحهم الحق في الاقتصاص منه كما يحلوا لهم عندمـــا يصبحـون جميعا في عرض البحر . ويبدو أن ون آمون قبل التحدى ولكن هبت عاصفة فرقـت المراكب التي كانت تطارده ودفعت به الرياح إلى بلاد آلاسيا (قبرص) فخرج عليه أهل الجزيرة وقبضوا عليه واصطحب إلى ملكة الجزيرة وخلصته من يـــد رجالـها الذين أرادوا أن يفتكوا به ووجد هناك من يتكلم اللغة المصرية . وللأسـف تنقصنـا نهاية القصة ولكن يبدو أن ون آمون قد عاد إلى أرض الوطن سالما حتى يروى لنـا هذه القصة .[١]

وعلى الرغم من كل هذا فإن تأثير مصر الثقافي ظل موجودا ، فقـد عـثر على تمثال يخص ششنق الأول كرسه أمير جبيل ابى – بعل لمعبوده ومعبود جبيـل بعلت وبعل ، وكرس ابنه ايلى بعل تمثالا لاوسركون الأول إلى نفس المعبودات .[٢]

وكان هناك بعض المصريين الذين عاشوا في جبيل زمنا طويـــلا ومـاتوا ودفنوا في أراضيها ، فمن قصة ون آمون أنه كان هناك مصريا يعمل في خدمة ذكـو بعل حاكم جبيل وكانت هناك مغنية مصرية تعمل في بلاطه .[٣] وسبق لنا أن ذكرنـا بأن نصوص اللعنة من نهاية الأسرة الثانية عشرة تذكـر لنـا ثمانيـة أسـماء مـن المصريين ممن يحملون لقب ربى أو وكيل أعمال بعض السيدات المصريات ، يبـدو

---

(١) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ٢١٤ ؛ د. عبد الحميد زايد : الشـرق الخالد ، ص ٢٦١ – ٢٦٩ ؛ د. فيليب حتى : المرجـع السـابق ، ص ١٠٧ – ١٠٨ ؛ د. عبد القادر خليل : علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهايـة عصر الدولة الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ١٩٨١ ، ص ٢٣٠ – ٢٣١ .

(٢) Montet, op. cit., p. 41 – 49.

(٣) Gardiner, late Egyptian Stories, 71 – 74.

أنهم ذهبوا إلى سوريا لأداء مهام معينة ورفضوا العودة إليها مفضلين الإقامة فى هذه البلاد الأجنبية دون أن يناصبوا العداء ولهذا صبت عليهم اللعنات ضمن أعداء مصر من حكام بعض المدن السورية .

قام نكاو الثانى فى عصر الأسرة السادسة والعشرين ، على أثر توليه الحكم بحملة إلى سوريا مكونة من قوات مصرية ويونانية وذلك لاستعادة نفوذ مصر القديم فى هذه البلاد . وتقدم نحو فلسطين وسوريا ووصل إلى الفرات ، تلك المنطقة التى كانت تمثل آخر مدى لحدود ممتلكات مصر فى فترة مجدها التاريخى الغابر . وذهب نكاو من جديد حتى الفرات لملاقاة ملك بابل فى قرقميش .(١) وكان نابوخذ نصر الأمير الوراثى هو الذى يقود العمليات الحربية بدلا من أبيه ، ونجح فى الاستيلاء على قرقميش وتتبع المصريين الذين هزموا بالقرب من حماة . وأصبحت فلسطين تحت النفوذ البابلى . ولم يخرج الملك المصرى من حدوده بعد ذلك ولكنه أرسل بعثة للاستكشافات البحرية حول الشواطئ الأفريقية وربما أيضا بغرض التجارة وقد تمت الرحلة بنجاح ثلاثة أعوام ، فقد رحلت المراكب من ميناء على البحر الأحمر وعادت عن طريق مضيق جبل طارق ، ويبدو أن هذا المشروع قد نفذ بمساعدة بعض البحارة الفينيقيين أصحاب الخبرة الكبيرة فى مجال الملاحة البحرية .(٢)

وقال هيرودوت " وهناك قالوا ما يصدقه البعض ولكننى لا أصدقه أنهم بدورانهم حول أفريقيا وكانت الشمس على يمينهم " وهذه العبارة الأخيرة التى لم يصدقها هيرودوت ثبتت صحة القصة . ذلك أنه عندما تتجه السفن إلى الغرب حول رأس الرجاء الصالح فإن شمس نصف الكرة الجنوبية تكون عن يمينها .(٣)

---

(١) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ٢٧٣ – ٢٧٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .
(٣) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٣٧ – ١٣٨ ؛ المؤلف نفسه : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ١٠٨ .

ولسنا نملك دليل آخر يشير إلى هذه الرحلة إلا ما ذكره هـــيرودوت نفســه وهو يشك فيها ولا يصدقها هو نفسه ، ولكن بعض الدارسين في العصـــر الحديــث يميلون إلى صحتها التاريخية على أساس عبارات وردت في وصف هيرودوت مـــن أن هؤلاء الرحالة من الفينيقيين حين وصلوا إلى ليبيا من الغرب كانت الشمس علـــى يمينهم .[1]

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : المـــدن الفينيقيـــة ، ص ١٢٢ – ١٢٣ ؛ د. فيليـــب حتى : المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

بعض المظاهر الحضارية

لشعوب شمال بلاد الشام القديمة

بعض المظاهر الحضارية عند الفينيقيين :

• نشط الفينيقيون فى مختلف مجالات الحضارة . فشغلوا فى تأسيس المدن والنظم السياسية وبناء المجتمع والديانة والنشاط الاقتصادى فى الزراعة والصناعة والتجارة وفى الحياة الثقافية بما توصلوا إليه فى الكتابة والحروف الهجائية وفى مجال الفنون المتعددة وقد أدخل البردى بلاد الإغريق عن طريق الفينيقيين حيث كان استعماله معروفا ومألوفا حتى القرن السادس قبل الميلاد . وتأثر الفينيقيون بالمصريين فى كثير من أمورهم كالأدب والعقائد .(١)

أولا : نظم الحكم والإدارة :

كانت المدن الفينيقية تتميز بنوع من الاستقلال ، ولم يكن هناك دولة فينيقية ، ولكن ممالك حضارية صغيرة . ولكن مع ذلك استمرت الملكية اسميا فى صور وصيدا ، والذين تولوا السلطة كانوا ينتمون إلى طبقة التجار ، أى أن كل الطبقة الثرية كانت تسهم فى النشاط السياسى ، وكان ممثليها الأقوياء يعقدون ما يشبه اجتماع يرفعون خلاله مطالبهم للملك . وقد احتفظت العائلات القوية بالسلطة العليا ، لأنهم كانوا يتمتعون بنظام الوراثة . وكانت المدن التجارية تتحكم فى الأراضى وتعمل على استغلال المزارع والغابات .(٢)

---

(١) عن هذه المظاهر الحضارية ، راجع : د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٢٨٥ – ٣٠٩ ؛ د. أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ، ص ٩٩ – ١٩٠ ؛ د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٢١ – ١٧١ ، ١٨٩ .

(٢) Philippe et Roche, Histoire, p. 75.

وكان النظام الملكى هو السائد فى مدن الساحل الفينيقى ابتداء من القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان وراثيا . ومن هؤلاء الملوك احيرام الأول ملك صور وأسرته ولولى ملك صيدا وصور وأسرته . وكان يعاون الملك مجلس شيوخ ، كان يتكون من كبار التجار وأصحاب المال وكبار الملاحين وقباطنة البحار الذين كانوا يؤلفون جماعة لها نفوذها . وقد عرفت جبيل مثل هذا المجلس كما تذكر التوراة ولكنها لم تذكر عدد أعضائه . وكان لملك أوجاريت ٧٠ مستشارا من الأشراف . وأثناء الحكم الفارسى على المدن الفينيقية كان مجلس الشيوخ فى صيدا يتألف من مائة عضو .[١] وكان لصور مجلس مماثل . وحاولت المدن الفينيقية فى العهد الفارسى أن تنشئ اتحادا بينهما ترأسه مدينة طرابلس . وكانت هذه المدينة تتألف فى الأصل من ثلاث جاليات صيداوية وصورية وارِوادية . وأطلق عليها الإغريق اسم طرابلس (ومعناه ثلاث مدن) .

وكانت المدن الفينيقية الأربع المستقلة تعقد مؤتمرا سنويا فى هذه المدينة الجديدة (طرابلس) يحضره حوالى ٣٠٠ مندوب يبحثون فيه المشاكل والشئون التى لها علاقة بمصالح البلاد عامة . وفى ٣٥١ ق. م . انعقد أحد هذه المؤتمرات فى شكل مؤتمر عام أعلن فيه المؤتمرون عن عزمهم على الاستقلال التام عن الحكم الفارسى .

ولكن عندما وقعت فينيقيا مرة أخرى تحت الحكم البابلى الكلدانى أصبح الحكم فى صور شبه جمهورى وكان على رأس الدولة موظفون كانوا يعرفون بالقضاة على نحو ما عرفه العبرانيون . وكان فى مقدور أعضاء مجلس الشيوخ فى صور أو غيرها من المدن أن يتخذوا قرارا فى غيبة الملك . وفى مدينة صيدا كان فى استطاعتهم متى شاءوا أن يتخذوا قرارات ضد قرارات الملك . ومثل هذه المجالس لم نجدها فى بلاد النهرين ومصر ، غير أن هذا النظام وجد عند الفرس فكان يحيط

---

(١) كان هناك مجلس شيوخ مشابه فى قرطاجة يتكون من ثلاثمائة عضو ، راجع : د. سيد الناصرى : تاريخ الرومان من القرية إلى الإمبراطورية ، ص ١٣٦ .

بالملك مجموعة من النبلاء الذين أطلق عليهم اسم " أصدقاء الملك " وهم أشبه بمجلس الشورى ، يتشاور معهم الملك لاتخاذ قراراته .[١] وكان يوجد فى تدمر مجلس شيوخ للمدينة الذى كان له سلطة سن القوانين . وكان يوجد كذلك فى مملكة معين وقتبان فى جنوب الجزيرة العربية مجالس تدير شئون المدن فى السلم والحرب ومجالس استشارية للدولة ومجالس تمثل الشعب تمثيلا نيابيا .

ثانيا : الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع فى فينيقيا مقسما إلى عدة طبقات ، ففى الطبقة الاجتماعية الأولى نجد جماعة الأشراف والنبلاء من الملاك الإقطاعيين والمحاربين الذين كانوا يستطيعون اقتناء مركبات حربية وكانت هناك جماعة من الأرستقراطيين من التجار وأصحاب المال ، وفئة الملاحين الكبار ، قباطنة السفن الذين كانوا يؤلفون جماعة لها نفوذها واحترامها فى المجتمع .

كان الصناع والتجار يحتلون مركزا وسطا فى المجتمع الفينيقى . أما فى الطبقة الدنيا نجد الاقنان (الذين لا يملكون الأرض) والعبيد . وكانت العادة أن ينشأ أبناء الصناع على تعلم صناعة آبائهم . ويظهر أن أصحاب الصناعات والفنون والحرف كانوا ينتظمون فى نقابات حيث تجمعهم الصنعة أو المهنة الواحدة وتربط بينهم قرابة الرحم أحيانا ، ويسكنون فى أحياء خاصة بهم .

وكان بالمجتمع الفينيقي فلاحون يملكون الأرض وطبقة من أقنان الأرض وكان الفلاح يحصد القمح والشعير ويصنع منه خبزه . أما الطعام فلم يكن يعتمد على اللحم ، لأن اللحم (الذى كانوا يطبخونه فى قدور خزفية واسعة الفوهة وما كان يؤكل إلا فى الأعياد والمناسبات) وكانوا يشربون ماء الآبار أو العيون الجارية وينقلونها إلى منازلهم أما فى جرب من الجلود أو فى جرار خزفية كبيرة . وكانوا يضيئون منازلهم بحرق زيت الزيتون فى مسارج بسيطة الصنع ، وهى عبارة عن صحون

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١١٤ .

خزفية لها فى حافتها نتوء مقعر لتستقر فيه الفتيلة .[١]

ثالثا : الحياة الاقتصادية :

الزراعة : إذا كنا قد ذكرنا من قبل أن أرض لبنان قد افتقرت إلى السهول ، فهذا لا يعنى أن الفينيقيين لم يعملوا بالزراعة . فقد قاموا بزراعة الحبوب فى بعض السهول والأشجار كالنخيل والعنب والزيتون كما قام القرطاجيون أيضا بفلاحة الأرض واشتهر عندهم عالمان هاميلكار وماجون ، وقد قاما بتأليف كتابين فى الزراعة . كما استخدم الفينيقيون المحراث العادى الذى كان يجره الثور أو الحمار أو الإنسان . وكان حصاد القمح يتم فيستخلص الحب من السنابل بواسطة هرس أرجل الثيران والخيل والبغال . وطحن القمح كان يتم على كتل حجرية صلبة . وزرع القرطاجيون الكروم واستخلصوا منه النبيذ . واستخرج الفينيقيون والقرطاجيون الزيت من شجر الزيتون وأدخل الفينيقيون زراعة شجر الرمان إلى شمال أفريقيا .

وعرفوا خزن الماء العذب المتجمع من الأمطار ، وذكر سترابون أن سكان ارواد كانوا يعتمدون على ماء عذب يفور وسط البحر المالح .[٢]

وكانت غابات لبنان مصدرا غنيا للأخشاب من الأشجار المخروطية مثل الصنوبر والأرز والشربين والسرو والبطم . ولم تقتصر تجارة ميناء جبيل وصور وصيدا وارواد على تصدير الأخشاب إلى موانئ مصر وبلاد فارس وبلدان العالم الأخرى ومدها بهذه الأخشاب الممتازة لصنع المراكب وسقوف وأبواب ونوافذ المنازل والقصور والمعابد وقطع الأثاث والعجلات الحربية والتوابيت ، بل كانت شقوف جذوع هذه الأشجار تفرز الصموغ الثمينة والطلاء وهما من المواد الهامة التى تطلى بهما أخشاب المراكب وقطع الأثاث لحفظها من التآكل ، كما أن هذه الصموغ كانت

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٢ – ١٢٣ .

(٢) د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٣٢٨ .

تستخدم فى عملية التحنيط فى مصر القديمة .[١]

ويبدو أن استغلال وتصدير الأخشاب كان احتكارا للسلطة وامتيازا يتمتع بـه حكام المدن الفينيقية لأن هذه الغابات كانت تعتبر ملكا للدولة ولم يشمل هذا الاحتكـــار أخشاب الأرز فقط بل شمل أيضا أخشاب السرو والشربين والعرعر .[٢]

ولما كثر الطلب على هذه الأخشاب بصورة كبيرة لم تعهدها البلاد من قبـل ، شعر المسئولون بضرورة إيجاد القوانين لحماية هذه الغابات وإيجاد طــــرق فعالــة لقطع الأخشاب وتحضيرها . لذلك أقيمت لوحات عليها نقوش كعلامات حدود للمناطق الجبلية التى اعتبرت من أملاك الدولة . وفى متحف الجامعة الأمريكية فـــى بـيروت لوحة من عصر الإمبراطور هادريان يحدد عليها حدود الغابة التى تقع على قمة الجبل بين ظهور الشوبر وزحلة .[٣] وذلك يعنى أن الفينيقيين ظلوا ينعمون بأحد مواردهـــم الاقتصادية التى لا تنضب وهى خشب الأرز فترة طويلة .

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٨٦ ، ١١٧ ، ١٢٨ ، ١٣٧ ، ٢٣٧ .

نعرف أن قصر سيدنا سليمان كان من صنـــع البنـــائين الفينيقييـــن الذيـــن استخدموا خشب الأرز فى بنائه ، وكان فى هذا القصر من أعمدة خشـــب الأرز ما جعله يعرف فيما بعد باسم " بيت وعر لبنان " .

وكذلك يقال أن سيدنا سليمان شيد مركباتـــه مـــن خشـــب الأرز وهيكلــه المزعوم (؟) وأسطول سفنه من خشب الأرز ، راجـــع : د. فيليـــب حتـــى : المرجع السابق ، ١٢٨ ـ ١٢٩ .

ويذكر الملك دارا فى نقش عثر عليه فى قصره فى مدينة سوس بأنــــه شيد قصره من " الخشب الذى يسمى نورينا (أى الأرز) مصدره جبل يســـمى لبنان ، انظر : المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

(٢) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

كانت زراعة القنب (الذى يصنع من أليافه الأنسجة الكتابية) معروفة فى فينيقيا وفى جميع أنحاء غرب آسيا فى القرن العاشر ق. م . أما القطن ، الذى يظهر أن زراعته كانت قديما تقتصر على الهند فقد نقل الفينيقيون زراعته من آشور وهناك من يرى أن زراعة القطن دخلت فينيقيا بدخول العرب وأدخله الفينيقيون بدورهم إلى بلاد اليونان .

الصناعة : برع الفينيقيون فى صناعة الفخار والنسيج ، وكانت جبيل مركزا هاما لصناعة النسيج[١] ، وكانت صناعة النسيج فى فينيقيا تقتصر فى الدرجة الأولى على :

الصوف والكتان ، وكانت المواد الخام لهذين النوعين من النسيج متوفرة فى البلاد . وعرفوا صناعة الأقمشة الصوفية منذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد على الأقل . وعرفوا صناعة النسيج من الكتان وصناعة الحرير منذ القرن السادس قبل الميلاد . وكانوا ينتجون الحرير إنتاجا محليا وعلى نطاق ضيق ، وذلك بتربية دودة القز البرية التى نجدها شائعة غربى آسيا . وكان الحرير حتى ذلك الحين احتكارا صينيا ، وكان يعد من أثمن الكماليات . ولم يستورد الحرير الصينى الأصيل إلى لبنان إلا بعد عام ١١٠ ق. م . وكان الحرير الصينى والأقمشة الحريرية الصينية تصل البلاد برا بعد عبور القوافل بلاد الفرثيين ومنها إلى تدمر التى كانت محطا للقوافل التجارية البرية . ومن البتراء وتدمر كان الحرير الخام يصل إلى أحد الموانئ الفينيقية حيث كان يصبغ ويحاك ثم يرسل أقمشة تروق عينى الرومانى . وكان يوجد فى بيروت وصور أنوال يهيأ بواسطتها الحرير الخام لصبغه بالأرجوان . وكان الحرير الأرجوانى أغلى أنواع الحرير . ولم تستطع أمة فى العالم القديم أن تجارى الفينيقيين فى صنعه . فقد ذكر الجغرافى سترابون أن رائحة المصابغ الكثيرة فى

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص ١٦٠ - ١٦٢ .

صور جعلت منها " مكانا غير مقبول " .[١]

وقد اشتهر الكتان البيروتى فى كل العالم . وفى شرائع ديو كليشان التى تتعلق بالضرائب والمكوس نجد أنه راعى بصورة خاصة الضريبة على الكتان من اللاذقية وجبيل وصور .

واحتفظت فينيقيا بالسيادة الأولية فى حقل تصدير الأنسجة المصبوغة بالأرجوان وظل الصناع الفينيقيون محافظين على مستوى عال من الدقة والمهارة اللذين اشتهروا بهما . واشتهرت منسوجاتهم باللون الأحمر البرتقالى ، التى عرفت فيما بعد باسم " الأرجوان " .

وكانوا يستخرجون السائل الأرجوانى من أصداف المريق التى تعيش قرب الشاطئ الفينيقى ، ونجده أيضا قرب الشواطئ الأخرى فى البحر المتوسط . ولكن أجود أنواع الأرجوان هو الأرجوان الصورى لأن أجود أنواع هذا الحيوان كانت تعيش على شواطئ صور وصيدا إلى جانب صناعتهم لأصباغ الأرجوان ، وصنعوا أيضا أصباغ القرمز وأدخلوها فى تجارتهم . وكان يصنعوتها من حشرات تعيش على أنواع من شجر السنديان التى تنمو على شواطئ البحر المتوسط الشرقية .[٢]

كما عنى الفينيقيون القدماء أيضا بدباغة الجلود وصنع الفراء فكان يعيش الدب السورى فى أعالى القمم ولا سيما فى شرقى لبنان وكانت الثعالب وبنات آوى كثيرة . والمناطق الجبلية كانت مراعى ممتازة لتربية الأغنام . وكان الصناع الفينيقيون فى طليعة صناع الزجاج فى العالم القديم . وكان الإقبال شديدا على الزجاج الذى كانت تصنعه كل من صيدا وصور بصورة خاصة .

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٣١ - ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

وكانت هاتان المدينتان ، حتى فى عهد متأخر كالعصر الرومـانى تمونـان الأسواق العالمية آنذاك بأحسن أنواع الزجاج . وذلك بفضـل جـودة الرمـل علـى ساحليهما . فقد كان من الزجاج المصبوب صبا ، أما طريقة صنع الزجاج بالنفخ لـم تكن معروفة عندهم . إذ أن اكتشاف هذه الطريقة لم يتم إلا فى أواخر القـرن الأول قبل الميلاد ، وقد شاع استعمال الزجاج المصنوع بطريقة النفخ شـيوعا كبـيرا فـى جميع أرجاء المدن الفينيقية . وطريقة صنع الزجاج بالنفخ لم تقضى علـى الطريقـة القديمة ، طريقة الصب فى قوالب ، بل ظلت الطريقتان متبعتان جنبا إلى جنب .(١)

وعثر فى أماكن فى لبنان وسوريا على كتل من الزجاج المذاب الـذى تـم يستعمله الصناع فى صنع الأوانى .

وعثر على زهريات زجاجية عليها توقيع رجل من صيدا اسمه انيون ، وقـد كان أشهر رجل يصنع الزجاج فى القرن الأول الميلادى فى أمـاكن متبـاعدة مثـل مصر وقبرص وشمال إيطاليا وجنوبى روسيا ، ويظهر أنه كان لمصانع هذا الرجـل مكتب فى روما ويبدو أن صانع زجاج آخر أنشأ له مكاتب تجارية فى مدينة كولـون على نهر الرين . وقد أصبحت الآنية الزجاجية والمعدنية التى كان يحملها الفينيقيـون إلى بلاد الغرب فيما بعد نماذج كان الصناع الغربيون يقلدونـها ، وكـان الصنـاع الفينيقيون يلونون الزجاج ويتقنون تلوينه اتقانا تاما .(٢)

وظلت صيدا فى العصر الرومانى تمد أسواق العالم بزجاجها الممتاز وكانت هى وصور تصدران الرخام الأبيض . وبالقرب من مدينة بعلبك مقالع يستخرج منـها الطباشير .

وكانت صناعة الخزف من أقدم الصناعات وأدرها ربحا فى التجـارة وقـد بلغت ذروتها فى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد وذلك بسبب إدخال دولاب الخـزف

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٣١ ، ٢١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٣ ، ١٣٠ - ١٣١ ، ٢٤٣ .

الذى كان له أثر كبير فى تحسين هذه الصناعة ، وكان الصناع يستخدمون القصدير فى طلى الخزف فيكون له وجه مصقول لامع . كما أنهم كانوا يصنعون تماثيل وأشكال خزفية يستخدمونها فى طقوسهم الدينية .[١]

وأما الصناعة المعدنية فقد تقدمت تقدما كبيرا . فكانت ضواحى بيروت غنية بمعدن الحديد ، والحديد كما هو معلوم ، مادة ثمينة اقتصاديا[٢] لم يعرف الفينيقيون صهر المعادن فحسب ، بل كانوا يعرفون طريقة مزج الحديد بمعادن أخرى لصنع الفولاذ[٣] هذا بالإضافة إلى تصور صناعة البرونز فى الألف الثانى ق. م . مما أدى إلى رواج تجارة المعادن والتى كانت وقفا على الفينيقيين . وكانت هذه التجارة مصدرا من مصادر الثروة فى صور وصيدا وقرطاجة ، هذا إلى جانب صناعة المعدات من البرونز والحلى والتى كانت تصدر إلى الخارج .

وكان هناك إقبال على المعادن الخام الفينيقية التى تأتى من مناجم صيدا وبيروت . ففى أثناء الاضطهادات التى قام بها ديو كليشان ومكسيميان بين ٣٠٣ - ٣١٣ م ضد المسيحيين كان يحكم على الأسرى الذين كانوا يعترفون بمسيحيتهم ويجهرون بها بالأعمال الشاقة فى مناجم لبنان ، وخاصة فى مناجم النحاس فى منطقة صيدا ومناجم الحديد في ضواحى بيروت . وكان الصناع الفينيقيون الذين يعملون بالمعادن على درجة كبيرة من المهارة والحذق وأنهم كفء لتلبية طلب الأسواق المتزايد . وقد أعجب الإغريق بجمال صنع الأدوات المعدنية ، وقد عبر عن هذا الإعجاب شاعرهم هوميروس فقد قال في جام من الفضة " هم الذين قد صاغوا هذا الجام الذى لا مثيل لجمال صنعه فى الدنيا[٤] هذا فضلا عن النتاج المحلى من الأخشاب والنسيج والأصباغ والزجاج والخزف والمعادن .

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ، ٢٣٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢١٤ - ٢٢٥ ، ٢٣٧ .

ومن الحرف التى كانت معروفة فى فينيقيا ، فن التطعيم وخاصة تطعيم العاج الذى كان يزين الأثاث الثمين كما يبدو لنا من المجموعات العديدة التى عثر عليها فى أرسلان تاثى (هاداتو) وفى رأس الشمرا ، فى الحفائر الأخيرة ، وفى مجدو والسامرة فى فلسطين . ونلمس فى هذا الفن التأثير التجارى الذى كان يربط بين مختلف مناطق العالم القديم ، ويجمع مدارس فنية مختلفة تأثر بها فنانون فينيقيا وسوريا .

وكان الفينيقيون أول من خطرت على بالهم فكرة صنع زهور اصطناعية ووضعها فى أوانى أو زهريات .(١)

التجارة : لم يتمكن الفينيقيون من إنشاء دولة كبيرة لهم . ولكنهم فرضوا شهرتهم فى التاريخ لما امتازوا به فى مجال التجارة الخارجية ونشطوا فى الاتجار مع الخارج وأسسوا مراكز تجارية فى مناطق بعيدة .(٢) كما كان لهم دور هام فى نقل مختلف السلع وأبرزوا مهارة فائقة فى الملاحة وتجارة أخشاب الأرز والصنوبر وكان لهم دور هام فى تنشيط التجارة البحرية العالمية وفى هذا النشاط البحرى وصلوا إلى أسبانيا وبريطانيا ، وأسسوا مراكز ومدن تجارية كانت أعظمها فى مدينة قرطاجة التى أصبحت لها سيادة تجارية ونفوذ سياسى يمتد من حدود ليبيا إلى مضيق جبل طارق ثم ضمت بعض جزر البحر المتوسط ثم تنافست مع روما من أجل السيادة على البحر المتوسط ونشبت بينهما حروب دامت أكثر من مائة عام وانتهت بأن أحرقها الرومان .

وكانت المدن الفينيقية تصدر النبيذ وزيت الزيتون والتمر وأجود أنواع الطحين وتصدر أيضا الثمار المجففة (التين) والخوخ واللوز والورود . فكانت

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ٩٤ – ٩٦ ، ١٠٠ .

(٢) د. أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص ١٥٨ – ١٥٩ .

أشجار الكرمة وشجرة التين وشجرة الزيتون وشجرة النخيل والتوت من الأشجار العريقة فى لبنان . ومن أهم الغلال التى كانت تنتجها أرض لبنان القمح والشعير والذرة . فقد اشتهرت بيروت بزبيبها " الذى لا يفوق فى حلاوته زبيب اخر " . وكان الرومان يقدرون جودة نبيذها كما كانوا أيضا يقدرون جودة نبيذ صور . وفى أوائل القرن الأول الميلادى كثر الطلب على النبيذ من اللاذقية لا سيما فى الهند وأفريقيا . وكانوا يعنون أيضا بإنتاج الأدوية والروائح العطرية والعقاقير وأنواع مختلفة من المراهم للتصدير التى يدخل فى صناعتها زيت الزيتون .[١] وقد أدخل الفينيقيون زراعة الزيتون إلى بلاد اليونان وإيطاليا وشمال أفريقيا وشبه جزيرة أيبيرية ..

وكما كانوا يصدرون البضائع التى يقومون بتصنيعها كانوا يستوردون أخرى لهذه الصناعة ، أو يتاجرون فى بضائع يشترونها من أماكن أخرى أو يحتكرون تجارتها .

وكانت المراكب الفينيقية تخرج من موانئ صور وصيدا وارواد وغيرها محملة بالبضائع والسلع السابقة وتعود بالسلع الواردة بحرا مثل السكر والأرز والأحجار الكريمة والفلفل والقرفة من الهند ، والبهارات والعقاقير وخشب الصندل واللؤلؤ من جنوب الجزيرة العربية وما جاورها من البلدان ، والحرير من الشرق الأقصى (الصين) ومن موانئ أوربا وجنوبها وشمال أفريقيا .

وكانوا يستوردون الفضة والحديد والقصدير والرصاص من أسبانيا والأوانى النحاسية من ايونية . وقد ذهبوا إلى أماكن بعيدة ليحصلوا على معادن كالفضة والذهب ولا سيما القصدير لمزجه مع النحاس لصنع البرونز حتى أنهم بلغوا المحيط الأطلنطى . وكانت مراكبهم تنقل الخشب والنحاس لتعود محملة بالذهب من

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣٦ ـ ٥٠ ، ٢٣٦ ـ ٢٣٨ .

بلاد أوفير .[١]

وكانوا يستوردون أيضا التعاويذ والتماثيل والأختام والخرز والأوانى والأسلحة حتى برع الصناع فى فينيقيا بتقليدها أو تقليد أشكالها وبيعها .[٢] وحرصا منهم على حفظ المورد الطبيعى للأرجوان من النفاذ ، فإن الفينيقيين حاولوا اكتشاف مصادر أخرى ونجحوا في استيراده من ميناء أسبرطة وقرطاجة وعوتيقة فى شمال أفريقيا .[٣]

أما البضائع التى كانوا يشترونها من أماكن أخرى لبيعها مرة ثانية فهى الحنطة والزيوت من فلسطين ويدفعون أثمانها بضائع أخرى من أدوات الزينة .[٤] كما كانوا يشترون الزجاج المصنوع فى مصر ويتاجرون فيه[٥] ، كما تدل صناعة العاج الفينيقية على ذوق رفيع ودقة فى الصنع .

واحتكر الفينيقيون تجارة سلعتين آخريين ، فكانت مصر ويأتى بعدها فى المرتبة الثانية فينيقيا تمون الأسواق العالمية بالبردى . ويرجع بعض العلماء اسم التوراة فى الإنجليزية Bible إلى الاسم الإغريقى لميناء جبيل : بيبلوس Byblos

---

(١) يرى د. عبد المنعم عبد الحليم أن هناك تشابه بين بلاد بونت وأوفير وخاصة فى تجارة سلعة البخور التى كانت تجلب من المنطقتين . وذكر أن أوفير كانت تقع فى منطقة أفريقية وليس فى منطقة آسيوية كما ذكر ورأى بعض الباحثين الآخرين . وحدد لنا موقعها على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر بالقرب من خليج تاجورة فى الصومال الفرنسى سابقا (جمهورية جيبوتى الحالية) ، راجع د. عبد المنعم عبد الحليم : البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٤ ، ١٣٧ ، ٢١٢ ، ٢٣٨ .

(٣) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١١٧ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

وهو المكان الذى كان يستورد منه الإغريق البردى . وقد أدخل البردى بلاد اليونان عن طريق فينيقيا حيث كان استعماله معروفا حتى القرن السادس قبل الميلاد .[١]

ونعرف من قصة ون آمون أن أمير جبيل زكر – بعل طلب من المبعوث المصرى جزءا من المال وخمسمائة لفة من البردى نظير شحنة خشب الأرز .

كما كانت تجارة الأفاوية والعطور والبخور الهام فى الطقوس الدينية القديمة حكرا على الفينيقيين . وكانوا يذهبون إلى شواطئ الجزيرة العربية والشاطئ الشرقى لأفريقيا بغية الحصول على هذه المنتجات وقد أحاطوا المسالك البحرية التى كانت تسلكها مراكبهم بسياج من الكتمان التام ، وأسرفوا فى نشر الأخبار عن المخاطر والمخاوف التى كانوا يلقونها فى البلدان التى تنتج البهارات والأفواية والبخور ونقله إلى سائر البلدان . حتى أن الناس فى العهد اليونانى كانوا يعتقدون أن سوريا كانت بلد المر والبلسم ولم يدرك الناس أن البلد الذى ينتج المر هو جنوب الجزيرة العربية . وأن القوافل التى كانت تنقله إلى حوض البحر المتوسط كانت القوافل السبأية .[٢]

وكانت تجارة الرقيق تسير من الشرق إلى الغرب فتمر فى الموانئ الفينيقية ثم أوروبا . فكان التجار يشترون الرقيق من بلدان مختلفة وراجت سوق هذه التجارة واتسعت كثيرا بين الدول الهلينية وبين العالم الخارجى . ويذكر الشاعر هوميروس فى اشعاره مدينة صيدا ويتحدث عن تجارة الأقمشة والنحاس والرقيق على أنها كانت

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٢١٦ . وقد عرفت جبيل أو بيبلوس فى النصوص المصرية القديمة باسم كنب ، راجع : د. أحمد بدوى – د. هرمن كيس: المعجم الصغير فى مفردات اللغة المصرية القديمة ، ص ٢٦١؛ وأيضا: د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٨٥ ؛ Wb V, 118, 2

(٢) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٠٨ ، ١٤٥ .

من احتكار مدينة صيدا .[١]

قامت هذه التجارة البحرية الدولية على نظام المقايضة[٢] وربما قام هذا النظام على تحديد قيمة السلع والبضائع والبديل لها . وربما كان هناك قوائم لتحديد هذه القيم فنعلم من بردية ون آمون أنه عندما ذهب للحصول على كمية من أخشاب الأرز لترميم القارب المقدس لأمون ، نجد أن أمير جبيل زكر - بعل أخذ يبحث في وثائقه (أى قوائمه) عن قيمة هذه الشحنة فوجد أن المصريين الذين جاءوا لشراء هذه الأخشاب من قبل كانوا يدفعون ثمنا باهظا .[٣] فأكثر تجارتهم كانت تتم عن طريق مقايضة بضائعهم أو بضائع غيرهم ببضائع أخرى لها أهميتها في الأسواق التجارية فى العالم القديم . بالإضافة إلى الأخشاب كان التجار الفينيقيون يجلبون إلى مصر العطور والبخور والخيل والعبيد للمقايضة بمنتجات مصرية كالذهب والمعادن والبردى ومنتجات أخرى محلية مصرية كالزجاج المصنوع فى مصر .

وعندما أرسل ملك صور احيرام الأول أخشاب الأرز لسيدنا سليمان لبناء أسطوله . كان يأخذ ثمنه حنطة وشعيرا وزيتا ونبيذا .

وكانت المراكب الفينيقية على عهد هوميروس ، كما يظهر من شعره تجئ إلى الموانى الإغريقية محملة بالأزهار والتمر والتين والرمان والمر والخوخ واللوز . وهذه المراكب الفينيقية ذاتها التى كانت تنقل إلى الغرب نتاج الشرق الأدنى كانت تعود فتدخل إلى بلاد الشرق الأدنى ببعض منتجات الغرب التى كانت أغلبها من المعادن والخزف ، ومن بلاد اليونان كانت تنقل بعض النباتات مثل الفأر والدفلة والسوسن واللبلاب والنعناع والنرجس .[٤]

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١١٨ - ١١٩ ، ٢١٢ ، ٢٤٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٣) د. رمضان عبده : معالم تاريخ مصر القديم ، القاهرة ، مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٨٤ ، ص ٥٣١ .

(٤) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٨٦ ، ١١٧ ، ١٢٨ ، ١٣٧ ، ١٤٥ .

وكان أهالى جزر القصدير يقاضون معدنا التنك والرصاص بالخزف والملح والأوانى النحاسية من فينيقيا[١] ومثل هذه العلاقات التجارية الدولية النشطة التى أنشأها التجار الفينيقيون تقتضى إنشاء وكالات للتجار والعملاء فى المدن الأوربية وغيرها ، وقد كان أولئك الوكلاء والعملاء من سوريين ولبنانيين يعرفون باسم " الوكلاء السوريون " أو " المفاوضون السوريون " .[٢] ولذلك أصبح الفينيقيون عملاء فى توزيع بضائع الشرق فى الغرب والبضائع القليلة القادمة من الغرب فى الشرق ومعظمها من المعادن والأوانى الخزفية .

ويذكر عن القرطاجيين دهائهم في التجارة وابتكارهم مختلف الوسائل للمقايضة . ويقول هيرودوت أن الملاحين الفينيقيين كانوا يبحرون إلى شاطئ أفريقيا الغربى ، وعند الشاطئ كانوا ينزلون البضائع والسلع ويشعلون النار علامة على وصولهم ثم ينسحبون إلى مراكبهم .

وكان السكان الأفارقة عند رؤيتهم النار على الشاطئ يتقدمون وبأيديهم الذهب فيتركونه على الشاطئ كثمن ثم يتراجعون قليلا ليروا ما إذا كان الثمن مرضيا عند التجار الفينيقيين فينزل الملاحون الفينيقيون إلى الشاطئ ثانية لفحص مقدار الذهب فإذا وجدوا أن كمية الذهب ترضيهم حملوها وأقفلوا راجعين تاركين سلعهم على الشاطئ ... وإذا كانت الكمية أقل مما كانوا ينتظرونه فإنهم يعودون ثانية إلى مراكبهم ويترقبون عودة الأهالى مرة أخرى ليزيدوا من كمية الذهب وبهذه الطريقة من المساومة الصامتة يقول هيرودوت كان الفريقان يتفقان على البيع والشراء دون أن يغش أحدهما الآخر .

وقد عثر فى حفائر رأس الشمرا على ميزان صائغ وموازينه . وكانت الفضة تستخدم كنقود ولكن لم تكن نقودا مصكوكة إنما كانت توزن وزنا للبيع

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٤١ ، ١٤٦ – ١٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

والشراء . ولكن معظم التجارة كانت تتم عن طريق المقايضة بالبضائع .(١)

إن هذا النشاط التجارى الذى أبداه الشعب الفينيقى بعد القرن الثانى عشر قبل الميلاد جعل منهم ملاحين وتجارا من أمهر الملاحين ومن أعظم التجار فى تلك الحقبة من التاريخ القديم .

وقد احتفظوا بهذا النشاط فى مجالى التجارة والصناعة فترة طويلة حتى أنه فى عهد الأسرة البطلمية والسلوقية فى فينيقيا قد عاودتهم من جديد رغبتهم القديمة فى إنشاء المراكز والمدن التجارية . ففى عام ٦٥٠ ق. م . أنشأت مدينة صيدا مركزا تجاريا هاما فى جنوبى فلسطين يعرف باسم مريسة ، التى كانت مدينة تجارية هامة فى عصر البطالمة .

وكان يربط بيروت بجزر بحر إيجة روابط ، فكان هناك مركز فى جزيرة رودس ، وكان فى المدينة هيكل ، وأماكن تعرض فيها البضائع الفينيقية وكانت هناك جالية من بيروت مستقرة فى جزيرة ديلوس تحتل المقام الثانى بعد الجالية الإيطالية فى التجارة .

وكانت هناك جالية صورية كبيرة فى الموانى الإيطالية وفى روما واوستيا . وكانت الجاليات الفينيقية التى استقرت فى أماكن بعيدة عن الوطن الأم تقوم بأعمال الاستيراد من فينيقيا ويقومون بأعمال التصدير من البلدان الغربية التى كانوا يقيمون فيها ، فكانوا يصدرون الفخار من إيطاليا وبلاد اليونان والسمك المملح من أسبانيا ، والبضائع الصوفية من غرب أوروبا إلى بلاد الشرق .(٢) وقام السلوقيون بالاهتمام بطرق المواصلات التجارية وحسنوا فى هذه الطرق وأضافوا إليها طرقا أخرى مما زاد فى نشاط التجارة والصناعة وقد اتبع السلوقيون فى التجارة سياسة تدل على بعد

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٥ – ٢١٦ ، ٢٤١ – ٢٤٣ .

نظر وتعقل . ذلك أنهم حاولوا جعل سوريا ولبنان مركزا تنصب فيه السلع التجارية من أواسط آسيا للاستهلاك المحلى أولا ولتصديره إلى العالم اليونانى الرومانى ثانيا .

وتحت الحكم الرومانى هب الفينيقيون مرة أخرى ليؤكدوا ذاتيتهم كقوة فعالة فى تجارة الشرق القديم وليحتلوا مركزهم التجارى المرموق تدفعهم العزيمة الصادقة والإرادة الثابتة ، وقد سجلت المدن البحرية نجاحا وازدهارا فى التجارة لم تبلغه من قبل ولا من بعد . وقد أدرك الفينيقيون فى العصر الرومانى أهمية السوق الأوربية وتعاظم الطلب على المنتجات الفينيقية التى يمكن تصديرها إلى الخارج . فعملوا على إعداد طرق القوافل القديمة غير المعبدة فى منطقة حوض البحر المتوسط الشرقى وجعلوا منها طرقا واسعة معبدة . وأقاموا أنصبة عواميد على هذه الطرق لا يزال بعضها قائما إلى يومنا هذا فى لبنان وسوريا . وقد كتبت عليها أسماء الطرق والمسافات كما نشهد اليوم فى بناء الطرق العصرية .

واعتنوا أيضا بالمرافئ البحرية والجسور وأحواض بناء السفن . وقد بدأ تنظيف البحر المتوسط من أعمال القراصنة فى عهد بومبى الذى اقتطع من غابات الأرز أخشابا لبناء سفن لمطاردة القراصنة . وقد نجح فى عمله هذا نجاحا تاما .[١]

---

(١) ويذكر د. الناصرى : " إذ قسم البحر المتوسط إلى مناطق عمل وتطهير ، وعين على كل منطقة ضابطا كبيرا من نوابه ، ثم حاصر مضيق الدردنيل من الشرق ومضيق جبل طارق من الغرب ثم سيطر على المنطقة ما بين شواطئ شمال أفريقيا وسواحل صقلية وبذلك ضيق الخناق على القراصنة وجعلهم يسقطون فى أيدى رجاله وقياداته العديدة ، وفى خلال أربعين يوما كان قد قضى فعليا على القراصنة فى شرق البحر المتوسط بعد معركة بحرية حاسمة قرب شواطئ كيليكيا ، وبعد ثلاثة أشهر بالضبط من صدور قرار جابينيوس أعلن بومبى أن البحر المتوسط قد أصبح خاليا تماما من خطر القراصنة " ، راجع : د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ٣١٨ ــ ٣١٩ .

وكل ذلك لتأمين التجارة البحرية ، كما اهتم الرومان بإنشاء الحصون والقلاع على الحدود الشمالية والشرقية لحماية طرق التجارة البرية . ووضعوا حاميات عسكرية عند العيون والآبار لحمايتها . وكذلك وضعوا كتائب رومانية ومعظمها من أهل البلاد المجندين فى نقاط استراتيجية .

ونتيجة لذلك زاد الإقبال على الأخشاب والمعادن الخام الفينيقية والصوف والكتان والنبيذ وزيت الزيتون والثمار المجففة .

وازدهرت تجارة الترانزيت ، وكانت الطرق البحرية والبرية تستخدم فى تجارة الترانزيت غير أن الطرق البرية – رغم أن نفقات النقل عليها تربو على نفقات النقل البحرى – كانت فى نظرهم طرقا سليمة لا تتعرض لمخاطر البحار .[١]

إن هذا النشاط التجارى الذى أبداه الفينيقيون بعد القرن الثانى عشر قبل الميلاد يرجع فى المقام الأول إلى حسن استغلالهم للخامات ذات القيمة التجارية من موارد بلادهم الأولية ، وفتحهم لأسواق ومراكز تجارية جديدة وإقامة علاقات تجارية مع معظم موانئ العالم القديم ، وإعدادهم لوسائل النقل من أسطول بحرى منظم وإعدادهم لبحارة من أمهر الملاحين ، واهتمامهم بالطرق والقوافل البرية المنظمة مما ساعدهم على سهولة تصريف سلعهم الصناعية وسلع غيرهم إلى الأسواق الخارجية فتوفر لتجارتهم كل عوامل النجاح حتى أصبحوا من أعظم التجار فى العالم القديم فى تلك الحقبة من الألف الأولى ق. م . وقد انعكس هذا التأثير التجارى الذى كان يجمع بين مدارس فنية مختلفة من مصر وجزر بحر إيجة واليونان وآشور وغيرها على فنونهم وحرفهم وصناعتهم . ومما ساعد على سرعة التبادل التجارى أن الفينيقيين اخترعوا العملة . وأقدم عملة شرقية فينيقية ضربت فى صور فى منتصف القرن الخامس ق. م . تقريبا وتبعتها صيدا وارواد وبيبلوس فى أواخر القرن الخامس وأوائل الرابع ق. م . أما بقية المدن الأخرى فلم تضرب عملتها إلا فى العصر اليونانى . والراجح أنهم قد قلدوا اليونانيين فى ضرب العملة الذين عرفوها فى القرن

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٢١٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ .

السابع ق. م . وغالبا ما استخدم الفينيقيون العمال اليونانيين .[١]

وسائل النقل : اعتمدت التجارة البحرية الفينيقية على حسن إعداد وتنظيم وتجهيز أساطيلهم وكان الفينيقيون يشيدون مراكب أساطيلهم من مراكب تجارية وحربية من أخشاب الأرز . وكانوا يقتطعون أشجار الأرز من أعالى جبالهم ويلقون بها إلى مجارى الأنهار فإذا جاء سيل فصل الشتاء تطفوا هذه الجذوع فيعالجونها إلى أن تصل إلى أقرب الموانئ لصنع مراكبهم من خشبها الصلب . وكان مصدر أخشاب صيدا وصور هو غابات الأرز والشربين فى سفوح جبل الشيخ (حرمون) . وتظهر المراكب الفينيقية التجارية فى رسوم ونقوش الآثار المصرية والآشورية (مثل جدار قصر سنحاريب من نينوى ، وجدار قصر خورسباد وهو بمتحف اللوفر الآن) وعلى آثار فينيقية وخاصة عملات أو نقود من أرواد وجبيل وصيدا .[٢] وقد استخدم الفينيقيون سفنا للصيد والنقل البحرى أو النهرى وهى التى أسماها سترابون "بيبوس" ومراكب حربية . وتتخذ هذه المراكب الشكل الهلالى أى أن مقدمتها ومؤخرتها مستديرتان معقوفتان كطرفى الهلال . وفى المقدمة مجدافان يستعملان كدفة

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٣١ ، ٢١٥ .

(٢) فعلى قطعة نقود فضية من ارواد يظهر على وجه رأس رجل وعلى رأسه اكليل غار وعلى الوجه الثانى مركب فينيقى وفوقه نقش كتابى بمعنى " من ارواد " . وعلى قطعة أخرى من العصر الفارسى (حوالى ٣٤٠ ق. م) ، يظهر على الوجه رسم سفينة فينيقية وتحتها فرس بحرى ، وعلى الوجه الثانى أسد يهاجم ثورا ، وفوق ذلك نقش كتابى بمعنى " ادرا ملك جبيل " . أما العملة الثالثة فهى من صيدا وترجع إلى العصر الفارسى أيضا حوالى ٣٨٤ - ٣٧٠ ق. م ، وعلى وجه منها تظهر مركب فينيقية ، وعلى الوجه الآخر ملك فارسى فى عربته التى تجرها الخيل . وعلى ناووس عثر عليه فى صيدا يوجد نحت بارز يمثل مركب شراعى كبير . وهذا الناووس يوجد الآن فى المتحف الوطنى فى بيروت ، راجع : د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٩٦ ، ١٨٦، ١٩١، ٢٣٩ .

للمركب ، ولها صارية واحدة ذات شراع مربع فى أعلاها . ولكى تتسـع مراكبـهم لنقل البضائع ولكى لا تكون طويلة فإنهم كانوا يبنونها عريضة فى أواسطها . غـير أن شكل بناء السفن تغير فيما بعد . وفى بادئ عهدهم ببناء السفن كـان الفينيقيـون يضعون مجدافين أو أكثر الواحد فوق الآخر . غير أنهم أخذوا فيما بعـد بتزويدهـا بصفين من المجاديف على جانبى الطابق الأول فى كـل صـف أربعـة أو خمسـة مجاديف ، أى أنه كان للمركب الواحد بين ١٦ – ٢٠ مجدافا . وقد زادوا العدد فيمـا بعد إلى خمسين مجدافا . أما الشراع فكانوا يحيكونه من الكتان فكان يطوى إذا دخـل المركب الميناء أو إذا كانت الريح غير مواتية . وهذا النوع من المراكب الشـراعية اقتبسه عنهم الإغريق كما تدل على ذلك الرسوم المنقوشة على الأوانى الإغريقيـة . أما المراكب الحربية فلها مقدمة عالية تنتهى بمدكة وهى آلة حرب للـهدم والتكسـير وتتألف من طبقتين .[١]

أما وسائل النقل الداخلية فكانت أكثر وسائل النقل استخداما عند الفينيقييـن هى عربات ذات عجلتين تجرها أربعة خيول .[٢]

رابعا : المعتقدات الدينية :

<u>المعتقدات الفينيقية</u> : كانت الديانة الفينيقية قبل اكتشاف آثار رأس الشمرا معروفة لدينا فقط بواسطة " أوسب القيصرى " من القرن الرابع الميلادى[٣] ، الـذى

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٣٦ ؛ المؤلف نفسه : تـاريخ سـوريا ولبنان وفلسطين ، ص ١٠٦ – ١٠٧ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السـابق ، ص ٣٢٨ ، ٣٣٢ .

(٢) د. أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص ١٦١ .

(٣) كان رئيسا للكهنة ، وولد فى فلسطين ، فى حوالى عام ٢٦٧ ميلادية ، وتوفـى عام ٣٤٠ ، وكان يعتبر من أكبر علماء عصره ، كتب عـن تـاريخ الكنيسـة وتطورها ، راجع : Larousse, Dic. Univ. Encyloped., p. 369.

استخدم كتابات " فليون من بيبلوس " الذى فقدت كتاباته الآن[١] ، وقد قام فليون بكتابة قصص سان شونيا تون وهو كاهن من بيروت ، عاش فى القرن الحادى عشر ق. م ، ولم يحفظ أى شئ من كتابات هذا الكاهن .

ولكن بعد اكتشاف لوحات رأس الشمرا ، أصبح لدينا صورة كاملة عن المعتقدات الفينيقية ، التى سادت بوجه عام فى الجزء الشمالى من سوريا ، فى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد .

ومن الغريب أن نلاحظ ، أن الديانة الآسيوية قد عاشت فى هذا المجتمع السامى ، وإنما أيضا قد انفردت بهذا دون غيرها من تلك الديانات المتميزة ، فالديانة الفينيقية تعد هى الوحيدة التى حافظت جيدا على معالم هذه الديانة الآسيوية .

وتعد الديانة فى فينيقيا ذات أهمية كبرى ، لسهولة تتبع مراحل تطور المعتقدات فيها . ففى العراق أو بلاد النهرين لاحظنا التداخل العميق بين الديانة الآسيوية السامية . وعند الحيثيين والحوريين وجدنا العكس حيث احتفظوا بالصفة الآسيوية للعبادات .

وقد ظهرت هذه الديانة فى فينيقيا فى منتصف الألف الثانية ق. م . وطرأ تقدم ملحوظ ، على الديانة الفينيقية فى العصر المتأخر ، فقد تعرضت الديانة لتأثير المعتقدات فى العصر اليونانى الرومانى . فتأثير العبادات الآسيوية بقى فى شخصية المعبود أدونيس ومن ناحية أخرى أن أسطورة الخليقة قد استمدت خصائصها من تلك الأساطير التى كانت سائدة فى بلاد النهرين وفى الفكر اليونانى نجد أكثر من بعل ، يحكم فى ذلك الوقت على كل مدينة وموقع هام فى الشمال وفى صور . وتشابهت بعض المعبودات اليونانية مع المعبودات الفينيقية مثل رشف المضئ الذى يشبه أبوللون وآشمون الذى يماثل اسكليبيوس معبود صيدا . وأدونيس ، ما هو إلا صورة

---

(١) مؤرخ ، خطيب ، عالم لغة يونانية ، ولد فى بيبلوس وعاش حتى حكم الإمبراطور هادريان ، ألف كتابا عن تاريخ فينيقيا حفظ جزء منه ، راجع :
Larousse, op. cit., p. 845.

يونانية من آدون الذى يعنى سيد ، والذى كانت لعبادته أهمية كبرى على الشاطئ السورى . وكان معبودا للحبوب والخضرة ، وعشتارت التى أصبحت فى اليونانية استارت . وعلى الرغم من الوثائق فإن الصورة لم تكتمل بالنسبة لمعرفة المعتقدات البدائية فى فينيقيا . وقامت الديانة الفينيقية على تقديس مظاهر الكون وعبادة الطبيعة .(١)

المعبودات : كان هناك مجموعة من المعبودات ، وتمثل لنا نصوص رأس الشمرا رئيس مجمع المعتقدات الفينيقية :

ايل : كان هناك معبودان رئيسيان هما معبود السماء وهو المعبود الأب ، ومعبودة الأرض وهى المعبودة الأم . وكان معبود السماء يسمى ايل ومعبودة الأم تعرف باسم عشتروت وتعبد فى أوجاريت وكان إيل هو المعبود الخالق والأب لكل الإنسانية . وهو معبود بعيد ، ينطلق كالنجوم ويحيا عالم كالجنة بها : " ألف حقل ، عشرة آلاف مرعى ، ومصادرها نهرين ، فى وسط منابع ذات خليجين " . وقد لقب هذا المعبود بلقب " أبو السنوات والإنسانية وأقدم المعبودات " وكان يستقر فى شمال جبيل (أى جبال كاسيوس ، الاكرا حاليا) . وفى أماكن أخرى مختلفة ، هو يقرن أيضا بالثور بين قطيع من البقر والعجول . وكان زوجا للمعبودة عشتروت التى أصبحت فيما بعد ، أختا له والتى عبدت أحيانا كالمعبودة الأم ومن ألقابها " بعلة " أى " سيدة " ولم يكن لها نصيب من العبادة فى البلاد ذات المساحة الكبيرة ، وهى ترمز أيضا إلى المصادر الحيوية فى الأوساط البحرية . وعن أدوار المعبود ايل فكان يعبر عن الرعد والرياح والسحب ويتحكم فى الفصول والأمطار ، وهو الذى يأمر السحب بأن تتفرج ، وأمر بأن تبنى له نافذة فى قصره السماوى وقد آثار هذا الأمر جدلا كبيرا بين العلماء حتى وقتنا هذا ، وكانت وجهة نظر البعض أنه قد طلب فتح نافذة لكى يسد الطريق أمام أعدائه موت ويام (سيد البحر) وفتح النوافذ فى رأس الشمرا ، يرمز إلى تلك الفتحة التى كانت فى القصر السماوى . ويرى بعض العلماء

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص ١٥٨ – ١٦٨ .

أن هذه الفتحة كانت مخصصة لنزول الأمطار .[١]

عليان – بعل : من أهم المعبودات الفينيقية المعبود عليان ، الفتى النشط الذى كان يعرف باسم بعل ، الذى يعنى اسمه " سيد " أو " مالك " وكان يشبه المعبود آداد عند العراقيين . وهو يحكم فوق القمم ، ويتحكم فى الأمطار والعواصف والصواعق[٢] مثل ايل – وتذكر الأساطير والمعتقدات ، أن بعل لم يكن يملك معبدا على حين تمتلك المعبودات الأخرى معبدا واحدا وهذا يعنى أن بعل كمعبود ، سمح له بأن يكون من بين مجموعة المعبودات الفينيقية . وهو يعد المعبود الآسيوى الأول الذى تقابله فى هذه المنطقة ، فى بداية استقرار الفينيقيين على الشاطئ ، فقد اتخذ بعل كزوجة له المعبودة عشرات وكان ابن بعل يسمى عليان الذى كان ذا خصائص تشبه إلى حد كبير خصائص أبيه ، كما هو معزوفا لكل شخصيات الابن المقدس فى الديانات الآسيوية وكان لعليان أخت تسمى (أنات أو عنات) وهى عذراء محاربة ، لها خصائص عشتار ، سيدة المعارك ، وعشتارت معبودة الخصب ، وفى العصر المتأخر اندمجت عنات وعشتارت مع بعضهما ليصبحا المعبودة آتارغاتس .

أخذ بعل كل صفات ايل ، فهو الذى يتحكم فى الفصول والأمطار والغلال والينابيع والأنهار ، فعن طريق المطر ، يجلب الخصب ، وعن طريق المطر يمارس وظيفته كخالق على الأرض فهو " السيد الذى يشق الحقول " و " الأمير ، سيد الأرض " ، وهو " سيد الخصوبة " لدرجة أن وفاته تعنى فناء كل النباتات والخضرة . ولم يكن بعل هو الوحيد الذى يتحكم فى الخصوبة ، فقد ورث هذه الصفة

---

(١) James, Mythes et Rites, p. 159 – 161.

(٢) صور بعل معبود العواصف والصواعق يقف فوق قمم الجبال ويمسك فى يده اليمنى بدبوس القتال وفى يده اليسرى بالحربة التى ينتهى أعلاها بما يمثل الصاعقة أو ربما ما يمثل النبات ، وهذا النقش موجود على لوحة عثر عليها فى رأس الشمرا ، راجع د. أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ص ١٢٠ صور .

عن عال أيضا ، معبود النباتات فى العراق القديم .

وكان لبعل معبد فى أوجاريت . وكان يساعده أنوا السورى معبود السماء ، ونجد فى الحقيقة أن بعل تشابه مع كثير من المعبودات فى غرب آسيا . ونجد أن النصوص من أوجاريت تمثله أولا وقبل كل شئ كمعبود للرعد والنباتات ، متحدا فى هذا الدور مع زوجته وهو لا يحتل فى مجمع المعبودات المكانة الأولى مثل ماردوك فى بابل ، فأثناء صراعه مع خصومه ، كان يتعرض للهزيمة . وهنا قامت عنات بتحرير العالم السفلى ، وعندئذ عاود الصراع ضد موت لكى يؤكد حقه وباستطاعته أن يحكم مع المعبودات .

وكان من النقوش التى عثر عليها فى أوجاريت (رأس الشمرا) نصوص دينية وتتصل بطقوس العبادات . وتدور إحدى القصائد الهامة من هذا الأدب الدينى حول الصراع السنوى بين معبود النباتات عليان – بعل وخصمه موت وينتصر موت على بعل فى أول الأمر . وهذا طبيعى فى بلاد يسيطر فيها جفاف الصيف ، ولكن عندما تتجدد الأمطار فى الخريف فإن بعل يعود فينتصر على موت وهناك تشابه بين أفكار أدب أوجاريت وسفر أيوب ، وهناك أيضا موازنات فى شعر أوجاريت أخذها الشعر العبرى فقامت ديانة الفينيقيين على عناصر هى تقديس الخصب وعبادته .(١)

ومن الصفات البارزة فى ديانة الخصب السامية هذه هى الحزن على موت معبود النبات وإجراء طقوس لتمكينه من الفوز على خصمه موت (إله الموت والعالم السفلى) حتى يضمنوا نزول كمية كبيرة من الأمطار فى الموسم القادم وأن زواج المعبود بعل بعد بعثه من المعبودة عشرات تنتج عنه تلك الخضرة التى تكسو الأرض فى الربيع . وهذا الزواج المقدس يتخذ صفة روحية رفيعة يصبح فيما بعد اتحادا بين قوى الخصب والطبيعة . وتعاقب الفصول يرمز إليه بالصراع بين عليان – بعل وأخيه موت الذى يتشابه فى بعض خصائصه مع نرجال البابلى ، الذى يمثل شمس

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٥٥ – ١٦٨ ؛ المؤلف نفسه : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ١٢٤ – ١٢٩ .

الظهيرة ، المحرقة المهلكة ، وكان يعد فى نفس الوقت معبودا للحصاد ومعبودا لفترة الركود التى تلى الحصاد فى الطبيعة . وتقص الأساطير أن عليان كان يحكم فوق الأرض على حين يسكن أخاه فى العالم السفلى .

إن فكرة موت معبود الخضرة فى الصيف وبعثه فى الربيع ، كانت تقترن بقوة الشمس وشدة حرارتها وانتصارها على الشتاء وعواصفه الباردة ، وفكرة انتصار الشمس على الشتاء تمثلها أسطورة تموز أو ادون ومعناه السيد المولى وعرف عند الإغريق باسم " أدونيس " أى " سيدى ومولاى " .

وكانت زوجته تسمى أيضا على اسم زوجة ايل عشتروت سيدة جبيل وظلت عبادة تموز أو أدونيس وعشتروت عبادة شائعة فى لبنان حتى العصر الرومانى .

ونجد أن بعض الأساطير الأخرى فى الديانة الفينيقية تخص الحياة الزراعية مثل أساطير بعل وميلاد المعبودة الكريمة والترابط المقدس أى الترابط المقدس للمعبودة التى تشرف على الحياة على الأرض .

ملقارت : يبرز المعبود ملقارت ، معبود صور ، بين اسماء المعبودات ومعنى اسمه " ملك القرية " وبفضل مركز صور انتشرت عبادة ملقارت فى أنحاء فينيقيا وفى المراكز الفينيقية فى الخارج . وقرنوا اسمه باسم المعبود هرقل عند الإغريق .

أشمون : الذى تركزت عبادته فى صيدا .

رشف : الذى يعنى اسمه النار أو النور ، وكانت له علاقة بالشمس أو بالنار وكان يعتبر عندهم معبودا للموت وللخصب فى آن واحد وعرف باسم " بعلى - شمين " أى رب السماوات .(١)

---

(١) د. أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص ١٢١ .

اداد : معبود أكدى يرمز إلى العواصف والطبيعة عرف تحت اسم حداد في سوريا وفينيقيا وكنعان ، ويصور وهو يمسك برمز الصاعقة ويقف فوق ثور .[١]

داجون : الذى تعبد إليه الآموريون فى الألف الثالثة ق. م . وعبده كذلك أهل أوجاريت ومارى . وعبده كذلك الفلسطينيون على شكل سمكة وجعلوه معبودهم القومى .

عنات : هناك نقوش أثرية عثر عليها فى بيت شان من القرن الثالث عشر ق. م . تعطينا اسم المعبودة عنات ، سيدة السماء وتظهر على لوحة من أوجاريت كشقيقة لعليان – بعل وأعطيت لقب العذراء واختلطت هذه المعبودة بالمعبودة عشتار فأصبحت عنات – عشتار التى تهب الحياة وتمنعها . ومن خصائصها البارزة أيضا الحب والحرب .[٢]

شيد الفينيقيون المعابد والهياكل لهذه المعبودات . وكانوا يستعيضون عن نحت التماثيل للمعبودات بإقامة عمود بسيط من الحجارة أو من الخشب كرمز للمعبود غير أنهم صنعوا أيضا تماثيل صغيرة من البرونز .

وكانت فكرة الثواب والعقاب عند الفينيقيين منحة من المعبود ينالها المتعبد على هذه الأرض . فكانوا ينظرون إلى الصحة والثروة وما شابها على أنها ثواب نظير القيام بالفروض الدينية . وإذا حرموا هذه النعم فإنهم كانوا ينظرون إلى الأمر على أنه عقاب لتركهم فروض ديانتهم والتقصير فى أمور العبادة . وعلى الرغم من ذلك فإن البعض منهم كان يعتقد فى الحياة بعد الموت .[٣]

---

(١) Parrot, Assur, p. 76 Fig. 84.

(٢) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ١٠٦ .

(٣) James, op. cit., p. 161.

فكرة الصراع بين الخير والشر :

نجد فى النصوص التى عثر عليها فى أوجاريت ، موضوع الصراع الأبدى بين عليان – بعل ومنافسه موت ، ويتمثل هذا الصراع فى تعاقب الفصول .[١] فالأمطار كانت ضرورية للزراعة . وكان بعل يعد سيد الأرض والمصادر ، لذا فهو الذى يقترب من السحب . وعندما ينزل إلى العالم السفلى فإنه يصطحب معه السحب ، لذلك تختفى الأمطار والخضرة ولا تظهر مرة أخرى إلا عندما يقهر خصمه موت الذى يهزم أيضا بمساعدة المعبودة عنات ، وعندئذ تعود الخصوبة والخضرة مرة أخرى فوق الأرض .

كان بعل يعد معبودا للرعد والأمطار ، وهما أساس الخصوبة ويبدو أن موت كان يرمز إلى الموت وذبول الحياة على الأرض[٢] فهو الذى ينتزع الحياة من كل كائن حى . واسمه يوحى بأنه كان يرتبط بالجفاف والصحراء ، والموت والعالم السفلى . وكان يمثل العدو الدائم لبعل ويمثل تبعا لذلك القوى الشريرة التى تريد أن تسيطر على ظواهر الحياة وأيضا مظاهر الدمار والفناء والموت . وكان صراعه مع بعل أبديا ، فهو يطابق جفاف الصيف الذى يتبعه من جديد موسم الشتاء . ويلاحظ فى تلك العقيدة ، أن الصراع دائم ومستمر ولم يقض على أى من المتنافسين . فعلى الرغم من التعذيب الذى تعرض له موت من المعبودة عنات ، إلا أنه بعث من جديد لكى يصارع المعبود بعل عندما يعود هذا الأخير من العالم السفلى .

وعندما تقابلا معا للمرة الأولى تملك الخوف من بعل ، الذى عاد إلى منزله باكيا وكان على استعداد لأن يخضع لعدوه دون أية مقاومة وتوقف مظاهر الحياة يتمثل فى ذبول النباتات فى موسم الجفاف وعند عودة الأمطار تبعث الحياة مرة أخرى فى تلك العناصر النباتية وهنا يعود بعل إلى القتال مرة أخرى ، مع كل

---

(١) James, op. cit., p. 194 – 195.

(٢) Id. op. cit., p. 195.

مصادره ، ويساعده فى ذلك معبودة الشمس شاباس ، ولكن لم يحالف أحدهما النصر . وهنا دعت معبودة الشمس ، المعبود موت ، إلى التخلى عن القتال والنزول إلى العالم السفلى .

لم يكن موت ، هو العدو الوحيد لبعل ، بل كان هناك أعداء آخرون فمعبود الطقس عليان كان يعمل قبل أن يصبح سيدا للأرض ليتحكم فى النباتات والإنبات ، وكاد عليان أن ينتزع السلطة من عال كبير المعبودات وهنا يتدخل عال ليساعده موت ، وأيضا الأمير " مر " الذى كان على بعل أن ينازله لكى يحصل على " المملكة الأبدية " وبالإضافة إلى ذلك فقد أمر عال ، بأن يشيد منزلا للأمير " مر " على جبال سابون فى مقاطعة بعل وذلك بتكليف المعمارى المصرى " هاين " الذى قام بتشييد قصر بعل من قبل . وهنا وجد بعل نفسه مضطرا إلى القتال ، وكان من نتيجته أن أصبح بعل سيد مجموعة المعبودات وقضى أيضا على لوتان الثعبان الذى يمثل قوى الموت والفناء واليأس ، أعداء المعبود بعل الأبديين .(١)

النصوص الجنائزية :

منذ الكشف عن آثار رأس الشمرا فى فينيقيا ، ولدينا الكثير من اللوحات التى تحتوى على نصوص دينية . وأهم هذه النصوص هى نصوص جنائزية تخص ملوك صيدا . ونجد فيها ذكرا لأعمالهم الخيرية والأمانى للحصول على الراحة والهدوء فى مقابرهم وكانوا يرددون بأنهم بدون أية ثروة يمكن أن يطمع فيها لصوص المقابر . ويعلنون أن كل من يتعدى على مقابرهم سوف يتعرض لعقاب شديد .

ونجد أن أحد ملوك صيدا ، الملك تابنيت كان مدفونا فى تابوت قائد مصرى الذى يحمل حتى الآن اسم القائد باللغة المصرية القديمة ، ولم يمح هذا الاسم من على التابوت .

---

(١) James, op. cit., p. 196 – 197.

اعتقد الفينيقيون فى البعث وكانت توابيتهم تأخذ الهيئة الآدامية مثل التوابيت المصرية .[١]

خامسا : الحياة الثقافية :

الكتابة واللغة :

الفينيقية : لم يكن لدينا من هذه اللغة إلا القليل من النصوص حتى السنوات الأخيرة ، وخاصة النصوص الجنائزية لملكين من صيدا وهما : تابنيت ، واشمونازار من القرن الخامس ق. م . وقد وجدت هذه اللغة مكتوبة أيضا على تابوت أحد ملوك بيبلوس (أو جبيل) والذى كان معاصرا للملك رمسيس الثانى من القرن الثالث عشر ق. م . وكان بعض النصوص يتكون من عدة سطور .

وقد عثر فى عام ١٩٢٩ أثناء حفائر رأس الشمرا على العديد من النصوص التى تحدثنا عن صراعات حربية أو نصوص دينية وبعض النصوص التى تعالج جوانب الحياة العادية وترجع إلى النصف الأول من القرن السابع عشر ق. م . على الأقل . وواجه العلماء صعوبات عديدة عند التراجم الأولى لهذه النصوص حيث لا يمكن مقارنتها بلغات أخرى ، بل هناك نوع من الأدب له طابع متميز يتفق مع التقاليد الفينيقية فى لغة يمكن تسميتها بلغة " ما قبل الفينيقية " التى تتماثل كثيرا مع اللغة العبرية .[٢]

---

(١)د. أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص ١٦٦ .

(٢)المرجع السابق ، ص ١٦٤ – ١٦٨ ؛ Philipe et Rouche, Histoire, p. 254 – 255.

الأبجدية الفينيقية :

كان الفينيقيون أول من استعمل الأبجدية الراقية التى لاشك قد اقتبسوها من اللغة المصرية القديمة الممثلة فى المخربشات السينائية ، كما أنهم تأثروا بالمصريين فى كثير من أمورهم ونقل اليونانيون عن الفينيقيين الأبجدية . وقام الفينيقيون بانقاص العلامات المستخدمة فى الأبجدية إلى اثنتين وعشرين علامة وعلى الرغم من ذلك لم تصبح اللغة الفينيقية اللغة الدولية . وإنما كانت الأكدية هى اللغة الدولية الرسمية .

وكان على الأبجدية الفينيقية أن تندثر ، لتحل محلها أبجدية أخرى أكثر مرونة ، وهى الأبجدية المسمارية التى تتطلب ألواح طينية ومعها القلم الذى يضغط به على الطين اللين . وتطبع العلامات مرة واحدة بكل المسامير . ولم يستخدم الشاطئ السورى الألواح الطينية إلا للتقليد فقط ، لأن الرق ، الذى عرفه الأشوريون كان يستخدم فى الكتابة وكان سهل الاستعمال . وكانت العلامات التجارية متطورة مما سمح باستيراد البردى للكتابة عليه بخطوط قصيرة كانت تستخدم للأبجدية الفينيقية .

وقد ظهرت الفينيقية ، منذ القرن الثالث عشر ق. م . وحلت محل جميع اللغات الأخرى فى سوريا ، وترجع إلى الأبجدية الفينيقية بعض المشتقات فى الأبجديات الأخرى المستعملة فيما بعد وخاصة الأبجدية التى استخدمها الفينيقيون فى قرطاجة . والتى كانت تسمى هناك " بونيق " و " بونيق الجديدة " ويفصل بينهما الغزو الرومانى اللتين عاشتا واستخدمتا حتى بداية دخول المسيحية .(١)

ويجب القول بأن هذه الأبجدية الفينيقية على الرغم من التقدم الذى أحرزته ، ألا أنها بقيت غير كافية فهى لا تحتوى إلا على الحروف المتحركة ، فالنص الذى كتب فى مثل هذه الظروف لا يمكن أن يقرأ بواسطة شخص على دراية جيدة باللغة . وكانت الأبجدية الفينيقية تعد من اللغات السهلة إذا ما قورنت بالتعقيدات الموجودة فى

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

اللغة المسمارية الأكدية ، ولكن بالنسبة للقراءة والتعبير ، فهى تعد مختلفة لأن الأكدية كانت تحتوى على الحروف الساكنة .

ويجب أن نضع أمام أعيننا أن فى طريقة الكتابة وأيضا فى طريقة التعبير يظهر توازن واعتدال الكتبة أنفسهم ، فهم وحدهم الذين كانوا يمارسون فنون الأدب ، طوال الثلاثة آلاف عام أو أكثر التى عاشتها حضارات الشرق القديم . فعندما حلت الكتابة المسمارية محل الكتابة التصويرية كانت هناك بعض التغييرات البسيطة ، ولكن على العكس اللغة البونيقية ، والبونيقية الجديدة في قرطاجة ، اللتين لم تخضعا لتأثير توازن الكتبة فقد أصبحتا فى فترة قصيرة من التعقيد بحيث يصعب قراءتهما .

لم يكن الفينيقيون حملة تجارة فحسب ، بل كانوا حملة ثقافة وعلم إلى جميع أرجاء العالم القديم . وكانت أكبر خدمة أدوها للبشرية هى نشر الحروف الهجائية الفينيقية التى كانت سببا مباشرا فى نشر العلم فى أوربا الجنوبية ، وكان لهم أثر مباشر على نهضة بلاد اليونان فى أكثر من مجال .

فهذه الحروف الهجائية تعد بحق أعظم اختراع حققه إنسان الشرق القديم فى فينيقيا . وبواسطة هذه الرموز استطاع الإنسان أن يسجل أفكاره وعلومه وآدابه ويبقيها من بعده إرثا للخلف . وبواسطة هذه الحروف كتب اليونانيون كنوز عبقريتهم الأدبية والفلسفية وخلفوا لنا صرحا أدبيا كبيرا . وقد أخذ الرومان هذه الحروف الهجائية من الإغريق فدونوا بها قوانينهم المشهورة التى اتحفوا بها العالم المتمدن .(١)

وتعتبر الكتابة الفينيقية أول كتابة استخدم الإنسان فيها الحروف الهجائية ولا ينبغى أن يتبادر إلى الذهن أن المحاولة الفينيقية كانت المحاولة الوحيدة للوصول إلى الكتابة بالحروف الهجائية ، أو أنهم توصلوا إليها كاملة دفعة واحدة . فالنقوش الفينيقية التى وصلتنا لا تفيد كثيرا فى دراسة تطور هذه الكتابة لأن أقدم نقش فينيقى

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية ، ص ٦ ؛ د. أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ص ١٠٥ – ١٠٧ .

أبجدى وصل إلينا بهذه الكتابة هو النقش الموجود على تابوت ملك صور احيرام الأول الذى يرجح أكثر العلماء أنه يرجع إلى أوائل القرن العاشر قبل الميلاد (١٠٠٠ ق. م) ولا شك فى أن كثيرا من الكتابات الفينيقية سبقته وكان هذا النقش يحتوى على حوالى ٢٢ حرفا هجائيا .

وعثر فى حفائر رأس الشمرا (أو أوجاريت) على مكتبة ضخمة تشتمل على عدد كبير من الألواح الطينية المحروقة والتى ترجع إلى القرن الرابع عشر ق. م . واحتوت على نقوش بسبع لغات مختلفة هى :

السومرية والبابلية والآشورية والمصرية والحيثية والاوجاريتية ولغة سابعة لم يتمكن العلماء من قراءتها فى البداية ، ولكن سرعان ما توصل أكثر من باحث (منهم دروم وباور) إلى حل لغزها عام ١٩٣٠ وذلك عند مقارنتها بالأبجدية الكنعانية .[١] وعثر بين هذه اللوحات على عدد من القواميس للترجمة من السومرية والبابلية إلى الاوجاريتية . مما يدل على أن هذا المكان كان بقايا مدرسة لتعلم الكتابة وربما اللغات أو اللهجات التى كانت معروفة فى بلاد الشرق القديم . ويرى د. فخرى أن تلك اللوحات الطينية كانت جزءا من مكتبة القصر الملكى وقد ألقت دراستها الضوء على الحياة الدينية والاجتماعية فى مدينة أوجاريت .

وبالإضافة إلى نقش تابوت يخص ملك صور وألواح رأس الشمرا . وعثر فى سرابية الخادم فى وسط شبه جزيرة سيناء على نقوش مكتوبة على لوحات جنائزية أو تماثيل نسائية صغيرة مقدمة لربة المعبد فى هذا المكان وهى المعبودة حتحور . وبالإضافة إلى ذلك وجد أيضا نحوا من اثنى عشر نقشا مكتوبة بكتابة مختلفة وترجع كلها إلى الفترة الواقعة بين ١٦٠٠ و ١٥٠٠ ق. م . وقد أثارت هذه اللوحات القليلة ذات الكتابة الجديدة اهتمام العلماء نظرا لأن الطابع الغالب عليها هو الكتابة بالصور والعلامات المختصرة .[٢] وكانت الحفائر قد توقفت فى هذا الموقع

---

(١) د. أحمد فخرى : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٥٠ - ١٥٢ .

عام ١٩٣٩ ثم استؤنفت عام ١٩٤٨ وعاد إلى الموقع ثيفر المكتشف الأول عام ١٩٥٠ وتركزت فى حفائره فى القصر الملكى وعثر فيه على كثير من الوثائق ذات الأهمية السياسية والإدارية والقانونية وأكثرها مكتوب بالأكدية . وفى عام ١٩٥٣ عثر على مجموعة من المراسلات الدبلوماسية بين أمراء أوجاريت وملوك الحيثيين .(١)

كما عثر على عدد من الكتابات فى فلسطين مثل نقوش مجدو ولخش وشكيم وبيت شمس ، كلها تحمل كتابات بحروف هجائية تمثل حلقة وصل أخرى أكثر تطورا بين الكتابة السينائية والحروف الفينيقية .

وهذه الكتابة الفينيقية كما يمثلها أقدم نماذجها وهو نقش الملك أحيرام من صور ، تتكون من اثنين وعشرين حرفا تخلصت تماما فى شكلها من أى رسم أو صور للأشياء ، وأصبحت خطوطا مجردة تقريبا .

وكانت هذه الحروف هى الأصل الذى اشتقت منه الكتابات السامية الهجائية الأخرى وأهمها الفينيقية والعبرية القديمة والآرامية والسبأية . وكان للفينيقيين الفضل الأول فى معرفة هذه الطريقة فى الكتابة فى العالم القديم ، فقد كانت الحروف الفينيقية هى الأصل الذى أخذ الإغريق عنه أبجديتهم ، واتخذ اليونانيون هذه الكتابة وحسنوها خصوصا باستخدام بعض الحروف للحركات الصوتية . وقد حدث ذلك فى القرن الثامن قبل الميلاد حينما كان اليونانيون ينشرون تجارتهم فى أسواق الشرق القديم .

ولم يمض وقت طويل حتى استخدمت الكتابة الفينيقية فى ايطاليا نقلا عن اليونانيين . ومن الغريب بأن اللغة الفينيقية قد اندثرت فى عقر دارها وحلت محلها اللغة الآرامية واليونانية فى العصر اليونانى .

وقد عاشت الفينيقية فى سردينيا فترة طويلة . وقد زحفت اللاتينية إليها حينما اشتد نفوذ روما . وعثر على أقدم نقش فينيقى فى قبرص ووجد مكتوبا على

---

(١) د. أحمد فخرى : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

إناء من البرونز وهو مؤرخ من النصف الثانى من القرن الثامن قبل الميلاد .

الكتابة البونيقية :

اشتقت هذه الكتابة من الفينيقية مباشرة وعاصرتها . ولدينا نوعان من الكتابة البونيقية وجدا فى شمال أفريقيا (فى تونس وليبيا والجزائر) : البونيقية القديمة واشتقت من الفينيقية منذ القرن الثامن قبل الميلاد وظلت مستعملة حتى سقوط قرطاجة عام ١٤٦ ق. م . وقد تشابهت البونيقية القديمة مع الكتابة الفينيقية فى كل شئ . ولم يكن هناك أى اختلاف جوهرى . أما النوع الثانى فيطلق عليه اسم البونيقية المتأخرة أو المحدثة . وقد دخلت إلى الاستعمال متطورة من البونيقية القديمة بعد سقوط قرطاجة وظلت مستعملة حتى القرن السادس الميلادى . والاختلاف الجوهرى بين البونيقية القديمة والبونيقية الجديدة استخدام هذه الأخيرة للحروف المتحركة النينة متأثرة فى ذلك بالكتابة اليونانية واللاتينية فيما بعد .

وقد وصلت الكتابة البونيقية إلى جزر مالطة وسردينيا وصقلية كما دخلت إلى فرنسا وأسبانيا .[١] وأقدم نقش بونيقى عثر عليه فى قرطاجة كتب على صدرية مؤرخة من القرن السادس قبل الميلاد . وأقدم نقش عثر عليه فى سردينيا هو ما وجد مكتوبا على ثلاثة كتل حجرية وهى من القرن التاسع قبل الميلاد .[٢]

وعن اليونانيين أخذ الاتروسكيون الذين كانوا يحتلون جزءا من إيطاليا قبل مجئ الرومان إليها .[٣] لغتهم وحروفهم ، ومن هؤلاء جاءت الحروف اللاتينية التى

---

(١) د. شعبان خليفة : الكتابة العربية فى رحلة النشوء والارتقاء ، العربى للنشر والتوزيع ١٩٨٩ ، ص ٥٥ .

(٢) د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٣) وكان الاتروسكيون مثل الفينيقيين ، بحارة وتجار مهرة ، بنوا الأساطيل التجارية التى كانت تمخر عباب البحر المتوسط وتنافس سفن اليونانيين ===

أصبحت حروف الكتابة لأكثر الدول الأوربية منذ القرون الوسطى .

حل رموز اللغة الفينيقية :

حاول أحد الفرنسيين وهو الأب برتلمي أن يجمع بعض القلائد القديمة واستطاع أن يجد على القلائد الفينيقية أسماء بعض المدن ، وتعرف هكذا على بعض الحروف . وقد عثر من ناحية أخرى فى مالطة على قاعدتين صغيرتين يحملان عمودا صغيرا محددا فى النهاية ، مؤرختان من القرن الثانى ق. م . ويحملان نصين كتبا بحروف فينيقية ويونانية . وبعد دراسة إحدى القاعدتين المحفوظة الآن فى متحف اللوفر ، لجأ الأب برتلمى ، إلى الاستعانة بالنص الموجود على نفس القطعة ، ونجح فى التوصل إلى معرفة قيمة الحروف الأبجدية ، وبفضل اللغة العبرية التى تقارب الفينيقية أمكن حل رموز النص الفينيقى .

وقبل اكتشاف نصوص رأس الشمرا ، كان لدينا بعض النصوص القصيرة الخاصة بصيغ الإهداء ، وبعض النصوص الهامة ، مثل النصوص الجنائزية الخاصة بملوك صيدا ، ثم لوحة " يوها ملك " ملك بيبلوس ، التى تحدثنا نقوشها عن الترميمات والإصلاحات التى قام بها هذا الملك فى المعبد ، ولوحة " مسا " ملك موآب التى تؤرخ من منتصف القرن التاسع ق. م . وهذه اللوحة الأخيرة تعد أثرا هاما بالنسبة للتاريخ فهى تقص علينا أحداث تناقلها الكتاب المقدس ، ولكن من وجهة نظر مختلفة ، اعتنقها موآب عدو مملكة إسرائيل ، وأيضا بالنسبة لطريقة الكتابة لأنها تحتوى على علامات ذات شكل متطور .

ويوجد على تابوت الملك احيرام ، ملك بيبلوس الذى حكم فى القرن العاشر ق. م. بعض السطور من الكتابة الفينيقية ، التى أمدتنا بالأشكال القديمة جدا للأبجدية الفينيقية والتى لا يمكن الشك فيها ، وقد أدى العثور على هذه الأشكال إلى نفى بعض النظريات العديدة التى قيلت عن أصل اللغة الفينيقية . وكان معنى الحروف محل

= والقرطاجيين ، راجع : د. سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ٥٨ .

دراسة أيضا طبقا لقراءتها . فالحرف الأول مثلا ، " ألف " يعبر عنه برسم الثور أو برسم علامة تمثل مقدمة رأس الثور بقرنيه ، وأيضا بعض الحروف الأخرى . ولكن بعضها كان من الصعب تفسيره . ومن المقبول اليوم أنه إذا كانت هناك بعض العلامات التي يمكن إرجاعها إلى الأصل ، فبعضها الآخر ربما كان قد تعرض للتغييرات الأولى .

وعلى عكس الكتابة المسمارية ، والنصوص التي عثر عليها في سيناء ونصوص رأس الشمرا ، فهذه الكتابات لم تستمر طويلا ، ولم تستمر أيضا الطريقة التي كانت تكتب بها بعض نصوصها بحروف مشتقة من اللغة المصرية القديمة ويقال عنها " الشبيهة بالهيروغليفية " والتي عثر عليها في بيبلوس وترجمها العالم دروم .(١)

أبجدية رأس الشمرا :

كانت الكتابة في فينيقيا لختيارا قاصرا على الكتابة ، ولكن حدث اكتشاف كبير في عام ١٩٢٩ على الشاطئ السوري ، والذي يدل على وضع الكتابة في متناول أكبر عدد ممكن من الأشخاص . حيث عثر هناك على مجموعة كبيرة من النصوص في منطقة رأس الشمرا ، وكتب على ألواح من الطين مثل الكتابة المسمارية التي اشتقت منها ، وقد عثر على هذه النصوص أثناء الحفائر في القصر الملكي ، وكانت عبارة عن نصوص متنوعة بعضها يعكس الحياة اليومية من خطابات ، قصص ، قوائم . ولكن أغلبها كان له الطابع الديني . ويرجع تاريخ هذه الألواح إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد على أقل تقدير . وتشمل الحروف الأبجدية ثمانية وعشرين حرفا ، يعطى بعضها القيمة الصوتية التي لا تملكها اللغات الهندوأوروبية . أما العلامات فهي مشتقة بصورة مبسطة من العلامات المسمارية ويوجد في الحروف الأبجدية ، شرطة بسيطة ، مخصصة لفصل الكلمات وهذه الطريقة كانت من أهم العوامل المساعدة للعلماء لحل رموز هذه الكتابة .

---

(١) Contenau, les Civilisations du Proche – Orient, p. 32.

وبمقارنة الألواح الأولى التى كشف عنها من قبل بطريقة الكتابة الجديدة التى كشف عنها فى رأس الشمرا ، وجد الأثريون أنفسهم أما شئ جديد وليسوا أمام لغة تكتب بخطين . أحدهما يمكن قراءته ويساعد فى حل رموز الأخرى ، كما حدث بالنسبة لعلماء علم المصريات وحل رموز اللغة المصرية القديمة عن طريق الكتابة الهيروغليفية والديموطيقية وكما حدث فيما بعد لعلماء الكتابة المسمارية .

ولقد اقترح كلا من دروم وباور أن هذه اللغة لغة سامية وأن مصدرها كان شمال فينيقيا ، وانضم إليهما فيرولد الذى قام بعدة أبحاث .(١) وقد أوضح هذا الأخير معانى الحروف الأبجدية ، وبدأ بعدها فى ترجمة النصوص . وكانت هذه الأبحاث تشمل محاولة إيجاد كلمات سامية على هذه اللوحات وعلى بعض الأسلحة الرمزية من البرونز التى حمل نصوصا قصيرة ..

ومن الجدير بالذكر أنه لم يمض غير بضعة أشهر بين نشر هذه النصوص وإيجاد أو التوصل إلى طريقة كتابة الأبجدية ويتضح من هذه الأبجدية أنها كانت مشتقة من الكتابة المسمارية ، وأنها تبسط لأبجدية المسمارية ، التى كانت منتشرة فى معظم بلاد الشرق القديم .

سادسا : الحياة الفنية :

العمارة : يعد تخطيط المدينة وتشييد المنازل مظهر من مظاهر الحضارة وأول ما نلاحظه فى تخطيط المدن الفينيقية صغيرة أو كبيرة – أنه كان يحيط بها سور . وكانت المدن الفينيقية صغيرة الحجم عادة لذلك كانت مزدحمة بالمنازل التى كانت تتكون من أكثر من طابق .

ويذكر سترابون من القرن الأول ق. م. أن منازل صور وارواد كانت تتكون من عدة طوابق . وأن منازل صور كانت أكثر ارتفاعا من المنازل فى روما

---

(١) Contenau, op. cir., p. 33.

ذاتها . ويذكر ابيانوس وهو من مؤرخى القرن الثانى الميلادى ، بأن المنـــازل فـــى بعض أحياء مدينة قرطاجة كانت تتكون مما لا يقل عن ستة طوابق . ولكن مثل هـذه المنازل العالية وجدت فقط فى الأحياء التجارية قرب الميناء . أما عن تخزين الميـــاه فكان يتم عن طريق تخزين الأمطار فى الآبار . وكانوا ينتفعون أيضا بمياه نبع عـذب تظهر مياهه فى المضيق الذى يفصل جزيرتهم عن البر .

أما عن طريقة الحصول على المياه من هذا النبع البحرى فقد كانت غاية فى البراعة فكانوا ينزلون من قارب قمعا من الرصاص واسع الفم وفى وسطه أنبوب من الجلد . وكان الماء يصعد فى الأنبوب الجلدى فيملأون جرارهم وهى طريقة لا عـــهد للناس بها إذ ذاك . ولا يزال فى مدينة ارواد إلى يومنا هذه الأحواض منحوتـــة فـــى الصخر لحفظ المياه .

وكان يحرصون على أن تشيد هذه المدن فوق مرتفعات حتى يسهل الدفـــاع عنها وفى نفس الوقت تكفل الحماية للفرق الساحلية وتحرس الطـــرق المؤديـــة إلـــى المناطق الداخلية .[١]

عرفت سوريا بناء القصور الذى كان يطلق عليها " بيت هيلانى " كما فـــى بلاد خيتا . وقد كشف فى تل تاينات على بقايا قصر من هذا النوع وإلى جانبه كـــان يوجد معبد صغير .

وكانت المدن السورية محاطة بسور به بوابات أيضا يعلوها أبراج وكـــانت هناك بعض الأجزاء المشيدة من الخشب فى أعالى هذه الأسوار كما حدث فى خيتـــا وجزر كريت .

أما المقابر فكان يوضع فيها توابيت وكانت هذه المقابر علـــى شـــكل قبـــو (مثل جبانة ملوك بيبلوس أو ملوك صيدا) .

---

(١) Contenau, op. cit., p. 69.

وفى العصر المتأخر كانت التوابيت تصنع من الحجارة ، وتتخذ شكل التوابيت المصرية على هيئة مومياء .

ونلمس فى مقبرة احيرام من القرن الثالث عشر ق. م . فى بيبلوس تأثير الفن المصرى الذى يظهر فى نقوش تابوته .

كما عثر على أوانى من المرمر تحمل اسم الملك رمسيس الثانى ، وعثر فى نفس المقبرة على أدوات من العاج والفخار يغلب عليها طابع فن الميسيين (اليونانى) كما عثر على أوانى ربما أحضرت من جزيرة قبرص أو تقلد ما كان يصنع فى هذه الجزيرة .

وهكذا تأثر الفن الفينيقى فى الألف الثانية ق. م . بالفن المصرى والفن الميسينى . وقد تأثر الفينيقيون بالمصريين فى مجال العمارة وعادات الدفن . أما بالنسبة لفن النحت فنجد أنه فى المناطق التى خضعت للحوريين والحيثيين الجدد ، وأنه على الرغم من عدم خبرتهم الفنية الطويلة ، ألا أنهم حققوا أشكالا تفيض بالذوق والحماس _ مثل رأس تمثال جابول فى متحف اللوفر) . وكانت العيون فى تماثيل المعبودات التى تخص مدينتى قرقميش وزنجرلى ، كانت فى أغلب الأحيان مطعمة بالأحجار ذات الألوان لكى تعطيها نوعا من الحيوية عند النظر إليها .

وكان الموضوع الرئيسى فى فن النقش هو الصيد الملكى . وهو موضوع تقليدى فى بلاد الشرق القديم . فنجد هذا الموضوع فى أوجاريت وجنوب فينيقيا وفلسطين .

وقد عنى الفينيقيون بالموسيقى . فقد اكتسبوا كثيرا من عناصر موسيقاهم من شعوب مختلفة فى الشرق القديم . وذلك لأن طقوس العبادة عندهم كانت تقتضى استخدام الغناء والآلات الموسيقية وتكاثر الطلب على اقتناء مغنيهم ومغنياتهم من الجوارى فى مصر فى عصر الدولة الحديثة .[١]

---

(١) Amiet, les Civilisations Antiques du Proche Orient, p. 101-103.

بعض المظاهر الحضارية عند الآموريين :

لم تختلف الديانة الآمورية عن عبادة قوى الطبيعة عند الساميين التى كانت شائعة بين البدو والرحل في بادية الشام وبلاد العرب . وكانوا يتعبدون أساسا إلى المعبود آمورو (مارتو) وهو معبود القبيلة وهو معبود الحرب الذى عرفت عبادته أصلا فى بلاد النهرين ، وكانت زوجته المعبودة عشترت أو عاشرة وتتصف بأنها معبودة الحب والقوة وتميل إلى المسرات والنشاط . ويرجح أنها كانت مقتبسة من المعبودة البابلية عشتار المعروفة وكانت تعتبر المعبودة الرئيسية . ونعرف أن الآموريين تعبدوا أيضا عددا من المعبودات كان أهمها حدد (بالأكدية آداد) المعروف أيضا باسم رمانوا (صانع الصواعق) وهو معبود المطر والعواصف . ثم أصبح بعد ذلك بعل الأعظم ، معبود الرعد ، وبصفته معبود رئيسى فى الغرب عرف باسم مارتو . ويوجد معبود آخر ذو شأن وهو رشف وربما كان له بعض الصلة بالنار واقتبسه المصريون فى عصر الدولة الحديثة ، وعبدوا أيضا المعبود داجون . وجاء ذكر هذه المعبودات على ألواح مدينة مارى .

ومن الطقوس البارزة التى أدخلها الآموريون إلى جنوب سوريا العمود المقدس وكان يمثل على ما يظهر معبود القبيلة ويقام عادة فى مكان ظاهر وعادة فى مغارة إلى جانبها مذبح من الحجر الكلسى لا تدنسه أية آلة .[١]

لم يترك الآموريون كتابات هامة بلغتهم أو كتابات أثرية ذات شأن وإنما تركت أسماء أماكن وأمراء فقط . وأهم كتاباتهم كانت باللغة الأكدية التى شاع استخدامها كلغة تدوين رسمية .

عرف الآموريون الزراعة وأسسوا دويلات قوية ومن أهمها تلك التى كانت

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٨٠ – ٨٤ ؛ د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٢٣٩ .

فى حوض الفرات الأوسط وكانت عاصمتها مارى . وعثر فى القصر الملكى فى هذه العاصمة على أكثر من ٣٠٠ حجرة عثر فيها على أكثر من عشرين ألف لوح من الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسمارى ، وهى تتضمن وثائق مختلف الشئون منها السياسية والإدارية والاقتصادية والدينية . ونعرف من نقوش هذه النصوص أن هنالك مملكة آمورية اسمها يمخاد كانت عاصمتها حلب وأن جبيل كانت مركزا صناعيا هاما للنسيج وقطنة مركزا تجاريا أيضا وأن زمرى ليم كان آخر ملوك مارى .

ونعرف أن مركز الآموريين الأصلى كان فى شمال سوريا ، ثم استقر بهم المقام فى أواسط حوض نهر الفرات ولهذا تعرضت فنونهم لتأثيرات سومرية وبابلية واضحة .

بعض المظاهر الحضارية عند الآراميين :

اقتبس الآراميون الحضارة المادية للشعوب التى احتكوا بها وتأثروا بها . ففى شمال سوريا أصبحوا ورثة الحضارة الآشورية والحيثية وفى وسط سوريا أصبحوا ورثة الحضارة الفينيقية . واتخذت عاصمتهم سامال فى الشمال الغربى مظهر مدينة حيثية ولكن ملوكهم كانوا يتسمون بأسماء آرامية وتركوا كتابات أثرية بحروف فينيقية .

وكانوا يتعبدون للمعبود حدد معبود الزوابع والرعد ويسمى أيضا أدد أو آدو وعبدت إلى جواره زوجته وهى المعبودة توالد أو أتارغاتس التى تعد المعبودة الأم وكان يرمز إليها بالهلال وقرص الشمس وانتشرت عبادتها فى فلسطين ثم انتقلت بعد ذلك إلى الرومان . وكان اليونان والرومان يطلقون عليها اسم " المعبودة السورية " وانتشرت عبادة أتارغاتس أو اتارجاتس بين اليونانيين فى العصر السلوقى وبواسطتهم وصلت إلى روما حيث أقيم معبد باسمها مثلها فى ذلك مثل عبادة المعبودة إيزيس المصرية فى روما .(١)

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٨٧ – ١٨٨ .

وعندما تكونت مملكة سامال الآرامية (زنجرلـــى) لدينـــا مـــن عصرهـــا نصوص جنائزية واهداءات مكتوبة باللغة الآرامية ، تخص إحدى هـــذه النصـــوص الملك بانامو الأول الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثامن ق. م . وقـــد أقـــام هذا الملك تمثالا ضخما للمعبود حدد ارتفاعه تسعة أقدام ونصف وتذكـــر نصـــوص التمثال أن هم الملك الأكبر كان إسعاد شعبة . ويذكر أن الأرض التى منحتـــه إياهـــا المعبودة المحسنة الكريمة كانت : " أرض شعير وقمح وثوم ويعمل الرجال فى حرث تربتها وزرع كرومها " .[١] ويصف الملك فى نصوصه الحياة فى العـــالم الآخـــر ، ويذكر أنها أقل تعاسة من تلك التى كان يعتقد فيها أهل بلاد النهرين . وقد أمر بانـــامو الأول ابنه فى النقوش التى تركها على تمثال المعبود حدد أن يتلـــو الصيغـــة الآتيـــة عندما يقدم القرابين :

" لتأكل روح بانامو مع حدد ولتشرب روحه مع حـــدد ولتفـــرح بالتقدمـــة لحدد " .

وهناك تمثال تذكارى للملك بانامو الثانى (٧٣٢ ق. م) أقيم غالبـــا فـــوق ضريحه من قبل ابنه ويذكر :

" وفى أيام ابى بانامو عين حاملين للكؤوس وسائقى مركبات " وبذلـــك زاد فى فخامة البلاط الملكى .

وكان ابن بانامو الثانى بار ركاب وظهر شكله منحوتا بشكل بـــارز جالســـا على العرش ، والنقش محفور جيدا فى الأبنوس والعاج والذهب .[٢] وتأثر الآراميـــون بحضارات الشعوب المجاورة وخاصة حضارة وادى النيل ، واقتبسوا منها الكثير فـــى

---

(١) د. فيليب حتى : المرجـــع الســـابق ، ص ١٨٥ . عـــن الحضـــارة الآراميـــة ومظاهرها فى الديانة والمعتقدات الدنيوية وعقائد الحياة الآخرة والفنون ، راجـــع د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٣٦٧ – ٣٧١ .

(٢) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

مجال الثقافة والفن . واعتنق الآراميون ديانة البلاد التى أقاموا فيها ، فتعبدوا إلى المعبودات الفينيقية والحيثية والحورية ومعبودات بلاد النهرين . وتأثر الآراميون بالحيثيين فى مجال الزراعة وعرفوا طرق زراعة الشعير والقمح والثوم والكروم . واشتهر الآراميون بالتجارة البرية وتاجروا فى بعض المنسوجات والكتان والنحاس والأبنوس والعاج واللؤلؤ .

وعندما تكونت مملكة سامال الآرامية على نهر الفرات ، نجد أن الملوك هناك كانوا يسجلون نصوصهم بالآرامية ، على حين كانت الخصائص الحيثية هى السائدة فى فنونهم . وكان النفوذ الحيثى هو الوحيد السائد فى قرقميش حيث كان للفن الخصائص السائدة فى زنجرلى .

أما عن الآرامية فقد كانت باقية فيما يسمى باللغة السورية ، وليس هناك ما يدعو على الاعتقاد بأنها كانت لغة بالمعنى المفهوم ، وإذا كانت اللغة السورية لم تكن اللغة الرسمية ، إلا أنها أصبحت شيئا فشيئا لغة حديث لكل الآراميين .

وانتشرت الآرامية بسرعة وكان يتحدث بها معظم السكان فى أرض فينيقيا وللأسف لا توجد هذه اللغة إلا فى بعض الملاحظات القصيرة المكتوبة بالمداد على اللوحات المسمارية من عصر المملكة البابلية الجديدة .

وعندما انهارت آسيا الصغرى أمام التدخلات الأجنبية ، فيمكننا القول بأنه منذ زمن بعيد لم تتحدث الشعوب على الإطلاق اللغة الأكدية المكتوبة على اللوحات ، ولكنها كانت تتحدث الآرامية التى كانت أسهل وأصبحت فى المرتبة الأولى [١] وذلك عندما انهار النظام الاجتماعى الذى كان فيه الكتبة يمثلون العصر الفعال ويعدون أهم طبقة فى المجتمع .

واستخدمت الآرامية فى التجارة واستعملت كلغة رسمية فى الإمبراطورية الفارسية وكان انتشارها سببا فى انتشار الأبجدية الفينيقية التى استخدموها . وكانت

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

أيضا لغة سيدنا عيسى عليه السلام وأتباعه .

وعن الخط الآرامي تفرع الخط الهندى ، وكذلك التدمرى والسوريانى والنبطى . ومن النبطى تفرع الخط العربى . وتفرع أيضا من الآرامية الخط البهلوى والأفستى والأرضى والجورجانى (نسبة إلى جورجيا جنوبى الاتحاد السوفيتى) وغيره من الخطوط أما الثمودى واللحيانى والصفوى والحبشى فهى خطوط متفرعة كلها من الخط العربى فى جنوب الجزيرة العربية .(١)

بقايا العواصم والمدن القديمة :

مارى : اسمها الحالى تل الحريرى وهى ليست بعيدة عن الفرات على الضفة الشرقية على بعد ٤٥٠ كم من دمشق . وعثر فيها عام ١٩٣٣ على تمثال جذب أنظار علماء العالم لأهمية آثار هذه العاصمة وبدأت الحفائر فيها منذ هذا التاريخ ولكنها توقفت بسبب الحرب العالمية الثانية وبدأت مرة أخرى فى عام ١٩٥١ ، وأدت إلى الكشف عن مدينة هامة ترجع إلى الألف الثالثة ق. م . وعثر فيها على القصر الملكى الخاص بالملك زمرى – ليم من الألف الثانية ، ذو مساحة ضخمة لا توازى أية مساحة أخرى . وعثر فيها على معابد وتماثيل ولوحات ، ويحدثنا د. صالح عن بقايا هذا القصر فيقول :

" كفل لقصر مارى شهرته الخاصة ، اتساع مساحته ورسوم جدرانه وكثرة ملحقاته وكثرة الألواح المكتوبة التى عثر عليها فى ديوان سجلاته وهى جزء من أرشيف القصر الملكى ، ويحتوى بعضها على خطابات ووثائق وجاء فيها ذكر أسماء الكثير من المدن فى بلاد الشام . فقد شغل القصر نحو ستة أفدنة ، وتضمن مائتين وستين حجرة عدا مسكن الملك ، وعثر فيه على نحو عشرين ألف (؟) لوحة طينية ، ورصعت بعض جدرانه الرئيسية لوحات مرسومة وملونة أخذت مناظرها بما

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ١١٨ – ١٢٢ ؛ د. أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ص ١١٨ .

أخذ به فن النحت المحلى . فصورت مناظر حربية وأسطورية وقصصية ودينية لم يبق منها للأسف غير أجزاء يسيرة . وأحاطت بها إطارات ضيقة تتألف من شجيرات وكائنات خيرة وأخرى مخيفة . وإطارات زخرفية ذات وحدات لولبية تشبه مثيلاتها فى الفن الأيجى . ولا تزال أكثر مناظر القصر حيوية منها مناظر مواكب القرابين . ومناظر تمثل الملك وهو يتقبل رموز الملكية والسيادة من المعبودة عشتار .(١) وقد تعرضت هذه المدينة للغزو فى القرن الثامن عشر ق. م . من قبل جيوش حمورابى الذى قضى على مارى ودمرها .(٢)

صيدا : التى لا تبعد كثيرا عن المدينة الحديثة وهناك نوع من التداخل بين المدينتين صيدا القديمة والحديثة ولا يفصل بينهما سوى شارع رئيسى ، وعثر فيها عام ١٨٥٦ على تابوت من البازلت الأسود المصنوع فى مصر وهو خاص بالملك اشمونازار الذى عاش فى القرن الخامس ق. م .(٣) ويحمل نصوصا مكتوبة بالفينيقية ، وتتكون من اثنين وعشرين سطرا ، وهى تعدد الأعمال الخيرية التى قام بها الملك لصالح معبودات صيدا .(٤)

بيبلوس : تقع جبيل أى بيبلوس القديمة على بعد ٤٠ كم فى شمال بيروت ، وهى مدينة صغيرة على الشاطئ اللبنانى ، وقد عثر فيها مونتيه فى عام ١٩١٦ على بعض الآثار التى يغلب عليها الطابع المصرى . وعثر فيها أيضا على مقبرة الملك احيرام ملك بيبلوس الذى كان معاصرا للملك رمسيس الثانى . وكانت

---

(١) د. عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول : مصر والعراق ، طبعة ١٩٧٦ ، ص ٤٥٤ ؛ د. أحمد فخرى : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

(٢) Eydox, A la Recherche des Mondes Perdus, p. 66.

(٣) وهذا يؤكد لنا أن التمثال الذى عثرت عليه البعثة الفرنسية فى سوس للملك دارا الأول عام ١٩٧٢ وكان مغطى بنقوش كتبت بالخط الهيروغليفى أنه صنع فى مصر ثم نقل بعدها إلى سوس .

(٤) Eydoux, op. cit., p. 67.

تحتوى على أوانى من المرمر باسم الملك المصرى . وعثر أيضا على تابوت عليه كتابة فينيقية قديمة ، كان لها أهمية خاصة بالنسبة لمعرفة الأبجدية .

أوجاريت : كشف عن رأس الشمرا ، أوجاريت القديمة على بعد ١٠ كم فى شمال الشاطئ السورى ، وهى مدينة ذكرت بكثرة فى لوحات تل العمارنة . وكشف فيها على معبد للمعبود بعل . وعثر فيها على لوحة من القرن الرابع عشر أو الثالث عشر ق. م . وتمثل المعبود حدد معبود العلاميين . وكشفت الحفائر عن قصر لملوك بيبلوس عاشوا فى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر ق. م . وذلك على مساحة قدرها ٦ آلاف متر .[١]

تدمر : تقع شمال بادية الشام إلى الجنوب من الرصافة وإلى الشرق من حمص وتدل خطابات الألواح الطينية التى عثر عليها فى مارى على أن منطقة تدمر كانت آهلة بالسكان حوالى عام ١٧٠ ق. م . ولا نجد وثائق مستمرة عنها بعد ذلك غير أن تدمر أخذت فى الظهور مرة أخرى فى حوالى القرن الأول قبل الميلاد وكان سكانها من القبائل التى استقرت فى المنطقة على طول الطريق التجارى الرئيسى بين شبه الجزيرة العربية وشرق البحر المتوسط .

وعثر على نقش على تمثال يسجل الصلح بين قبيلتين متنازعتين كما أن بعض النقوش تسجل اشتراك السكان فى بعض الطقوس الدينية وقد أقاموا تماثيل لمعبوداتهم المختلفة . وقد تعرضت هذه القبائل لهجمات الآشوريين والكلدانيين كما تعرضت الدويلات الأخرى المتاخمة لها فى الجنوب لتلك الهجمات فمثلا نعلم أن تيجلات بلاصر الثالث تقبل خضوع أميرتين عربيتين . كما أن سنحاريب يذكر أنه توغل فى الصحراء متعقبا العرب . ومن أشهر ملوك تدمر الملكة زنوبيا التى حكمت عام ٢٦٠ ميلادية . وكانت زوجة الملك العربى أذنيه الذى حارب الرومان والفرس دفاعا عن أرضه . وكان إذا خرج للحرب أناب عنه زوجته التى كانت مثله مقاتلة وفارسة تركب الخيل وتقود الجيوش . وكانت إلى جانب ذلك مثقفة تجيد الآرامية

---

(١) Eydoux, op. cit., p. 67.

واللاتينية واليونانية .

وقد نجحت في التصدى لجيوش الرومان وانتصرت فى مقاومتـــها الباســلة ضد الرومان بقيادة الإمبراطور أورليان .

ولكن تدمر سقطت تحت الحكم الرومانى عام ٢٧٣ ميلادية وقضى عليــــها الإمبراطور أورليان ولهذا كان للحضارة التدمرية خصـــائص الحضــارة اليونانيــة الرومانية .(١)

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص ١٥٤ .

تاريخ جنوب بلاد الشام القديم

(تاريخ فلسطين القديم)

البيئة الجغرافية :

يبدأ وادى الأردن من مرتفعات تبلغ حوالى ٥٢٠ مترا فوق سطح البحر ، وبحيرة الحولة على ارتفاع مترين ، وبحيرة طبرية على عمق ٢٠٨ مترا تحت سطح البحر ، بينما يقع البحر الميت على عمق ٣٩٨,٨ مترا تحت سطح البحر . فنرى من ذلك انه شديد الانحدار فمنبعه على ارتفاع حوالى ٩١٤ مترا ، وطول النهر من هذا المنبع إلى المصب حوالى ٢٢٠ كيلو مترا .

ولنهر الأردن ثلاثة موارد للمياه ، أبعدها نهر الحصبانى الذى يقع غرب جبل حرمون بارتفاع ٥٢٠ مترا فوق سطح البحر ، وأما المنبع الثانى فيوجد فى نهر بنياس ، وهو يمر بالقرب من بنياس (قيصرية فيليب) ، التى تقع على ارتفاع ٣٣٠ مترا فوق سطح البحر . أما المورد الثالث فهو نهر اللدان ويغذى هذا النهر نبعان ، على ارتفاع ١٥٤ مترا فوق سطح البحر عند تل القاضى ، وهو المصدر الرئيسى لمياه الأردن . ويلتقى نهر الحصبانى مع نهرى المنبعين السابقين على بعد حوالى ثمانية كيلو مترات من تل القاضى . ويبلغ ارتفاع المياه فى نقطة الالتقاء هذه حوالى ٤٣ مترا فوق سطح البحر . ويتسع النهر فى نقطة الالتقاء إلى ١٤ مترا .

ويجرى نهر الأردن شمال البحر الميت فى أرض خصبة ، خصوصا فى المنطقة المحيطة ببحيرة الحولة ، التى تكثر حولها المستنقعات ولا يزيد طول بحيرة الحولة عن ٥,٨ كيلو مترات ، وأقصى عرض لها يبلغ حوالى ٥,٢ كيلو متر كذلك تمتاز الأرض الواقعة جنوب بحيرة الحولة بخصوبتها . ثم ينخفض مجرى النهر إلى أن يصل بحيرة طبرية التى يبلغ عمق مياهها بين ٥٠ ، ٧٠ مترا ، ولا يزيد عرض تلك البحيرة عن ٩,٥ كيلو متر ، بينما يبلغ طولها حوالى ٢١ كيلو مترا .

وهناك نهيرات أخرى صغيرة تمد الأردن بالمياه شتاء ، وأهمها نهر يسمى شريعة المنادرة ، وسماه التلمود اليرموك ، ثم نهير الجالود ، ونهير آخر يسمى الزرقاء (ويسميه العهد القديم يبوك) ، ثم وادى فرعه ، ووادى الكلت .

أما البحر الميت ، ويسميه العرب بحر لوط ، فهو أكثر الجهات انخفاضا فى تلك المنطقة . ومياهه تحتوى على الكثير من المعادن والأملاح وتشتد فيه الملوحة حتى أنه لا تعيش فيه أسماك .(١)

وشرق الأردن هضبة شديدة الانحدار من الناحية الغربية ، أما من الناحية الشرقية فيتدرج ارتفاعها حتى الصحراء ، أما الناحية الجنوبية فهى عبارة عن سهول . ويوجد فى هذه الهضبة ثلاثة وديان : وادى الكرك ، وادى المجيب ووادى زرقاء معين .

العصور الحجرية القديمة :

عرفت أرض فلسطين كافة العصور الحجرية . ابتداء من العصر الحجرى القديم (الباليوليثى) فقد عثر على بقايا العصر الحجرى القديم الأسفل فى جبل الكرمل وأم قطفة (فى شمال غرب البحر الميت) ، وعثر أيضا على بقايا العصر الحجرى القديم الأوسط فى كهوف جبال الكرمل أيضا . أما العصر الحجرى القديم الأعلى فقد عثر على بقاياه فى كهف بالقرب من بحيرة طبرية . وتجدر الإشارة إلى أن كافة مواقع العصر الحجرى القديم هى كهوف وملاجئ .

أما بالنسبة للعصر الحجرى الوسيط (العصر الميزيوليثى) فيسمى أيضا باسم العصر النطوفي أو الحقبة النطوفية (نسبة إلى وادى النطوف شمال غربى القدس)(٢) ويرى العلماء أن حضارة العصر النطوفى قد ظهرت للوجود فى حوالى

---

(١) د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

(٢) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، الجزء الأول، بيروت ١٩٥٨، ص ١٥ ؛ د. أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ===

١٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد ودامت حتى حوالى ٨٣٠٠ ق. م .

وتمتاز هذه الحضارة بوجود الأدوات الصوانية ذات الأشكال الهندسية أو انتشار الشظايا الصوانية مثل نصل المنجل والمكشط . وأن هذه الصناعة الحجرية ليست إلا جزءا من عدة خصائص حضارية كانت تشمل صناعة الأدوات المنزلية الثقيلة للطحن والجرش والسحق وصناعة الأدوات العظيمة وأحيانا بعض الأعمال الفنية المصنوعة من الحجارة أو العظم . وقطع مختلفة لأدوات الزينة أو الحلى المصنوعة من الحجر أو العظم أو الصوف .

وكان السكان يعيشون فى أكواخ مستديرة ، يوجد إلى جانبها المخازن لحفظ الأغذية وكانوا يعرفون صيد الحيوان والأسماك واستئناس بعض الحيوانات والمناجل البدائية فى الزراعة وعثر لهم على مقابر فردية أو جماعية ومن المحتمل أن الأطفال كانوا يدفنون تحت أرضية المساكن .

ويرى الباحث الأثرى باريوسف أن الحضارة النطوفية هى حضارة فلسطينية بحتة لأن القسم الأكبر من خصائص تلك الحضارة يظهر فى الشواهد الأثرية المكتشفة فى فلسطين ، فى حين أن الشواهد المماثلة التى اكتشفت فى سوريا ولبنان وصحراء النقب تمثل حضارة مختلفة يطلق عليها الكيباريانية . فقد عثر على أدوات هذه الحضارة الأخيرة فى مواقع الطيبة بحوران ، وفى سعيدة وفى جعيتا بلبنان ، وفى وادى الفرات ، يضاف إلى ذلك عثر على أدوات مماثلة فى موقعى أبى هريرة والمريبط فى أواسط الفرات . وبذلك بدأ التاريخ يسجل بعض الأدلة على قيام تطور متشابه للحضارة النطوفية فى كل من فلسطين ومنطقة الفرات فى أعقاب التأثر بالحضارة الكيباريانية .

=== ص ٢٦٧ ؛ وأيضا : Amiet, les Civilisations antiques du Proche Orient, Paris (1971), p. 27; Eydoux, A la Recherche des Mondes perdus, Paris (1967), p. 100 – 10.

وفى البداية كان الإنسان يعيش فى الكهوف ولا يقتصر ذلك على حدود المساحة اللازمة للسكن بل كان يمتد إلى خارج نطاقها ، أى نحو الخلاء ، فهناك ما يسمى بالمسطحات الصغيرة التى أعدها الإنسان فى مواقع أم الزويتينية وطور أبو سيف فى الضفة الغربية ، وجبال الكرمل وجبال الساحل الفلسطينى وموقع الواد وشقبة وهايونيم ووادى الفلاح . وعندما دخل الإنسان فى مرحلة الخروج من الكهف تبين لنا الأمثلة السابقة أن الإنسان فى العصر النطوفى لم يهجر الكهف كلية كما فعل بعدئذ فى الألف الثامنة قبل الميلاد . ولكنه قام بتهيئة هذه المسطحات ، وهذا لا يعنى أنه اصبح يكره مسكنه القديم بقدر ما يعنى أن هذا المسكن لم يعد كافيا لاستيعاب مجموعة كاملة من السكان . وظهر الحصان البرى منذ العصر النطوفى فى فلسطين . وأقدم رسوم معروفة للجمل فى العصور الحجرية كشفت فى كلوة فى الأردن .(١)

كما عثر فى العصر النطوفى على تمثال صغير لغزال من العظم .(٢)

وعثر على <u>بقايا العصر الحجرى الحديث</u> (العصر النيوليثى) فى عدة مواقع تؤرخ ما بين ٨٣٠٠ و ٧٦٠٠ قبل الميلاد . ومن أهم هذه المواقع :

<u>جريكو</u> : التى تقع على بعد ١٠ كم من البحر الميت ، وقد لفتت أنظار علماء الآثار ابتداء من عام ١٩٠٧ - ١٩٠٩ . وترجع هذه الحضارة إلى الألف السابعة ق. م . وكانت هذه المنطقة عبارة عن قرية كبيرة إلى حد ما ، تحتوى على مساكن مستديرة مبنية من الطوب بأساس من الحجارة . وقد عثر أيضا على مبنى كبير له قاعة رئيسية مستطيلة مزودة بحجرات إضافية ربما كان هذا البناء عبارة عن بقايا معبد قديم . وفى النصف الثانى من الألف السابعة ، سكن الموقع مجموعة أخرى من السكان كانوا على جانب من التقدم الحضارى فى العمارة . ولكنهم لم يعرفوا صناعة المعادن أو استخدامها . وكانت أدواتهم جميعا من الحجارة وكانوا

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٢٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .

يمارسون زراعة الحبوب وعثر لهم على رحى من الحجارة لطحن الغلال .

مونهاتا : كشف عنه الفرنسى باروه فى عام ١٩٦٢ - ١٩٦٧ ، وعثر فى هذا الموقع على ثلاث طبقات سكنية ، أقدمها ترجع إلى الألف السابعة ق. م . وكان سكان مونهاتا يعيشون على الصيد ، وكما حدث فى جريكو ، وربما نتيجة لتغير الظروف الطبيعية ، جاء إلى مونهاتا سكان جدد ، كانوا يسكنون الأكواخ ويمارسون الصيد .

وعثر على مواقع أخرى معاصرة ولها نفس الخصائص الحضارية ، على الرغم من اختلاف الأماكن . وأهم تلك المواقع بيدها بالقرب من بتراء وأريحا التى كشفت عنه السيدة كينيون ونسبته إلى بواكير العصر الحجرى الحديث ، وجلجال الذى يقع على بعد ٢٠ كم إلى الشمال من أريحا فى غور الأردن ونقبت فيه السيدة نوى واتضح أن موقع جلجال يرجع إلى بواكير العصر الحجرى الحديث ويحتوى على حوالى ١٢ سكنا مستديرا وبيضاويا وعلى جدران من الحجر . وموقع وادى الفلاح الذى يقع إلى الشمال من جلجال على الساحل عثر فيه على ما يقل عن ١٤ سكنا وكانت أرضية المسكن مغطاة بملاط من الطين وفيها حفرة موقد محددة بالحجارة . وكان بالمسكن أجران حجرية . وأبو سالم التى تقع فى وسط النقب ويعود تاريخ هذا الموقع إلى نهاية الألف التاسعة ق. م. ويمتد حتى حوالى ٨٠٠٠ ق. م . وكانت أرضية المساكن بحالة أفضل من حالة بقية المساكن ومقعرة تقعرا خفيفا وتحتوى على حفرة للنار (موقد) قريبة من الوسط وبجانبها جرن حجرى كبير . وموقع المريبط التى تقع على وسط الفرات ، وظهر فى هذا الموقع عدة مساكن مستديرة صغيرة الحجم ، مشيدة فى باطن الأرض أو قائمة فوق سطحه . وكان الحائط الذى يحيط بدائرة المسكن مشيدا بالطين وأساسه معززا بصف من الحجارة المسطحة المرصوفة رصفا واقفا على السطح . وكان يجرى تحسين أرضية المسكن عدة مرات قبل البدء بعملية بناء المسكن وذلك بتغطيتها بطبقة من الحجارة الصغيرة ، ثم تبليطها بقطع الحجارة المسطحة وأخيرا تدعيمها بطبقة من الملاط الطينى . وأخيرا تل الشيخ حسن الذى يقع على بعد ٢٠ كم إلى الشمال من المريبط فى الفرات . وكان هذا الموقع هو أول موقع أثرى يزودنا بنمط بنيان مربع تبين

بشكل قاطع أنه صومعة أو مستودع وليس مسكنا . وهى صوامع أو مستودعات مؤونة كانت ملحقة بالمساكن الفعلية .

عصر المعادن :

تطورت حضارة العصر الحجرى الحديث فى فلسطين ببطء وظهر استخدام المعادن فى حوالى الألف الرابعة ق. م . ولكن ما عثر عليه كان نادرا جدا ، واكتشفت مواقع المعادن فى النقب وفى منطقة البحر الميت وأول هذه المواقع هى :

تليلات غسول :

فى شمال البحر الميت . وكان أهلها يعرفون استخدام النحاس وفن البناء أيضا فقد عثر على ثلاث قرى ، كان أصحابها يسكنون مساكن مستطيلة الشكل أساسها من كتل الحجارة وجدرانها من الطوب اللبن . وكانوا يسقفونها بأعواد النباتات ويضعون من فوقها الطين . وكانت بعض هذه المساكن مزينا بألوان مختلفة وعناصر مختلفة ، فمثلا بنجمة كبيرة أو حيوان أو مناظر دينية . وعثر فى المستوى الأعلى الذى يطلق عليه الطبقة الرابعة على فأسين من النحاس ، وكان السكان يعرفون الزراعة فقد عثر على بعض الحبوب والتمر والزيتون محفوظة فيما يشبه الأجران . ومما نلاحظه فى تليلات غسول أنهم كانوا يدفنون الأطفال داخل أوانى فخارية تحت أرضية المساكن . كما نلاحظ أيضا أن عادة حرق الجثث كانت معروفة بينهم . وعثر بالقرب من تليلات غسول إلى الشرق ، على جبانة عثر فيها على بقايا عظام محفوظة داخل صناديق من الحجارة .

وكانت عادة دفن الأطفال فى الأوانى عادة منتشرة فى مناطق أخرى فى سوريا فى أوجاريت وتل جزر (جزر) جنوب شرقى الرملة فى فلسطين . وعلى ذكر جزر وآثارها يمكننا أن نضيف أنهم كانوا يضعون مع الموتى أوانى فخارية فيها بعض الأطعمة ، مما يدل على وجود إيمان بالبعث .

وقام الفرنسى باروه بعمل حفائر فى منطقة جنوب النقب ، وعثر على مواقع مماثلة لتليلات غسول . وكان سكان القرى فى تلك المناطق يعيشون على تربية الحيوان وخاصة الماعز والخراف وكانوا يمارسون الزراعة وكانت كل مجموعة من السكان متخصصة فى حرفة معينة مثل صناعة الفخار والنسيج وإعداد البازلت وصناعة الأدوات من العظام والعاج . وكان العاج يجلب من سوريا حيث كانت تعيش الفيلة هناك حتى الألف الأولى ق. م. وقد عثر على نفس الحضارة فى مواقع أخرى جنوب فلسطين فى هدره وآزور بالقرب من تل آبيب ، حيث عثر فى هذا الموقع الأخير على كهف يحتوى على مئات من التوابيت المصنوعة من الفخار والتى كانت توضع فيها عظام الموتى بعناية كبيرة .

كما كان هناك حضارة مماثلة فى شمال فلسطين ، عاشت نفس مراحل التطور . وكانت تشمل المواقع الآتية : سهل أسدرلون ، مجدو فى المستوى رقم ٢٠ – ١٩ وشرق بيسان فى المستوى ١٧ – ١٦ ، أفولة ، تل فرعه بالقرب من نابلس . وتمتاز الحضارات فى هذه المواقع السابقة بوجود الأثاث فى المقابر المنحوتة فى الصخر والتى كانت تحتوى على العديد من الجثث وكان الفخار محل عناية ومتباين الأشكال ونادر التلوين ، وكان هناك نوعان : الأحمر والرمادى وينتمى هذا النوع الأخير إلى الحضارة التى أطلق عليها اسم " عصر البرونز القديم ".[١]

وهناك فترة لا نعلم عنها أى شئ فى تاريخ فلسطين القديم من نهاية الألف الرابعة حتى منتصف الألف الثانية ق. م . ولكن المصادر المصرية تحدثنا عما كان يحدث على الحدود الشرقية من أحداث وكان لها صلة بالشعوب والقبائل فى هذه المناطق قبل استقرار الفلسطينيين والعبرانيين فيها .

---

(١) Contenau, les Civilisations Anciennes du Proche Orient, Paris (1963), p. 95; Amiet, op. cit., p. 29 – 32.

الأحداث التي أثرت في تاريخ جنوب بلاد الشام في منتصف الألف الثالثة والثانية ق.م. :

استقرار الشعبين الفلسطيني والعبراني فيها مع السكان الأصليين :

إن أقدم اسم أطلق على سوريا وفلسطين هو " كنعان " نسبة إلى الكنعانيين . وكانت فلسطين حسب اشعار العهد القديم ، تعرف بكنعان أو بلاد كنعان أو أرض كنعان ويرى البعض أن المقصود بلفظ كنعان مدينة غزة الفلسطينية . وكان يسكنها منذ منتصف الألف الثالثة ق. م . سكان البلاد الأصليين من كنعانيين وآموريين . ويرى بعض المؤرخين ان أول من سكن أرض كنعان (فلسطين) هم الكنعانيون (الفينيقيون) منذ عام ٢٥٠٠ ق. م . الذين استقروا في شمال فلسطين على ساحل البحر المتوسط ابتداء من حيفا . ثم دخلتها هجرة صغيرة من الشمال من أور بقيادة سيدنا إبراهيم ، وفي الوقت الذي كان فيه الآراميون يوطدون أركان ملكهم في داخل سوريا دخل الفلسطينيون أرض كنعان أي دخلت شعوب البلستي (الفلسطينيون) أرض كنعان في القرن الثاني عشر ق. م . ومن بعدهم العبرانيين الذين قدموا من مصر وأخذوا في هذه الفترة يتسللون ويتغلغلون في بلاد كنعان . ويرى البعض أن سيدنا موسى وجماعته هاجروا إلى أرض كنعان في عام ١١٧٩ ق. م . ؟ ، وأقام يشوع بن نون – بعد سيدنا موسى – كيانا بسبب ضعف وانقسام الكنعانيين والشعب البلستي . وفي عام ٩٣١ ق. م . انقسم العبرانيون إلى : السامرة في الشمال ، وقضى الآشوريون عليها بقيادة سرجون الثاني عام ٧٢٠ ق. م. ويهوذا في الجنوب وعاصمتها أورشليم ، وقضى البابليون الكلدانيون عليها بقيادة نابوخذ نصر الثاني عام ٥٨٦ ق. م . كل ذلك والسكان الأصليون لم يغادروا البلاد ولم يتركوا الأرض . وهكذا تجزأت بلاد كنعان بين أكبر شعبين دخلوا أرضها : الفلسطينيون والعبرانيين وأما ما تبقى من سكان البلاد الأصليين من كنعانيين وآموريين الذين لم يطردوا فقد اندمجوا بهذين الشعبين الجديدين . وقد دخل في هذا المزيج البشري عناصر أخرى من آراميين وحوريين وقبائل أخرى .

الفلسطينيون :

فى العام الثامن من حكم رمسيس الثالث (١١٩٨ ق. م) كان على الملك أن يواجه خطر هجوم الشعوب الهندوأوروبية وشعوب البحر الذين جاءوا عن طريق البر من الشرق وعن طريق البحر من الشمال . وكان من بين تلك الشعوب . الشردانة ، الدانو ، والبلست الذين اشتهروا فيما بعد ، والتككر ، ويتضح من أسمائها أنها شعوب جاءت من جنوب ايطاليا وصقلية وجزر بحر إيجة . وقد نجح رمسيس الثالث فى إبعادهم عن الحدود الشرقية والشمالية لمصر وعاشت القبائل الهندوأوروبية بعد ذلك بطريقة غير منظمة ولم تحاول غزو مصر بالقوة مرة أخرى . وبدأت عناصر منهم فى الاستقرار فى معظم بلدان الشرق القديم .

ونرى على الجدار الجنوبى لصرح الفناء الأول فى معبد مدينة هابو مناظر تمثل حروب رمسيس الثالث ضد شعوب البحر والليبيين . ونرى بين صفوف الجنود المصريين جنود مرتزقة من سردينيا بخوذاتهم ذات القرون وعناصر فلسطينية بقلنسواتها ذات الريش وكانوا يحاربون مع الجنود المصريين .[١]

ولم يتبق من جماعات شعوب البحر غير فريقين ، هما : جماعات التككر وجماعات البرستى أو البلستى . ونزل التككر موانى جنوب سوريا ، ونزل البلستى جنوب المناطق الساحلية ، وخلعوا اسمهم عليها . وكانت المنطقة الساحلية التى استقر فيها الفلسطينيون تمتد من غزة إلى يافا . ومن هناك أخذوا بالتوسع شرقا ومما ساعد الفلسطينيين على انتزاع المبادرة العسكرية والتفوق الحربى اسلحتهم . لأنهم كانوا على معرفة تامة بمعدن الحديد . وكانوا يتقنون صهره ويستخدمونه فى صنع اسلحة هجومية ودفاعية واحتكروا هذه الصناعة قبل العبرانيين بزمن طويل . واحتفظ التاريخ باسمهم للأرض التى نزلوها وهو اسم " فلسطين " ، وإن لم يرجع ذلك إلى أنهم أصبحوا غالبية أهلها أو أنهم بسطوا نفوذهم على كل أهلها ، وإنما يرجع إلى

---

(١) د. سيد توفيق : تاريخ العمارة فى مصر القديمة : الأقصر ، دار النهضة العربية ، طبعة ١٩٩٠ ، ص ٢٢١ .

أنهم كانوا من أواخر الهجرات التى دخلتها ، وإن ترديد التوراة لأسمهم كان له الأثـر فى تسمية التاريخ لهذه الأرض باسمهم .

ويسأل اولبرايت عن اصل الفلسطينيين ، فذكر أن الكتاب المقدس يرجعـهم إلى كافتور (تكتب بالأكدية كابتارا أى كريت) . وينسبهم إلـى المنطقـة الجنوبيـة الغربية لأسيا الصغرى . وجاء فى قصة ون آمون من نهاية الأسرة العشرين أسـماء ثلاثة رؤساء من الفلسطينيين هم : واركاتير ، ووارت ، وماكامار . ويذكر أن أصل هذه الأسماء يرجع إلى جنوب غرب الأناضول . ويذكر أيضا أنه كان يوجد تحـالف بين الأمير الفلسطينى واركاتير وصيدا . وإن الفلسطينيين فـى هـذه الفـترة كـانوا يسيطرون على الجزء الجنوبى الشرقى للبحـر المتوسـط . وأقـاموا فيـه مراكـز استراتيجية وخاصة فى سهل اسدرلون ووادى الأردن (بيت شان وسوكوث) .[١]

وقد اندمج هؤلاء البلستيون (الفلسطينيون) مع سكان البلاد الكنعانيين شـيئا فشيئا وأصبحوا قومية واحدة وكان حظ إخوانهم الثككر أقل من حظهم فى الاسـتقرار إذا اختفى اسمهم من التاريخ فى أعقاب القرن العاشر ق. م .[٢] وأسسوا فى فلسـطين خمس مدن رئيسية : غزة وعسقلان واشدود وعقرون وجت ، ويقـع أغلبـها علـى

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ . ويذكر خالد العـك : تاريخ القدس العربى القديم ، ص ٣٦ ، أن الفلسطينيين جاءوا مـن اقريطـش " كريت " وجزر بحر إيجة وجاء اسم فلسطين فى سـياق سـيرة اسـحق فـى الإصحاح ٢٦ ، ويذكر الأخير أنهم جاءوا من جزر اليونان أو سـواحلها فـى القرن الثالث عشر ق. م. ، راجع : عزه دروزه : تاريخ بنـى إسـرائيل مـن أسفارهم ، ص ١٦ .

(٢) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٣٧ - ٣٣٩ ؛ د. أبـو المحاسـن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ٢٨٤ - ٢٩١؛ د. عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم : مصر والعراق ، الطبعة الثالثـة ، ١٩٨٢، ص ٢٤٦ ؛ وأيضا : Contenau, op. cit., p. 108.

ساحل البحر المتوسط ، وطبقت فيها نظام حكم ممالك المدن على أنها كانت تشكل اتحادا قويا ومنظما تحت إشراف مدينة أشدود . وبلغت قوة الفلسطينيين أقصاها في النصف الثاني للقرن الحادي عشر ق. م .(١)

الهجرات والعناصر الأخرى من العبرانيين :

شهدت بوادى الشام والعراق تحركات سامية جديدة منذ أواسط الألف الثانية قبل الميلاد ، واتجهت هذه التحركات بأطماعها ناحية الهلال الخصيب منذ القرن الرابع عشر . ووجهت تجمعاتها القبلية حينذاك في ناحية وسط الفرات شرقا وفي أواسط سوريا وشرقها وغربها . واشارت النصوص الاشورية والمصرية إلى قبائلها في مجموعها باسم الأخلامو واسم السوتو .

وذكرت نصوص الملك الآشوري اريك – دين ابلو انتصاره على الفريقين في أواخر القرن الرابع عشر أو أوائل القرن الثالث عشر ق. م . وكانت قبائلهم قد تعدت نهر الفرات حينذاك ، ويبدو أنها حملت معها إلى العراق بعض العبرانيين المستضعفين ، إذا ظهرت في لوحات بوزى القريبة من آشور أسماء عبرية الصبغة مثل هامانا وإيليا ، وتضمن بعضها عقود استرقاق بينت الطريقة التي تسلل العبرانيون بها إلى أرض العراق واستقروا فيها . ولم يقنع المهاجرون الساميون طويلا بالحياة القبلية ولم يكتفوا بالتسلل إلى مواطن الحضارة والخصب والعمران وإنما أخذوا يتجمعون شيئا فشيئا في إمارات ، وعرفتهم النصوص الآشورية حينذاك باسم الآراميين إلى جانب اسمي الأخلامو والسوتو القديمين . ولعلهم طمعوا في شغل ما شغله الميتانيون من قبل في شمال شرق سوريا وغرب الفرات .(٢)

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٨١ .

(٢) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٩٢ ؛ د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٥٠٣ .

وترى التوراة أن العبرانيين جماعات سامية جاءوا من شبه الجزيرة العربية وجاءوا مع الآراميين على ثلاث مراحل : الأولى بعد أن ذهبوا إلى الصحارى القريبة من شمال بلاد النهربن فى القرن الثامن عشر ق. م . والثانية فى القرن الرابع عشر ق. م . والثالثة كانت فى أواخر القرن الثالث عشر ق. م . وقد هاجرت جماعة منهم (؟) إلى مصر ثم خرجوا منها بقيادة سيدنا موسى .[١]

وتذكر الأساطير العبرانية " إن جدهم الأكبر سيدنا إبراهيم جاء من مدينة أور عن طريق حران واستقر مؤقتا بالقرب من حبرون (الخليل) وأن حفيده يعقوب (ابن اسحق) عاش لمدة سنوات فى آرام فدان ثم انتقل إلى مصر وحينما وقع الاختيار على اسحق ليكون صاحب الشأن بينهم غير اسمه إلى إسرائيل (؟) كما غير أخوه اسمه من عيسو إلى أدوم وسمي ورثته بالأدوميين " .[٢] " ومن أبناء يعقوب كان سيدنا يوسف الذى جاء إلى مصر وتربى فى بلاط العزيز ووصل إلى مكانة مرموقة فى مصر . وبعد أن عاش أحفاد يعقوب عدة أجيال فى مصر خرجوا منها وكان يقودهم سيدنا موسى " . هذا ما تذكره أساطيرهم .

" وعندما خرج بنو إسرائيل من مصر مع سيدنا موسى توجهوا إلى مدين (جنوب سيناء) " ويذكر بعض المؤلفين ان دخول بنى إسرائيل مصر كان عام ١٣٥١ ق. م . أى فى نهاية حكم اخناتون (١٣٥٤ ق. م) ؟ وان الخروج منها كان عام ١٢٢١ ق. م . ؟ وإن كان هذا التاريخ ليس مؤكدا تماما ، لأنه قابل للزيادة أو النقصان فى عدد سنواته وأن فترة إقامة بنى إسرائيل فى مصر كانت ١٣٠ عام .[٣]

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٩٠ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٧٣ – ٣٧٤ .

(٢) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٨٤ – ٢٨٥ ؛ عزه دروزه : المرجع السابق ، ص ١٣٨ – ١٧٤ .

(٣) محمد قاسم : التناقض فى تواريخ وأحداث التوراة من آدم حتى سبى بابل ، مطابع ستار برنس ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٩٩ .

وهناك تزوج سيدنا موسى من ابنة شيخ مدين الذى كان يدين بالوحدانية وأن بداية التيه ودوران بنى إسرائيل حول جبل سعير كان عام ١٢٢١ ق.م . إلى عام ١١٨١ أى ما يعادل ٤٠ سنة . واتخذت هذه الجماعات مكانا لها فيما بعد فى جنوب شرق الأردن استعدادا لدخول أرض فلسطين وكان عددهم يقدر بحوالى ستة أو سبعة آلاف شخص وعندما دخلوا أرض فلسطين انتقل سيدنا موسى فى نهاية التيه عام ١١٨١ ق.م . وتولى قيادة بنى إسرائيل بعده يشوع بن نون الذى بدأ الحرب للاستيلاء على أرض فلسطين لتقيم فيها جماعة إسرائيل وأن عمر سيدنا موسى عند الخروج من مصر كان ٨٠ سنة وعند انتقاله كان عمره ١٢٠ سنة .[1] ووجدوا البلاد آهلة بالسكان الأصليين من جماعات فينبقية وجماعات غير سامية ، فكان يوجد بفلسطين أيضا ، بنو اسحاق وهم أسباط يعقوب (الذى يذكر اسمه خطأ بإسرائيل (؟)) الذين لم يهاجروا إلى مصر ، ثم قدمت إلى أرض فلسطين بعد ذلك جماعات غير سامية منهم الفلسطينيين ، الذى اندمجوا مع بقية السكان الأصليين . فكان على بنى إسرائيل أن يتأقلموا فى هذه البلاد ويكسبوا ود السكان الأصليين وعندما فشلوا فى ذلك لجأوا إلى غزو البلاد . فحاربوا أهل البلاد واستولوا على بعض المدن الكنعانية المحصنة فى فلسطين وأحرقوا وقتلوا أهلها حتى الأطفال ولكن بعض المدن الأخرى قاومتهم مثل جزر وأورشليم وبيت شان ، ولم تسقط هذه الأخيرة فى أيديهم إلا فى حوالى عام ١٠٠٠ ق.م . أو بعد ذلك بقليل . وبدأ بنو إسرائيل بالاستيلاء على أرض فلسطين فاستولوا على أريحا أولا ثم على عكا واستسلمت جبعون وهناك شعوب فى غرب الأردن لم يستطع بنو إسرائيل طردها من أرض فلسطين منهم اليبوسيين والفلسطينيين أصحاب المدن الخمسة : غزة وعسقلان وأشدود وعقرون وجت ، والكنعانيين الساكنيين فى جزر ، وبقية المناطق من عكا وصيدا وحلب وبيت شمس . وفى شرق الأردن لم يطردوا الجشوريين والمعكيين .

---

(١) محمد قاسم : المرجع السابق ، ص ١٤٠ ، ١٨٢ .

وبعد أن استقروا فى المناطق التى وصلوا غليها بدأوا يختلطون بالسكان .[١]
قسم بنو إسرائيل المناطق التى سيطروا عليها فى فلسطين بين إحدى عشرة قبيلة من القبائل الاثنى عشر التى تضمهم منها قبيلة كهنوتية التى تفرغت للشئون الدينية . وهذا ما يعرف بعصر القضاة . وكان هؤلاء القضاة من الرؤساء المحليين الذين كانوا ذوو نشاط متعدد فى وسط القبائل ، ونجحوا فى الحصول على امتيازات صغيرة فى كل مكان ، ما لبثت أن اصبحت فى النهاية حقوقا شرعية لهم . وهم الذين قادوا قبائلهم فى حروبهم ضد السكان الأصليين واشتهر فيهم الكثيرين منهم شمشون الجبار الذى روت عنه الأساطير العبرانية الشئ الكثير فيما يتعلق بحروبه مع سكان البلاد الصليين من الفلسطينيين الذين كانوا من أعداء العبرانيين . وينقسم تاريخ اليهود فى فلسطين إلى :[٢]

- (**يشوع بن نون**) (خليفة سيدنا موسى) .
- **بنو إسرائيل** فى أرض فلسطين .
- **قضاة بنى إسرائيل** : ويبلغ عددهم ١٥ ، أولهم عثينيل بن قناز وآخرهم صموئيل .

---

(١) توزع الأسباط فى ثلاث شعب تشمل ثلاثة اقاليم : أحدها يقع فى أقصى الجنوب وكان من نصيب يهوذا ، والثانى يقع شرق الأردن (وكان يسمى قديما جلعاد)، وغالبا أنه جبل جلعود الواقع بين نهرى اليرموك ويبول ، والثالث يقع وسط أراضى فلسطين . وكان يسكن القسم الساحلى الشمالى الفينيقيون بينما أقام الفلسطينيون فى القسم الجنوبى من هذا الساحل . ومما ساعد على تمكين بنى إسرائيل من أرض فلسطين هو تقلص نفوذ قطبى الحضارة القديمة : مصر وبلاد النهرين عن المشاركة فى أحداث المنطقة فى هذه الفترة ، راجع : د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٨٠ .

(٢) محمد قاسم : التناقض فى تواريخ وأحداث التوراة من آدم حتى سبى بابل ، مطابع ستار برنس ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٢٨٣ ـ ٤٤٢ .

- **فترة الملوك** : شاؤول ، داود ، مملكة داود ، سليمان الحكيم ، انقسام مملكة سليمان :

أ - **ملوك يهوذا** (٢٠ ملك) :

رحبعام بن سليمان ، بيا ، آسيا ، يهوشافاط ، يهورام ، أخزيا ، عثليات بنت عمرى ، يهوآش ، امصيا ، عزيا ، يوثام ، آحاز ، حزقيا ، منسى ، آمون ، يوشيا ، يهوآحاز ، يهوياقيم ، يهوياكين ، صدقيا .

ب - **ملوك إسرائيل** (١٨ ملك) :

يربعام بنى ناباط ، ناداب بن يربعام ، بعشا بن أخيا ، أيله بن العشا ، زمرى ، عمرى ، آخاب بن عمرى ، أخزيا بن آخاب ، يهورام بن آخاب ، ياهو بن شافاط ، يهوآحاز بن ياهو ، يهوآش بن يهوآحاز ، زكريا بن يربعام ، شلوم بن يابيش ، مناحيم بن جادى ، فقحيا بن مناحيم ، فقح بن رمليا ، هوشع بن أيله .

ويعطى بعض المؤرخين كتواريخ لهذه الأحداث :

- دخول بنى إسرائيل مصر ١٣٥١ ق. م .(١)

- خروج بنى إسرائيل من مصر ١٢٢١ ق. م .(٢)

- فترة التيه ١٢١٩ إلى ١١٨١ ق. م .(٣) (أو ١١٧٩ ق. م) .

- من نهاية فترة التيه إلى بداية فترة القضاء ١١٨١ (أو ١١٧٩ ق. م) إلى ١٠٦١ ق. م .(٤)

---

(١) محمد قاسم : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٢ - ٢٠٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٩ - ٣٥٧ .

من بداية فترة الملوك إلى سقوط القدس ١٠٦١ إلى ٥٨٦ ق. م

وفي رأينا أن هذه التواريخ مبالغ فيها لأنها مستوحاة جميعها من التوراة المحرفة وأن الفترة التي تشمل ملوك يهوذا وملوك إسرائيل هي حوالي ٣٣٧ عاما ، من ٩٢٣ إلى ٥٨٦ ق. م .

ومن أهم المدن التي استوطنها الفلسطينيون كانت غزة وعسقلان وأشدود وعقرون وجت واحتفظت بأسمائها السامية تحت حكمهم .[٢]

الصراع بين الفلسطينيين والعبرانيين :

اتحدت الخمس مدن الفلسطينية الكبرى تحت زعامة أشدود ، وفي حوالي عام ١٠٥٠ ق. م . بدأوا في محاربة العبرانيين وانتصروا عليهم واستولوا منهم على تابوت العهد ونقلوه إلى أشدود .[٣]

خطط العبرانيون بعد ذلك لمشروع إعلان ملك عليهم حتى تكتسب أعمالهم قوة أكثر وتزداد ترابطا أسوة بجيرانهم الذين كان يحكمهم ملك وطلبوا من زعيمهم الديني صموئيل أن يعين عليهم ملكا فاختار شاؤول ولكنه كان ضعيفا ومسنا ، وازداد نفوذ الفلسطينيين في عهده . وعادت الحرب بين الفلسطينيين والعبرانيين ، ووقعت معركة في جبل جيلبوا انتصر فيها الفلسطينيون وقتل ثلاثة من أبناء شاؤول وأصيب

---

(١) محمد قاسم : المرجع السابق ، ص ٣٥٧ - ٤٢٦ .

(٢) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٩٦ - ١٩٧ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٨١ .

(٣) وكما ذكرنا من قبل أنه مما ساعد على تفوق الفلسطينيون بصورة خاصة على أعدائهم هو تفوق سلاحهم الذي كان مصدره معرفتهم لصهر واستخدام الحديد في صناعة أسلحة الدفاع والهجوم . واستثمر الفلسطينيون معرفتهم في صهر الحديد واستخدامه مما أدى إلى احتكارهم لصناعته ، راجع : د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٩٨ .

هو نفسه بجراح .

جاء بعد شاؤول الملك داود ويعد المؤسس الحقيقى للمملكة العبرانية (حوالى ١٠٠٤ - ٩٦٣ ق. م) والذى نجح فى الحد من سيادة الفلسطينيين وتمكن من توسيع مملكته واستولى بعد هجوم خاطف على أورشليم وأسس فيها عاصمة مملكته .[١] وأصبح للملك داود عاصمة إدارية فى أورشليم ، ونظم جيشا قويا ، وفرض على الشعوب المنهزمة نوعا من الجزية التى كانت تعد من مصادر الدولة . وينسبون إلى داود انه فكر فى بناء معبد (؟) كبير أطلق عليه اسم قوس ارتباط يهو (؟) . وكون صداقة مع الفينيقيين الذين كانوا يحمونه من الفلسطينيين ، وكان من بين الموالين له عدد لا باس به من المدن وذلك بالإضافة إلى آدوم ، موآب . وعقد تحالف مع دمشق التى كان يحكمها الملك رزون الأول ولكنها ما لبثت أن خرجت عن هذا التحالف .

تولى بعد داود ابنه سليمان فى حوالى عام ٩٦٣ - ٩٢٣ ق. م .[٢] والذى استطاع الوصول إلى العرش بعد صراع عنيف مع أخوته . وكانت تربطه بمصر علاقات طيبة ، وعندما أرسى سليمان عوامل الاستقرار فى الداخل لجأ إلى العمل على رخاء مملكته بفضل علاقاته التجارية ، وبمساعدة أسطول احيرام الأول ملك صور ، استطاع أن يجلب من أوفير منتجات الهند والشرق الأدنى ونسبوا إلى سليمان انه تقبل مساعدة المهندسين المعماريين من صور . لكى يشيدوا بالأخشاب التى جلبها من لبنان ، بيتا للرب وبيتا له فى أورشليم . وكان طول بيت الرب ٦٠ ذراعا وعرضه ٢٠ ذراعا وسمكه ٣٠ ذراعا . وكان هناك رواق أمام هيكل البيت كان طوله عشرين ذراعا وعرضه عشرة أذرع . وقد بنى بيت الرب بحجارة صحيحة مقتلعة ولم يسمح فى البيت عند بنائه منحت ولا معول ولا أداة من حديد وشيد البيت كله بالحجارة وخشب الأرز والسرو والزيتون . وغشى البيت كله من الداخل

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٨٤ - ٣٩٦ .

(٢) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

بالذهب . واستغرق بناؤه سبع سنوات[١] كما شرع سيدنا سليمان فى بناء بيتا له ، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسون ذراعا وسمكه ثلاثون ذراعا واستغرق بناؤه ثلاث عشر سنة .[٢] فقد جاء فى سفر الملوك الأول " أن سليمان بنى بيت الرب فى أورشليم ٤٨٠ سنة بعد خروج بنى إسرائيل من مصر " .[٣] وقد تزوج سليمان من ابنة الملك بسوسينس الثانى آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين . وحينما استولى الملك المصرى على حصن جزر أعطاه مهرا لابنته زوجة سليمان .

ولكنه أثار غضب شعبه عليه فى نهاية حياته ، وذلك نظرا للنفقات الباهظة من جانبه للصرف منها على بناء قصره والمعبد (؟) ، وبدأت تزول من الآن فترة المجد للملكة العبرانية ، التى ازدهرت فى عهد داود وسليمان .

دويلتا إسرائيل ويهوذا :

مملكة إسرائيل :

قبل وفاته نصب سليمان ولده رحبعام ملكا (حوالى عام ٩٢٣ ق.م) وعندما طلب منه ممثلو القبائل العبرانية الاثنى عشر أن يخفف عنهم عبء الضرائب التى فرضها عليهم والده سليمان ، رفض بشدة ، ولهذا لم تعترف به القبائل ملكا واختارت القبائل العشرة فى الشمال ، يربعام بدلا منه ، والذى استغل فى الوقت نفسه فرصة عطف ملك مصر عليه ، وأعلن نفسه ملكا وعرفت مملكته باسم إسرائيل التى كان يحدها من الغرب الشاطئ ومن الشرق جبال الكرمل حتى يافا .

---

(١) محمد قاسم : التناقض فى تواريخ أحداث التوراة من آدم حتى سبى بابل ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٤١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٨ .

(٣) د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٣٧٦ ؛ المؤلف نفسه : مصر الخالدة ، ص ٥٧٥ ، ٨٤٨ .

تولى الحكم من بعد يربعام ، عمرى (يدل اسمه على أنه من أصل عربى) وهو الذى شيد مدينة السامرة واتخذها عاصمته الجديدة وبنى فيها قصرا وكان ذلك فى عام ٨٨٥ - ٨٧٤ ق. م .[١] جاء من بعده ولده أحاب (حوالى ٨٧٤ - ٨٥٢ ق. م) الذى وسع فى قصر أبيه وزخرفه ، وعرف هذا القصر باسم بيت العاج . وكانت علاقة احاب بجيرانه وديه فقد تحالف مع مملكة دمشق وتزوج من ابنة ملك صور وصيدا .

وبعد فترة قام أحد الضباط واسمه ياهو بالثورة على الملك فى عام ٨٤٢ ق. م . وجعل عبادة يهوه العبادة الوحيدة فى مملكة إسرائيل . ولم يكن هذا الملك موفقا فى سياسته الخارجية حيث خضع لشالمانصر الثالث ملك اشور وقدم الجزية له . تجددت قوة مملكة إسرائيل فى عهد يربعام الثانى حوالى ٧٨٥ - ٧٤٥ ق. م . وهو ثالث ملك من سلالة ياهو حيث أمكنها أن توسع حدودهما الشمالية على حسب الآراميين .

ظلت مملكة إسرائيل تنعم بالهدوء إلى أن اعتلى العرش فى اشور الملك تيجلات بلاصر الثالث الذى تدخل فى شئون سوريا وحولها إلى مقاطعة آشورية ، وبعد ذلك فرض الجزية على مملكة إسرائيل وبعد بضعة سنوات رفض هوشع ملك إسرائيل دفع الجزنية فهاجمه شالمانصر الخامس وريث تيجلات بلاصر الثالث وحاصر السامرة ثلاث سنوات ولكنها لم تسقط إلا فى يد خليفته سرجون الثانى الذى نجح فى نهاية الأمر فى الاستيلاء على السامرة فى عام ٧٢٢ ق. م . وهو الذى سبى بنى إسرائيل وكان عددهم ٢٧٠٨٠ ونقلهم إلى نينوى وتلاشت بذلك مملكة إسرائيل إلى الأبد عام ٧٢٠ ق. م .[٢] ولم يكتف سرجون الثانى وخلفاؤه بذلك بل نقلوا قبائل من بابل وعيلام وسوريا والجزيرة العربية لتحل محل العبرانيين وأسكنوهم السامرة وما حولها فامتزج هؤلاء السكان واتحدت معتقداتهم الدينية مع عبادة يهوه وأصبح

---

(١) خالد العك : تاريخ القدس العربى القديم ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٢ ، ٧٧ - ٧٨ .

يطلق على الجميع اسم السامريين .(١)

مملكة يهوذا :

اعتلى العرش فيها عدد من الملوك مساو لعدد ملـــوك إســرائيل (أى ١٨ ملكا) إلا أن هذه المملكة استمرت مدة أطول من المدة التى عاشتها مملكة إســـرائيل بنحو قرن وثلث من الزمان . وكانت حدود هذه المملكة في الغرب فلســـطين وفـى الشرق البحر الميت وفى الجنوب قادش . واحتفظت بأورشليم كعاصمـــة .(٢) تولـى العرش رحبعام ، وفي عهده حاول الملك ششنق الأول أن يغزو مملكة يـــهوذا ولـم يتمكن رحبعام من صد هذا الغزو ونجح ششنق فى دخول أورشليم وضربها ونـــهب ممتلكاتها . ومن بعدها أصبحت مملكة يهوذا عرضة للهجمات المباشرة مــن آشــور وعندما اعتلى العرش ملكها حزقيا (٧٢١ – ٦٦٣ ق. م) استجاب لتشجيع مصـــر للقيام بثورة ضد الآشوريين وتحدى آشور بالتحالف مع المدن الفلسطينية وغيرها مــن المدن المجاورة ، فتوالت على مملكة يهوذا حملات سرجون الثانى وخلفه ســنحاريب الذى حاصر أورشليم . ولكنها لم تسقط فى يده ، ومع ذلك فقد أجبرت يهوذا على دفع الجزية بعد أن خضعت كلها فيما عدا أورشليم .

نهاية مملكة يهوذا :

عندما حل الضعف بآشور واستقلت مصر عن آشور وطردت الآشـــوريين من على أرضها حاولت مملكة يهوذا أن تعيد وحدتها مع مملكة إسرائيل ، وبعـــد أن سقطت نينوى على يد الدولة البابلية الجديدة ، سعت مصر إلى التدخـل فـى شئون

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٢٠٩ – ٢١٤ .
(٢) أصل الاسم ياروشليم يعنى دع شالم يؤسس وكان شالم معبـــود الســلام عنـد الكنعانيين ويظهر فى اسمى ابشالوم وسليمان ، راجع : فيليب حتى : المرجـــع السابق ، ص ١٧٣ حاشية (٣) . وعرفت أورشليم فـــى المصـــادر المصريـــة باسمين رو– وشلم – م أو ورو – سا – ليم ، راجـــع فيمـــا بعـــد ، ص ٢٤٧ حاشية (٣) ، ٢٤٩ حاشية (١) .

سوريا وفلسطين . وقام الملك نكاو بإرسال حملة إلى هناك فقاومه الملك يوشع ملك يهوذا وبعد ذلك قتل فى مجدو .

وبعد هذه الأحداث ترددت مملكة يهوذا بين الخضوع لبابل وبين التحالف مع مصر . واختار ملكها يواقيم التحالف مع مصر . وكان جزاؤه أن دخل نابوخذ نصر الثانى أورشليم عام ٦٠٠ ق. م . وقيده بالسلاسل ليحمله معه إلى بابل ولكنه قضى نحبه . وتولى الحكم من بعده ولده الذى لم يمكث سوى ثلاث شهور حاول فيها الثورة على بابل فجاء نابوخذ نصر الثانى إلى أورشليم وسبى الملك ونساءه وموظفيه وسبعة آلاف من الجنود وألف من الصناع المهرة ونقلهم إلى بابل وعين صدقيا ملكا على يهوذا . وظل هذا الأخير يتظاهر بالولاء لبابل بضعة سنين ثم حاول الاستقلال فجاءت الجيوش البابلية مرة أخرى وضربت أورشليم وهرب الملك ، ولكنه قبض عليه أثناء هربه وقتل أبناؤه أمامه ثم سلمت عيناه وحمل إلى بابل عام ٥٨٦ ق. م . وسبى أيضا عظماء المدينة وعدد كبير من أهلها بلغ عددهم خمسين ألفا تقريبا وكان هذا هو السبى الكبير . ولما أصبحت الإمبراطورية الفارسية تتحكم فى أقطار الشرق القديم وتولى العرش قورش عام ٥٣٩ - ٥٢٩ ق. م . عامل العبرانيين المسبيين فى بابل معاملة حسنة وأعاد من رغب منهم إلى دياره فى أورشليم .[1]

دولة الأنباط فى بادية جنوب الشام :

كانت دولة الأنباط أكثر اتصالا ببادية جنوب الشام منها بشبه الجزيرة العربية ، وقامت عاصمتها فى البتراء فى شرق الأردن جنوب البحر الميت على بعد ٣٠٠ كم من عمان ، وكانت تعرف باسم رقيم أو سلع الذى يعنى الصخرة (التى تفصل بين واديين) وترجم الإغريق هذا الاسم الأخير إلى بترا ومنها جاءت التسمية البتراء .

وترك الأنباط آثار ضخمة فى مدائن صالح ومغاير شعيب. كان الأنباط

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٦٣ ، ٧٩ - ٨٢ ، ١١٧ - ١١٨ .

قبائل عربية الأصل ، انتشرت بطونها بين جنوب بادية الشام ، وبين شمال غرب شبه الجزيرة العربية .[١] (سوف نتحدث عن هذه الدولة وأعمال ملوكها بشيء من التفصيل في الجزء الثالث من هذا المؤلف عند تناول تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم ، ص ١٧٤ – ١٨٥) .

أقدم العلاقات بين شعوب جنوب بلاد الشام القديمة ومصر :

كان على ملوك مصر القديمة منذ بداية الأسرة الأولى (٢٩٢٠ ق.م) أن يتنبهوا لما يحدث على حدودهم الشرقية . فنعرف أن ثالث ملوك الأسرة الأولى جر قد حارب جماعة من الآسيويين كما جاء على حوليات حجر بالرمو .[٢] ودن خامس ملوك الأسرة قام بتأديب بدو سيناء .[٣]

وفي الأسرة الثالثة نجد أن الملك جسر (٢٦٤٩ ق.م) أرسل حملة إلى شبه جزيرة سيناء لاستخراج الأحجار الكريمة من محاجرها وكذلك النحاس وذكر اسمه على أحد الصخور هناك .[٤]

وعثر على اسم سانخت (٢٦١١ ق.م) ثالث ملوك الأسرة مكتوبا إلى جوار جسر فى شبه جزيرة سيناء .[٥] وفى الأسرة الرابعة نجد أن أول ملوكها سنفرو (٢٥٧٥ ق.م) تابع سياسة استغلال مناجم النحاس فى صحراء سيناء وأرسل بعثات التعدين إلى سيناء .[٦] وترك لنا رجاله ذكرى ذلك على صخور وادى

---

(١) د. جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ، الجزء الثالث ، ص ٩ – ١٥ .
(٢) د. رمضان السيد : تاريخ مصر القديمة . الجزء الأول سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية ، مشروع المائة كتاب ، هيئة الآثار المصرية ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ١٧٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٧٧ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٩١ .
(٥) المرجع السابق ، ص ١٩٤ .
(٦) المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

المغارة .

ومن الأسرة السادسة عثر على نقش للملك ببيى الأول (٢٢٩٤ ق.م) فى وادى المغارة وصور وهو يضرب البدو فى سيناء .[١] وقام بعدة حملات ضد الآسيويين . وفى نقوش أحد كبار موظفيه ونى التى تركها لنا على لوحة كانت قائمة فى مقبرته فى أبيدوس نعلم أن الملك أرسله خمس مرات على رأس جيش مكون من آلاف الرجال منها أربع حملات عن طريق البحر وفى المرة الخامسة اضطر إلى مهاجمة العدو من الأمام وأنزل جنوده وتركز فى نقطة ما فى فلسطين ربما جبال الكرمل وهاجم الآسيويين وانتصر عليهم .[٢]

وفى نهاية الأسرة السادسة قام البدو فى شرق الدلتا بعدة غارات وتسللوا عبر الحدود الشرقية .

وفى الأسرة الحادية عشرة قام الملك منتوحتب الثانى (٢٠٤٣ ق.م) بمحاربة البدو فى شرق الدلتا .[٣] وفى الأسرة الثانية عشرة شيد الملك امنمحات الأول (١٩٩١ ق.م) حائطا كبيرا بطول حدود الصحراء الشرقية لكى يمنع القبائل من دخول مصر ، سمى هذا الحائط بحائط الأمير .[٤] ونعلم من قصة سنوهى الذى كان أحد أعضاء العائلة الملكية فى ذلك العهد والذى هرب من مصر إلى سوريا العليا .

ونعلم أنه اختبأ لمدة أيام فى الصحراء ، حتى وصل إلى حائط الأمير . وهناك حاول أن يتجنب حراس الحدود الشرقية ، وتغلغل فى الصحراء جنوب فلسطين . وكان على وشك الموت ظمأ ، وانجده رئيس الصحراء الذى سبق له أن جاء إلى مصر وتعرف عليه واستقبله بكرم ، ومن هناك بدأ يتنقل من قبيلة إلى

---

(١) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

أخرى حتى وصل أخيرا إلى سوريا العليا .(١) وطلب منه حاكم البلاد أن يبقى معه ورفع من قدره وزوجه من كبرى بناته وأعطاه جزءا من ممتلكاته . ومكث هناك فترة طويلة من الزمن . وتنتهى القصة بأن ترك سنوهى أولاده فى رتنو ووزع ثروته بينهم . وعلى الرغم من المكانة التى وصل إليها إلا أنه لم ينسى أنه سيصبح بائسا لو دفن بعيدا عن أرض مصر وطبقا للطقوس الدينية المصرية .

وفى عهد الملك سنوسرت الثانى (١٨٩٧ ق.م) ، عاملت مصر رؤساء القبائل البدو التى تسكن الصحراء الشرقية باحترام ، وذلك لضمان صداقتهم ومساعدتهم . وفى إحدى مقابر بنى حسن وهى مقبرة خنوم حتب الثانى (رقم ٣) الذى كان حاكما لإقليم الوعل ورئيسا للصحراء الشرقية . نرى تمثيل وصول أحد أمراء الصحراء فى السنة السادسة من هذا الحكم ، وكان يسمى ابشاى الذى كان رئيسا لقبيلة من الساميين فى جنوب فلسطين وقد مثل ابشاى ومعه ستة وثلاثين شخصا من قبيلته ، رجالا ونساءا وأطفال يرتدون جميعا الملابس الفاخرة ذات الألوان المتعددة ، وكان الرجال يطلقون لحيتهم ومسلحين بالأقواس والسهام وكان للنساء شعر طويل أسود ، وكن يلبسن النعل وليس الصندل كما فى مصر . وكان خنوم حتب الثانى فى استقبال هذا الوفد ، فهل جاءوا إلى إقليم الوعل بمصر الوسطى لغرض الزيارة ، أو بغرض التبادل التجارى وخاصة وأنهم جاءوا يحملون منتجات بلادهم ، وكانوا يحملون معهم كهدايا الكحل للعيون وزوجا من الماعز الجبلى .(٢) ونعلم أن سكان مجدو قد أحسنوا استقبال المبعوث المصرى تحوتى حتب الذى أصبح فيما بعد حاكما لإقليم الأرنب فى مصر الوسطى ، وكان يشغل وظيفة المشرف على الثيران ، وربما ذهب إلى هناك للتفاوض على شراء قطيع من الثيران من مجدو . ويبدو أن العدوى كانت قد انتشرت بين الثيران المصرية وذهب إلى هناك لتعويض النقص أو المفقود . وتأكيدا لذلك نجد أنه مثل فى مقبرته بعض القطيع الذى وصل إلى مصر .(٣)

---

(١) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .
(٣) Montet, Egypte et Syrie, p. 34 – 35.

وفى عهد الملك سنوسرت الثالث (١٨٧٨ ق. م) ، أرسل أحد قواده سبك خو على رأس حملة إلى فلسطين ووصل فيها إلى مدينة سشم ومن نتائج هذه الحملة أنها زادت من سيطرة مصر على فلسطين وسوريا[١] ولدينا من الفترة التى تقع بين عام ١٨٥٠ و ١٧٣٠ ق. م . ما يسمى بنصوص اللعنة[٢] التى جاء فيها ذكر العديد من رؤساء المدن الفلسطينية والسورية منها رو - وشلم - م[٣] ، عسقلان ، عشتاروت ، اجرون ، بيت شمس ، بيت شان ، سشم ، هاتزور ، يافا ، اكر (عكا) ، سكمم زبلون ، سيمون . زبول هاداو ، وابو راهان وأسماء أخرى من الصعب التعرف على أماكنها الحالية .[٤] وفى نهاية الأسرة الرابعة عشرة (١٦٠٣ ق. م) حدث غزو الهكسوس لمصر وكانوا من عناصر اسيوية وسامية دفعوا أمامهم القبائل التى كانت تعيش فى جنوب فلسطين ودخلوا مصر لأول مرة .[٥]

---

(١) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

(٢) هذا هو تأريخ بوزنر، Posener, LAI, p. 69 ؛ وأيضا د. عبد الحميد زايد: مصر الخالدة ، ص ٤٥٦ .

(٣) هذه هى القراءة لاسم أورشنيم كما ورد فى هذه النصوص (راجع : Ebach, LA 111, p. 267) أما د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٥٦ فقد قرأه : أوشاميم ود. عبد القادر خليل : علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية عصر الدولة الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ١٩٨١ ، ص ١٦٧ (٤٤) فقد قرأه : أوشامم وهذه هى المرة الأولى التى يذكر فيها هذا الاسم فى النصوص المصرية ، راجع د. أحمد فخرى : مصر الفرعونية ، طبعة ١٩٨١ ، ص ٢٣٥ .

(٤) د. عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، ص ٣٨٨ ، ٤٥٥ - ٤٥٦ ؛ د. عبد القادر القادر خليل : علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية عصر الدولة الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٨١، ص ١٦٤ - ١٦٨ .الذى يذكر لنا اسم حوالى ٦٣ مدينة فى فلسطين وسوريا .

(٥) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ١٠ .

وكان أول من ربط بين العبرانيين وتاريخ مصر القديم هو المؤرخ اليهودى يوسيفوس الذى تحدث عن فترة الهكسوس ودخولهم مصر مدعيا ان العبرانيين دخلوا معهم كفئة تابعة لهم في نهاية الأسرة الثالثة عشرة (١٦٢٥ ق. م) .(١)

وفى الأسرة الثامنة عشرة يقص علينا أحمس بن ابانا أحد قواد الملك أحمس (١٥٧٦ ق. م) ، كيف قام الملك بمتابعة الهكسوس بعد طردهم من مصر حتى شاروهن وهى مدينة تقع فى جنوب غرب فلسطين ، والتى سقطت بعد ثلاث سنوات .(٢)

وكان ملوك هذه الأسرة أكثر نشاطا فى الصحراء الشرقية وفلسطين وسوريا وذلك لتأمين الحدود الشرقية وما وراءها وتكوين مناطق نفوذ للحكم المصرى . فقد عثر على لوحة للملك أمنحتب الأول (١٥٥١ ق. م) فى سيناء مخصصة للقرابين فى معبد سرابية الخادم تدل على وجود معاونيه فى شبه جزيرة سيناء .(٣) ونعلم أن تحوتمس الأول (١٥٣٠ ق. م) قام بحملة فى آسيا وخرج الجيش المصرى من شرق الدلتا وعبر الصحراء ، ووصل إلى جنوب فلسطين ، ثم إتجه شمالا بامتداد الشاطئ حتى حلب .(٤) وقام تحوتمس الثاني (١٥٢٠ ق. م) بحملة ضد قبائل البدو فى الصحراء الشرقية .(٥) وقام الملك تحوتمس الثالث (١٥٠٤ ق. م) أثناء حملته الرابعة عشرة بمحاربة البدو فى شمال شرق مصر .(٦)

---

(١) د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٣٧٦ ؛ د. عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم : مصر والعراق ، ص ١٩٥ .

(٢) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٦٣ – ٦٤ .

(٦) د. رمضان السيد : مصر القديمة ، الجزء الثانى ، طبعة هيئة الآثار المصرية ، ١٩٩٣ ، ص ٨٢ – ٨٣ .

وتكشف خطابات تل العمارنة من عهد أمنحتب الرابع (١٣٧٢ ق. م) أنه من بين الموالين لمصر كان عبد خيبا حاكم أورشليم[1] الذى كتب إلى اخناتون ستة خطابات وديا حاكم عسقلان ، وبريديا حاكم مجدو[2] وكان من بين المعادين لابايا حاكم سشم وولده تاجى وزوج ابنته مكى ايلى .

فكتب عبد خيبا فى إحدى رسائله مستنجدا بالملك :

" لعل الملك يرعى البلاد ويرسل القوات ، لأنه إذا لم تأت القوات هذا العام ، فإن كل أراضى الملك سيدى . سوف تضيع " ويضيف فى نفس الخطاب ملحوظة موجهة إلى سكرتير اخناتون قائلا :

" اشرح هذا إلى الملك بوضوح : البلاد كلها عرضة للفناء " .[3] وكتب بريديا حاكم مجدو (التى قامت على اطلالها بلدة تل المستسلم الحالية) قائلا : " حقا اننى أحرس مجدو مدينة الملك مولاى ليلا ونهارا ولكن عداوة قوم ساجاز شديدة ، ليتعطف الملك مولاى بنظرة على هذه الأرض " .[4]

---

(١) كتب هذا الحاكم ستة خطابات (وهى أرقام : 290 – EA 285) وترجم الكاتب المصرى اسم أورشليم من لغة هذه الخطابات التى كتبت بالمسمارية (الأكدية) إلى المصرية بـ : Urusalim ورو – سا – ليم راجع :
Knudtzon, Die El Amarna Tafeln, Aallen, 1964,p. 856 – 877.
وهذه هى المرة الثانية التى يذكر فيها هذا الاسم فى النصوص المصرية بعد ما ذكر فيما يسمى بنصوص اللعنة ، راجع فيما سبق ، ص ٢٤٢ (١) ، ٢٤٧ (١)

(٢) د. نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول، الكتاب الثانى، مصر ، ص ١٧٤ – ١٨٤ ؛ د. عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، ص ٥٩٠ ، ٦٣٨ – ٦٣٩ .

(٣) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٠٢ – ١٠٤ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٢٥٨ – ٢٦٠ ؛ د. توفيق سليمان : دراسات فى حضارات غرب آسيا القديمة ، ص ٢٧٠ – ٢٧٧ .

(٤) د. عبد القادر خليل : علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية عصر الدولة الحديثة ، ص ٢١٦ .

وكان ياشدانا الذى يحكم فى تاعا ناخ فى نفس المأزق فبعث برسالة إلى اخناتون فأرسل الملك قوة للقبض على لابايا (حاكم سشم ، والذى كان يناهض النفوذ المصرى فى فلسطين) ولكنه فر بسبب وجود خوته من بينهم .[١] وبلغ من صفاقة لابايا أنه كتب إلى اخناتون قائلا : " إلى الملك مولاى وشمسى يقول لابايا خادمك والتراب الذى تطأ عليه : أجثو لدى قدميك سبعا وسبعا (وبعد أن تتصل من كل ما نسب إليه وادعى أنه وقف موقف المدافع) ختم رسالته بقوله : " وهل إذا طلب الملك امرأتى أستطيع أن أمنعها ؟ وإذا كتب إلى أن أضرب قلبك بخنجر ومت ، فهل أخالف أمر مولاى (؟) " .[٢]

وفى عصر الأسرة التاسعة عشرة فى عصر الملك سيتي الأول (١٣١٢ ق. م) حاول العبرانيون إثارة الشغب ودفعوا ببدو الصحراء الشرقية الشاسو إلى حدود مصر الشرقية واستولوا على الحصون والحاميات المصرية التى تمتد بطول الطريق البرى من الحدود المصرية إلى فلسطين . فخرج إليهم سيتي الأول فى السنة الأولى من حكمه على رأس جيش كبير وقضى على هذه الثورة واستعاد الحاميات وتغلغل فى فلسطين ثم تقدم حتى مدينة كنعان وهى مدينة غزة الفلسطينية ثم قام بهزيمة الشاسو الثوار .[٣] ووصل بعد ذلك إلى لبنان . وعندما تولى رمسيس الثاني (١٢٩٠ ق. م) وكان عليه أن يواجه الحيثيين فى معركة قادش نجد أنه مر بفلسطين .[٤]

وفى هذه الأسرة ربط بعض المؤرخين بين الجهود التى بذلت فى تشييد مدينة بر رعمسيس فى شرق الدلتا (فى عهد رمسيس الثانى) وبين ما روته وتحدثت به كثيرا قصص الخروج فى التوراة من تسخير المسئول – فرعون

---

(١) د. عبد القادر خليل : المرجع السابق ، ص ٢١٦ – ٢١٧ .

(٢) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢١٨ – ٢١٩ .

(٣) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

(٤) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

للعبرانيين (أو اليهود) فى إنشاء مدينة ضخمة فى أرض جوشن فى شرق الدلتا .[١] وهو ربط لم تؤكده الوثائق الأثرية المصرية حتى الآن .

ومن أهم الوثائق التى تحدثنا عن بعض المدن فى فلسطين فى عصر هـــذه الأسرة ، هى اللوحة التى اغتصبها مرنبتاح (١٢٣٥ ق. م) من أمنحتـــب الثـــالث فتذكر لنا نصوص هذه اللوحة القبائل التى قام الملك بمعاقبتها بعد حملته الشهيرة على الحدود الغربية . فيذكر النص بعض المدن مثل كنعان (غزة) وعسقلان ، وجـــزر ، وينعام وعناصر اليسيريارو قضى عليها ولم يصبح لـــها ذريـــة وأصبحـــت خـــارو (فلسطين وسوريا) أرملة لمصر واتحدت كل البلاد فى سلام لقد قضى علـــى كـــل قاطع طريق مما يدل على أن عناصر اليسيريارو (أى التى تعيش جنوب فلســطين) كانت تقوم بأعمال السلب والنهب على الحدود الشرقية لمصر .[٢]

تحدثنا فى كتابنا تاريخ مصر القديم فى الفصل الرابع عشر بعنـــوان : هـــل هناك صلة بين أحداث حملة مرنبتاح على فلسطين ووقـــائع الخـــروج (ص ١٧٣ – ١٨٥) . وتحدثنا عما يسمى خطأ بلوحة إسرائيل وأقـــوال المؤرخيـــن والآثـــاريين عنها .[٣] وأنه يجب تسميتها بـــ " اللوحة ذات النصين " أو " لوحة نصـــى امنحتـــب الثالث ومرنبتاح " وبينا أن قراءة كلمة إسرائيل التى وردت الســـطر ٢٧ مـــن هـــذه اللوحة ، هى قراءة غير صحيحة ويجب قراءتها اليسيريارو والمقصود بهذه التســـميه فى رأينا هم سكان أو قبائل سهل يزرئيل أوجزريل (الذى جاء ذكره فى التـــوراة – Jezreel وهو مرج بنى عامر من الناحية الشرقية الشمالية من جبال الكرمل (والذى يمتد من حيفا غربا إلى وادى الأردن الغور) (ص ١٧٧) وما يعزز هذا الرأى هـــو

---

(١) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٧ – ١٧٨ .

(٣) د. رمضان السيد : تاريخ مصر القديم ، الجزء الثانى سلسلة الثقافـــة الأثريـــة والتاريخية مشروع المائة كتاب ، هيئة الآثار المصرية ، ١٩٩٣ ، ص ١٧٥ – ١٨٥ .

ما جاء فى نص مؤرخ من العام الثامن من حكم رمسيس الثانى جـاء فيـه التعبـير الجغرافى يسررى الذى يطلق على المنطقة جنوبى فينيقيا أو جنوب بلاد الشـام (ص ١٨١) ومن ناحية كان هناك كلمة أخرى ظهرت فى عصر الدولة الحديثة وهـى isr والجمع isyrw بمعنى " نباتات عشبية تصنع منها السلال " (راجع ,Wb I, 132 20) فهل يسيريارو تعنى المنتمون إلى النباتات العشبية أو أصحاب الكلأ ؟

وعلى ذلك يمكن تفسير الاسم اليسيريارو على أنهم أهل العوز أو القفـر أى البدو الذين تعوزهم خصوبة الأرض وغناها ويعيشون حياة الرعى وفى حالة تجـوال مستمرة . وكانوا يعيشون جنوب فلسطين فى الصحراء الجرداء فى هـــذه الفـترة . ولكن منذ اكتشاف هذه اللوحة فى عام ١٨٩٦ بواسطة الأثرى الإنجليزى بترى وحتى آخر ما ورد عنها حديثا فى كتاب سوروزيان الذى صدر عـــام ١٩٨٧ .[١] نجـد أن علماء الدراسات المصرية القديمة يعتمدون على القراءة القديمة الغير صحيحة ومـن ثم يبنون عليها نظريات لا سند لها بالنسبة للخروج .[٢]

وإنه مما يحز فى النفس أن بعض نظريات بعض علماء الدراسات المصرية القديمة والتفسيرات المغرضة تلقى قبولا من بعضنا فيتبناها غير مـدرك خطورتـها والسبب فى ذلك واضح أننا لا نقرأ النصوص الأصلية قراءة صحيحـة وسـليمة لا تحتمل التأويل . لأن نص هذه اللوحة ليس له أية صلـة علـى الإطـلاق بـأحداث الخروج . ولذلك لأننا نعلم أن الظروف التى مهدت للخروج وأسبابه معروفـة فـى آيات القرآن الكريم ، وكذلك المعجزة التى وقعت خلال الخروج . فكلمة خــروج أو طرد لم ترد فى نص اللوحة بالنسبة لجماعة اليسيريارو . ولم يذكر النص أيضا أيـة معجزة . وفى الواقع أن تسجيل أحداث الخروج بمـا فيـها مـن وقـائع وتفـاصيل

---

(١) Sourouzian, in : " le Monde de la Bible 41 ", Paris, Nov.- Dec. 1985, p. 35 – 38 Fig. 38; Saleh – Sourouzian, The Egyptian Museum, Cairo 1987, no. 212.

(٢) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ١٩٣ – ١٩٤ ؛ د. عبـد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٣٧٦ – ٣٧٩ ؛ د. أحمد فخرى : مصـر الفرعونية ، الطبعة الخامسة ١٩٨١ ، ص ٣٥٨ حاشية (١) .

ومعجزات يحتاج إلى مئات الأسطر وربما إلى أكثر من لوحة . ولـــهذا فـلا يجـب الاعتماد على فقرة قصيرة من جملة واحدة ، وعلى قراءة لاسم مشكوك فيه لــلإدلاء بآراء ونظريات عن هذا الحدث الرباني التاريخي الهام ألا وهو الخروج .

قامت علاقات بين ملوك مصر ومملكة داود في الأسرة الحادية والعشـــرين (١٠٨٥ – ٩٥٠ ق. م) وكانت علاقات عادية في مجملها وفي ظاهرها . ولكنها لم تمنع من التجاء الأمير هداد (أو حداد) حاكم آدوم في جنوب فلسطين إلى مصر بعد أن خرب داود وقائده يعقوب إمارته وسفك دماء آلاف من رجالها . وزوجـه الملـك المصري (مجهول الاسم) من أخت زوجته ، وأكرمه حتى عاد إلى إمارته بعد وفاة داود وأصبح من ألد خصوم ولده سليمان .

وعندما اتسع سليمان بملكه واشتهر أمره ، مال إلى محالفـــة المصرييـن ، وهنا استحب الملك المصري (الذي قد يكون سا آمون أو بسوسينس الثاني عام ٩٨٤ ق. م) أن يظهر لسليمان قدرة مصر ويبين له أن تحالفها معه هو تحالف الأقويـاء ، فبعث ببعض جيشه إلى جنوب أرض فلسطين حيث استقرت جماعات مـن شـعوب البحر منافسي سليمان ، وسيطرت قواته على مدينة جزر التي عجز العبرانيون عـن الاستيلاء عليها عدة مرات ، ثم جعلها بائنة لابنته التي رضي أن يزوجها لسـليمان . وفي ذلك ما يعني ضمنا أن مصر ظلت حتى في عهود ضعفها أقوى مرات من ملـك سليمان الذي تحدثت به الأمثال .(١)

وفي عصر الأسرة الثانية والعشرين (٩٥٠ – ٨١٧ ق. م) فتحت مصــر أبوابها أمام الفارين من وجه سليمان كما فعلت من قبل في عصر أبيه . فآوت يربعـام منافس سليمان ، وكان من نسل أفرايم ووعده أحد الأنبياء بالملك ولكن سـليمان أراد قتله . ولما توفي سليمان وتحققت كلمة الرب على اليهود بتمزيق وحدتهم ، وأيـد أول من تسموا باسم ششنق من ملوك الأسرة الثانية والعشرين يربعام منافس سليمان علـى الاستقلال بحكم عشرة من أسباط إسرائيل بحيث لم يتبق لرحبعام بن سـليمان غـير

---

(١) د. عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم : مصر والعراق ، ص ٢٦٥ .

سبط يهوذا ، وحده ثم استعرض ششنق هذا قوة بلده مع ابن سليمان ، وخرج بجيشــه ودمر عاصمته أورشليم وغنم كنوز داود وسليمان ، وكان منـــها ٢٠٠ درع و ٣٠٠ ترس من الذهب المطروق ، أو كما روت أسفار التوراة انه أخذ خزائن بيت الـــرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شئ ، وأخذ جميع أتراس الذهب التى صنعها ســليمان ، فصنع رحبعام عوضا أتراس نحاس وترك ششنق الأول عـــام ٩٥٠ ق. م . بعــض آثاره فى مجدو وغيرها من مدن فلسطين .(١)

وفى الأسرة الرابعة والعشرين : حاول أول ملوكـــها تــف نخــت (٧٢٤ ق. م) إشعال الثورة فى فلسطين ضد الاشوريين . وسعى إلى التحالف مع هوشـــع ملك السامرة عاصمة العبرانيين الشمالية ، فقبلت تحالفه ، وترتب على مساعدتها لـــه أن صمدت عاصمته ثلاث سنوات أمام حصار الآشوريين لها خلال عهد شـــالمانصر الخامس . ولكن العاصمة ما لبثت أن انهارت بعد ولاية سرجون الثانى ، الذى فتحــها فى العام الأول من حكمة (عام ٧٢١ ق. م) . وقضى على استقلالها وشرد آلافا من أهلها .

واصل الملك باك ان رن اف (٧١٦ ق. م) خليفة تف نخت سياسة أبيـــه فى تأييد من فلسطين فى المحافظة على استقلالها ، فأيد هانو حاكم غزة الذى كان قــد لجأ إليه قبل سنوات وساعده على تكوين حلف يواجه به التوسع الاشورى وكلف بــاك ان ون اف قائده فى رفح الذى كان يحمل اسم سيا ايب بمعاونة حاكم غزة ولكنه لـــم يستطع لقوة آشور وأعوانها ، فانهزم حاكم غزة .(٢)

---

(١) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٠ – ٢٩١ .

وفى الأسرة الخامسة والعشرين ، حاول ثانى ملوكها شـلباكا (٧١٢ ق.م) التدخل فى شئون فلسطين ، فقرر إرسال حملة إلى هناك لكى يحد من تقدم الآشوريين ولم يقودها بنفسه بل اسند القيادة إلى ابن أخيه طهرقا . وأنذر الآشوريون العـبرانيين بعدم الاعتماد على ملك مصر لأنه كان ضعيفا ، وبالفعل أعلن اسحاق فى يهوذا أنـه لا يمكن الاعتماد على مساندة مصر وقرر ملك يهوذا حزقيا أن يهاجم آشـور وقـام بتكوين تحالف ضد ملك آشور سنحاريب . ولكن نجد أن هذا الأخير بعـد أن وطـد دعائم حكمه بحزم وقوة بعد مرور خمس سنوات قرر أن يعـاقب فلسـطين ، وبـدأ سنحاريب حملته لإخضاع مدن الساحل وقضى على الثوار فـى فلسـطين وحـاصر حزقيا فى أورشليم ولكنه لم يقض عليها ولكنه أصابها بشىء من الدمار . وقد اضطر حزقيا إلى دفع تعويض كبير وتنازل عن جزء كبير من خزائنه فى مقابل أن يحتفـظ بعرشه ويقوم بدفع الجزية .(١)

وفى عصر الأسرة السادسة والعشرين ، تدخلت مصر لمعاونة ملوك يـهوذا ضد الآشوريين ، كما ظلت تستقبل اللاتذين بها من أهل الشام ومن اليهود الفارين من وجه البابليين الكلدانيين .

وعندما تولى نكاو الثانى (٦٠٩ ق.م) مقاليد الحكم فـى مصـر ، كـان يشوع ملكا على أورشليم ومواليا لآشور ، ولكنه كان ينشد شرا من وراء هذا الـولاء لأنه كان يرغب فى تحطيم الإمبراطورية الآشورية . وقد حاول جاهدا أن يحد مـن تقدم جيش نكاو الذى أرسله لمعاونة ملك يهوذا ضد آشور . وهاجم يشوع المصريين فى مجدو ، ولكن الجيش المصرى هزم يشوع وقتل فى المعركة وتقدم جيـش نكـاو حتى نهر الفرات . وبعدها بحوالى ثلاثة أشهر تولى العرش فى يهوذا ملـك جديـد يحمل اسم يواقيم . وكان اليهود قد اختاروا عقب وفاة بوسياس ، ملكا هـو جواشـاز ولكن نكاو عزله عن العرش وأخذه كأسير إلى مصر حيث توفى بها . وحـدث فـى عهد الملك بسماتيك الثانى (٥٩٤ – ٥٨٨ ق.م) أن قامت ثـورة فـى الجنـوب ،

---

(١) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ن ص ٢٩٤ .

فأرسل الملك حملة اشترك فيها مع المصريين مرتزقة من الإغريق والكاريين ومن الصحراء الغربية وربما من اليهود المتمصرين أيضا .[١]

وفى عهد الملك ابريس (٥٨٨ ق. م) عاد البابليون الكلدانيون إلى التوسع العسكرى فى فلسطين وقاموا بإخماد ثورة قامت فى أورشليم عام ٥٨٨ ق. م . فحاول الملك تأليب المدن الفلسطينية على الثورة ضد النفوذ البابلى الكلدانى ، مما أدى بجيوش نابوخذ نصر إلى مهاجمة ومحاصرة أورشليم للمرة الثانية وهنا ساعدها الملك ابريس على مقاومة الحصار فى عام ٥٨٧ ق. م . وانقسم أهلها حينذاك فريقين : فريقا تزعمه صدقيا وشكر لمصر معونتها وتكلم باسمه النبى حنانيا فدعا إلى كسر النير البابلى باسم الرب ، وفريقا آخر تزعمه أرميا وأخذ يتنبأ بأن ملك مصر سوف يعود إلى بلاده وأن البابليين سوف يستولون على أورشليم ويحرقونها وأنه يجب وضع أعناق الأمة تحت نير ملك بابل الكلدانى بأمر الرب أيضا .

وتحقق تشاؤم أرميا ، ودمر البابليون الكلدانيون أورشليم فى عام ٥٨٦ ق. م . وشاءت الأقدار أن ياسروا صدقيا صديق مصر وأتباعه وعينوا جواليا مكانه ، بينما لاذ بالفرار أرميا بعد أن ضيق البابليون عليه وعلى قومه الخناق .

وترك نابوخذ نصر أورشليم ودق الحصار على أسوار صور . فصمدت له ثلاثة عشر عاما ، وعاونها المصريون من البحر ، مما اثار حفيظته على مصر وجعله يصمم على الانتقام المباشر منها .[٢]

وعندما استولى الفرس على مصر (٥٢٥ – ٤٠٤ ق. م) وكونوا الأسرة السابعة والعشرين ، وكان يحكمها والى من قبل الفرس وكان يعاونه عدد من كبار الموظفين وجباة الضرائب من الفرس والبابليين والسوريين واليهود ، يعملون لصالحه ، إلى جانب قلة من كبار المصريين ترك بعضهم عدة مقابر فى سقارة ذات

---

(١) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٣٠٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٦ .

ابار عميقة ونقوش تشبه نقوش الأسرة السادسة والعشرين . وكان من الطبيعي ن يجعل الولاة الفرس لكتابتهم المسمارية نصيبا فى تدوين أوامرهم إلى جانب الكتابة المصرية ، واستعملوا معها اللغة الآرامية مع أتباعهم الساميين واليهود .[١]

كان من نتيجة إيواء مصر لليهود منذ اضطهاد الاشوريين لهم ، أن أصبحت لهم جالية كبيرة فى مصر ، سمحت لها السلطات المصرية بمزاولة نشاطها التجارى وحرية العقيدة . وأصبح أبناء هذه الجالية أعوانا للفرس ضد مصالح مصر فى عصور الأسرة الثامنة والعشرين (٤٠٤ – ٣٩٨ ق.م) .

وعثر فى جزيرة الفنتين فى أسوان ، على عدة وثائق آرامية يرجع أغلبها إلى أواسط القرن الخامس ق. م . ولقيت اهتماما واسعا من الباحثين فى الساميات ومن الباحثين اليهود لترجمتها والتعقيب عليها . فكان من أفراد هذه الجالية اليهودية التى استقرت فى الفنتين عسكريين ومدنيين . وارجع بعض العلماء تاريخ وجود هذه الجالية فى أسوان إلى أحداث التاريخ اليهودى فى فلسطين خلال القرنين السابع والسادس ق. م. فقد أدت مراحل النزاع بين يهود إسرائيل وبين يهود يهوذا ، ثم بينهم جميعا وبين الاشوريين ، إلى نزوح جماعات من هؤلاء وهؤلاء إلى أماكن بعيدة يلتمسون الأمن فيها . ولعل مصر الغنية القريبة من فلسطين كانت الملجأ المغرى للبعض منهم وقد سبق وأن وقفت مصر مرارا سند لليهود ضد الاشوريين ، حينما تدخلت فى عهد تف نخت لنجدة السامرة ضد جيش شالمانصر الخامس ثم فى عهد شاباكا وطهرقا لنجدة أورشليم ضد جيش سنحاريب .[٢]

وعندما دعا يوشيا فى عام ٦٣١ ق.م . إلى التغيير الدينى الذى تضمنه سفر تثنيه الاشتراع ، نزح بعض معارضيه وبعض الكهنة الذين فقدوا امتيازات معابدهم ، إلى مصر ، وزادت دواعى الهرب من يهوذا حينما اشتد حصار البابليين الكلدانيين حولها ، وقد عاونتها مصر فى عهد الملك ابريس على مقاومة هذا

---

(١) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٣١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣١٧ .

الحصار . وعندما تمكن البابليون الكلدانيون منها ودمروها ارتحل بعض أهلها إلى مصر ووسعتهم رحابة صدرها ، كما استقبلت بعدهم نبيهم أرميا وأعوانه حينما لاذوا بها .[١]

فضل اليهود أن يعيشوا فى أقصى جنوب مصر وفى حامية أسوان ليشعروا بنوع من الاستقرار والاطمئنان بعيدا عن العاصمة وما فيها ، وربما أيضا رغبة من ملوك الأسرة السادسة والعشرين فى جعل المرتزقة الأجانب فى أقصى الحدود .

وتزايد تواجد اليهود فى معسكرات أسوان على الحدود الجنوبية خلال عصر الاحتلال الفارسى ، فكانوا من أدواته وأقرب إلى الإخلاص له وعيونا له على الوطنيين المصريين . وكان الملك قورش هو الذى سمح لليهود بالعودة من المنفى إلى أورشليم ، ويبدو أن عناصر يهودية هى التى ساعدت الحملة الفارسية على مصر فى عهد الملك قمبيز .

واستمرت سياسة تقرب اليهود من الفرس فى مصر فى عهود خلفاء قمبيز بحيث اعتبروا بأنهم احتفظوا لديهم بنسخة من تاريخ الملك دارا الأول ، وعندما بليت كتبوا لأنفسهم نسخة أخرى .

وروى أحد يهود القرن الخامس ق. م . فى أسوان ، أن ملك الفرس (قمبيز) قد هدم كل معابد معبودات مصر وانقص مواردها ولكنه لم يصب المعبد اليهودى فى جزيرة الفنتين بسوء فقد أقام يهود الفنتين فى شمال الجزيرة معبدا لمعبودهم يهوه جمعوا له المعونات من أثريائهم وفرضوا له تبرعات على رجالهم ونسائهم ، ولعلهم قلدوا فيه بعض مظاهر معبد أورشليم فى صورة متواضعة بطبيعة الحال .

ومع مرور الوقت قامت بين الأقليات فى أسوان ومنهم اليهود وبين المواطنين المصريين فى المنطقة علاقات تزاوج وتجارة وعمل ومداينات . وكانت

---

(١) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٣١٨ .

اللغة الآرامية هى السائدة بينهم . وتأثرت لغتهم كذلك باللغة المصريـة فـى بعـض تعبيراتها .

وعندما تعاقبت الثورات المصرية ضد الاحتلال الفارسى فى أعـوام ٤٨٨ – ٤٨٦ – ٤٦٠ – ٤٥٤ – ٤٥٠ – ٤١٠ ق.م. لم يساندهم اليـهود فيـها ، فـازداد السخط عليهم حتى أدى إلى تدمير معبدهم فى حوالى عام ٤١٠ ق.م. أى خلال العام الرابع عشر من حكم الملك الفارسى دارا الثانى . وألقى اليهود جانبـا كبـيرا مـن مسئولية هدم المعبد على الحاكم الفارسى المحلى فيدرانجا وولده . وادعـوا أن هـذا الحاكم فعل ما فعله مقابل رشوة كبيرة .

وكتبوا شكاية إلى باجوهى حاكم السامرة لكى يعاونهم فى إعادة بناء معبدهم ووعدوه إن استجاب لهم أن يقدموا كل هذا باسمه ويصلوا من أجله هـم ونسـاؤهم وأطفالهم وكل اليهود الموجودين معهم وكتب إلى أصدقائه فى مصـر لإعـادة بنـاء المعبد وإعادة القرابين والبخور والمحروقات . كما كتبوا إلى ارشـام والـى مصـر الفارسى يعدونه إن هو سمح بإعادة بناء المعبد حيث كان بأنهم لن يقدموا أغنامـا أو ثيرانا أو ماعز كأضاحى محروقة وسوف يكتفون بالبخور وقرابين الطعام والشراب ، وأنهم سوف يقدمون إلى بيت مولاهم فى مقابل ذلك أموالا كثيرة وألـف أردب مـن الشعير . ويبدو أن التزامهم هنا بعدم تقديم الأضاحى المحروقة هو احتراما لشـريعة الفرس التى حرمت تدنيس الثيران بجثث الحيوانات .[1] عندما تولى إرتاكسركسـيس الثانى عمل على تنفيذ مطالبهم ربما فى مقابل وقوفهم فى وجـه الثـوار المصرييـن أيضا . وأعادوا بناء معبدهم بصورة ما . وبعد قليل أعلن الملك المصرى اميرتى فـى الأسرة الثامنة والعشرين ملكا على البلاد وحرر بلاده من الفرس فـى حوالـى عـام ٤٠٤ ق.م . ولو أن الوثائق الآرامية واليهودية لم تؤرخ باسمه حتـى العـام ٤٠١ ق.م. مما يعنى ترددهم فى الاعتراف به ، ثم انقطعت وثائقهم بعد عـام ٣٩٩ ق.م. فى عصر الأسرة التاسعة والعشرين مما يدل على تبدد شملهم خلال عصور الأسرات المصرية الأخيرة ، وإن استعادوا بعض وجودهم مرة أخرى بعد ذلـك فـى بدايـة العصر البطلمى .[2]

---

(١) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٣٢١ – ٣٢٢ .
(٢) المرجع السابق : ص ٣٢٢ .

بعض المظاهر الحضارية لشعوب جنوب بلاد الشام القديمة والمعتقدات الدينية عند العبرانيين والكتب الدينية وسير الأنبياء وشعوب أرض فلسطين وما مر بالقدس من أحداث وصراعات

العبرانيون :

أولا : نظم الحكم :

ظل العبرانيون محتفظين بنظامهم القبلى فيما يخص الشئون الإدارية ولم يحكم بينهم ملك إلا حسب أوامر الرب يهوه .(١)

ثانيا : المعتقدات الدينية :

وإذا كان يبدو لنا أنه ليس من اختصاصنا ، وصف الديانة اليهودية ، كما هى مبينة فى الوصايا القديمة فإنه من الضرورى أن نعرف كيف تطورت هذه الديانة أولا بالنسبة لمعتقدات أرض فينيقيا ثم المعتقدات التى كان يعتنقها العبرانيون قبل استقرارهم فى أرض فلسطين . فقد كان يطلق على العبرانيين " أناس الأطراف البعيدة " أى من الفرات ، وكان هذا يمثل أكبر خط للنزول أو الهبوط بالنسبة لأهل بلاد النهرين . فقد اعتنقوا معتقدات القبيلة الكبرى التى ينتمون إليها ، وهى قبيلة الآراميين . ومكانها الأصلى كان أور فى جنوب العراق . حيث كان سيد المنطقة هناك هو المعبود سين ، معبود القمر . وفى خلال هجرتهم بامتداد الهلال الخصيب نشروا هذه العبادة فى تلك المناطق التى جعلواْ منها ، مستقرا لهم ، فى هاران فى شمال سوريا ، ومن المحتمل أيضا فى قطنة (اليوم ميشريفه) فى أواسط سوريا .

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص ١٦٩ .

ولم تكن عبادة سين ، هى العبادة الوحيدة عند الآراميين ، فقد كانت هنـــاك عبادة هاداد وخاصة عند السكان الأكثر استقرارا . وقد رأينا من ناحية أخـــرى ، أن هاداد السورى (آداد عند العراقيين) قد تشابه مع تيشوب الحورى فى خيتا .(١)

كانت أرض فلسطين عندما هاجرت إليها ، مجموعة سيدنا إبراهيم (يضـــع بعض العلماء هذه الهجرة فى عصر الأسرة البابلية الأولى) تسكنها مجموعـــة مـــن الشعوب تحدثنا عنهم الوصايا القديمة ، وتركت لنا أسماءهم وهم :

الأموريون ، الفينيقيون (الذين ينتمون إلى المجموعة السامية) وأبناء هيـث (الذين ذكروا فى الكتاب المقدس أى الحيثيين والحوريين) .

اتبع العبرانيون فى مراحل حياتهم الأولى فى فلسطين النموذج الحضـــارى الذى كان يتبعه الكنعانيون . واقتبس العبرانيون من الكنعانيين (الفينيقيين) مجموعـــة من الطقوس والمراسيم القديمة التى تضم الأعمدة الخشبية والأماكن المرتفعة وعبـــادة الحية والعجل الذهبى . وكان الاعتقاد بأن الطريقة المناسبة فى هـــذه العبـادة هـــى التضحية بحيوان وتقديمه وتقديم هدايا فى الهيكل من محاصيل الحقـل والقطيـع .(٢) وتعددت الأماكن المقدسة ، وتميزت بخصائص لا يمكن تجاهلها ، منها وجود ألـــواح وموائد للقرابين ، الشجرة المقدسة أو المقبرة ، وأمكن التوصل إلى أن أماكن العبـــادة هذه والأماكن المرتفعة كما كانت تسمى وهى غاية فى القدم ، مثل جزر بين الســاحل وأورشليم ، نرى هناك بقايا الموائد البدائية للقرابين ، والعديد من اللوحات القائمة .

وكانوا يعترفون بيهوه كمعبود رئيسى ويهوه من العبرية التـــى قـــد تكـــون صيغة المضارع لفعل هو بمعنى أحدث . ويقول آخرون بأن يهوه ليســت كلمـــة ولا مسمى بل هى الأحرف العبرية ى هـــ و هـــ . التى ذكرتها التوراة كرمز للمعبـــود .

---

(١) James, Mythes et Rites dans la Proche Orient Ancien, p. 157 – 161, 194 – 197. ؛ وأيضا د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السـابق ، ص ١٦٩ .

(٢) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

وان اليهودى عندما يأتى إلى هذه الرموز فى قراءته للتوراة لا يلفظـــها يــهوه بــل يعتبرها رمز للمعبود فيقرؤها ادوناى بمعنى الرب . وفى الســامرية الله بــدلا مــن يهوه ، وكان يهوه يكتسب كثيرا من صفات المعبود بل مما جعله سيد السماء وبــاعث المطر والمسيطر والمتحكم على العواصف . ومارسوا الأعمـــال والطقــوس التــى اعتبرت ضرورية للخصب وضمان محصول طيب فكانوا يضحون بأحد الحيوانـــات ويقدمون قرابين للمعبد من المحاصيل والماشية ويرقص ملكهم أمام تـــابوت العــهد واعترفوا بالمعبودات المحلية التى تتعلق بالخصب والنســاء إلــى جــانب معبودهــم الرئيسى يهوه .

وفى القصيدة العبرية ، كانت فكرة موت وبعث المعبود ، غير متوافقة مــع طبيعة المعبود يهوه لذلك كان عليه أن يصارع المعبودات الأخرى ، ليؤكد ســيطرته الفعلية ، وأحيانا يمثل وهو يصارع صور وقوى الشر مثلما حدث لبعل ومــاردوك ، وذلك لكى يقر سلطته كخالق أوحد ، انتصر على المحيط الأزلى وأسس نظاما دقيقــا للكون ، ومنح هذا الكون الضوء والحياة ، ووضع الشمس والقمر والنجوم والكواكـب فى مواضعها .[١]

ونرى فى كتب الشعر للوصايا القديمة ، بعض إشارات إلى أسطورة الخليقة حيث قام يهوه بصراع عناصر الشر .

وفى نهاية فترة النفى إلى نينوى ، نرى اسحق يدعو معبود مملكة إســرائيل إلى اليقظة واستعادة قوته . كما حدث من قبل عندما قطع العدو رحاب إلــى أجــزاء متناثرة وطعن التمساح (تاننين) وجفف مياه المحيط الكبـــير وهــى إشــارة إلــى الانتصار على قوى المحيط الأزلى وخلق الكون من جسد رحــاب ، ذلــك الحيــوان الوحش فى المحيط الأزلى ، الذى انتصر عليه يهوه .[٢]

---

(١) James, op. cit., p. 161.

(٢) Id., op. cit., p. 197.

وكان كهنتهم يقومون بالطقوس الدينية ويعـــدون وســطاء بيـن الإنســان ومعبوده ، ومن هؤلاء من امتازوا بالحكمة وبلغوا مرتبة عالية فى التفكير وعرفـــوا باسم الأنبياء الذين نادوا بعبادة إله واحد .

وقد مرت التوراة بمراحل متعددة ثم انتقلت إلى مرحلة التدوين وفيها جمعت مدونات تاريخية قبل السبى وبعده . وعرفت مجموعة القوانين والقواعـد والأحكـام والوصايا والتعاليم باسم التلمود وينبغى أن نلاحظ أن هنـاك تلمـودان : أورشـليمى وبابلى ، والأورشليمى هو ما وضعه أحبار أورشليم ويحتوى على ٣٩ بحثا بالعبرانية وقد كتب ابتداء من القرن الثانى إلى القرن الرابع الميلادى . أما التلمود البابلى فقــد بدئ به فى بغداد فى أواخر القرن الخامس الميلادى ويشمل ٣٦ بحثــا بالآراميــة . ويتألف التلمود من المتن والأحكام الدينية . وهذا الأخير هــو الشـائع حاليـا بيــن اليهود .[١]

بعض المظاهر الحضارية الأخرى :

على امتداد كل الشاطئ السورى ، أرض كنعــان ، التــى تشـمل فينيقيـا وفلسطين ، كانت تنتشر اللغة الآرامية ، التى لم تندثر على الإطلاق . فهى اللغة التى كتب بها الكتاب المقدس الذى دون فى فترات مختلفة وبينما كنا فى حاجة إلــى حـل رموز اللغات السامية الأخرى القديمة ، لم نكن بحاجة لهذا الأمر بالنسبة للعبريـــة . واستخدمت العبرية (الآرامية) فى حل رموز تلك اللغات السامية القديمة ، وبعــض أجزاء من الوصايا العشر كانت مكتوبـــة بالآراميـــة . وتـرك العـبرانيون لغتــهم واستخدموا اللغة الفينيقية وأبجديتها .[٢] ولذلك يمكن القول بــأن الفينيقييـن أو أرض كنعان أعطت لإسرائيل لغتها . فعندما استقر بنو إسرائيل فى الموطن الجديد تركـــوا لهجتهم السامية القديمة . واتخذوا لهجة الشعب الذى عاشوا بينه وذلــك لأن لهجتـــهم

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص ١٧١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

كانت لهجة تخاطب فقط .

ولم يحترفوا الزراعة إلا بعد أن استقروا فى أراضى خصبة وظل سكان المناطق المرتفعة يعتمدون على الزراعة . وتعلموا الزراعة من الفينيقيين لأن العبرانيين دخلوا البلاد كبدو ورحل وتم انتقالهم من مرحلة الرعى إلى الزراعة بعد استقرارهم .(١)

ثالثاً : تأثر العبرانيين بالحضارات المجاورة :

لم يقتصر تأثر العبرانيين بالفينيقيين على المظاهر الدينية فحسب بل تأثروا كذلك بالمظاهر الحضارية الأخرى : ففى مجال العمارة مثلا يقال أن مكان العبادة الذى شيده سيدنا سليمان قد خطط على نمط معبد فينيقى وزخرف بزخارف فينيقية ولم يشيده معماريون من العبرانيين أنفسهم بل شيده معماريون من صور . وكان القصر الملكى فى أورشليم من عمل وصناعة الفينيقيين وزخرف بزخارف تمثل ما كان موجودا لدى الآشوريين والسوريين القدماء فهى تمثل حيوانات لها رؤوس بشرية تحرس شجرة الحياة . وقطع الأحجار الكريمة وصناعة الحلى أخذوها من الفينيقيين . وتعلموا استخدام بعض الآلآت الموسيقية التى استخدمت فى سوريا .(٢)

ومن التراث الأدبى الذى تركه الفينيقيون اقتبس العبرانيون كثيرا فى تراثهم وادخلوا فى كتاباتهم المقدسة بعض الأساطير التى تدور حول الصراع بين الخصب والجفاف أو بين الإنبات والموت ثم البعث مرة أخرى للحياة . حتى فى مجال الشعر العبرى نجد أنه أخذ الكثير مما كان معروفا عند الفينيقيين ويمكن مقارنة نصوص العهد القديم بما جاء فى قانون حمورابى فى كثير من المواد .(٣)

---

(١) د. أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٧١ .

أما التأثير الفكرى للحضارة المصرية على الفكر العبرى فنجده فى التشابه بين أناشيد اخناتون وبين مزامير سيدنا داود وخاصة ١٠٤ كما وضح هذا التأثير أيضا فى المبادئ التى تضمنتها تعاليم امنموبت وتأثر بها العبرانيين فى سفر الأمثال لسيدنا سليمان ، فى اللفظ والمعنى ، بل وفى تقسيم الفقرات أيضا .[1]

رابعا : الكتب الدينية وسير الأنبياء وشعوب أرض فلسطين :

إن الكتب الدينية التى يتداولها اليهود فيما بينهم ويعاملون الشعوب بمقتضاها ليست الكتب الحقيقية التى أنزلها الله عز وجل . فقد فقدت التوراة التى أنزلت على سيدنا موسى : " أنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتب الله " (سورة المائدة : الآية ٤٤) " ولقد آتينا موسى الكتاب " (سورة البقرة : الآية ٨٧ وهود : الآية ١١٠ والمؤمنون: الآية : ٤٩ وفصلت : الآية ٤٥) " وإذا آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون " (سورة البقرة : الآية ٥٣) " وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل " (سورة الإسراء : الاية ٢ ، نفس المعنى نجده فى السجدة : الآية ٢٣) " ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين (سورة الأنبياء : الآية ٤٨) . فالتوراة الحقيقية قد فقدت من قديم الزمان ، وضاعت بسبب الأحداث التى مرت ببنى إسرائيل من قتل وتشريد ، وتدمير وتسليط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب جزاء بغيهم وإفسادهم فى الأرض ، ولم تكن كتابا محفوظا فى الصدور والسطور كالقرآن الكريم ، فلما ذهب أهل الكتاب اندثرت معالمه ولم يعد لها أثر .

إن التوراة التى بين ايديهم الآن هى توراة محرفة وليست هى التوراة الأصلية التي نزلت علي سيدنا موسي عليه السلام وقام بتسجيلها . وقد فقدت هذه النسخة الأصلية عقب خروجهم من مصر . ويبدو أن أصل هذه النسخة كانت مكتوبة باللغة المصرية القديمة التى كان يجيدها سيدنا موسى بسبب نشأته فى مصر[2] وكانت

---

(١) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٣٦٢ .
(٢) محمد قاسم : التناقض فى تواريخ أحداث التوراة من آدم حتى سبى بابل ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٥٥٢ .

أصغر حجما من ذلك بكثير وأمكن نقشها على حجران نقشا جيـــدا . وأنـــها كـــانت مقتصرة على الشريعة فقط . وكانت موضوعة فى تابوت العهد حتى استولى عليـــها الفلسطينيون فى نهاية فترة قضاء عالى الكاهن حوالـــى عـــام ١٠٧٦ ق. م . وظـــل عندهم سبعة أشهر ثم أرجعوه فى زمن قضاء صموئيل . وظل فـــى قريـــة يعـــازيم عشرين سنة حتى أحضره سيدنا داوود فى احتفال كبير وأدخله إلـــى الخيمـــة التـــى نصبها له فى مدينة داوود . وذكر أيضا أن سيدنا سليمان قد شيد معبدا (؟) ووضعه فيه . ولم يكن التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما ســـيدنا موســـى هنـــاك فـــى حوريب ، أما التوراة المتداولة الآن هى التى كتبوها أثناء السبى البابلى الشهير عـــام ٥٨٦ ق. م . ووضعوا فيها كل ما يأملون فيه من مطامع فى أراضى الغير وأهـــواء شخصية . كما صوروا الرب على أنه إله خاص ببنـــى إســـرائيل وحدهـــم . وهـــى مجموعة من الأسفار فيها تواريخ وأخبار كتبها اليهود بأيديهم ، ثم قالوا هى من عنـــد الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، قال تعالى : " فويل لهم مما كتبـــت أيديـــهم وويـــل ممـــا يكسبون " (سورة البقرة : الآية ٧٩). وهى ٣٩ سفرا (كتابا) يعترف اليهود بـــأن الخمسة الأولى منها هى التوراة الحقيقية ، وكلها مجموعة فى كتاب يســـمى العـــهد القديم .

وتحتوى هذه الأسفار الـ ٣٩ على تواريخ وأخبار كتبـــها كـــهان اليـــهود بأيديهم ووصلت إلينا عن طريق الروايات والتقاليد المتواصلة ، وتعرضـــت مادتـــها نفسها لتطورات كثيرة من الانتقاء والحذف والتحقيق والضبط والتغيـــير والتبديـــل ، وكان هناك عدد من المعلمين الدينيين فضلا عن المؤرخين الذى ساهموا فى تـــأليف أسفار العهد القديم . " واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمســـيح ابـــن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون " (ســـورة التوبة : الآية ٣١) . ويرى بعض العلماء أن بعض هذه الأسفار مثل العدد وما يليـــه ويشوع وسفر العهد أو الميثاق وكذلك الوصايا العشر كلها كانت موجودة كتابة قبـــل عام ٨٥٠ ق. م . تقريبا .[١] أما آخر ما جمع ما جاء فى سفر القداسة (اللاوييـــن)

---

(١) د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٤١٩ حاشية (١) و ٤٢١ ؛ د. بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم ، ص ٢٩ ؛ عزه دروزه : تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم ، ص ٩ - ١٦ .

وغالبا ما كان قبل السبى . ومن يقرأ الأسفار الخمسة الأولى التى تحتويها هذه التوراة المحرفة وهى : التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية ، يندهش أشد الدهشة من كذب ودعوى اليهود وأباطيلهم البالغة . وعلى الرغم من انتشار وتداول أسفار العهد القديم بالملايين فى كل بقعة من بقاع الأرض وبكل لغة من لغات شعوب العالم تقريبا ، ألا ما تنطوى عليه هذه الأسفار الخمسة من أحداث لا يسيغه معظم الناس ولا يوجد نسق تاريخى بينها فيتناول سفر التكوين قصة الخليقة وطوفان سيدنا نوح ومواليده ، ثم قصة نزوح سيدنا إبراهيم إلى أرض فلسطين وذريته فيها ثم نزوحه إلى مصر إلى نهاية قصة سيدنا يوسف وإقامته فى مصر . واحتوت أسفار الخروج والعدد والتثنية قصة ظهور سيدنا موسى ومعجزاته وخروجه مع بنى إسرائيل وظهورهم فى شرق الأردن .

واحتوت أسفار يشوع والقضاة وصموئيل والملوك ، وأخبار الأيام قصة بنى إسرائيل فى فترة ما قبل السبى الذى حدث فى بداية القرن السادس قبل الميلاد . واحتوت أسفار استير وعزرا ونحميا ودانيال وأرميا ويهوديت وطوبيا والمكابيين قصتهم أثناء السبى وبعده .

ومن الأسفار الأخلاقية والتشريعية والتقديسية (مثل أشعيا وأرميا وهوشع ودانيال وعاموس وصفنيا) والتنبؤوات والمراثى ، والرؤى ما هو متصل بحقبة بنى إسرائيل وحالتهم قبل السبى ومنها ما هو عائد إلى حقبة بنى إسرائيل أثناء السبى وبعده .

وكان هناك معلم عبرانى من نوع آخر هو الكاهن الذى كان يعلم الشريعة ولكنه كان يعمل أكثر من أن يعلم . وكان يقوم بالمراسم عند المذبح ويجرى الطقوس ويعمل كوسيط بين الإنسان والله . وكان الكهنة يشكلون طبقة خاصة بين الأمم القديمة والكهانة عند العبرانيين كانت تنحصر فى أسرة هارون بصورة وراثية .

ومن المعلمين أيضا الرجل الحكيم . وكان الحكيم العبرانى يخاطب الفرد وليس الجماعة ورسالته كانت إدراك النجاح أكثر منها الحصول على رضى الرب .

وكتب الحكمة العبرانية الكبرى هى أسفار أيوب والأمثال والجامعة .[١]

وكان هناك طبقة الأنبياء . وكلمة نبى تعنى فى العبرية من يتكلم بالنيابة عن الله . وقد ظهرت النبوة كاحتجاج ضد عبادة بعل وسائر العبادات الأخرى . وكان غرضها من وجهة إيجابية تأييد ديانة يهوه . وقد ظهر هذا النوع من الأدب النبوى بين عامى ٧٥٠ و ٥٥٠ ق. م . وكان يبحث عن طبيعة الله وصفاته وعلاقة الإنسان بالله .ومن المرجح أن سيدنا موسى وكذلك سيدنا داود كانا من أتباع هذه المرحلة من التوحيد . فقد كان يهوه بالنسبة لهما إله العبرانيين وحدهم وسيطرته كانت على أرض إسرائيل .

ولم يرفع الإله يهوه إلى تلك المكانة الفريدة كإله وحيد فى العالم ربما لأنه يتصف بالمحبة والعدالة والرحمة والغفران إلا فى مستهل فترة النبوية .[٢]

وقد لا يصدق إنسان أن راعيا من قرية بسيطة فى يهوذا كان أول رجل فى تاريخ الفكر أدرك وحدة الله وصفته العالمية . وذلك هو عاموس من قرية تقوع (جنوبى بيت لحم) الذى أعلن رسالته حوالى ٧٥٠ ق. م . وقد كان عاموس نبيا يتكلم . وقد نشر رسالته فى مملكة الشمال فى عهد يربعام الثانى وكان عاموس أول من نظر إلى يهوه كإله شعوب أخرى غير بنى إسرائيل وكإله عدالة اجتماعية .[٣]

وفكر النبى أشعيا الذى بدأ نبوته عام ٧٣٨ ق. م . كما فعل عاموس على أساس التوحيد النظرى . وكان يعتبر الآلهة المتنافسة لا قيمة لها ومن صنع الإنسان . وقد أحدث تقدما فى تفكير عصره بالإصرار على قدسية الله وبإبراز كماله . وكان أشعيا نبيا يتكلم عن قدوم المسيح . وكان هناك أشعيا الثانى وهو مؤلف الإصحاح ٤٠ إلى ٥٥ موحدا أيضا . وظهر بعد ذلك أرميا وكان نبيا كاتبا . واتصفت نبوته بالآلام

---

(١) د. فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص ٢٢٨ – ٢٣٠ ؛ د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٠٨ – ٤٠٩ .

(٢) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ – ٢٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .

التى رافقتها مدة طويلة (٦٢٦ – ٥٨٦ ق. م) وقد شهد مهاجمة نابوخذ نصر لأورشليم فى ٥٩٧ ق. م . وتخريبه لها فى ٥٨٦ ق. م . وكان أرميا موحدا ولكن توحيده كان مكتملا وعمليا أكثر من عاموس وأشعيا الثانى . وتضم فصول ٣٠ حتى ٣٣ من سفر أرميا أنبل تفكير فى العهد القديم . ففيها يقطع يهوه عهدا جديدا مع شعبه حيث يجعل شريعته فى داخلهم ويكتبها على قلوبهم وليس على ألواح حجرية كما حدث فى عهد آبائهم .(١)

وكان لبعض الأنبياء العبرانيين الآخرين فضلهم ومساهمتهم فقد توصل هوشع الذى كان من المملكة الشمالية ونشر تعاليمه بين ٧٤٥ و ٧٣٥ ق. م . إلى الفكرة السامية التى مؤداها ان الله محبة .

والنبى ميخا الذى نشر تعاليمه بين ٧٣٠ و ٧٢٢ ق. م . وكان معاصرا لأشعيا ومدافعا عن الفقير الذى كان يراه يتألم من الظلم وقلة العدل .

وقد أظهر النبى حزقيال شعورا بالمثل العليا الأخلاقية . وكان حزقيال معاصرا لأرميا .(٢)

ومن أهم المؤلفات الكبرى بعد التوراة يأتى التلمود الأورشليمى الذى جمع من القرن الرابع ميلادية ولم يبلغ فى شهرته وأهميته درجة التلمود البابلى . ومن أقدم الحاخامات الذين اعترف بهم كمرجع هام فى تفسير التوراة هو هلل الذى ولد فى بابل وعاش فى أورشليم وتوفى عام ٩ ميلادية . ومن كلماته الحكيمة :

" لا تفعل لسائر الناس ما تجده قبيحا بالنسبة لك " .

ومن أشهر أقواله : " لا تفعل للآخرين ما لا تريد أن يفعلوه لك " .(٣)

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

وجاء فى سورة السجدة : " وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآيتنا يوقنون " (الآية : ٢٤)

الدلائل على تحريف التوراة :

جاء فى سفر التثنية الفصل ٥٤ " فمات موسى عبد الرب فى أرض مؤاب ودفن بها ، وكان ابن مائة وعشرين سنة . ولم يقم بعد نبى فى إسرائيل مثل سيدنا موسى " فمن أين جاءت بخبر انتقال سيدنا موسى ودفنه فى أرض مؤاب . أما الله جل جلاله فقد صوروه فى سفر التكوين الفصل ٢ ، ٢٤ كإنسان يتعب ويستريح فتقول :

" أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع (يوم السبت) " وقد رد الله سبحانه وتعالى على افترائهم بقوله :

" ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب " (سورة البقرة : الآية ٣٨) .

كما وصفته بالبخل والفقر ، فرد الله عليهم افترائهم ولعنهم به فقال :

" وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء " (سورة المائدة : الآية ٦٤) . وقال كذلك :

" لقد سمع الله قول الذين قالوا أن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق " (سورة آل عمران : الآية ١٨١) .

وأما اليوم الآخر فلا وجود له فى هذه التوراة ، فقد خلت من مجرد ذكره فضلا عن إثباته ، وإقامة الأدلة على إمكانه ، والدعوى للإيمان به ، وخلت من ذكر الجنة والنار والحساب يوم القيامة ، وكل ذلك من أصول الإيمان التى جاء بها كل نبى ورسول ، وعليها يعتمد على دين سماوى .

وقد جعلت الجنة التى يثيب الله بها على الطاعات هى الحيـــاة علـــى أرض فلسطين كما جعلت النار التى يعاقب بها على السيئات هى الطرد من أرض فلســـطين فقد جاء فى سفر التثنية الإصحاح ٥ – ٦ – ٧ – ٨ – ٢٥ :

(أ) أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك ولكى يكون لك خير علـــى الأرض التى يعطيك الرب إلهك .

(ب) احفظ وصاياى وأعمل بفرائضى لكى تحيـــوا وتكـــثروا وتدخـــروا وتمتلكوا الأرض التى أقسم الرب لآبائكم .

(ج) إن لم تحفظ فرائضى وصاياى يطردك الرب إلهك من الأرض التـــى وعد آباءك .

فأين هذا من قول آيات القرآن الكريم : " إن الله يدخل الذين آمنوا وعملـــوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تـــأكل الأنعام والنار مثوى لهم " (سورة محمد : الآية ١٢) .

وهى ترفع العصمة عن الأنبياء وتنسب إليهم كبائر الإثم والفواحـــش كمـــا نسب إلى سيدنا نوح وإبراهيم واسحاق ويعقوب وداود وسليمان ما لا يليق أن ينســـب لإنسان عادى فضلا عن نبى جعله الله أسوة حسنة للناس أجمعين (سفر التكويـــن ١٥ وما بعده) .

ونسوق مثالا واحدا لما تنسبه هذه التوراة لسيدنا موســـى فقـــد جـــاء فيـــها (الخروج إصحاح ٣) :

" قال موسى لبنى إسرائيل عند خروجهم من مصر : لا تمضوا فارغين بـــل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة وتضعونها علـــى بنيكـــم وبنـــاتكم فتلبسون المصريين " .

ومحال أن ينزل الله على سيدنا موسى كتابا يأمر فيه بالخيانة وهـــو الـــذى أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم :

" إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " (سورة النساء : الآية ٥٨) .

وحسبك من الأحكام هذه الأمثلة التي يكفي واحدا منها للدلالة على أنها ليست من عند الله :

كما جاء في سفر التثنية ١٩ : " للأجنبي تقرض بربا ، لكن لأخيك لا تقرض بربا " وعمد حاخامات اليهود إلى تحريفها لتناسب طبيعتهم الشريرة التي تعشق الهدم وتحقيق أغراضهم السياسية ، وهذه التوراة مليئة بما يعبر عن ذلك أصدق تعبير .[1] وقد كتبه اليهود بأيديهم لإثارة شعبهم وربطهم بأرض الميعاد في فلسطين .

ولقد جاء في سفر التكوين : الإصحاح ٧٥ : ٧ :

" في ذلك اليوم قطع مع ابرام – أى : إبراهيم – ميثاقا قائلا : لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات " " لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك . وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا " . قال المؤرخ آرنولد توينبي : إذا كان العالم كله ينتمي لرب العالمين ويخضع لإرادته ، فإن الهدف الأعلي لهذه الإرادة لا يمكن أن يكون إعادة تأسيس دولة يهودية علي أرض فلسطين، لأن هذا لا يكن الهدف الأعلي لإله قومي خاص فقط . وقد جاء في سورة الأنبياء " ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون " (الآية : ١٠٥) .

ويفسر علماء المسلمون هذه الآية بأن الأرض هى أرض فلسطين المقدسة وأن عباد الله الصالحين هم أمة الإسلام .

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

وجاء فى سفر التثنية الإصحاح ٧ :

" متى أتى الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها ، وطرد شعوبا كثيرة من أمامك ، ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم وخربتهم فإنك تحرمهم ، لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق عليهم " .

وجاء فى سفر التثنية أيضا الإصحاح ٢٠ :

" حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويستعبدون لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف " .

بهذه المفاهيم تصور التوراة اليهودية معاملتهم للآخرين .[1] وأين هذا من قول الله عز وجل :

" وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتمى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون " (سورة البقرة : الآية ٨٣) .

أما التوراة الحقيقية التى أنزلها الله على سيدنا موسى ، فهى التى تدعو إلى الهدى والنور ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، مصداقا لقوله تعالى :

" أنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون – ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا " (سورة المائدة : الآية ٤٤) . " ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون " (السورة نفسها : الآية ٦٦) .

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

لقد جاء سيدنا موسى بالهدى :

" وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليك إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين " (سورة المائدة : الآية ٢٠) .

خامسا : الأنبياء الثلاثة الذين شرفت بهم أرض فلسطين ومصر :

وفى الواقع أنه خلال تاريخ مصر القديم وأثناء فترات حكم بعض ملوكها ، وفد إليها كذلك بعض أنبياء ورسل الله عز وجل يبلغون رسالات ربهم . وكان لهم دور كبير فى عقيدة الوحدانية بالله سبحانه وتعالى ونشأت تطورات فى العلاقات بينهم وبين بعض ملوك مصر القديمة الذى لا نعرف أسماءهم وعصورهم وارتبطت سير هؤلاء الأنبياء وأحداث عصورهم بأرض فلسطين وشبه الجزيرة العربية أيضا . وهم سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء ، وسيدنا يوسف ، وسيدنا موسى عليهم السلام جميعا . وقد جاء سيدنا إبراهيم إلى مصر واستقر فيها فترة وبعد أن عاد سيدنا إبراهيم إلى أرض فلسطين ، أنجب سيدنا يعقوب الذى جاء هو وعشيرته بحثا عن مورد الرزق الدائم فى ربوعها ثم جئ بسيدنا يوسف صغيرا إلى مصر وولد بها سيدنا موسى عليه السلام .

والغريب أن نقوش الآثار لا تزال على صمتها إزاء مجئ سيدنا إبراهيم إلى مصر وكذلك مجئ سيدنا يوسف وكبره فيها وعظم شأنه فيها ودوره الدينى فيها . ونشأة سيدنا موسى وتبليغه برسالة الإيمان على أرضها وما حدث له من قبل المسئول – فرعون والمعجزات التى أتى بها ثم أحداث الخروج وما تلاها من وقائع . ولكن على العكس نجد أن آيات القرآن الكريم التى هى أصدقه وأصحها على الإطلاق عن سير الأنبياء تتناول دورهم بالتفصيل وعندما تتعرض آيات القرآن الكريم للقصص الدينى فإنما هى للعبرة والعظة لبنى الإنسان فى ماضيه وحاضره ومستقبله .

وفى الواقع أن المعجزات الربانية لا تحتاج إلى إشارة أو سرد فى نقوش هى أساسا من صنع البشر .

ولذلك سوف نتحدث عن هؤلاء الأنبياء الثلاثة من واقع آيات القرآن الكريم وكيف ربطت آيات القرآن الكريم بينهم وبين رسالات الإيمان برب العالمين التي نادوا بها وبين شعوب المناطق التى تواجدوا فيها وخاصة مصر .

سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء :

سوف نتحدث عنه أولا : نظرا لارتباط سيرته العطرة بأكثر من بلد في الشرق القديم : بلاد النهرين ، وفلسطين ، ومصر ، وشبه الجزيرة العربية حيث أمره الله عز وجل ببناء الكعبة أى البيت الحرام . وان سيدنا إبراهيم كان يبنى ، وسيدنا إسماعيل يرفع له الحجارة حتى أتماه " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل من أنك أنت السميع العليم " (سورة البقرة : الآية ١٢٧) . وهو الذى أذن فى الناس بالحج إلى هذه البقعة المقدسة " وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق " (سورة الحج : الآية ٢٧) .

وهو الذى نادى بالحنيفية التى كانت تمهيدا لرسالة الإسلام لكل الناس ، فالإسلام ليس مقصورا على الجنس العربى أو لم يهيأ إلا لبلاد العرب ولكن للبشر أجمعين . ومن سلالته عليه السلام جاء الصالحون والرسل . فقد أجمع المؤرخون على أن قريشا الذين منهم قصى بنى كلاب ، الجد الرابع لسيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، هم من لد كنانة ، الذى يرجع نسبه إلى عدنان وينتهى إلى سيدنا إسماعيل عليه السلام . وإلى ذلك يشير الحديث الذى أثر عن سيدنا رسول الله : " اختار الله من إسماعيل كنانة ، واختار قريشا عن كنانة واختار بنى هاشم من قريش ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار " .[1]

---

(١) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، الجزء الأولى ، ص ٤٦ .

كما أن العرب يجمعون على أنه من لد سيدنا إسماعيل ، وبنوا علـــى ذلــك أنسابهم ، وظهرت فيه عصبياتهم واضحة جلية ، فنحن أولاد سيدنا إسماعيل الاثنـــى عشر ومنهم تفرعت بطون كثيرة .[١]

حدثنا العهد القديم فى سفر التكوين طويلا عن سيرة سيدنا إبراهيـــم عليـــه السلام وقد أوضح أنه ولد فى أور فى بلاد النهرين وأنه من ولد سام بن نوح ، وأنـــه خرج من أور وذهب إلى أرض حران (تقع على أحد فروع نهر الفـــرات) وأقـــام هناك فترة ومن هناك ذهب إلى أرض كنعان وأنه أقام ما شاء الله أن يقيم فـــى أرض كنعان ثم رحل عنها صوب أرض مصر بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان . وقد جاء خليل الله عليه السلام إلى مصر مع زوجته سارة ، وتذكر التوراة أنه عاد منها ببقـــر وغنم وحمير وعبيد وإماء واستقر فى كنعان مرة أخرى .[٢]

ولكن نقول للرد على ما جاء فى العهد القديم أن سيدنا إبراهيم عندما جـــاء إلى مصر ليصيب من خيرات أرضها ، فإنه جاء أيضا ليسمع ما يقول أحبارها فـــى أمر الله .[٣] وجاء كذلك لدعوة دينية ليبين لأهل مصر سبل الهداية والإيمان بالله عـــز وجل :

" وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضـــل الله مـــن يشـــاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم " (سورة إبراهيم : الآية ٤) .

" رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء " (سورة إبراهيم : الآية ٤٠) .

---

(١) د. حسن إبراهيم : المرجع السابق ، ص ١٢ – ١٣ .

(٢) عـــزه دروزه : تـــاريخ بنـــى إســـرائيل مـــن أســـفارهم ، ص ٢٦ – ٦٤ ؛ د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٣٧٤ ، ٤١٦ – ٤١٩ .

(٣) د. بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريـــم ، الجـــزء الأول ، ص ١٣٥ حشاية (٢) ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

وجاء فى المشنا التى تشتمل على تفسيرات التوراة ، والمدراش التى هى عبارة عن شروخ الفقهاء لكتب التوراة الخمسة (التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية) ما يشير إلى سيدنا إبراهيم [١] . وجاء فى هذه الكتب " انه لما كبر سيدنا إبراهيم ذهب إلى أرض بابل وبدا بالدعوة من هناك إلى الله الإله الأحد رب السماوات ورب الأرباب ورب نمرود (الملك) وأنذرهم أن يتركوا عبادة الأصنام التى صنعوها على مثال نمرود " ، " فإن له فما ولكنه لا ينطلق وعينا ولكنه لا يبصر ، وأذنا ولكنه لا يسمع وقدما ولكنه لا يسير " [٢] . وكل هذه الكتب بما فيها التوراة او العهد القديم كانت موجودة كتابة قبل عام ٨٥٠ ق.م تقريبا .[٣]

أما عن العقائد التى ظهرت فى العهد الجديد مع المسيحية وهى الأناجيل الأربعة وأقوال الرسل والحواريين ، فهى تشير إلى أن رسالة سيدنا إبراهيم روحية وليست جسدية . وجاء فى الإصحاح الثانى من انجيل يوحنا ان السيد المسيح قال لليهود : " لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم " .[٤]

وقد وردت اخبار سيدنا إبراهيم فى سور كثيرة فى القرآن الكريم (فى سورة البقرة ، آل عمران والأنعام وهود وإبراهيم ومريم والنحل والأنبياء والحج والصافات والذرايات وغيرها) .

وتخبرنا الآيات أولا ان والده آزر كان يصنع الأصنام التى يعبدها قومه : ولكن سيدنا إبراهيم لم يكن راضيا عن الوضع ولا عم عمل والده . إذ رأى فى عبادة الأصنام شيا منكرا .

وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ " آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين " (الأنعام : الآية ٧٤) .

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤١٩ – ٤٢١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤١٩ حاشية (١) .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٢٢ .

وتحدثنا ثانيا عن إيمانه وهدايته : " كذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين " . (سورة الأنعام : الآية ٧٥) ، " إنى وجهت وجهى للذى فى السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين " (سورة الأنعام : الآية ٧٩) ، " وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال او لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى " (البقرة " الاية ٢٦٠) ، " إن إبراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين شاكرا لا نعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم " (النحل : الآيات ١٢٠ – ١٢١) ، " ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون " (سورة الحديد : الآية ٢٦) .

وتحدثنا ثالثا عن استمرار سيدنا إبراهيم فى دعوة أبيه وقومه لترك عبادة الأصنام إلا انهم أصروا على ما هم عليه :

" إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضلال مبين " (الأنبياء : الآيات ٥١ – ٥٤) ، " إذ قال لبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون " (الصافات : الآيات ٨٥ – ٨٦) ، " إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت أنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فأتبعنى أهدك صراطا سويا " ، " قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا " (مريم : الآيات ٤٢ – ٤٣ ، ٤٦) .

وتحدثنا رابعا عن تحطيم إبراهيم عليه السلام للأصنام : أنصرف إبراهيم عن والده حتى لا يشاركه فى صناعة التماثيل وعمل على نشر دعوته بين قومه مبينا لهم إن الصنام لا تبصر ولا تنطق ولا تضر . ولكنهم امعنوا فى الضلال ، مما دفعه إلى انتهاز فرصة غيابهم وحطم الأصنام إلا كبيرهم أبقاه .

" وتالله لأكيدن أصنامكم بعد ان تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فاتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت

فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فأسألوهم ان كانوا ينطقون " (الأنبياء : الآيات ٥٧ – ٦٣) .

وتحدثنا خامسا عن تصميم القوم على إلقاء سيدنا إبراهيم فى النار عقابا له على ما أرتكبه فى حق آلهتهم :

" قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين " (الأنبياء : الآيات ٦٨ – ٧٠) .

وتحدثنا سادسا : عن ذرية سيدنا إبراهيم إسماعيل واسحق ويعقوب :

" الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وأسحق إن ربى لسميع الدعاء " (إبراهيم : الآية ٣٩) ، " وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت ياويلتى ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشئ عجيب " (هود : الآيات ٧١ – ٧٢) ، " ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين " (الأنبياء : الآية ٧٢) ، " وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين " (الأنبياء : الآية ٧٣) " وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا " (مريم : الآية ٤٩) ، " وأذكر فى الكتاب إسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يامر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا " (مريم : الآيات ٥٤ – ٥٥) ، " فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وأتيناهم ملكا عظيما " (سورة النساء : الآية ٥٤) ، " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين " (الصافات : الآيات ١١٢ – ١١٣) .

تزوج سيدنا إبراهيم هاجر وولدت له إسماعيل عليه السلام ن وبعدها رحل بها مع طفلها إلى حيث أراد الله ان يسكنهما فى واد غير ذى زرع فى مكة ، وكانت هذه رحلة إبراهيم عليه السلام الأولى إلى مكة وهذا ما تحدثنا عنه سابعا آيات القرآن :

" وإذ قال إبراهيم رب أجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني ان نعبد الأصنام رب أنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فأنك غفور رحيم ربنا غني أسكنت من ذريتي بواد غير زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون " (إبراهيم : الآيات ٣٥ – ٣٧) .

عاد سيدنا إبراهيم مرة ثانية إلى مكة للاطمئنان على زوجته وأبنه ن وهناك في مكة رأى في المنام إن الله يأمره بذبح أبنه إسماعيل اختبارا لإيمانه بالله وتنفيذا لأوامره ولما عرض على أبنه المر أجابه مستسلما لأمر الله ، لكن الله تعالى انزل كبشا من السماء فداء لسيدنا إسماعيل عليه السلام وهذا ما تحدثنا عنه ثامنا آيات القرآن :

" فلما بلغ معه السعى قال يا أبني أني ارى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما اسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا أنا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم " (الصافات : الآيات ١٠٢ – ١٠٧) .

وعندما وجد إبراهيم عليه السلام ان زوجته هاجر قد توفيت ، رحل للمرة الثالثة إلى مكة ، وفي هذه المرة أمره الله عزل وجل ببناء الكعبة فتعاون مع ولده إسماعيل على بنائها وهذا ما تحدثنا عنه على بنائها وهذا ما تحدثنا عنه تاسعا آيات القرآن :

" وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمه معلمة لك وارنا منا سكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم " (البقرة : الآيات ١٢٧ – ١٢٨) .

" إن أول بيت وضع للناس للذى بمكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقمام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين " (آل عمران : الآيات ٩٦ – ٩٧) .

" وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت غلا تشرك بى شينا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود وإذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق " (الحج : الآيات ٢٦ - ٢٧) ، " وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود " (البقرة : الآية ١٢٥) .

وأخيرا تحدثنا آيات القرآن فى عاشرا عن دين سيدنا إبراهيم وسائر الأديان وأخصها الإسلام : " يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما نزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون " (آل عمران : الآية ٦٥) ، " ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن حنيفا مسلما وما كان من المشركين " (آل عمران : الآية ٦٧) ، " ثم أوحينا إليك ان اتبع ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين " (سورة النحل : الآية ١٢٣) ، " قل أننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين " (سورة الأنعام : الآية ١٦١) .

" وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قال بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين " (سورة البقرة : الآية ١٣٥) ، " قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين " (سورة آل عمران : الآية ٩٥) .

" ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا " (سورة النساء : الآية ١٢٥) .

" هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم " (سورة الحج : الآية ٧٨)[١] " ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه اسلم قال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وانتم مسلمون ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى

---

(١) د. حسن إبراهيم : المرجع السابق ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل واسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون " (سورة البقرة : الآيات ١٣٠ - ١٣٣) .

كما تحدث المؤرخين القدامي والمؤرخين في العصر الحديث ومختلف العلماء والباحثين عن سدينا إبراهيم عندما تعرضوا لدراسة تاريخ الشرق القديم ومنهم : يوسيفوس اليهودى ونقولا الدمشقي فى الكتاب الرابع من تاريخه وأبو الفداء الذى عاش فى القرن الثامن الميلادى ولخص سيدنا إبراهيم بدقة معتمدا على مصادر قديمة [١] . ومن الجانب ابنجدون وهالي واولبريت وغيرهيم [٢] . وملخص ما جاء عند أبو الفداء هو ما يأتى :

" هو إبراهيم بن تارح ن وهو آزر بن ناحور .. وولد إبراهيم بالاهواز ، وقيل بابل ، وهى العراق ، وكان ازر يصنع الأصنام ويعطيها لإبراهيم ليبيعها فكان إبراهيم يقول : من يشترى ما يضره ولا ينفعه . ثم لما أمر الله إبراهيم ان يدعو قومه إلى التوحيد دعا أباه فلم يجبه ن ودعا قومه فلما فشل امره وتصل بنمرود بن كوش وهو ملك تلك البلاد ، فاخذ نمرود إبراهيم الخليل ورماه فى نار عظيمة فكانت النار عليه بردا وسلاما وخرج إبراهيم من النار بعد أيام ، ثم آمن به رجال من قومه على خوف من نمرود وآمنت به سارة وهى ابنة عمه هاران . ثم أن إبراهيم ومن آمن معه وأباه على كفره فارقوا قومهم وهاجروا إلى حران وأقاموا بها مدن . ثم سار إبراهيم إلى مصر وصاحبها (اى حاكمها) فرعون قيل كان اسمه سنان بن علوان ، وقيل طوليس فذكر جمال سارة لفرعون وهو طوليس المذكور . فاحضرت سارة إليه وسأل إبراهيم عنها فقال : هذه أختى ، يعنى فى الإسلام . فهم فرعون المذكور بها فأيبس الله يديه ورجليه ، فما تخلى عنها أطلقه الله تعالى ، ثم هم بها (مرة أخرى) فحدث له نفس الشيء ، فأطلق سارة وقال : لا ينبغى لهذه أن تخدم نفسها ، ووهبها هاجر جارية لها ، فأخذتها وجاءت إلى إبراهيم ثم رحل إبراهيم من مصر إلى الشام فأقام بين الرملة وابليا ، وكانت سارة لا تلد ، فتزوج إبراهيم السيدة هاجر المصرية

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٢٨ - ٤٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢٢ - ٤٢٤ .

فولدت له إسماعيل فحزنت سارة لذلك فرزقها الله اسحق ثم غارت سارة من هاجر وابنها إسماعيل . وقالت " أن ابن الأمة لا يرث مع ابنى " وطلبت من إبراهيم أن يخرجهما عنها . وأخذ إبراهيم هاجر وابنها وسار بهما إلى الحجاز ، وتركهما بمكة وبقى إسماعيل بها وتزوج من جرهم امرأة وتوفيت هاجر بمكة ، وقدم إليه أبوه إبراهيم وبنيا الكعبة ، وهى بيت الله الحرام ، ثم أمر الله إبراهيم ان يذبح ولده ، وقد اختلف فى الذبيح هل هو اسحق أم إسماعيل ، وفداه الله بكبش . وكان إبراهيم فى أواخر أيام بيور اسب المسمى بالضحاك ، وفى أوائل ملك افريدون ، وكان نمرود عاملا له " (١)

ويذكر د. زايد إن المصادر اليهودية ناقصة فيما يخص أخبار من جاورها من الأمم . ودليلنا على ذلك أن كتب اليهود لم تشر إلى قوم عاد وثمود وذكروا فى آيات القرآن وقد جاء اسمهما فى جغرافية بطلميوس . وكان أمرهما مجهولا مقصودا أيضا .

ارتبط تاريخ سيدنا إبراهيم بتاريخ بعض الدول فى منطقة الهلال الخصيب وفى فلسطين وكان على علاقة تامة بالحجاز . وعلى ذلك فقد نشأ إبراهيم فى أور وانتقل إلى مدينة آشور ، لكن لم تطل أقامته هناك . وبدأت دعوته فى هذه البقعة من الشرق ثم انتقل بدعوته إلى حبرون وخليج العقبة وإلى الحجاز . وقد شهد إبراهيم فى عصره عبادات كانت قائمة فى بلاد النهرين وفى وادى النيل . وكان ينتقل بين دول تنتشر فيها عبادات عديدة وظهر الخليل إبراهيم على مفترق الطرق وجاهر بالوحدانية فى هذه الدول ، لقد اتجه إبراهيم الخليل إلى الحجاز حيث اتجه أصحاب الدعوات النبوية ، وقد تعمدت المصادر اليهودية إغفال تلك القبلة التى اتجه غليها أبو الأنبياء إبراهيم وتعلقوا ببيت المقدس وإن إغفالهم ذلك الاتجاه نحو الكعبة كان سببا فى إسقاط حجتهم فى إقامته فى بيت المقدس (٢)

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٣٠ – ٤٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٣١ – ٤٣٦ .

اختلف العلماء فى تاريخ ميلاد أو ظهور سيدنا إبراهيم فيرى البعض انه كان بين سنة ٢٣٠٠ و ٢٠٠ ق.م [١] . ويرى البعض الأخر انه كان حوالى عام ١٩٩٦ ق.م [٢] . ويرى فريق ثالث انه كان قبل قيام مملكة إسرائيل بألف سنة [٣] . ويرى فريق رابع أن مولده كان بين أعوام ٢١٦١ و ١٩٨٦ ق.م [٢]

وجاء فى سفر التكوين (٢٣) " عن إبراهيم دفن فى مغارة المكفيلة المشتراه من حثي : وهذه أيام سنى حياة إبراهيم التى عاشها : مائة وخمس وسبعون سنة ، واسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة ن وانضم إلى قومه . ودفنه إسحاق وإسماعيل ابناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بنى صوجر الحثى الذى امام ممرا " [٤] .

عاد إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين وتوفى فيها ودفن فى مدينة حبرون التى حملت اسمه فيها بعد (الخليل) وأقيم عند قبره مسجد عرف بالحرم الإبراهيمى . ويرى بعض العلماء إن سيدنا إبراهيم انتقل إلى الرفيق الأعلى فى عام ١٧٦٥ ق.م . وكان عمره ١٧٥ سنة .[٢]

ونقول فى النهاية عن سيدنا إبراهيم ، وهو أبو الأنبياء الورعيين والذين يشكل تاريخ حياته تراثا دينيا وروحيا لا يجب إقحامه فى قضايا تاريخية غير مؤكدة واعطاء التفسيرات الخاصة بسيرة حياته العطرة بعدا تاريخيا .

---

(١) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢٤ ؛ د. بيومى مهران : المرجع السابق ، ص ١٧٩ ، ١٩٤ يعطى كتاريخ لظهور سيدنا إبراهيم ١٩٤٠ ــ ١٧٦٥ ق.م وكلها تواريخ غير مؤكدة .

(٣) د. عبد الحميد زايد : المرجع السابق ، ص ٤١٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٤٨ ؛ د. حسن إبراهيم : المرجع السابق ، ص ١٢ حاشية (٢) ، ص ٤٦ ، ٧٥ .

سيدنا يوسف :

تحدثنا فى مقالة سابقة عن تفسير لسورة سيدنا يوسف من خلال اللغة المصرية القديمة [١] . وسورة يوسف هى إحدى السور المكية التى تناولت قصص الأنبياء ، وقد أفردت الحديث عن نبى الله يوسف بن يعقوب وما لاقاه عليه السلام من أنواع البلاء ، ومن ضروب المحن والشدائد ، ومن أخواته ، ومن الآخرين ، فى بيت عزيز مصر ، وفى السجن ، حتى نجاه الله من كل هذه المحن والمواقف الصعبة .

وسورة يوسف من السور التى تتحدث عن بيئة تاريخية معينة جرت أحداثها فى فلسطين ومصر ، ويهمنا هنا الفترة المصرية من القصة أى ابتداء من شراء عزيز مصر ليوسف من القافلة التى التقطته من الجب ، وأغراء امرأة العزيز له ن ودخوله السجن ، وتفسيره للأحلام ، وإخراجه من السجن ، ولقائه بملك مصر ، وتعيينه أمينا على خزائن الأرض (أى أرض مصر) ، ثم مجيء اخوته غليه وتعرفهم عليه وأخيرا استدعاءه أبويه ، ورفعهما على عرش مصر .

وجاء ذكر حادث بيع سيدنا يوسف فى مصر فى نهاية الإصحاح ٣٧ من سفر التكوين .

ويرى البعض أن سيدنا يوسف جئ به إلى مصر عام ١٣٧٢ ق.م [٢] [٢] . وتولى سيدنا يوسف أمر خزائن مصر وكان عمره ٣٠ سنة فى بداية السنة الأولى للشبع . وقابل أباه سيدنا يعقوب فى السنة الثانية للمجاعة أى عمره ٣٨ . وكان عمر سيدنا يعقوب عند دخول مصر ١٣٠ سنة . وإن بداية السنة الأولى للمجاعة وحضور اخوته إلى مصر وتعرف سيدنا يوسف عليهم ولكنهم لم يعرفوه كان فى عام

---

(١) د. رمضان السيد : أضواء جديدة على تفسير سورة يوسف ، فى مجلة دراسات عربية وإسلامية ، الجزء الثامن ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص ١٤ – ٥٧ .

(٢) محمد قاسم : التناقض فى تواريخ وأحداث التوراة من آدم حتى سبى بابل ، القاهرة ، ص ٩٢ .

١٣٥٢ ق.م . وانتقل سيدنا يوسف عام ١٢٧٩ ق.م . وعاش سيدنا يوسف ١١٠ سنة .

ومما يلاحظ على سرد القرآن الكريم لقصص الأنبياء والأمم السابقة ، استخدامه لبعض مفردات وتعبيرات من بيئة أصحابها ، ولا شك في أن هذا الجانب يعتبر أحد جوانب الإعجاز في القرآن الكريم ومدى دقته وأحكامه في نقل وقائع حدثت من زمن بعيد جدا عن فترة الرسول صلى الله عليه وسلم . وتتميز سورة يوسف على نحو خاص بأنها من أكثر سور القرآن الكريم تمثيلا لهذه الظاهرة . ولا يعني هذا مطلقا أن القرآن الكريم قد استخدم ألفاظا أجنبية ، أو غير عربية ، لن كل هذه الألفاظ المصرية القديمة وغيرها كانت قد دخلت إلى اللغة العربية ، وأصبحت جزءا من نسيجها المتين .[1]

وكانت رسالة سيدنا يوسف وموسى واضحة الأهداف في مصر بالنسبة للإيمان وعبادة الله وحده " ذالكما ما علمني ربي ، اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائي إبراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر إلا تعبدوا إلا اياه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون " (سورة يوسف : الآيات ٣٧ – ٤٠) . " ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيانات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث اله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب (سورة غافر الآية ٣٤) .

ويرى بعض العلماء أن عشيرة سيدنا يعقوب كانوا وقت دخولهم مصر اثنى عشر رجلا ، وأنهم دخلوها في عصر الهكسوس [2] . ويرى بعض العلماء أن مجئ

---

(١) د. رمضان السيد : المرجع السابق ، ص ١٥ .
(٢) د. بيومي مهران : المرجع السابق ، ص ٨٢ ؛ د. رزق الطويل : بنو إسرائيل في القرآن ، ص ١٧١ ؛ وأيضا :
===

سيدنا يوسف إلى مصر كان فى عام ١٣٧٢ ق.م . تقريبا وهذا يوافق بداية حكم إخناتون (١٣٧٢ ق.م) وان توليه مسئولية القضاء على المجاعة وتوليه أمر القمح وخزائن البلاد كان بتاريخ ١٣٥٩ ق.م . وان مجئ اخوة سيدنا يوسف إلى مصر حدث فى عام ١٣٥٢ ق.م. وأن مجئ سيدنا يعقوب إلى أرض مصر حدث فى عام ١٣٥١ ق.م . وعندما ارتحل سيدنا يعقوب إلى مصر كان كل نسله معه ، بنوه وبنو بنيه وبناته وبنات بنيه ، وبلغ مجموع الأفراد الذين جاءوا إلى مصر والخارجين من صلب سيدنا يعقوب ما عدا نساء بنيه ٦٦ فردا وأبناء سيدنا يوسف اللذان ولدا له فى مصر . وبذلك يصبح مجموعهم فى مصر ٧٠ فردا وسكن سيدنا يعقوب فى أرض برعمسيس كما امر بذلك المسئول فرعون . وأنتقل عام ١٣٣٤ ق.م . ودفن فى مغارة حقل المكفيلة حيث دفن سيدنا إبراهيم واسحق . وقد عاش سيدنا يعقوب فى مصر ١٧ سنة وتوفى وعمره ١٤٧ سنة .

سيدنا موسى :

وتحدثنا آيات القرآن عن نشأة سيدنا موسى عليه السلام فى أرض مصر وكيف تربى فى قصر المسئول – فرعون . كما تقص علينا آيات القرآن تكليفه بالرسالة . وأهداف الرسالة وتبليغه الرسالة للمسئول – فرعون ن وتمادى المسئول – فرعون وقومه فى كفرهم ، عقاب المسئول فرعون وملئه . وتذكر لنا الآيات الذين آمنو برسالة سيدنا موسى من آل المسئول – فرعون ومن بنى إسرائيل . وتقص علينا أيضا أحداث الحروج .

أشرنا فى مقال نشر حديثا عن وجود سيدنا موسى فى مصر وما قام به مع

Mayani , les Hyksos et Monde de la Bible , p. 154 , 161 ; == pirenne , la Societe Hebraique d'apres la Bible , p. 29 n (1); posener , Dictionnaire de la Civilisation Egyptienne , p. 108; Lalouette, L'Empire des Ramses , Paris (1985) , p. 259 n . 166 , 490 .

المسئول – فرعون وملئه كما تحدثنا عن حقيقة بنى إسرائيل الذين جاء ذكرهم في آيات القرآن الكريم .[١]

لقد اختص الله سبحانه وتعالى أرض مصر الطيبة بعدة تكريمات منها وقوع أحداث قصة سيدنا يوسف على أرضها كما ذكرنا [٢] ، ومنها أيضا ميلاد سيدنا موسى على أرضها وحماية الله له حتى شاب وكبر شانه وتكليم الله له ومناداته له وإظهار المعجزات له وتكليفه بالرسالة مع أخيه سيدنا هارون على أرض سيناء على جانب الطور وفى الوادى المقدس طوى . ومن بلاغة آيات القرآن الكريم إنها استخدمت لقبا كان معروفا فى مصر القديمة ، وكان يطلق على بعض الملوك في بعض الفترات . وكان يشير إلى الحاكم وصاحب السلطة الفعلية فى البلاد . ولكن فى آيات القرآن الكريم يشير هذا اللقب إلى حاكم أو مسئول عات متجبر وظالم ومستكبر ويمكن ان ينطبق هذا اللقب على كل حاكم متجبر ومتكبر فى كل عصر من العصور ولهذا فليس من المنطقى أن يطلق المصريون القدماء على بعض ملوكهم أو بعض حكامهم هذا اللقب بهذا المعنى . ولكن آيات القرآن الكريم ربما تشير إلى حاكم أو مسئول كان فى مرتبة الوزير أو حاكم الإقليم أو حاكم مدينة فى مصر القديمة . لأننا نعلم انه فى عصر الدولة الحديثة كان الوزير هو الذى يرأس الجهاز الإدارى ، وهو الشخص المماثل فى المقام والدرجة إلى حد ما الملك . وكانت أعماله ومسئولياته كثيرة ومتشعبة لهذا قسمت أعباء هذه الوظيفة بين أثنين فى هذا العصر . فكان هناك وزير للجنوب ويوجد مقره فى العاصمة طيبة ، ويشرف على إدارة ممتلكات الدولة وشئونها من أقصى الجنوب إلى الشمال حتى القوصية فى مصر الوسطى . كما عين وزيرا آخر للوجه البحرى وكان يقيم فى منف أو ايونو وتمتد دائرة اختصاصه من

---

(١) د. رمضان عبده : سيدنا موسى فى مصر ، فى مجلة التاريخ والمستقبل . التى يصدرها قسم التاريخ كلية الآداب جامعة المنيا ، العدد الثانى . يوليو ٢٠٠٠، ص ١ – ٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٩ – ٧٥ .

مصر الوسطى حتى شمال الدلتا وسواحلها .

وكان هذا الوزير أو المسئول صاحب السلطة وسلطان ن وكان يسكن بيت عال مثل الملك الحاكم ، وربما كان من طبقة النبلاء أو الإشراف فى الأقاليم ويبدو انه كان مسئولا عن الأقليات والجماعات الأجنبية فى مصر . ويبدو أنه كان قريبا من طائفة بنى إسرائيل وكان كبيرا لهم أو رئيسا عليهم ن وتولى أمرهم أثناء أقامتهم فى مصر . وكان يمتع برغدة فى العيش هو ومن معه من أتباعه ومعاونيه [١] . ويبدو ان هذا المسئول – فرعون قد زاد نفوذه وقت ضعف السلطة الملكية فى العاصمة الرسمية ومن المحتمل انه كان يقيم أحيانا فى شرق الدلتا فى إقليم كبير له عاصمة ومما يدل على ذلك ورود كلمة " المدينة " فى بعض آيات القرآن الكريم (القصص الآيات ١٥ ، ١٨ ، ٢٠) أو فى منطقة تكثر فيها أفرع النيل أو تتشعب إلى عدة فروع مصداقا لقوله تعالى " وهذه الأنهار تجرى من تحتى " (الزخرف الآية ٥٤) وقرب هذه المنطقة التى كان يقيم المسئول – فرعون أحيانا من منطقة البحيرات كما يدل على ذلك كلمة " اليم " (الأعراف الآية ١٣٦ ؛ طه الآيات ٣٩ ، ٧٨ ؛ القصص الأيات ٧ ، ٤٠ ؛ الذرايات الآية ٤٠) و " البحر " (البقرة الآية ٥٠ ؛ يونس الآية ٩٠ ؛ الشعراء الآية ٦٣) . وهى المنطقة الى حدثت فيها معجزة انغلاق البحر وغرق هذا المسئول – فرعون وجنوده [٢] . وتحدثنا فى المقال نفسه عن من هم ملأ فرعون وجنوده ومن معه . وذكرنا ان المقصود بكل هذا هم أهله وعياله واتباعه وأنصاره وأقاربه ومن يكونون بمنزلهم تبعا له .[٣]

وأشرنا إلى انه كان ضمن ابتاعه وعشيرته فئة بنى إسرائيل وكانوا محدودى العدد . ولم يقصد بهذا شعب مصر أو أهل مصر جميعا .

وذكرنا إن بنى إسرائيل الذين كانوا يقيمون فى مصر كانوا أصلا من نسل

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١ – ١٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨ – ٢٣ .

أو ذرية العبد الشكور ذرية من حملنا مع سيدنا نوح (الإسراء الآيات ٢-٣ ؛ مريم الآية ٥٨) . ولم يكن بنو إسرائيل من ذرية سيدنا يعقوب أو ان لقب إسرائيل كان لقبا لسيدنا يعقوب كما جاء فى اغلب كتب التفسير . كما ذكرنا أننا لا نعرف متى جاءت هذه الذرية من بنى إسرائيل إلى أرض مصر واستقرت بها ؟ من أى طريق جاءت أو سلكت ؟ وأين كان مكان استقرارها ؟ وبماذا كانت تعمل [١] ؟ واقترحنا انهم ربما أقاموا فى شرق الدلتا بالقرب من منطقة حدوث معجزة انغلاق البحر . وانهم كانوا فئة قليلة تمتد جذورها إلى زمن بعيد . وكانت تعيش على أرض مصر . ومع مرور الوقت زاد نسلهم وكثر عددهم وكانوا مستضعفون مما أدى إلى استغلال المسئول – فرعون لهم بذبح أبناءهم واستحياء نساءهم لعدم طاعتهم لأوامره وأمر هذا المسئول – فرعون جميع أتباعه أن يطرحوا كل المواليد الذكور فى النهر . وفى هذه الظروف ولد سيدنا موسى . ويرى بعض العلماء أن مولده كان عام ١٣٠١ ق.م. وبالطبع كان يتحدث اللغة المصرية القديمة التى نشأ عليها . ويرى بعض العلماء أيضا أن سيدنا موسى خرج من مصر لأول مرة عام ١٢٤١ ق.م تقريبا .

ثم تحدثنا عن مجئ سيدنا موسى ومعه سيدنا هارون برسالة الإيمان والتوحيد إلى هذا المسئول – فرعون وملئه وينصحانه بالهداية وكان سيدنا موسى يجيد اللغة المصرية أكثر من العبرية . لذلك فقد عضده الله سبحانه وتعالى بسيدنا هارون أخيه الذى كان يجيد الحديث باللغتين فيأخذ التعليمات من سيدنا موسى وكان يترجمها إلى بنى إسرائيل بلغتهم . واظهر المعجزات أمامهم ولكن على الرغم من كل هذا ظلوا على كفرهم واستكبارهم . كما تحدثنا عن هامان الذى كان مسئولا عن تنفيذ كل أعمال هذا المسئول – فرعون وتحدثنا أيضا عن قارون صاحب الثروة والجاه ، وعندما جاءهم سيدنا موسى بالآيات استكبروا هم الثلاثة " لقد جاءهم موسى بالبينات واستكبروا فى الأرض " (العنكبوت الآية ٣٩) .[٢]

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣ – ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١ – ٢٣ .

كما تحدثنا عن الذين آمنوا برسالة سيدنا موسى واستمرار آل المسئول – فرعون واتباعه على كفرهم عل الرغم من وقوع الرجز عليهم [١] . ثم تحدثنا عن خروج سيدنا موسى .

ومن آمنوا برسالته من بنى إسرائيل ومن المصريين أنفسهم واتباع المسئول – فرعون وجنوده لهم وحدوث معجزة انغلاق البحر ونجاة سيدنا موسى ومن معه وغرق المسئول – فرعون ومن معه . على الرغم من انه أعلن إسلامه فى اللحظة الأخيرة من الغرق (يونس الآية ٩٠) ونجى الله عز وجل ليكون آية لمن يجئ من بعده ويسلك نفس مسلكه مصداقا لقوله تعالى " فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية " (يونس الآية ٩٢)[٢] كما تصور لنا آيات القرآن الكريم كيف أصبح هذا المسئول – فرعون وملئه مثالا لأقوام الكفر السابقة وما حاق بهم من عذاب وعقاب .[٣]

وتحدثنا الآيات والمعجزات عندما قابل المسئول – فرعون وبعد ذلك وقعت أحداث الخروج . واصطحب سيدنا موسى معه غلامه يشوع بن نون الذى كان عمره حوالى عشر سنوات وذهبا معا إلى أرض مدين . ويرى البعض إن إقامة بنى إسرائيل فى مصر كانت حوالى ١٣٠ سنة وكان عمر سيدنا موسى ٨٠ سنة عندما قابل المسئول – فرعون وعمر سيدنا هارون ٨٣ سنة وانه انتقل فى نهاية فترة التيه وعمره ١٢٠ سن وحدث ذلك فى عام ١١٨١ ق.م [٤] ودفن فى الجواء فى أرض مؤاب ولم يعرف إنسان قبره حتى هذا اليوم .[٥]

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٣ – ٤٤ .
(٤) محمد قاسم : التناقض فى تواريخ وأحداث التوراة من آدم حتى سبى بابل ، ص ٢٠٩ – ٢١٢ قام المؤلف بإعداد جدول لتسلسل الأحداث فى زمن سيدنا موسى .
(٥) لابد من إعادة النظر فى موضوع عمر الرسل والأنبياء ، فمن المعروف أن بعض الرسل أولى العزم يقل عمره عما سبقه بمقدار النصف فسيدنا محمد ٦٣ عاما ، وسيدنا عيسى ١٢٦، وسيدنا موسى ٢٥٢، وسيدنا إبراهيم ٥٠٤، وسيدنا نوح ١٠٠٨ (منها ٤٠ قبل الدعوة ، ٩٥٠ للدعوة ، ١٨ بعد الدعوة) وأخيرا سيدنا آدم ٢٠١٦ .

سادسا : القدس في العصور القديمة :

إن دراستنا لتاريخ الشرق الأدنى القديم تحتم علينا التعرض لموضوع تاريخ القدس القديم نظرا لما تعرضت له القدس وفلسطين من أطماع صهيونية . فليس الوجود الإنسانى قضية تستند إلى الأباطيل والأكاذيب مثلما استندت إليها الصهيونية العالمية فى مزاعمها المختلفة حول الحق اليهودى فى القدس وفلسطين . ولهذا كان تاريخ فلسطين بشكل عام وتاريخ القدس بشكل خاص ، مجالا خصبا للتزييف التاريخى والدعاية المتأججة بأن اليهود إنما يعودون إلى أرض الميعاد أرض إسرائيل القديمة ، إن هذا الكذب السياسى والصريح لا يؤيده دليل تاريخى لقد تظاهر جهابذة علماء الغرب من المستشرقين بتصديقه والاعتراف بأنه من مسلمات التاريخ القديم فالصهيونية التى نسبت نفسها إلى أحد جبال القدس ، وهو جبل صهيون لا تفتأ منذ القرن التاسع عشر ، تهدف إلى جمع شتات اليهود من أنحاء العالم فى فلسطين ، وإقامة دولة يهودية تجعل القدس عاصمتها ، زاعمة الاستناد إلى الحقوق التاريخية والرابطة الدينية المزعومة التى تربطهم بجبل صهيون وهيكل سليمان المزعوم (؟) .(١)

لقد تركنا البحث فى مجال تاريخنا القديم إلى علماء الغرب والمستشرقين لكى يشوهوا حقائقه لأن فاعليتهم تقتصر فقط على التنسيق والتفكير المجرد دون الموضوعية المطلوبة من باحث التاريخ . فكتابة التاريخ لدى المؤرخ الواعى لا تستلزم إحياء الحدث التاريخى أسلوبا وموضوعا فحسب ، بل هى تتطلب كذلك رصيدا من الصدق وتحرى الحقائق التى تساعده على إدراك جوهر التاريخ ومضمونه .

فالتاريخ يدل على المجرى الفعلى للأحداث التى تصنعها الأمم والشعوب فى ماضى عصورها وغابر دهورها ، ولا يكفى ترجمة النصوص وسرد الوقائع والأحداث من غير تفاعل معها ، ولا يمكن التوصل إلى رؤية صحيحة كاملة لهذا

---

(١) خالد العك : تاريخ القدس العربى القديم ، ص ٢٣ .

التاريخ إلا بالاعتماد على القيم والوسائل التى تصنع التاريخ وتوجهــه ، ولا يتحقـق الفهم الحقيقى لمعنى التاريخ إلا بافتراض نوع من الأمانة العلمية بين المؤرخ نفســه وبين ما يعالجه من قضايا التاريخ ، وخاصة القضايا الحساسة التــى لا تحتــاج إلــى الانفعال بقدر ما تحتاج الحق والصدق المبنيان على وقائع التاريخ ومنطق التــاريخ ، لأن القدس ليست مجرد مدينة مقدسة ذات معنى روحى فى قلب وضمير كل مســلم متدين ، لما خصها الله تعالى من مكانة سامية فقد كــانت مــهبط الرســالات ومــهد النبوات ، وهذه حقيقة لم ينكرها أحد سوى الصهاينة ومن سار فى فلكهم وحتى ندرك أهمية تاريخ القدس القديم ، يجب علينا أن نعرف القــدس تاريخيــا . دورهــا ومــا عاصرت أرضها من أحداث على مر العصور .

وبالنسبة لهذا الموضوع سوف نتحدث عن عدة عناصر هى :

ما قيل فى أسمائها ، ما قيل فى بنائها ، ما قيــل فــى أول مــن ســكنها ، أورشليم فى عهد الإســرائيليين أو العــبرانيين وســيدنا داود وســليمان ، أورشــليم والهجمات الآشورية والكلدانية والسبى البابلى الأول ، والسبى البابلى الثانى ، عــودة اليهود إلى أورشليم مرة أخرى ، أورشليم فى ظل الحكم اليونانى والسلوقى ، أورشليم فى عهد سيدنا عيسى عليه السلام ، إبادة الرومان لليهود ، صلــة الإســلام بــالقدس والفتح الإسلامى لها ، وما قيل فى وصفها ، وما كشفت عنه الحفائر فيها وفى مناطق أخرى من فلسطين .

(١) ما قيل فى أسمائها :

عرفت القدس بأسماء أربعة : ورشلم ، ايلياء ، القدس (أو المقدس) بيــت المقدس (المسجد الأقصى) يرى بعض المؤرخين أن القدس ســميت بــ ورشــلم بمعنى بيت السلام نسبة إلى مليكي صادق ، وهو أحد ألقاب سيدنا نوح أو ابنه ســلم ، الذى اشتهر بحبه للسلام ، لأنه هو الذى اختطها وعمرها . وهو اسم دنيوى وليــس دينيا .[١] ويؤكد د. فيليب حتى بأن اصل الاسم من الكنعانيين اورشالم بمعنى دع شالم

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٦٨ – ٦٩ .

يؤسس .[١]

ومن نهاية الأسرة الثانية عشرة ، لدينا ما يسمى بنصوص اللعنة التى جاء فيها ذكر رؤساء العديد من المدن الفلسطينية والسورية ومنها : رو – وشلم – م (أورشليم) ، عسقلان ، عشتاروت ، اجرون ، بيت شمس ، سشم ، هاتزور ، يافا ، اكر (عكا) ببيلوس ، بلاد عناكيم ، زبلون ، سيمون ، زبول هاداد ، وابوراهان وأسماءٍ أخرى .[٢]

كما كشفت لنا رسائل تل العمارنة من عصر امنحتب الرابع (١٣٧٢ ق. م) أنه من بين الموالين لملك مصر كان عبد خيبا حاكم أورشليم[٣] الذى كتب إلى اخناتون ستة خطابات (هى أرقام EA 285 – 290) وترجم الكاتب المصرى اسم أورشليم من لغة هذه الخطابات التى كتبت بالمسمارية (الأكدية) إلى المصرية بـ : ورو – سا – ليم .[٤] أى أن اسم أورشاليم كان معروفا قبل دخول بنى إسرائيل هذه المدينة وهو ليس عبريا أصلا ونجد أن هذا الاسم بعد هذا التاريخ يتكرر فى مصادر أخرى . ففى نقوش الملك الآشورى سنحاريب (حوالى ٧٠٠ ق. م) يرد اسمها هكذا " اورسليمو " وهو قريب من تسمية النصوص المصرية رو – وشلم – م أو ورو – سا – ليم .[٥]

١

---

(١) د. فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٧٣ ؛ لأحمد سوسه : الرب واليهود بين الماضى والحاضر ، الملحق الأول أورشليم فى أقدم العصور ، ص ٣٨٨ – ٣٩١ .

(٢) راجع فيما سبق ، ص ٢٤٢ (١) ، ٢٤٧ (١)

(٣) خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٤) راجع فيما سبق ، ص ٢٤٢ (١) ، ٢٤٩ (١)

(٥) المرجع السابق ، ص ١٠٦ ؛ أحمد سوسه : المرجع السابق ، ص ٣٨٧ .

ووردت فى النصوص العبرية يروشالايم ويذكر لنا المؤرخ وحاكم الجليل اليهودى يوسيفوس الذى عاش بين أعوام ٣٧ و ٩٥ ميلادية أن أول من أسسها أسرة من الكنعانيين وحكمها ملك منهم كان يسمى الملك العادل ، وهو الذى أعطى اسم أورشليم للمدينة التى كانت تسمى حتى هذه الفترة سوليما .(١) وفى النقوش اليونانية من عهد الإسكندر الأكبر حوالى ٣٣٠ ق.م ، وردت بلفظ خيروسوليما أو سوليما باختصار(٢) ، وانتشر هذا الاسم أورشليم من الكتاب المقدس فى جميع لغات العالم تقريبا ولهذا أدخل اليهود هذا الاسم فى التوراة المحرفة ، لإعطائه السمة الدينية اليهودية التى يتذرعون بها فى دعواهم .

أما بخصوص التسمية ايلياء فقد أورد الإمام ياقوت هذا الاسم ايلياء بكسر أوله واللام ، وباء وألف ممدودة ، قيل معناه بيت الله وقد روى ياقوت بخصوص تسمية القدس ايلياء عن كعب أنه قال : لا تسموا بيت المقدس ايلياء ولكن سموه باسمه ، فإن ايلياء امرأة بنت المدينة بما لها وقيل إنما سميت ايلياء باسم بانيها ، وهو ايلياء بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام ، وهو أخو دمشق وحمص وأردن وفلسطين .(٣) وظلت هذه التسمية تطلق على القدس عندما دخلها الإسلام فى نص وثيقة عمر بن الخطاب لبطريرك القدس آنذاك :

" هذا ما أعطى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل ايلياء (يعنى القدس) من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم ، وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ... ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود .(٤) كما جاءت هذه التسمية

---

(١) De Saulcy, les Derniers jours de Jerusalem, Paris (1866), p. 422.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٦ – ٦٧ ، ٦٩ .

(٤) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٢٦ – ٢٧ ، ١٧٦ ، ١٩٨ (يوجد بهذه الصفحة الأخيرة نسخة من هذه الوثيقة) .

فى بعض الأحاديث النبوية .[١] أما اسم القدس فلابد أنه رافق المدينـــة منـذ بدايـة تاريخها القديم ، أى منذ قبل دخول بنى إســرائيل . وذلـك لأن المــؤرخ اليونــانى هيرودوت (٤٨٤ – ٤٢٥ ق. م) . لم يذكر فى تاريخه المشهور اسم أورشليم ولكنه ذكر مدينة كبيرة فى الجزء الفلسطينى من الشام ، وسماها قديتس مرتين فى الجــزء الثانى والثالث من تاريخه . ويرى بعض المستشرقين أن هذا الاسم على الأرجح هــو القدس محرفا فى اليونانية عن النطق الآرامى قديشتا .[٢]

وكانت تسمية الإسلام القدس أو المقدس لتلك البلد الطاهر التســمية الدينيــة التى يقصد منها : " التنزه والتطهر والبركة .[٣]

وجاء اسم المقدس فى معجم البلدان للإمام ياقوت . ولما ســئل يــاقوت أى بلد أجل ، قال : المقدس ، قيل : فأيها أطيب ؟ قال : المقدس ، قيــل : فأيــها أكــثر خيرات ؟ قال : المقدس ، قيل فأيها أكبر : قال : المقدس ، أما قولى : أجل : فلأنــها بلدة جمعت الدنيا والآخرة ، فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها ، ومن كان من أبناء الأخرة فدعته نفسه إلى نعمة الدنيا وحدها .[٤]

أما التسمية بيت المقدس فكانت معروفة فى عهود الأنبياء الأوائل والمرسلين عليهم السلام ، وقد ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم " بيت المقدس " عنـد عودته من الإسراء والمعراج حيث يقول فى حديثه الشريف قال أبو مسلمة : ســمعت جابر بن عبد الله يحدث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لما كذبتنــى قريش قمت فى الحجر ، فجلى الله لى بيت المقدس ، فطفقت أحدثهم عن آياتــه وأنــا أنظر إليه "[٥] . أى أخذت أحدثهم عن علاماته ومعالمه وأنا أنظر إليه أمامى .

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٦٩ – ٧٠ حاشية (٦١) .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٧٠ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٦٧ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٧٠ حاشية (٦٢) ؛ يحيى كامل : رسالة الإسلام ، الجـزء الأول ١٩٧٥ ، ص ٩٥ (ثانيا) (ب) .

وجاءت هذه التسمية فى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

" فضلت الصلاة فى المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة ، وفى مسجدى بألف صلاة وفى بيت المقدس بخمسمائة صلاة " وبيت المقدس يعنى المكان أو البيت الذى كان يتعبد فيه أهل الملل السابقة للإسلام .(١)

أما التسمية المسجد الأقصى فقد جاءت فى سورة الإسراء (الآية ١) " سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله " . وفى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدى هذا " .(٢)

(٣) ما قيل فى بنائها :

حكى أهل التاريخ أن سيدنا آدم عليه السلام شارك فى بناء القدس ، لأن أرضها كانت صحراء بين أودية وجبال ليس فيها بناء أو عمارة ، ثم من بعده نوح وابنه سام عليهما السلام بعد الطوفان الذى عم الأرض فى زمنه والذى أصبح ملك اليبوسيين واشتهر بلقب مليكى صادق ملك الصدق .

ويذكر لنا المؤرخ وحاكم الجليل يوسيفوس اليهودى الذى عاش بين أعوام ٣٧ – ٩٥ ميلادية أن أول من أسسها أسرة من الكنعانيين ، وحكمها ملك منهم كان يسمى الملك العادل ، وهو الذى أعطى اسم أورشليم للمدينة .(٣)

وروى القاضى مجير الدين الحنبلى فى كتابه الشهير : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل فقال :

---

(١) يحيى كامل : المرجع السابق ، ص ٩٥ (أولا) .

(٢) خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٦١ .

(٣) De Saulcy, les Derniers Jours de Jerusalem, Paris, 1866, p. 422.

ومما حكى فى أمر بناء القدس فى تواريخ الأمم السالفة : ان مليكى صادق وهو سام بن نوح ملك اليبوسيين[١] نزل بأرض بيت المقدس ، وقطن بكهف من جبالها يتعبد فيه ، واشتهر أمره حتى بلغ ملوك الأرض الذين هم بالقرب من أرض بيت المقدس وبالشام وسدوم وغيرهما ، وعدتهم أثناء عشر ملكا ، فحضروا إليه فلما رأوه وسمعوا كلامه اعتقدوه وأحبوه حبا شديدا ودفعوا له مالا ليعمر به مدينة القدس ، فاختطها أى : كما علم ذلك من أبيه نوح عليه السلام وعمرها ، وسميت بـ ورشليم ومعناها بيت السلام فلما انتهت عمارتها اتفقت الملوك كلهم على أن يكون مليكى صادق ملكا عليها ، ولقبوه بأبى الملوك ، وكانوا بأجمعهم تحت طاعته ، واستمر حيث مات بها " .[٢]

وفى رواية أخرى : ان ابن نوخ (سام) جدد البناء القديم ، لأنه جاء ملكا من بعد أبيه على قومه . وتشير بعض الروايات أن الله سبحانه وتعالى أطلع سيدنا نوح وهو على السفينة أثناء الطوفان على مكان بيت المقدس ، بهذا الخطاب :

" يا نوح هذا موضع بيت المقدس الذى يسكنه الأنبياء من أولادك .[٣] ثم من بعد سام سيدنا يعقوب عليه السلام ، كما روى أن أباه اسحاق أمره أن يتزوج من امرأة من الكنعانيين ، وأمره ببناء بيت المقدس لعبادة الله تعالى فبناه على أساس سيدنا نوح عليه السلام ، ثم من بعده داود وسليمان عليهما السلام ، حيث أتم سليمان ما بدأه أبوه داود " .[٤]

---

(١) ويرى البعض أن مليكى صادق كان من ذرية سام وأن عشيرته كانت إحدى العشائر القليلة التى استمرت على الاعتقاد بوحدانية الله . وأن اليبوسيين هم فرقة من الكنعانيين سكنوا فى أورشليم ودخولها بعد نزوحهم من شبه الجزيرة العربية فى بداية الألف الثالثة ق. م ، راجع : أحمد سوسه : المرجع السابق ، ص ٣٨٦ – ٣٩١ .

(٢) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٨ حاشية (٥) .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

ويروى الإمام ياقوت (فى معجم البلدان ج٥ ، ص ١٧٦) فيقول : " وعن ابن عباس قال : بيت المقدس بنته الأنبياء وسكنه الأنبياء ، وما فيه موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبى أو قام فيه ملك ".[١]

وبنى بيت الله الحرام فى مكة قبل بيت المقدس مصداقا لقوله تعالى : أن أول بيت وضع للناس الذى بمكة مباركا وهدى للعالمين (سورة آل عمران : الآية ٩٦) .

لقد كانت نشأة القدس الشريف بإرادة سماوية ربانية ، فقد قيل عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه سئل : أى مجسد وضع فى الأرض أولا ؟ قال : (المسجد الحرام) ، قال السائل : ثم أى ؟ قال : (المسجد الأقصى) ، قال : كم بينهما ؟ قال : (أربعون سنة) قال الإمام أبو العباس القرطبى : يجوز أن يكون بناه – يعنى : مسجد بيت المقدس الملائكة بعد بنائها البيت الحرام بإذن الله تعالى " ، وظاهر الحديث يدل على ذلك ، وقد روى أن الملائكة هى التى بنت المسجد الحرام فى مكة ، كما ذكره المؤرخ الأزرقى فى تاريخ مكة .[٢]

ولا غرابة فى ذلك فإن الله تعالى قد اختص بقعتين من أرضه بقدسيته فجعل المسجد الحرام فى مكة ، والمسجد الأقصى فى القدس ، ولقد جمع الله سبحانه هذين المسجدين لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء ، فكان ذلك دلالة ظاهرة على شرف هذين المكانين الطاهرين .

ولم يستطع الباحثون فى تاريخ القدس أن يحددوا تاريخ نشأة القدس ، كيف بنى وكيف أنشئ ، وكل ما ذكروه أن القدس قديم بنشأته ولا سبيل إلى معرفة تاريخ تلك النشأة بشئ من الدقة والتفصيل .[٣]

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٧ وحاشية (١ إلى ٣) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٧ – ٤٨ .

ويدل هذا على أن بناء القدس وبيت المقدس ، الذى هو المسجد الأقصى كان بوحى من الله تبارك وتعالى ، كما هو الحال فى بناء الكعبة المشرفة ، وليس هو بمحض الاختيار أو التخطيط البشرى كما هو المعتاد فى إقامة المشاريع المعمارية . وفى مقال نشر حديثا للدكتور عبد الشافى عبد اللطيف فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٥ / ١٢ / ٢٠٠٠ تحت عنوان " اليهود حول الأقصى وهيكل سليمان " .

" إن بناء المسجد الأقصى الذى جاء بعد أربعين سنة من بناء المسجد الحرام طبقا للحديث النبوى الشريف " سأل ابو ذر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا رسول الله " أى مسجد وضع فى الأرض أولا قال المسجد الحرام . قال ثم أى قال المسجد الأقصى قلت كم بينهما قال : أربعون سنة " رواه البخارى وبذلك تكون الملائكة هى أيضا التى بنت المسجد الأقصى والمسجد الحرام " . ويمضى د. عبد الشافى قائلا :

" ان قلنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام يقصد بقوله أن أول مسجد وضع فى الأرض هو المسجد الحرام ويقصد بناء إبراهيم له فإن المسجد الأقصى بنى بعده فيكون الأقرب إلى العقل والمنطق والواقع أن إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى المسجد الأقصى أيضا " . " ونأخذ من هذا أن إبراهيم هو المؤسس للمسجدين الحرام بمكة والأقصى بفلسطين " . وخاصة وأنه انتقل وعمره حوالى ١٧٥ سنة ودفن فى مدينة حبرون التى حملت اسمه فيما بعد (الخليل) (راجع، فيما سبق، ص ٢٣٤) . أى أن البيت الحرام أول من بناه الملائكة ثم جدده سيدنا آدم ثم أبناؤه ثم هدمه الطوفان فى عصر سيدنا نوح وظل مكانه مجهولا حتى أرشد الله سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عن مكانه " وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت " (الحج الآية ٢٦) ثم رفعه سيدنا إبراهيم ومعه سيدنا إسماعيل بناء على أمر الله تعالى " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل " (البقرة : الاية ١٢٧) وأشرف على طهارته " وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود " (الحج : الآية ٢٦) .

وذكر المؤرخون أن بيت المقدس أعيد بناؤه ثمانى عشرة مرة فى التاريخ[١]،

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٤٨ .

وذلك لما توالت على هذا البيت المقدس من أحداث وأهوال حيث كـــان علـــى مـــر الدهور مطمع أنظار الأمم والشعوب ، وهدفا من أهداف الغزاة والفاتحين ، فحوصـــر مرارا وهدم تكرارا .

كما وتجدر الإشارة إلى أن شعوب الشام شاركت بما فيه الكفاية فـــى بنـــاء المدينة المقدسة مشاركة فعالة ، كما أثبت ذلك المؤرخون وتلك الشعوب هى :

الكنعانيون ، واليبوسيون ، وكانوا منحدرين أصلا من بطون القبائل العربيـــة الأوائل الذين نشأوا فى قلب الجزيرة العربية وترعرعوا فى أرجائها ، ثم نزحوا عنـــها مع الزمن مع من نزح من قبائل واستوطنوا بلاد الشام ، والتى منها فلسطين والقـــدس وما حولها .[١]

وذكر الإمام القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى فى صناعـــة الانشـــا : " ان القدس من أعمال بلاد الشام أى من أعمال أهل الشام " .[٢]

(٣) ما قيل فى أول من سكنها :

كان أول من سكن أرض فلسطين هم الكنعانيون ، وهؤلاء الكنعانيون هـــم الذين زرعوا أرضها وشيدوا مدنها منذ ألفى سنة ، وجماعة الكنعـــانيين هـــم الذيـــن استوطنوا أيضا سواحل بلاد الشام ، وهم الذين أطلق عليهم اليونان اســـم الفينيقييـــن أصحاب صور وصيدا وجبيل وارواد .[٣]

وكان يوجد بفلسطين أيضا ، بنو اسحاق وهم أسباط سيدنا يعقوب الذين لـــم يهاجروا إلى مصر[٤] ، ثم قدمت إلى أرض فلسطين بعد ذلك شعوب غير سامية منهم

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٤ حاشية (١٧) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٠ ، ٥٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٠٠ ؛ أحمد سوسه : المرجـــع الســـابق ، ص ٣٩١ – ٣٩٣ .

الفلسطينيين ، أو شعوب البلست الذين اندمجوا مع بقية السكان الأصليين منذ ١١٩٨ ق. م . تقريبا .

وأما بنو اسحاق وهم أسباط يعقوب ، فقد نزحوا إلى مصر ، بعد أن جاء بهم سيدنا يوسف عليه السلام حين أصبح أمينا على خزائن الأرض فى مصر ، وذلك قبل دخول شعوب البلست إلى فلسطين . وفى هذا يقول الله عز وجل فى كتابه الكريم :

" فلما دخلوا على يوسف أوى إليه أبويه وقال أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو (سورة يوسف : الآيات ٩٩ – ١٠٠) ."[١]

فلو كان بنوا يعقوب فى فلسطين أو القدس ، لما قال لهم وجاء بكم من البدو لأنه لا يطلق على سكان المدن بدو ، ودلالة كلمة البدو بينة ظاهرة على سكان الصحراء .[٢]

وبعد مضى قرون بعث الله سبحانه وتعالى سيدنا موسى رسولا فى بنى إسرائيل فى مصر وأخرجهم منها لظلم فرعون لهم ، وأمرهم بدخول الأرض المقدسة .[٣] ولقد عرف بنى إسرائيل الذين دخلوا الأرض المقدسة بعد أن أخرجهم سيدنا موسى عليه السلام من مصر بـ " العبرانيين " الذين عبروا نهر الشريعة نهر الأردن والذين سموهم بالعبرانيين هم أهل فلسطين الذين كانوا من الكنعانيين والفلسطينيين لأن لفظ عبرى مشتق من الفعل الثلاثى عبر الذى يفيد معنى المجهز

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٥٩ ، ١٠٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٠ ، ٧٤ .

بـــ أو عامل .[١]

ولقد سبق حادث عبور بنى إسرائيل للأرض المقدسة أحداث وأحداث جرت بينهم وبين سيدنا موسى وهارون عليهما السلام بعد خروجهم من مصر ناجين من فرعون وملائه ، من تمرد وعصيان ، فيعاقبهم الله تعالى بالتيه أربعين عاما فى صحراء سيناء ، مصداقا لقوله تعالى :

" قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين " (سورة المائدة : الآية ٢٦) .[٢]

ويتوفى الله تعالى نبيه هارون ثم موسى عليهما السلام ، ويدفنان فى أرض الطور .[٣] وبعد ذلك جعل الله تعالى طالوت ملكا عليهم وتبين آيات القرآن الكريم قصصهم التى تحكى فظائعهم وشنائعهم التى فعلوها مع أنبيائهم وغير أنبيائهم (سورة البقرة : الآية ٤٩ وحتى الآية ٧٥ ، ومن الآية ٢٤٦ حتى الآية ٢٥١) .

(٤) ما تعرضت له القدس من أحداث وما شهدته من صراعات :

القدس فى عهد الإسرائيليين والعبرانيين وسيدنا داود وسليمان :

وأخيرا يدخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة ، ويجعل الله تعالى عليهم داود ملكا ، وكان داود عليه السلام قبل أن يزحف بجيشه على القدس يقيم فى الخليل " حبرون "[٤] فدخل القدس ملكا عليها ، وهذا أول حكم يقام على أرض فلسطين من

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٥٩ ، ٧٤ ، ١٤٧ – ١٤٨ . يعنى فعل عبر فى المصرية القديمة فهو يعنى جهزب ، زودب وعبروا يعنى فرقة عمال أو نواتى ، راجع : أحمد بدوى – د. هرمن كيس : المعجم الصغير فى مفردات اللغة المصرية القديمة ، ص ٣٦ ؛ Wb I, 181, 17

(٢) خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٥ .

بني إسرائيل . وكما تشير الروايات أن المدينة المقدسة قد تعرضت فى هذا الزحف العسكرى عليها لدمار وخراب كبيرين ، فأمر الله تعالى داود عليه السلام ببناء بيت المقدس ، مكانا خاصا للعبادة ، فلما شرع سيدنا داود فى ذلك شغل بأمور الملك والغزو فلم يتيسر له إتمام بنائه .

ولما اجتمعت بنو إسرائيل على سيدنا داود أنزل الله عليه الزبور وعلمه صنعة الحديد والآنه له معجزة له . وسخر له الجبال والطير . وقد اختار الله سبحانه وتعالى مدينة القدس لتكون مهبطا لوحى السماء ومستقرا آمنا لبعض الأنبياء فأنزل الله تعالى فيها الزبور على سيدنا داود ومن بعده الإنجيل على سيدنا عيسى عليهما السلام . مصداقا لقوله تعالى :

" وآتينا داوود زبورا " (سورة النساء : الآية ١٦٣، الإسراء : الآية ٥٥). ومصداقا لقوله تعالى : " وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون " (سورة الأنبياء : الآيات ٧٩ – ٨٠) . " ولقد آتينا داوود وسليمان علما وقالا الحمد الله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين " (سورة النمل : الآية ١٥) . " ولقد آتينا داوود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد " (سورة سبأ الآية ١٠) . وقد فقد هذا الزبور كما فقدت التوراة والكتب السابقة على القرآن الكريم . والكتاب الموجود الذى ينسب إلى سيدنا داود يسمى المزامير : وهو عبارة عن أدعية وتضرعات كلها بكاء على مجد إسرائيل ، وملك داود ، وهيكل سليمان المزعوم (؟) (الذى لم يأت ذكره ولو مرة واحدة فى آيات القرآن الكريم) وجبل صهيون وقد كتبه اليهود بأيديهم لإثارة شعبهم وربطهم بأرض الميعاد فى فلسطين وهم يسمون الله فيه (رب الجنود وحصن إسرائيل) ولا هم لهم إلا أن يخلصهم ويهلك أعداءهم ويعيدهم إلى الأرض التى وعد بها آباءهم إبراهيم واسحق ويعقوب كما جاء فى المزامير (١ – ٤٤ – ١٤٩) وبعض هذه الأدعية ليس فيه أدب مع الله ، ولا مثل عليا فى الحياة ، بل فيها تطاول على جلال الخالق . وحقد على جميع الخلق ، من غير بنى إسرائيل ، ولهذا ضمت إلى أسفار التوراة المحرفة وأصبحت جزءا منها .

وبعد وفاة سيدنا داود آل الملك لسيدنا سليمان عليه السلام ، وسخر الله تعالى له الجن والإنس والطير والريح ، وأتاه الله مع ذلك النبوة ، وسأل ربه أن يؤتيه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، فاستجاب الله له ، فأعطاه ذلك وورث سليمان مصداقا لقوله : " وورث سليمان داود وقال يا ايها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين " (سورة النمل : الآية ١٦) ، " وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهو يوزعون " (سورة النمل : الاية ١٧) ، " ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر واسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه " (سورة سبأ : الاية ١٢) ، " يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات " (سورة سبأ : الآية ١٣) .

ومن المعروف أن داود عليه السلام قد أوصى ابنه سليمان بأن يعتني ببيت المقدس ويسعى لإتمام بنائه ، فقام سيدنا سليمان عليه السلام بتنفيذ ما أوصاه ابوه به ، فبنى المسجد ، وقد أتى البنائيين من أطراف مملكته التي يقطنها سكانها الأصليين واتسعت القدس في زمن سيدنا سليمان ، فبنى فيها الدور وشيد القصور واتسع ملكه ، فعمرت القدس في عهده بحيث ضاهت الحواضر والمدن الكبرى ، ومن الصعب العثور على آثار سيدنا سليمان عليه السلام في الأساس الكائن تحت المسجد الأقصى وفيما يسمى ببرك سليمان الواقعة إلى الجنوب من بيت لحم .(١)

ولما رفع سليمان عليه السلام البناء وفرغت يده منه جمع الناس وأخبرهم بأنه مسجد الله تعالى وهو الذى أمر به وباتخاذه بيتا للعبادة وأن كل شيء فيه هو لله تعالى ، وأن داود عليه السلام عهد إليه ببنائه وأوصاه بذلك كما أمره الله تعالى . وشارك الكثيرون في بنائه منهم ثلاثين ألف رجل ، وعشرة آلاف آخرين عليهم قطع الأخشاب ، وكان الذين يعملون بالحجارة سبعين ألف رجل ، وعدد الأمناء عليه

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٧٦ . وقد جاء في سفر الملوك الأول " أن سليمان بنى بيتا في أورشليم ٤٨٠ سنة بعد خروج بني إسرائيل من مصر " راجع : د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٣٧٦ .

ثلاثمائة ، غير المسخرين من الجن .[١] مصداقا لقوله تعالى : " ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين ، ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين " (سورة الأنبياء : الايات ٨١ – ٨٢) . وبهذا يكون سيدنا سليمان عليه السلام من الأنبياء الذين قاموا بتشييد بيت المقدس وأن الله سبحانه وتعالى أمر سيدنا يعقوب بوضع الأساس له كما أوحاه إليه ، ليقيم الناس بناءه . ويتموه ويتخذوه للعبادة ، وأصبح هذا المكان مقدسا . فقد روى أن سيدنا إبراهيم حين مر بهذه المدينة وجد رجلا شيخا كبيرا يقدس البقعة المباركة ، ويقال أنه كان ملك المدينة ، وكان كنعانيا عربيا فاعترف إبراهيم عليه السلام بقداسة المكان الطاهر ، وأقر الملك على ذلك .[٢]

وتشير آيات القرآن إلى محراب هذا المسجد في سورتين :

" كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا " (سورة آل عمران : الاية ٣٧) ، " فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين " (السورة نفسها : الآية ٣٩) ، " فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا " (سورة مريم : الاية ١١) .

وبعد أن توفى الله تعالى سيدنا سليمان عليه السلام ، انقسمت البلاد إلى مملكتين يهوذا وعاصمتها أورشليم ، وإسرائيل وعاصمتها السامرة ونشبت بينهما حروب ومنازعات كبيرة ولا سيما فيما يتعلق بالشئون الدينية .

الهجمات الآشورية والبابلية الكلدانية والسبى البابلى :

لقد حكم الملك شاؤول فى حوالى ١٠٣٠ ق. م ، وسيدنا داود عليه السلام ١٠٠٦ – ٩٧٢ ق. م ، وسيدنا سليمان عليه السلام ٩٧٢ – ٩٣٢ ق. م ، ثم تمزقت

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٧ .

بعد ذلك دولة سليمان ، إلى دويلتين صغيرتين ، استمرت الأولى فى السامرة فى شمال فلسطين ، ثم محيت على أيدى الآشوريين سنة ٧٢٠ ق.م . واستمرت الثانية فى أورشليم ، ثم اجتاحها وضربها نابوخذ نصر سنة ٥٨٦ ق.م . فى السبى البابلى المشهور .[١]

وكان من النتائج البعيدة الأثر التى ترتبت على السبى البابلى هروب الكثير من اليهود إلى شتى بقاع الأرض : مصر والجزيرة العربية وإيران وغيرها وبذلك قضى على بنى إسرائيل كأمة لها كيان أو وطن .[٢]

ومن هذا يتبين أن سيطرة بنى إسرائيل لم تكن شاملة على جميع أرض فلسطين وعلى ذلك فالحقيقة أنه ليس فى تاريخ بنى إسرائيل دولة أو دويلة سوى عصر سيدنا داود وسليمان عليهما السلام ، والعصران فى عهدى هذين النبيين غير داخلين فى تاريخ اليهود ، ولا يمكن اعتبار عصور الأنبياء التى تخللت تاريخ اليهود عصورا يهودية[٣] ؛ لأنهم لم يكونوا يهودا حاشى لله . وبعد ذلك خضعت فلسطين وأورشليم لسيطرة الفرس عندما تولى قورش عرش فارس ٥٣٩ – ٥٢٩ ق.م . الذى عامل العبرانيين المسبيين فى بابل معاملة حسنة وسمح لهم بالعودة إلى القدس وسمح لهم بإقامة حكم ذاتى تحت حمايته وسيادته .

كانت عودة اليهود إلى أورشليم على مراحل ، فتحكى التوراة أن امرأة يهودية ذات لباقة ورشاقة وجمال لا نظير له فى نساء عصرها ، يقال لها استير ، دفعها قومها لبلاط ملك الفرس لتكون الوسيلة المباشرة لخلاص بنى إسرائيل من السبى البابلى .[٤]

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٨٣ – ٨٤ .

عودة اليهود إلى القدس مرة أخرى :

فلما علم سكان فلسطين بخبر عودة اليهود إلى الأرض المقدسة وقع عليهم كالصاعقة ، فشرعوا يرسلون لملك الفرس الاحتجاج تلو الاحتجاج على سوء صنيعه بإعادة اليهود إليهم ، ولكن دون جدوى ، فقام زعيم سكان فلسطين " جشم " بتنظيم الهجمات ضد اليهود القادمين غير أن اليهود أوهموا ملك الفرس بأنهم سيكونون بجانب الجيوش الفارسية ضد الجماعات الموالية للنفوذ المصرى ، وإزاء هذا دخلت قوافل اليهود أرض فلسطين وكأنها تحت الحماية الفارسية العسكرية .(١)

وتمتع اليهود بالحكم الذاتى تحت سيطرة ملوك الفرس ، وكان يحكم عليهم الملك اليهودى زربابل الذى ملكه اليهود عليهم . واستعمل اليهود اللغة الآرامية فى مراسلاتهم الرسمية ، أما اللغة العبرية فظلت تستخدم كلغة دينية .

القدس فى ظل الحكم اليونانى والسلوقى :

واستمر اليهود كذلك ، حتى سنة ٣٣٢ ق. م . عندما دخل الإسكندر المقدونى فلسطين بالقوة ، وفرح اليهود بمقدمه وخرجوا لاستقباله ظنا منهم أنه سيكون المخلص لهم من نير الفرس وطغيانهم ، مع إن الفرس أعطوهم عن طريق استير ما لا يعطيه أحد . وبعد وفاة الإسكندر سنة ٣٢٣ ق. م . أصبحت فلسطين بين جماعة السلوقيين نسبة إلى سلوق ملك بابل والبطالمة نسبة إلى بطلميوس ملك مصر ، بين الصراع والخضوع .(٢)

ويقول المؤرخ المسعودي أن بطلميوس الثانى غزا بنى إسرائيل ببلاد فلسطين وايلياء من أرض الشام ، فسباهم وقتل منهم .

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٦ .

وقال القاضي مجير الدين الحنبلي : ولما تولى بطلميوس الثانى أرسل رسولا وهدايا إلى بنى إسرائيل المقيمين بالقدس الشريف وذلك بعد ما رد إليهم سبيهم وطلب منهم أن يرسلوا له عددا من علماء بنى إسرائيل لنقل التوراة وغيرها إلى اللغة اليونانية ، فسارعوا إلى الامتثال لأمره .. واتفقوا على أن يبعثوا إليه من كل سبط من أسباطهم ستة . فبلغ من عددهم اثنين وسبعين رجلا . فلما وصلوا إلى بطلميوس المذكور ، أحسن استقبالهم وترجموا له ستا وثلاثين نسخة من التوراة .[١] وبعد فراغهم من الترجمة جهزهم إلى بلادهم وسأله المذكورون فى نسخة من تلك النسخ فأسعفهم بنسخة فأخذها المذكورون وعادوا بها إلى بنى إسرائيل فى أورشليم . وكانت نسخة التوراة المنقولة لبطلميوس أصح نسخ التوراة وأثبتها ، وهى التوراة اليونانية التى عليها عمل المؤرخين . أما التوراة العبرانية التى بأيدى اليهود والتوراة السامرية ، فكل واحدة منهما مبدلة لا يمكن الاعتماد عليها حتى أن السنهدرين حين وضعوا التلمود الذى يعتبره بنو إسرائيل " صنو التوراة أو أعظم " وأرادوا أن يحددوا علاقتهم بإلههم يهوه نجد أنهم أخضعوا إرادته لإرادة الحاخامات ، وطوعوا مشيئته لمشيئتهم . ففى سفر مويدقنان أحرف أنقرأ أن " للحاخامين السيادة على الله ، وعليه إجراء ما يرغبون " .[٢]

وفى عهد السلوقيين أمرانطيوخوس بانخراط اليهود فى بوتقة المجتمع اليونانى والحضارة الهلينية ، كخطوة لتوحيد أجزاء الإمبراطورية ثقافيا ودينيا ، ووضع عقوبة الإعدام لمن يعتنق اليهودية سرا أو علنا ، وقد واجه ذلك بثورة عارمة .

وقد نشبت هذه الثورة سنة ١٦٨ ق. م . بزعامة يهوذا وهو ابن كاهن يدعى ماتاتياس ، واتخذ بعد ذلك لقب المكابى وقد نجحت هذه الثورة بعد معارك كثيرة ، وقد منح الملك السلوقى دعيتروس الثانى الاستقلال الذاتى تحت حكم سمعان . وقد

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٨ ، ١٦٤ .

بقى اليهود متمتعين بهذا الاستقلال حتى مجئ الرومان . وقام الملك الحارث الثالث فى مملكة الأنباط بإيقاع العزيمة مرارا باليهود وحاصرهم فى أورشليم .(١)

القدس تحت الحكم الرومانى :

وفى سنة ٦٣ ق. م . دخلت القدس ضمن النفوذ الرومانى وذلك بعد أن دخل بومبى بلاد الشام وجعل سوريا تحت حكم الرومان مباشرة . وجرد بومبى الكاهن الأعظم لليهود هيركانوس الثانى من رتبته الملكية ، وفرض على اليهود ضرائب باهظة ، وقسم أقاليم مملكتهم إلى خمسة أجزاء يحكم كل جزء منها مجلس .(٢)

وقد أدت حالة الإضراب فى الدولة الرومانية إلى حالة اضطراب فى سوريا ، وأثناء تقسيم الإمبراطورية الرومانية من قبل الحكومة الثلاثية أصبحت سوريا ومصر تحت سلطة انطونيو وعندما عهد إليه بإدارة شئون الشرق أهمل أمر الأسرة المكابية ووضع مكانها الأسرة الهيرودية وقد برز من هذه الأسرة هيرود الذى عرف فيما بعد بالكبير . وفى عام ٣٧ ق. م . أخذ هيرود مدينة أورشليم ، ووطد سلطته كملك ، وبقى يدير الأمور لمدة ثلاث وثلاثين سنة بفضل روما .

وأقام هيرود فى أورشليم ما لا يتفق مع اليهودية من ميدان لسباق الخيل ومسرح ومدرج .. وقد اشتهر ابنه هيرود بأنه هو الذى قتل نبى الله " يحيى " المعروف بـ يوحنا المعمدان الذى كان يرعى السيد المسيح عليه السلام .

وتوفى هيرود ما بين سنة ٦ – ٢ ق. م . ومن بعده دخلت أورشليم عهدا جديدا ، بميلاد السيد المسيح عليه السلام .

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٨٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٠ .

القدس في عهد السيد المسيح عليه السلام :

وقد تعرضت مدينة أورشليم لأحداث خطيرة وذلك خلال التاريخ الميلادى ، فى ظل الحكم الرومانى ، حيث كان رد الفعل لثورات اليهود المتكررة التى جلبت الخراب والدمار عليهم وعلى المدينة المقدسة[١] ، فعاد فيهم القتل والسبى والتشريد وذلك عقوبة لهم على ما فعلوه بالسيد المسيح ومحاربته وعدم الإيمان برسالته .

بشر سيدنا جبريل عليه السلام سيدنا زكريا بيحيى ، وكانت زوجة زكريا ايساع فولدت له يحيى قبل أن تلد السيدة العذراء سيدنا عيسى بستة أشهر ، وكان سيدنا يحيى نبى وهو صغير ودعا الناس إلى عبادة الله تعالى : " فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين " (سورة آل عمران : الآية ٣٩) .

وأنزل الله عليه الكتاب ، مصدقا لقوله : " يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا (سورة مريم : الآية ١٢) . وتسمى النصارى سيدنا يحيى يوحنا المعمدان " لأنه هو الذى عمد سيدنا المسيح . وكانت " حنة " زوجة عمران لا تلد واشتهت الولد ، فدعت بذلك ونذرت أن رزقها الله ولدا أن تجعله فى خدمة بيت المقدس ، فحملت حنه وتوفى زوجها عمران وهى حامل ، فولدت بنتا وسمتها مريم ومعناه " العابدة " ثم حملتها[٢] وأتت بها إلى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار ، وقالت " دونكم هذه المنذورة ، فتنافسوا على أخذها ، لأنها بنت عمران ، وكان من أئمتهم . فقال زكريا ، إنما أحق بها لأن خالتها زوجتى ، فأخذها زكريا وضمها إلى ايساع خالتها . وما كبرت مريم بنى لها زكريا غرفة فى المسجد ، وانقطعت فى تلك الغرفة للعبادة ، وكان لا يدخل على مريم غير زكريا فقط " مصداقا لقوله تعالى : " كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا " (سورة آل عمران : الآية ٣٧) .[٣]

---

(١) De Saulcy, les Derniers jours de Jerusalem, Paris (1866), p. 9 – 80.

(٢) خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٦ – ١٢٧ .

" يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين " (سورة آل عمران : الآية ٤٣) وبشرتها الملائكة بسيدنا عيسى . فأرسل الله تعالى روحا تمثلت لها بشرا سويا " فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا " (سورة مريم : الآية ١٧) . فحملت فى سيدنا عيسى عليه السلام ، وكانت ولادته فى بيت لحم ، وهى قرية قريبة من بيت المقدس . ولما جاءت مريم بسيدنا عيسى تحمله قال لها قومها : " قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا " (سورة مريم : الآية ٢٧) .

وأخذوا الحجارة ليرجموها ، فتكلم سيدنا عيسى وهو فى المهد معلقا فى منكبها ، " قال إنى عبد الله أتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا اينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا " (سورة مريم : الآية ٣٠ – ٣١) : فلما سمعوا كلام ابنها تركوها . وكان الله عزّ وجل قد طمئن السيدة مريم بقوله : " ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل " (سورة آل عمران : الآية ٤٨) وأيضا " وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة " (سورة الحديد : الآية ٢٧) وكذلك " ومصدقا لما بين يدى من التوراة " (سورة آل عمران : الآية ٥٠) " وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل " (سورة المائدة : الآية ١١٠) .

وقد فقد الإنجيل الأصلى واندثر كالتوراة وذلك بسبب الاضطهادات التى تعرض لها المسيحيون بعد المسيح عليه السلام وكانت سببا فى اختفاء النسخة الأصلية .

والإنجيل الموجود اليوم ليس إنجيلا واحدا ، بل أناجيل كثيرة هى عبارة عن قصص وروايات فى سيرة السيد المسيح عليه السلام تنسب إلى مؤلفيها وفيها جمل صالحة ، ومواعظ حسنة يقولون أنها من كلام السيد المسيح عليه السلام وقد اتفق المسيحيون على أربعة منها هى : إنجيل لوقا ، متي ، مرقص ، ويوحنا .

ولد سيدنا عيسى فى زمن هيرود حاكم اليهود . فكان هناك ثلاثة من المجوس فى أنحاء المشرق يراقبون نجوم السماء ، فتبدى لهم نجم شديد التألق فتشاوروا فيما بينهم ، وجاءوا إلى فلسطين فى هداية هذا النجم ، ولما بلغوا بيت لحم

وهو خارج المدينة وجدوا النجم واقفا فوق المنزل حيث ولد السيد المسيح ، فذهب المجوس إلى هناك ولما دخلوا المنزل وجدوا الطفل مع أمه ، فانحنوا وسجدوا له . فلما علم هيرود بالأمر خاف على سلطانه ، فعقد النية على قتل الطفل الذى ولد ، ولكن بينما كان يوسف بن يعقوب بن ماثان (النجار) وكان حكيما وكان نائما فظهر له ملاك الرب قائلا : انهض عاجلا وخذ الطفل وأمه واذهب إلى مصر ، لأن هيرود يريد أن يقتله لأنه هو الذى سوف يرعى شعبى إسرائيل " مصداقا لقوله تعالى : " ورسولا إلى بنى إسرائيل انى قد جئتكم بآية من ربكم " (سورة آل عمران : الآية ٤٩) . وكان يوسف هو أول من انكر حملها فى البداية ثم علم وتحقق من براءتها .. فنهض عاجلا وبخوف شديد فاصطحب مريم وطفلها وساروا إلى مصر ، وأقاموا هناك اثنا عشر سنة ، توفى خلالها هيرود الذى كان قد أرسل جنوده ليقتلوا كل الأطفال المولودين حديثا فى بيت لحم .(١)

ولما مات هيرود ظهر ملاك الرب فى حلم ليوسف قائلا : " عد إلى القدس " ، فأخذ يوسف الطفل والسيدة مريم ، وكان الطفل بالغ سبع سنين من العمر وجاء إلى القدس حيث سمع أن أرخيلاوس بن هيرود أصبح حاكما فيها ، فذهب إلى الناصرة وبها سميت الناصرى ، وأقام بها ، ولما بلغ السيد المسيح اثنا عشر عاما من العمر صعد مع السيدة مريم ويوسف إلى القدس ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة فى كتاب موسى ، وكما جاء فى سورة مريم : " وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا " (الآية ٣١) . ولما تمت صلواتهم انصرفوا بعد أن فقدوا يسوع لأنهم ظنوا أنه عاد إلى الوطن مع أقربائه ، ولذلك عادت مريم مع يوسف إلى القدس ينشدان يسوع بين الأقرباء والجيران . وفى اليوم الثالث وجدوا الصبى فى المحراب وسط العلماء يحاججهم فى أمر الناموس ، وأعجب كل واحد بأسئلته وأجوبته قائلا : كيف أوتى هذا العلم وهو حدث لم يتعلم القراءة . ولما بلغ السيد المسيح الثلاثين من عمره صعد إلى جبل الزيتون مع أمه ليجنى زيتونا وبينما كان يصلى فى الظهيرة

---

(١) هذه قصة مأخوذة من إنجيل برنابا ، الفصل السادس ، ص ٨ ، راجع : خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٣٠ – ١٣٧ .

وبلغ بكلمات ربه ورسالته وأنه أرسل رسولا لبنى إسرائيل وللناس ، وسار إلى نهر الأردن ونهر الغور المسمى بالشريعة فاعتمد وبدأ الدعوة ، وكان يحيى بن زكريا هو الذى عمده وأظهر سيدنا عيسى عليه السلام المعجزات وأحيا ميتا يقال له (عازر) بعد ثلاثة ايام من موته ، وجعل من الطين طائرا وابرأ الأكمة والأبرص وكان يمشى على الماء ، كل ذلك بإذن الله وينبئهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم مصدقا لقوله : " ورسولا إلى بنى إسرائيل إنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وابرئ الأكمة والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين " (سورة آل عمران : الآية ٤٩) . وأنزل الله عليه المائدة وأوحى إليه الإنجيل . وكان الحواريون الذين اتبعوه اثنى عشر رجلا وكانوا من المسلمين . وهؤلاء هم الذين سألوه نزول المائدة . " وإذا أوحيت إلى الحواريين ان آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ، إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا " . " قال الله انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين " (سورة المائدة : الآيات ١١١ -١١٣ ، ١١٥).[١]

أخذ سيدنا عيسى عليه السلام يبشر بدين الله تعالى بين بنى إسرائيل الذين أنكروا عليه دعوته وكذبوه واتهموه بالسحر ، فقد وبخهم يسوع بأشد عنف لأنهم نسوا كلمة الله وأسلموا أنفسهم للغرور فقط ، ووبخ الكهنة لإهمالهم خدمة الله لجشعهم ، ووبخ الكتبة لأنهم علموا الناس تعاليم فاسدة وغير صحيحة وتركوا شريعة الله ، ووبخ العلماء لأنهم أبطلوا شريعة الله بواسطة تقاليدهم وأثر كلام يسوع فى الشعب حتى أنهم بكوا جميعا .[٢]

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

وأيقنوا مدى خطأهم وطلبوا من السيد المسيح أن يصلى من أجلـــهم ، ومـــا خلا كهنتهم ورؤساؤهم حتى صمموا على قتله لأنه تكلم ضد الكهنة والكتبة والعلماء . وذهب رئيس الكهنة إلى هيرود وإلى الحاكم الرومانى متهما يسوع بأنه يرغب فى أن يجعل نفسه ملكا على إسرائيل . وكان الحاكم الرومانى متعاطفا مع يسوع . فوقـــف حينذاك هيرود وهدد الحاكم قائلا : أحذر من أن يكون عطفك على هذا الرجل باعثـــا على ثورة فى هذه البلاد لأنى اتهمك بالعصيان أمام قيصر ، حينئذ خاف الحاكم مـــن مجلس الشيوخ وصالح هيرود واتحدا معا على قتل يسوع ، وقالا لرئيـــس الكهنـــة ، متى علمت أين الأثيم فأرسل إلينا نعطك جنودا .[1] وأرسل نيقوديموس الحمل ســـرا إلى البستان ليسوع وتلاميذه ، مخبرا بكل ما أمر به هيرود والحاكم ورئيس الكهنـــة ، ولما كان يهوذا يعرف الموضع الذى كان فيه يسوع مع تلاميذه ، ذهب لرئيس الكهنة وقال : إذا اعطيتنى ما وعدت به أخبرك عن مكان يسوع ورفاقـــه الأحـــد عشـــر . فأعطاه رئيس الكهنة ثلاثين قطعة من الذهب . فأرسل رئيس الكهنـــة إلـــى الحـــاكم الرومانى وهيرود ليحضرا جنودا .

ولما اقترب الجنود مع يهوذا من المكان الذى كان فيه يسوع ، سمع يســـوع قرب غفير من الناس ، فانسحب إلى البيت خائفا وكان الأحد عشر رفيقا نياما ، فلمـــا رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل واوريل ، سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم . فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النـــافذة المشـــرفة علـــى الجنود فحملوه ووضعوه فى السماء الثالثة فى صحبة الملائكة التى تســـبح الله إلـــى الأبد .

ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التى (صعد الله منها يسوع) وكان التلاميذ كلهم نيامـــا ، فأتى الله بمعجزة ، فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه ، فصار شبيها بيسوع حتـــى اعتقدوا أنه يسوع . وعندما دخل الجنود أخذوا يهوذا وأوثقوه ساخرين منه لأنه انكـــر أنه يسوع . ولما اصبح الصبح التأم المجلس الكبير للكتبـــة والشـــيوخ والروســـاء . وطلب رئيس الكهنة شاهد زور على يـــهوذا معتقديـــن أنـــه يســـوع فلـــم يجـــدوا

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

مطلبهم وأجابهم يهوذا بأنه يهوذا الاسخريوطى الذى وعدهم بتسليم يسوع الناصرى وأكثر من ذلك أن أم يسوع العذراء المسكينة مع أقاربه وأصدقائه اعتقدوا ذلك حتى أن حزن كل واحد كان يفوق الحد .[١] ولما أمسك اليهود الشخص المشتبه به ربطوه وجعلوا يقودونه بحبل ويقولون له أنت كنت تحيى الموتى ، أفلا تخلص نفسك من هذا الحبل ؟ .[٢]

. وادخل يهوذا على الحاكم الرومانى ، وكان يحب يسوع سرا ، أجاب يهوذا صدقنى يا سيدى أنك إذا أمرت بقتلى سوف ترتكب ظلما كبيرا لأنك تقتل بريئا ، لأنى أنا يهوذا الاسخريوطى لا يسوع الذى هو ساحر فحولنى هكذا بسحره . حينئذ صرخ رؤساء الكهنة ورؤساء الشعب مع الكتبة قائلين إنه يسوع الناصرى فإننا نعرفه فأخذوه إلى هيرود الذى أمر بصلبه تحقيقا لرغبة اليهود .

وهكذا تمضى الأحداث وهى تحكى قصة اليهود الذين مكروا بأنبياء الله تعالى ورسله ، ولكن الله تعالى ينجى رسله والذين آمنوا ، وأنه لم يقتل ولم يصلب ولكن شبه لهم مصداقا لقوله تعالى :

" فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا إتباع الظن وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما " (سورة النساء : الآيات ١٥٥ – ١٥٨) .[٣] " إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا " (سورة آل عمران : الآية ٥٥) .

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٥ – ١٣٦ .

وظنت السيدة مريم أن اليهود أصابوا سيدنا عيسى ونالوا منه فأنزل الله المسيح من السماء إلى أمه مريم وهى تبكى عليه ، فقال لها : " إن الله رفعنى إليه ولم يصبنى إلا الخير ، وأمرها فجمعت له الحواريين فبثهم فى الأرض رسلا عن الله وأمرهم أن يبلغوا عنه ما أمر الله به ، ثم رفعه الله إليه ، وتفرق الحواريون حيث أمرهم . وكان رفع السيد المسيح من طورزيتا ، وهو جبل شرقى بيت المقدس " .(١)

ثورة اليهود وإبادة الرومان لهم:

هذا ما فعله اليهود بيهوذا من تعذيب وصلب وقتل ، ظنا منهم أنهم قد قضوا على الدين الجديد وعادت لهم الرياسة فى دين إسرائيل ، ولكن الأحداث التالية لم تكن فى صالحهم ولا فى مصلحتهم ، فعاقبهم الله تعالى بالاضطهاد والتشريد والسبى على أيدى الرومان وعلى الرغم من المعاملة المميزة التى منحها الرومان لليهود كإعفائهم من خدمة الجيش وعبادة الإمبراطور ، وبقاء أحكامهم الدينية فى يد حكامهم ، فقد استمر الاحتكاك بين الطرفين .

فتحت حكم نيرون بدأت ثورة اليهود فى أورشليم ما بين عامى ٦٦ – ٧٠ ميلادية ، فأمر قائده فسباسيان بالقضاء عليها ومحاصر أورشليم . ولكن الأمور تطورت فى روما وتوفى نيرون وتولى من بعده فسباسيان الذى أمر ابنه تيتوس بإتمام مهمة القضاء على أورشليم ومحو آثار اليهود من المدينة المقدسة ، فحاصرها خمسة أشهر فى عام ٧٠ ميلادية وأوقع الرومان مذبحة كبيرة باليهود وذهب فيها مئات الألوف منهم ، وخربت المدينة المقدسة ويقال أيضا أنه أحرق الهيكل المزعوم (؟) وأزاله من الوجود حتى أن اليهود فيما بعد لم يهتدوا إلى مكانه .(٢) وأخليت أورشليم من بنى إسرائيل ، ولم يعد لهم بعد ذلك رياسة ولا حكم ولا عبادة ومنعهم بعد ذلك من دخول أورشليم ، والسكن

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩١ ، ١٢٠ ، ١٣٧ .

فيها ، بل الدنو منها .

لقد تمكنت فئة من جماعة الفريسيين اليهود ، من الفرار من مذبحة تيتوس واللجوء إلى مدن الساحل الفلسطينى ، وكان من بينهم عدد من حاخامات السنهدرين فمكثوا بالقرب من حيفا ثم تحولوا إلى طبريا ، فاتخذوا مركزا لهم .[١]

وقد ساد الهدوء مدينة أورشليم ن حوالى نصف قرن ، إلا أن شرارة عصيان جديد اعترضت هذا الهدوء ، وذلك على أثر إصدار الإمبراطور هادريان سنة ١١٧ - ١٣٧ م مرسوما يمنع الختان بشكل عام وإصداره أمرا بإنشاء معبدا بدل الهيكل الذى تهدم (؟) فاشتعلت نيران الثورة بقيادة باركوخبا الذى كان يساند الحاخام الكبير اكيبا واعتصمت جماعته فى المواقع الجبلية الحصينة ، وأخذوا يقومون بشن هجمات وغارات على هيئة عصابات ، وبقوا معتصبين بمواقعهم هذه ثلاث سنوات من ١٣٢ إلى ١٣٥ م ، فجرد لهم الرومان حملة عسكرية اجتاحت مواقعهم وأزالت قلاعهم وأحرقت قراهم ، وحول هادريان مدينة أورشليم إلى مستعمرة رومانية وحرم على اليهود أن يسكنوها ، وغير اسمها إلى ايلياء كبتولينا .

وكانت هذه هى الضربة الأخيرة لليهود فى فلسطين ، وبعدها لم يقم لهم كيان فيها طوال العصور التالية .[٢]

وفيما بعد سنة ١٣٨ م ألغى الإمبراطور انتونينوس المراسيم التى وضعها سلفه هادريان والقاضية بتحريم ممارسة شعائر الديانة اليهودية وبعدها استعاد اليهود المتبقون نشاطهم الدينى وأنشأوا فى الجليل الأعلى المجلس اليهودى الأعلى الذى أطلق عليه " جماعة السنهدرين " . وهم الذين وضعوا التلمود المشتمل على الشرائع اليهودية ، وقد سمى التلمود الفلسطينى ، لتمييزه تلمود بابل . وبعد ذلك ظهرت المسيحية فى ظل الحكم الرومانى ، فكان هذا الحدث فاجعة كبرى عند اليهود ، حيث

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٩٢ ، ١٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٣ ، ١٢٠ ، ١٣٧ .

وقع عليهم الاضطهاد من جديد فى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية .

وتكونت لدى الرومان قناعة كافية فى فهم العقلية اليهودية ، ومعرفة طباعهم ، وعلى أساس ذلك أخذوا يسوسون البقية المتبقية من اليهود ، وفق خطة جديدة تتمثل فى تولية أمورهم لقائد غريب عنهم ، حتى لا ينحرف خلف مناوراتهم ومؤامراتهم وكان ذلك القائد هو هيرود بن أنتيباتير الملك الجديد على اليهود ، حيث اشتهر إبان حكمه بولائه وحبه لروما وحضارتها ، وظل حاكما على اليهود طيلة حياته ، وبعد وفاة هيرود تجزأت مملكته بين أولاده الثلاثة ، فسقط اثنان منهم وهما ارشيلوس وانتيبا من جراء سبائل اليهود ودسائسهم ، وسلم الثالث لكون شعب بلده كانوا غير يهود . وعلى أثر سقوط أبناء هيرود عادت المنطقة إلى الحكم الرومانى مباشرة ، وبعدها ذاق اليهود ويلات دسائسهم ومؤامراتهم .[1] وحدث فى عام ٣٠٦ م أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين الأول المدعو بالكبير الديانة المسيحية ، وبعد ذلك اتخذ القسطنطينية عاصمة له ، وهى أسطنبول . وقد أصدر قسطنطين فى سنة ٣١٣ م مرسوما يقضى منح المسيحيين حريتهم الدينية فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية . وقام قسطنطين بزيارة القدس سنة ٣٢٦م ، وأقام كنيسة فى الموضع الذى صلب فيه يهوذا وعلى حد زعمهم المسيح حسب التقاليد الموروثة وهى كنيسة القيامة حاليا .[2]

وبعد وفاة قسطنطين ، اعتلى عرش روما الإمبراطور جوليان سنة ٣٦١م ، وقد سمى بالمرتد ، لخروجه من المسيحية وعودته إلى الوثنية . وقد حاول جوليان إعادة بناء ما يسمى بالهيكل اليهودى (؟) ، ولكن الزمن لم يمهله لتحقيق مآربه ، حيث مات بعد سنتين فى حملته على بلاد فارس عام ٣٦٣م . وبموت جوليان تغير الوضع لغير صالح اليهود الذين تمتعوا بشىء من الحرية فى عهد جوليان ، وعاد الاضطهاد ضدهم إلى ما كان من قبل .[3]

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٩٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

وفى عام ٣٩٥م حدث حادث مهم فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية حيث تم تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين : غربى وشرقى ، اصبحت بلاد فلسطين بصورة طبيعية من ضمن القسم الشرقى البيزنطى .

وبعد ذلك شهدت فلسطين نوعا من الاستقرار دام أكثر من مائتى عام ، وفى عهد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥م) أقيمت المبانى الكثيرة فى فلسطين وفى القدس ، من ذلك باب الذهب فى القدس ، وهو ما يزال يسمى بهذا الاسم حتى هذا الزمن . كما أنشئ فى القرب من المسجد الأقصى كنيسة . وفى عام ٦١٤م هاجم ملك الفرس كسرى الثانى – ابرويز سوريا ، وامتدت فتوحاته إلى أن سيطر سنة ٦١٤ م على القدس . وبعدها قام الفرس بأعمال التخريب فى البلاد ، فخربوا كنيسة القبر المقدس " كنيسة القبر الآن " كما خربوا باقى الكنائس الأخرى فهدموها هدما كاملا ، وأخذوا بطريرك القدس سجينا .[١]

ومما يذكر أن اليهود انضموا إلى الفرس فى حملتهم هذه رغبة منهم فى الانتقام من مضطهديهم المسيحيين . وهكذا فقد البيزنطيون سيطرتهم على البلاد المقدسة غير أن هذا الاحتلال الفارسى لم يدم طويلا ، فقد تولى الإمبراطور الرومانى هرقل سنة ٦١٠ – ٦٤١ م وفتح فلسطين سنة ٦٢٨ م .[٢]

ثم قام هرقل بإعداد حملات عسكرية لحق بها الفرس حتى بلادهم وقيل أنه استرجع حوالى سنة ٦٣٠م الصليب الأصلى الذى كان استولى عليه الفرس بعد احتلالهم للقدس سنة ٦١٤م .

القدس فى العصر الإسلامى :

إلا أن هذا الانتصار لهرقل لم يكتب له الدوام أيضا ، حيث أعقبه من بعده الفتوحات فى عهد الفاروق عمر بن الخطاب ، وفى عهده تم الفتح الإسلامى الكبير

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

للقدس ، وكان ذلك سنة ١٧هـ – عام ٦٣٨م .[1] وفى الشهر الذى أسرى الله تعالى برسوله محمد صلى الله عليه وسلم . وكان فتح القدس على يدى عمر رضى الله عنه ، بناء على طلب بطريرك القدس ، فحضر عمر شخصيا من المدينة المنورة عاصمة الخلافة الإسلامية ، ولما دخلها زار موضع الصخرة المشرفة التى عرج من عليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السموات العلى . وكانت الصخرة على حالة غير مرضية . فأمر بتنظيفها وجعل فيها المصلى المعروف الآن بمسجد عمر الذى تم بناؤه في سنة ٣١ هجرية تقريبا وهو أول مسجد بني للمسلمين في مدينة القدس حاليا . كما اهتم الخليفة عبد الملك بن مروان ببيت المقدس وبني مسجد قبة الصخرة الذى شرع في بنائه في عام ٧٤ هجرية (٦٩١ ميلادية) . وبنى الخليفة الوليد بن عبد الملك بجانب مسجد الصخرة المسجد الأقصي عام ٨٦ هجرية (٧٠٥ ميلادية) .

ويذكر مولانا الشيخ يحيى كامل فى مؤلفه القيم "رسالة الإسلام" عدة حقائق بالنسبة لما شيد فى القدس :

---

(١) واصل عمرو بن العاص فتوحاته فى فلسطين ففتح غزة ونابلس واللد ويافا ثم توجه نحو بيت المقدس وتحصن الروم فيها واستعدوا لمقاومة المسلمين بجمع كبير من قواتهم ، تقدم المسلمون نحو بيت المقدس وطلبوا تسليمها سلما دون قتال ولكن سكانها رفضوا مما دفع المسلمون إلى حصارها عدة شهور اشتد فيها الضيق وبات سقوطها وشيكا . فرغب أهلها فى الصلح شريطة أن يتولى عقد الصلح معهم الخليفة عمر بن الخطاب نفسه فكتب عمرو بن العاص إليه بذلك . خرج الخليفة عمر بن الخطاب من المدينة المنورة قاصدا بلاد الشام حيث وصل إليها وأبرم الصلح مع سكان بيت المقدس ، وأعطاهم فيه أمانا لأنفسهم وأموالهم ودور عبادتهم على أن يؤدوا الجزية المفروضة عليهم للمسلمين . وهكذا دخل المسلمون المدينة المقدسة صلحا دون قتال .

" عندما قدم عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس وزار مكان الحرم الشريف وشيد به مسجدا لم يعرف مكانه على وجه التحديد . إنما يرجح أنه أقيم مكان المسجد الأقصى الحالى أى فى الطرف الجنوبى من ساحة الحرم " (ص ٩٧) .

" ويذهب أكثر المؤرخين إلى أن بانى مسجد الصخرة عبد الملك بن مروان ، هو نفسه الذى بنى ، بل شرع فى بناء المسجد الأقصى وكان ذلك سنة ٧٤ هجرية (٦٩١ ميلادية) وقد استعمل فى بنائه أنقاض كنيسة القديسة مارى أو كنيسة جوستنيان التى كانت فى نفس موقع المسجد الأقصى أو بالقرب منه والتى هدمتها جيوش كسرى فى تاريخ سابق بنحو ٧٥ سنة . أما الذى أكمل بناء هذا المسجد فكان الوليد بن عبد الملك . وكان ذلك سنة ٨٦ هجرية (٧٠٥ ميلادية) " (ص ٩٨ – ٩٩) .

وبناء على ذلك يكون محصلة ما ورد عن المسجد الأقصى ومسجد الصخرة ومسجد سيدنا عمر هى كالآتى :

١- أن أقدم المساجد هو مسجد سيدنا عمر ويكون قد تم بناؤه فى سنة ٣١ هجرية تقريبا وهو أول مسجد بنى للمسلمين فى مدينة القدس حاليا أو ما كان يسمى بيت المقدس قبل الفتوحات الإسلامية .

٢- إن الشروع فى بناء المسجد الأقصى كان فى سنة ٧٤ هجرية وتم بناؤه سنة ٨٦ هجرية وهى الفترة المعاصرة لبناء مسجد الصخرة (ص ١٠٠) .

ولا يعرف الكثير عن مسجد سيدنا عمر هذا . إلا أن سائحا أوروبيا اسمه اركولوف زار القدس سنة ٦٧٠ ميلادية وشاهد مسجد عمر ولم يمضي على بنائه ثلاثون عاما . ويذكر اركولوف هذا أن المسجد كان بسيطا للغاية " (ص ٩٩) .

" وبذلك يتضح أن المسجد الأقصى لم يكن له وجود وقت نزول سورة الإسراء على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (ص ٦٨) . وأن بناء المسجد الأقصى لم يتم إلا بعد حوالى ٨٦ سنة من نزول القرآن على سيدنا رسول الله حيث لم يكن موجودا فى مكانه فى ذلك الوقت إلا بيت المقدس " (ص ١٠٠) .

" إذن الإشارة فى عبارة صريحة فى القرآن الكريم إلى المسجد الأقصى فى أول سورة الإسراء كانت باعتبار ما سيكون وهو نبأ عن المستقبل أوحى الله به إلى سيدنا رسول الله بأن موطئ قدمه الشريف فى البيت المقدس فى ذلك الوقت سيكون فيما بعد مسجدا ويسمى كما قدر الله فى كتابه العزيز المسجد الأقصى عند إتمام بنائه وقد حقق الله وعده الذى أنزله على رسوله وتم بناء المسجد وسيظل هكذا أبد الآبدين المسجد الأقصى مهما حاول المتآمرون وجاروا – ولن تفلح أية مؤامرة أو مكيدة لتحويل هذا المسجد إلى معبد أو هيكل " (ص ١٠٠) . بعد ذلك دخلت مدينة القدس فى تاريخ البشرية من أوسع أبوابه . واصبح لها مكانة خاصة فى قلوب شعوب الأمم الإسلامية ، وذلك منذ اختارها الله تبارك وتعالى من بين بقاع الأرض بعد مكة المكرمة .

اختار الله سبحانه وتعالى مدينة القدس لتكون مهبطا لوحى السماء ومستقرا آمنا للأنبياء ، أنزل الله تعالى فيها الزبور والإنجيل وجعلها قبلة للعابدين ووجهة للعاكفين ، فكان فيها بيتن القدس ومن عظم شأنها عند الله عز وجل أنه سبحانه طهرها من رجس المشركين فلم ينصب فيها وثن ، ولم يشرع فيها بصنم .[١]

وهناك أحداث ثلاثة ارتبطت بتاريخ القدس فى العصر الإسلامى :

– **الحدث الأول** : حين اختار الله تبارك وتعالى القدس مهدا للإسراء وقاعدة للمعراج ، " سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير (سورة الإسراء : الآية ١) . لقد كان التوجه إلى المسجد الأقصى ليلة الإسراء ، تكريما من الله تعالى لهذه الأمة الإسلامية ممثلة فى شخصية نبيها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ حشد الله تعالى له ليلتها جميع الأنبياء والمرسلين ، ابتداء من سيدنا آدم حتى سيدنا عيسى عليهم السلام جميعا ، وأشهدهم بأنه تم نزع الملك والنبوة من بنى إسرائيل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، وذلك كما قال الله تعالى فيهم : " مثل الذين

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين " (سورة الجمعة : الآية ٥) .[١]

فكان هذا الاختيار ضرورة دينية لابد منها لأن شعب إسرائيل حين أصبح مفسدا محرفا للتنزيل ، كان لابد من استبعاده عن مهمة حمل أمانة السماء ولقد أوضح له تعالى ذلك فى قوله الحق : " يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون " (سورة آل عمران : الآية ٧١) ، وأيضا قوله تعالى : " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون " (سورة البقرة : الآية ٧٩) .

وتأكيدا على هذا الاختيار تم لقاء بين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبين شيخ الأنبياء سيدنا موسى عليه السلام ، فى المسجد الأقصى بعد الإسراء ، وفى السماء السادسة لدى العودة من المعراج وتردد رسول الله بين ربه عز وجل وبين موسى مرات ومرات وهو يطلب منه أن يسأل الله تعالى لأمته التخفيف فى فريضة الصلاة خمسين صلاة فى اليوم والليلة لقد كان هذا الحدث العظيم ليلة السابع والعشرين من شهر رجب ، قبل الهجرة بعام تقريبا .

إن الله سبحانه وتعالى حين ربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، فقد دل على تلك الصلة القديمة الأصيلة التى تجمع بينهما من حيث النشأة وصلة النبوة المتأصلة في تخومها حيث جعلهما سبحانه وتعالى مهدا للأنبياء والرسل .[٢]

فكما ملك الله تعالى المسلمين المسجد الحرام الذى بناه خليل الرحمن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، كذلك ملكهم المسجد الأقصى الذى وضع قواعده حفيد سيدنا إبراهيم سيدنا يعقوب عليهما السلام ، قبل ذهابه إلى مصر ، وذلك لعدم أهلية بنى إسرائيل للقيام بهذا الواجب المقدس فأخذ منهم ذلك الشرف الكبير ، ومنحه

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٢٤ - ٢٥ ، ١٦٩ ، ١٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٩ - ١٧١ .

للعرب المسلمين الذين يصونون الأمانة ويؤدون الرسالة ويحفظون الكرامة .[١]

ولما أسرى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن المسجد الأقصى بحالته الحاضرة موجودا ، ولا الهيكل المزعوم (؟) لسيدنا سليمان أى أثر ، فأعلم الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم مكان المسجد الأقصى فى المكان الذى جمع له الأنبياء فيه حيث أمهم وصلى بهم .

- أما الحدث الثانى : فهو فتح بيت المقدس على أيدى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، وكان ذلك بعد ستة عشر عاما من تسلم الأمانة من سيدنا موسى عليه السلام فى السماء . كان تسلم مفاتيح ايلياء أى القدس على يدى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب فى شهر رجب فى العام الخامس من الهجرة الذى تم بعهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بذلك .

وذكر المؤرخ ابن الوردى فى تاريخه : أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لعمر بن الخطأب : " انك ستفتح بيت المقدس بلا قتال " .

وجاء فى نص وثيقة العهد الذى أعطاه عمر بن الخطاب لبطريرك القدس ، حين سلمه مفاتيح القدس ، حيث كتب لهم : [٢]

" بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم .. وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ولا شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود " .

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦ ، ١٧١ - ١٧٢ .

ويفهم من هذا الشرط الذى جاء فى الوثيقة أن اليهود لم يكونوا من أهل ايلياء ، وأن على أهل ايلياء أن يمنعوا اليهود من استيطان القدس أو حتى السكنى فيها ولو لفترة من الزمن ، وذلك لفسادهم وبغيهم .[١]

وبعد هذا الفتح عاشت القدس مسلمة عربية ، يعيش فيها المسلمون والنصارى فى تسامح فيما بينهم حتى عصفت بتلك الأرض فتنة الصليبيين والتى استمرت اثنين وتسعين عاما وذهب ضحيتها ما يقرب من مائة ألف ضحية وشهيد .

- **أما الحدث الثالث** : فهو تحرير القدس من براثن الصليبيين المعتدين فى ٢٧ من شهر رجب عام ٥٨٣ للهجرة ، وهو اليوم الذى يوافق ذكرى الإسراء والمعراج ، وتم هذا التحرير على يد البطل صلاح الدين ، الذى كان يجلس على ربوة تطل على القدس بينما كانت جموع الصليبيين يرحلون مهزومين من المدينة المقدسة . لقد دخل المسلمون الأراضى المقدسة بعد جهاد طويل ، استمر ثلاثة وثمانين عاما أو أكثر ، فى لحظات تاريخية حملت من مشاعر الإيمان والعزة والكرامة ما عجزت عن وصفه أقلام المؤرخين وألسنة الشعراء والأدباء الذين عاصروا هذا الحدث العظيم .

(٥) ما قيل فى وصف الأقصى :

وفى وصف المسجد الأقصى قال الإمام ياقوت الحموى :

" وأما الأقصى : فهو فى طرفها الشرقى (أى القدس) نحو القبلة ، أساسه من عمل داود عليه السلام ، وهو طويل عريض ، وطوله أكثر من عرضه وفى نحو القبلة ، المصلى الذى يخطب فيه للجمعة ، وهو على غاية الحسن والإحكام ، مبنى على الأعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التى ليس فى الدنيا أحسن منها .[٢] وفى وسط صحن هذا الموضع مصطبة عظيمة ، وفى وسط هذه المصطبة قبة عظيمة

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٢٧ ، ١٧٠ - ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٩٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

على أعمدة رخام مسقفة برصاص منمقة بالفسيفساء مطبقة بالرخــــام الملــون قــائم ومسطح ، وفي وسط هذا الرخام قبة أخرى ، وهي قبة الصخرة التي تزار ، وعلــى طرفها أثر قدم النبى صلى الله عليه وآله وسلم وتحتها مغارة ينزل إليها بعــدة درج . ويصلى فيها وتزار ولهذه القبة أربعة أبواب ، وفي شرقيها قبة أخرى علــى أعمــدة مكشوفة حسنة ، وقبة المعراج أيضا على حائط المصطبة ، وقبة النبــى داود عليــه السلام كل ذلك على أعمدة مطبق أعلاها بالرصاص .

ويدخل إلى المسجد من ثلاثة عشر موضعا بعشرين بابــا ، منــها : بــاب الحطة ، وباب النبى عليه الصىة والسلام ، وباب محراب مريم ، وباب الرحمــــة ، وباب بركة بنى إسرائيل ، وباب الأسباط ، وباب الهاشميين ، وباب الوليد ، وبــاب إبراهيم عليه السلام ، وبابا أم خالد ، وباب داود عليه السلام . وفيه من المشــاهد : محراب مريم وزكريا ويعقوب والخضر ، ومقام النبى صلى الله عليه وآلــه وســلم وجبرائيل ، وموضع المنهل والنور والكعبة والصراط متفرقة فيها ، وقال أيضا وفــى المسجد أماكن كثيرة وأوصاف عجيبة لا تتصور إلا بالمشاهدة عيانا . ومــن أعظــم محاسنه أنه إذا جلس إنسان فيه فى أى موضع منه يرى أن ذلك الموضع هو أحســن المواضع واشرحها ، ولذا قيل : ان الله نظر إليه بعين الجمال ونظر إلــى المسجد الحرام بعين الجلال .[1] وهكذا عندما جاء الفتح الإسلامى فى القرن السابع الميــلادى لم يكن فى القدس أى جماعات يهوديـــة تقطنــها ، وكــانوا مشــتتون فــى الأرض ضائعون . ولهذا كان العهد الذى كتبه عمر بن الخطاب لبطريرك القــدس مشــروطا بعدم السماح لليهود بالسكن فى القدس ، استمرارا لإقصاء اليهود عــن فلســطين .[2] وبذلك قضى على بنى إسرائيل كأمة لها كيان أو وطن . وذلك عقوبة دائمة باقية فــى هذا النسل المتمرد على خالقه ورسله والناس جميعا ، والخارج على الإنسانية التــى يتصف بها البشر ولم يجعلهم الله تعالى يهنئون بوحدة الأمة والأمان من بعد موســى

---

(١) خالد العك : المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٣ .

عليه السلام ، وفى هذا قوله سبحانه وتعالى :

" وقطعناهم اثنتا عشرة أسباطا أمما " (سورة الأعراف : الآيـــة ١٦٠) . وقوله أيضا : " وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلونـاهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون " (سورة الأعراف : الآية ١٦٨) .

وهكذا .. تمضى دولة إسرائيل مولية عن أرض القدس وفلســطين دون أن تترك أى أثر حضارى يدل على رقى هذا الشعب الذى يدعـــى زورا وبــهتانا أنــه الشعب المختار عند إله إسرائيل .

(٦) أهم التنقيبات الأثرية فى أنحاء فلسطين والقدس خاصة :

اهتم علماء أوروبا فى الدراسات الشرقية ورؤساء بعثات الحفــائر التابعــة للجامعات ومراكز البحوث أو الفنون والمعاهد العلمية المختلفة فى أوروبـا وأمريكـا بالبحث عن أدلة تؤكد صحة ما ورد فى التوراة من أسماء مدن فلســطينية قديمــة . وكان هدف أغلبهم من وراء ذلك هدف سياسى وهو محاولـــة الكشــف عــن آثـار للعبرانيين واليهود فى فلسطين . أو ما يدل على دورهم فى تاريخ فلسطين القديـــم . لذلك لا عجب أن تكون مدينة القدس قد شكلت بدايـــة أعمــال التنقيـب فــى إطــار الدراسات الشرقية القديمة وإطار الدراسات اليهودية المسيحية والعهد القديم .

اتخذت حفائر البعثات الأجنبية واليهودية فى فلسطين اتجاهين :

(أ) حفائر فى جميع أنحاء فلسطين والمناطق الأثرية فيها . وبدأت هذه الحفائر عام ١٨٩١ ويبدو أن بعض هذه الحفائر كان مخصصا لخدمـــة غـرض سياســى وانتشرت هذه الحفائر فى أكثر من ٢٥ موقعا .

(ب) ففى الوقت الذى كان فيه المنقبون عن الآثار يعملون فى أنحاء فلسطين ، كـان هناك آخرون يقومون بحفريات اثرية مماثلة فى جميع أنحاء القــدس والقـدس نفسها وبدأت عام ١٨٦٤ واستمرت بعد ذلك بعد قيام دولـة إســرائيل نفســها ١٩٤٨ وزادت حمة الحفائر بعد عام ١٩٦٧ بعد أن احتل الإسرائيليون القـدس الشرقية وجندوا لذلك كل بعثات الحفر اليهودية والأجنبية والبعثات التى تســاند

باستمرار الفكر الصهيونى ولا زالت هذه الحفائر مستمرة حتى الآن أملا فى العثور على بقايا اثرية تثبت ادعاءاتهم وكذبهم وتطاولهم على التاريخ . فهم يدعون أن سيدنا داود اختار القسم الشمالى من الهضبة الشرقية فى القدس ، أى القسم الذى يقع شمال حصن صهيون لبناء الهيكل المزعوم (؟) فيه ويعرف هذا القسم بجبل المريا . وأن سيدنا سليمان قام باختيار هذا الموضع لبناء الهيكل بعد ذلك ، ويدعون أيضا أن موضع هذا الهيكل المزعوم هو الآن الحرم الشريف وفى وسطه مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى إلى الجنوب منه .[1]

وسوف نستعرض أولا أعمال بعثات الحفائر فى أنحاء مختلفة من فلسطين ونقوم بذكرها طبقا لتواريخ أعمالها ابتداء من عام ١٨٩١ إلى ١٩٥٢ ، وهى كالآتى :

١- أجرى بترى حفائر أثرية فى تل الحصن إلى الشمال من مدينة غزة ثم أكملها بليس عام ١٨٩١ و ١٨٩٣ . ومن أهم المكتشافات الأثرية التى عثر عليها فى هذا التل ، كان لوحا طينيا نقش عليه نص باللغة والكتابة المسمارية (البابلية) ويرجع تاريخه إلى حوالى عام ١٤٥٠ - ١٣٥٠ ق.م . وهو نفس عصر تل العمارنة فى مصر .

٢- وفى الجزء الجنوبى الغربى من فلسطين قام بليس ومكلستر بعدة حفائر خلال الأعوام ١٨٩٨ إلى ١٩٠٠ فى سان يوحنا على بعد ١٢ كم شمال غرب بيت حيرين وفى تل زكريا على بعد ٣ كم شمال بيت حيرين . وكان من أهم ما عثر عليه فى هذه الحفائر تماثيل صغيرة مصنوعة من البرونز تمثل بعض القوى السحرية . وعثر فى تل الصافى على لوح من الطين يرجع إلى العصر الآشورى .

---

(١) أحمد سوسه : العرب واليهود بين الماضى والحاضر ، ص ٤٠٠ .

٣- قام سيلين من عام ١٩٠٢ إلى عام ١٩٠٤ بحفائر ناجحة فى تل الطعانك الواقع جنوب شرقى حينا . وأثبتت هذه الحفائر أن عمران المنطقة كان مؤكدا خلال الفترة من عام ٢١٠٠ إلى ١١٩٠ ق.م . وقد عثر خلال هذه الحفائر على أكبر مجموعة من الألواح الطينية التى اكتشفت حتى الآن فى فلسطين . وترجمها هروزنى ثم أعاد أولبرايت دراستها من جديد ، وتؤكد هذه الكتابات أن سكان فلسطين الأوائل كانوا يستخدمون اللغة والكتابة المسمارية (البابلية) فى مراسلاتهم .(١)

٤- ثم جاء بعد ذلك مكلستر الذى قام بحفائره فى تل الجسر بالقرب من يافا واستمرت أعماله من عام ١٩٠٢ إلى عام ١٩٠٩ (ثم أكمل هذه الحفائر روى فى عام ١٩٣٤) . وقد أثبتت الحفائر أن تل الجسر كان عامرا بالسكان بدءا من عام ٣٧٠٠ ق.م . ومن أهم المكتشفات الأثرية ما يعرف باسم " تقويم الجسر " .

٥- وأجريت حفائر فى مجدو على بعد ٣٠ كم جنوبى شرقى حيفا وكشف فيها عن أماكن الإسطبلات التى كان يستخدمها ملوك إسرائيل لحفظ خيولهم ، وقامت أول حفائر المانية فى هذا الموقع عام ١٩٠٣ - ١٩٠٥ .

٦- أجرى شومخر خلال الأعوام من ١٩٠٣ إلى ١٩٠٥ عدة حفائر فى منطقة تعتبر من أشهر مناطق فلسطين القديمة ، وهى منطقة تل المتسلم (مجدو القديمة) الواقعة جنوب شرقى حيفا . وبالرغم من نجاح هذه الحفريات الأولى إلا أن النتائج العلمية القيمة لم تظهر إلا مع حفائر فيشر من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٢٧ ثم تابعها جى من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٣٦ . ثم اختتمها لود فى عام ١٩٣٠ . ومن بين النتائج الهامة التى اسفرت عنها هذه الحفائر ما يخص علم الطبقات الأثرية وتسلسلها فى هذا التل . وقد أكدت هذه الحفائر أهمية هذا الموقع الاستراتيجى خلال الألف الثانية ق.م . ولقد دارت معارك طاحنة بين

---

(١) د. توفيق سليمان : المرجع السابق ، ص ٣٤٠ .

جيوش دول الشرق القديم لاحتلال هذا الموقع الحصين . وكان هذا الموقع آهـلا بالسكان منذ العصر الحجرى الحديث حتى العصر اليونانى . فبلغ عدد طبقاتـه السكانية حوالى عشرين طبقة .[١]

٧- قام سيلين بعمل حفائر فى مدينة اريحا (يريحو)[٢] من عام ١٩٠٧ إلـى عـام ١٩٠٩ (واستمرت الحفائر فى هذا التـل مـن عـام ١٩٣٠ إلـى ١٩٣٥ ثـم استكملتها السيدة كينيون ابتداء من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٥) . وعثر فـى هذا الموقع على أنواع من الفخار فى المواسم الأولى . أما فى المواسم الأخـيرة فقد أكدت الحفائر أن الإنسان سكن هذا الموقع من خـلال العصـر الحجـرى الحديث . كما عثر فيه على نماذج جصية لجماجم آدمية .

٨- وفى عام ١٩٠٨ أجريت حفائر فى شمال نابلس أمدتنا بالأثاث الذى كان حـافلا به قصر عمرى الذى أسس مدينة السامرة وجعلها عاصمة لدويلة إسرائيل .[٣]

٩- وخلال أعوام ١٩٠٨ إلى ١٩١٠ ترأس كل من من ليونـارد وريزنـر أعمـال التنقيب فى الموقع المعروف حاليا باسم تل السيسنية . ثم تابعها كروفـوت مـن عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٣٥ . وقد أظهرت هذه التنقيبات أن الموقع كان عـامرا بالسكان خلال الألف الثالثة قبل الميلاد ، مما يدل على أنه كـان مـن تأسيس الكنعانيين (السكان الأصليين) وليس من عمل العبرانيين أو اليهود الذيـن لـم يكونوا قد ظهرا بعد على مسرح أحداث تاريخ المنطقة .

١٠- وفى عامى ١٩١٢ و ١٩١٣ أجرى مكانسى حفريات فى التـل المعـروف حاليا باسم عين شمس الذى يبعد كم إلى الغرب من القدس . وقد أكـدت هـذه الحفائر أن المنطقة كانت آهلة بالسكان خلال جميع الفتـرات الممتدة من عـام

---

(١) د. توفيق سليمان : المرجع السابق ، ٣٤١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

(٣) Eydoux, A la Recherche des mondes perdus, p. 105, 108, 110 – 113.

٢١٠٠ إلى ٦٠٠ ق. م . أى طوال مدة ١٥٠٠ عام . ومن أهـم المكتشـفات الأثرية خلال هذه الحفائر ، قطعة من الكتابة السينائية يرجع تاريخها إلى عـام ١٦٠٠ أو ١١٩٠ ق. م .

١١- وأجرى سـيلين خـلال الأعـوام ١٩١٣ و ١٩١٤ (و ١٩٢٦ و ١٩٣٤) حفائر فى موقع تل بلاطة الواقع إلى الشمال من القدس وكشف فى هذا الموقـع على عدد من الألواح المسمارية .

١٢- قام فيشر فى عام ١٩٢١ بحفائر فى مدينة بيسان (ربما بيت شان القديمـة) الواقعة جنوب بحيرة طبرية وتعرف اليوم باسم تـل الحصـن .[1] واسـتمرت حفائره حتى عام ١٩٢٣ ثم تابعها روى من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٢٨ . ومـن بعده فيتسكرالد من عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٣٣ . وأكدت جميع أعمال التنقيبـات هذه أن هذا التل كان عامرا بدون انقطاع منذ الألف الرابعة ق. م . حتى عـام ٢٠٠ ق. م . واكتشف فيها بقايا معابد وكتابات ترجع إلى عصر الملكين سـيتى الأول ورمسيس الثانى . كما عثر على كميات كبيرة من الفخار .[2]

١٣- نفذ كرشنك وآدمز خلال الأعوام من ١٩٢١ حتى ١٩٢٤ حفريات محـدودة فى عسقلان الواقعة على بعد ١٥ كم شمال غزة .

١٤- أجرى أولبرايت حفريات خلال أعوام ١٩٢٢ و ١٩٢٣ وفـى ١٩٣٣ فـى تليلات غسول الذى يقع على بعد ٥ كم شمال القدس .

١٥- وفى عامى ١٩٢٥ و ١٩٢٦ قام تورفيل بيتر بتحريات أثرية فى مغـارتى الزوتية والأميرة فى وادى العمود إلى الشمال الغربى من بحيرة طبرية . وعـثر فى مغارة الزوتية على جمجمة لإنسان الـ نياندرتال من العصر الموستيرى .

---

(١) د. توفيق سليمان : المرجع السابق ، ص ٣٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤٣ .

١٦- وفى أعوام ١٩٢٥ إلى ١٩٣٦ أجرى بادى حفريات أثرية واسعة النطاق فى تل النصبة الذى يقع على بعد ١٢ كم شمال مدينة القدس . وأكدت الحفائر أن المدينة كانت آهلة وعامرة بالسكان ما بين عامى ٢١٠٠ و ١٦٠٠ ق.م . ثم هجرت من عام ١٦٠٠ حتى ١٣٥٠ ق.م . ثم أعيد الاستقرار فيها فى الفترات ما بين ١٣٥٠ و ٦٠٠ ق.م .

١٧- قام كجير وشميت خلال الأعوام ١٩٢٦ و ١٩٣٢ بحفائر أثرية فى منطقة سيلون التى تبعد مسافة ٣٠ كم إلى الشمال من مدينة القدس . وقد أثبتت الحفائر أنها كانت آهلة بالسكان خلال الفترة من ٣١٠٠ حتى ٦٠٠ ق.م.

١٨- أجرى كرستنك خلال عام ١٩٢٨ فى الجزء الشمالى من فلسطين حفريات فى أحد أشهر التلال الأثرية المعروفة هناك وهو تل القاضى . وأثبتت الحفائر بأن هذا التل كان عامرا بلا انقطاع من عام ٣١٠٠ إلى ٦٠٠ ق.م .(١)

١٩- وخلال الأعوام من ١٩٢٨ حتى عام ١٩٣٠ قام بترى بحفائر فى تل فرعه الواقع على بعد ٢٥ كم جنوبى شرقى غزة .(٢)

٢٠- وفى عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٣٤ ترأس بترى أيضا بعثة حفائر فى تل العجول الذى يبعد مسافة ٧ كم إلى الجنوب من غزة . ثم قام بحفريات أخرى فى عام ١٩٣٨ بنفس التل .

٢١- وفى عام ١٩٣٠ دخل الفاتيكان ميدان الحفائر إذ أرسل بعثة تمثل المعهد البابوى لدراسات العهد القديم فى روما . وكانت البعثة برئاسة ملون وكوبل ونوفيل الذين أجروا حفريات فى منطقة تليلات غسول الواقعة شرقى الطرف الشمالى من البحر الميت واستمرت الحفائر من عام ١٩٣٠ إلى ١٩٣٨ .(٣)

---

(١) د. توفيق سليمان : المرجع السابق ، ص ٣٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣٩ .

وتتكون هذه المنطقة من ثلاثة تلال أثرية متجاورة . وقد أثبتت أعمال التنقيب فيها أنها كانت آهلة بالسكان خلال الحقبة الممتدة من ٢١٠٠ إلى ١٦٠٠ ق. م . ومن بين أهم مكتشفاتها الأثرية رسوم جدران ملونة لم تزل حتى الآن فريدة فى نوعها فى فلسطين القديمة . وتضفى هذه الحفائر أهمية خاصة على أنواع الفخار التى اكتشفت فى هذه التلال .

٢٢- وأجرى جونز حفائر فى اتليت الواقعة على بعد ١٤ كم جنوب حيفا وذلك فى عام ١٩٣٠ . وعثر على بقايا حصن صليبى الذى يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر الميلادى . واكتشف تحت الحصن محلة سكنية قديمة يرجع تاريخها إلى عام ١٦٠٠ ق. م . وظلت هذه المنطقة عامرة حتى العصر اليونانى . كما عثر على أدوات صوانية من العصر الحجرى القديم ، وهى ذات أشكال معينة اكتشفت لأول مرة فى هذه المنطقة .(١)

٢٣- أجرى سلرز حفائر فى خربة الطبقة عام ١٩٣١ والواقعة على بعد ٧ كم شمال حبرون .

٢٤- قام سوكينيك بعمليات مسح أثرى فى تل العفول الواقع على بعد ١١ كم جنوب الناصرة وذلك خلال أعوام ١٩٣١ إلى ١٩٣٧ ثم تابعها اليهودى بن دور خلال عام ١٩٥٢ .

٢٥- وقام كل من كوبل ومدر خلال عام ١٩٣٢ بحفائر فى تل العويجه على الشاطئ الشمالى من بحيرة طبرية .

٢٦- وقام هاميلتون بحفائر فى تل أبو حوام الواقع على بعد ٢ كم جنوب شرق حيفا خلال عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٣ وقد تأكد للمنقب أن هذا التل كان عامرا بالسكان خلال الفترات من ١٣٥٠ إلى ١١٩٠ ق. م . ثم هجر وأعيد سكناه من ٩٠٠ ق. م . وحتى العصرين الرومانى والبيزنطى .

---

(١) د. توفيق سليمان : المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

٢٧- أجرى ستاركى خلال الأعوام من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٨ حفائر فى تل الدوير الواقع على بعد ٨ كم جنوب غرب بيت حيرين . وكشفت خلالها عن محلات سكانية عديدة يرجع تاريخها إلى الفترات من ١٦٠٠ إلى ١٤٥٠ ق. م . ثم هجرت وأعيد سكناها من جديد وقد تم الكشف عن أساسات ثلاثة معابد فى ثلاث طبقات متعاقبة ومعها بعض الكتابات بالأحرف السينائية . كما عثر أيضا ولأول مرة على ثمانى عشرة كتابة بالحروف العبرية يعود تاريخها إلى عام ٩٠٠ - ٦٠٠ ق. م .

٢٨- أجرى نوفيل وستكليس حفريات محدودة فى القفصة على بعد ٣ كم جنوب الناصرة خلال الأعوام من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٥ .

٢٩- أجرى كراوزى خلال الأعوام من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٥ حفائر فى موقع التل على بعد ١٥ كم إلى الشمال الشرقى من مدينة القدس . واكتشف فيها بقايا سكنية يرجع تاريخها إلى الفترة بين ٢٧٠٠ و ٢١٠٠ ق.م ، وبين ١١٩٠ و ٩٠٠ ق. م .

٣٠- قام اورى بحفائر خلال الأعوام من ١٩٣٤ إلى ١٩٣٦ فى رأس العين على بعد ١٥ كم شمال شرق يافا .

٣١- وفى عام ١٩٤٥ أجريت أشهر أعمال التنقيب عن الآثار فى شمال فلسطين على الطرف الجنوبى لبحيرة طبرية وذلك فى الموقع المعروف باسم " تل خربة كرك " الذى يبلغ طوله حوالى الكيلو متر . وربما هو المعروف فى النصوص القديمة بـ " بيت يرخ " . وكان هذا التل عامرا منذ بداية الألف الرابعة ق. م . وقد عثر فيه على عدد من الأدوات الصوانية وازدهرت فيه حضارة من عام ١٩٠٠ إلى ١٧٥٠ ق. م . واكتشفت فيه محلات سكانية يعود تاريخها إلى العصر اليونانى . وقد شيدت عليها مدينة جديدة سميت فيلوتيريا واحتل اسم هذا التل مكانا بارزا فى علم آثار غرب آسيا عامة . وذلك بسبب العثور فيه على فخار مصقول يمتاز باللون الأحمر البنى وهو المعروف باسم فخار خربة كرك . وأصبح هذا الاسم يطلق على جميع أنواع

الفخار المماثلة التى عثر عليها فى مناطق عديدة تمتد من شمال بلاد الشام حتى القوقاز .

٣٢- وأجرى ديفو فى أعوام ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ و ١٩٥١ حفائر فى تل فرعة الواقع على بعد ١٢ كم شمال غرب نابلس . وكان هذا التل عامرا ابتداء من حوالى الألف الرابعة إلى ٢٦٥٠ ق. م. ومن ١٦٥٠ إلى ٦٠٠ ق. م .

٣٣- وحدثت أهم الاكتشافات الأثرية فى عام ١٩٤٧ فى منطقة خربت كومران التى تقع شمال البحر الميت حيث عثر على مخطوطات تخص الآسنيين ، وهم جماعة من الرهبان اليهود الذين عاشوا فى القرن الثانى ق. م . وكانوا يعيشون على الطهارة وفى منعزل عن العالم . وفي عام ٦٠ ميلادية عندما غزا الرومان فلسطين واستولوا على القدس تفرق هؤلاء الرهبان . وخبأوا مخطوطاتهم فى تلك الكهوف . وعثر على حوالى ٦٠٠ مخطوط من الجلد ، كانت جزءا من مكتبة هؤلاء الرهبان .(١)

٣٤- قام مايسلر بحفائر عام ١٩٤٨ فى تل الفصيل الواقع إلى الشمال من مدينة يافا .

٣٥- كما قام توشينكهن بحفائر فى نفس الفترة فى ديبان .

حفائر بدون تواريخ محددة :

٣٦- أجريت حفائر فى تل الجمة ، على بعد ١٣ كم جنوبى غزة وذلك برئاسة بترى .

٣٧- ثم قام أولبرايت بحفائر فى تل بيت مرسيم الذى يقع على بعد ٢٠ كم غربى الخليل . وعثر فى هذا الموقع على مجموعات كبيرة من الفخار ، وقد سهلت

---

(١) Danielou, les Manuscrits de la Mer Morte, p. 87.

هذه المجموعات للعلماء دراسة فخار فلسطين وتصنيفه خلال الفترة من ٢٤٠٠ إلى ٢١٠٠ ق.م .

٣٨- أجرى أولبرايت حفريات جديدة محدودة فى تبين الواقعة على بعد ١٧ كم شمال القدس .

٣٩- وأجرى معهد الآثار البريطانى حفريات فى تل الدوير الذى يبعد ٢٤ كم إلى الجنوب من حيفا وتبين أن هذا التل كان آهلا بالسكان خلال الألف الثانية ق.م .

٤٠- كما أجرى تورفيل بيتر بعض الدراسات الأثرية فى مغارة الكبارة التى تبعد حوالى ٣٥ كم إلى الجنوب من حيفا .

٤١- أجرى كرود وفكون وبتى عمليات مسح أثرى فى مغارات وكهوف السخول والطابون والواد التى تقع جنوب حيفا ثم مغارة الشوكية التى تبعد مسافة ٣٠ كم شمال القدس . وأكدت هذه العمليات أن الإنسان سكن هذه المغارات والكهوف خلال عصور ما قبل التاريخ .

٤٢- أجرى فرى حفائر فى تل دوتان الواقع على بعد ١٠ كم شمال نابلس .

(٧) نتائج هذه التنقيبات والآراء التى أبديت فيما يخص ما كان موجودا بها من آثار قديمة واختفى تماما الآن :

بعد استعراض أعمال الـ ٤٢ بعثة للحفائر فى فلسطين ، نستطيع أن نقول أن هذه البعثات الأجنبية قامت بالتنقيب فى مختلف بقاع فلسطين فى مدنها ومواقعها وتلالها وكهوفها ومغاراتها ، ونخرج من هذا العرض بالحقائق التالية :

(١) أن هذه الحفائر شملت مواقع ومناطق عديدة فى أنحاء فلسطين :

- قرب يافا (رقم ٤) وشمال يافا (٣٤) وشمال شرق يافا (٣٠) .
- شمال غزة (١) وجنوب غزة (٢٠ ، ٣٥) وشرق غزة (١١) .
- جنوب حيفا (٢٢ ، ٤٠ ، ٤١) وجنوب شرقى حيفا (٣ ، ٥، ٢٦) .
- غرب القدس (١٠) وشمال القدس (١١ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٧ ، ٤١) وشمال شرق القدس (٢٩) .
- شمال نابلس (٨ ، ٤٢) وشمال غرب نابلس (٣٢) .

- شمال بحيرة طبرية (٢٥) وشمال غرب بحيرة طبرية (١٥) وجنوب بحيرة طبرية (١٢ ، ٣١) .
- شمال البحر الميت (٢١ ، ٣٣) .
- وغرب بيت حيرين (٢ ، ٢٧) وأريحا (٧) وعسقلان (١٣) وشمال حبرون (٢٣) وجنوب الناصرة (٢٤ ، ٢٨) وغرب الخليل (٣٦) وشمال فلسطين (١٨) .

(٢) أن هذه الحفائر تمت فى مواقع يرجع تاريخها إلى الألف الرابعة (١٢ ، ٣١ ، ٣٢) أو ترجع إلى عام ٣٧٠٠ ق. م . (٤) . أو ترجع إلى الألف الثالثة (٩ ، ١٧ . ١٨) أو ترجع إلى العصر الحجرى الحديث (٦ ، ٧) أو ترجع إلى عام ٢٧٠٠ ق. م . (٢٩) أو ترجع إلى عام ٢١٠٠ ق. م . (٣ ، ١٠ ، ١٦ ، ٢١) أو ترجع إلى عام ١٦٠٠ ق. م . (٢٢ ، ٢٧) أو ترجع إلى علم ١٣٥٠ ق. م . (٢٦) .[١]

وبعض هذه المواقع ظل آهلا بالسكان حتى العصر اليونانى (٦ ، ٧ ، ٣١) أو العصر الرومانى والبيزنطى (٢٦) .

---

(١) وهذا ليس غريبا على مواقع أرض فلسطين لأنه عثر بأرضها على موقع الحضارة النطوفية التى ترجع إلى الألف العاشرة ق. م . كما هناك مواقع من العصر الحجرى الوسيط ، وبقايا العصر الحجرى الحديث نجدها فى جريكو ومونهاتا ووادى الفلاح والمربيط وتل الشيخ حسن (راجع فيما سبق ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٦ – ٢٢٧) كما عرفت أرض فلسطين عصر المعادن من الألف الرابعة فى تليلات غسول (راجع فيما سبق ، ص ٢٢٨ – ٢٢٩) وعثر على عدة مواقع أخرى من نفس هذا العصر فى سهل اسدرلون ومجدو وشرق بيسان وافولة وتل فرعه (راجع فيما سبق ، ص ٢٢٩) .

(٣) إن الشعوب التى سكنت فلسطين وعمرت أرجائها منذ فجر العصور التاريخية كانت شعوب من أصول كنعانية أو آمورية (٣ ، ٦ ، ٧ ، خاصة ٩ ، ١٠ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٨) .[١] وعندما حل بها الفلسطينيون كانوا يستخدمون اللغة والكتابة المسمارية (رقم ٣) .

(٤) يلاحظ أن العلماء الذين قاموا بهذه الحفائر لم يحاولوا أن يظهروا فى تقاريرهم العلمية الدور الحقيقى للشعوب أو لهؤلاء السكان الأوائل الذين تواجدوا على أرض فلسطين منذ أقدم العصور .

(٥) من أهم مكتشفات هذه البعثات جمجمة إنسان النياندرتال المعاصرة للحضارة الموستيرية فى فرنسا (١٥)

وأدوات صوانية من العصر الحجرى القديم (٢٢ ، ٣١)

ونماذج من أنواع الفخار (٧ ، ١٢ ، ٢١ ، ٣١ ، ٣٦)

ورسوم جدرانية ملونة (٢١)

وألواح طينية كتب عليها بالخط المسمارى (البابلى) (١ ، ١١)

ولوح من الطين يرجع إلى العصر الآشورى (٢)

وقطع عليها كتابة بالخط السينائى (١٠ ، ٢٧)

كما عثر على بقايا ومعابد وكتابات ترجع إلى عصر الملكين سيتى الأول ورمسيس الثانى (١٢)

كما عثر على بقايا حصن صليبى من القرن الثالث عشر الميلادى (٢٢)

٦- أما عن الآثار اليهودية فى فلسطين فهى قليلة ، فقد عثر فى مجدو على أماكن اصطبلات خيول ملوك إسرائيل (٥) وبقايا وجزء من أثاث عمرى الذى أسس

---

(١) راجع فيما سبق ، ص ٢٣٠ ، ٢٦١

مدينة السامرة (٨) .[١] كما عثر فى بيت حيرين على ثمانى عشرة كتابة بالحروف العبرية لأول مرة ويعود تاريخها إلى عام ٩٠٠ – ٦٠٠ ق.م . (٢٧) وكذلك المخطوطات التى تخص مجموعة من الرهبان اليهود وترجع إلى القرن الثانى ق.م . (٣٣) .

٧- لم يعثر فى هذه المواقع على أى أثر يرجع إلى أقدم العصور يربط بين اليهود ووجودهم فى فلسطين . كما لم تمدنا هذه المواقع بأى نص تاريخى يقص علينا تفاصيل دورهم على أرض فلسطين أو يشير إلى دور حكامهم وملوكهم القدماء .

وسوف نستعرض هنا بعض أعمال بعثات الحفائر فى القدس نفسها :

١- كانت أول حفائر فى منطقة اوفل وهى تمثل القدس القديمة عام ١٨٦٤ – ١٨٦٧ .

٢- وكان أول المنقبين عن الآثار فى مدينة القدس ورن Warren من عام ١٨٦٧ حتى عام ١٨٧٠ .

٣- وتبعه جيوثى Guthe وشك فى عام ١٨٨٠ .

٤- وجاء من بعدهما بليس Bliss من عام ١٨٩٤ – ١٨٩٧ وكتب مؤلفا بعنوان حفائر فى القدس الذى ظهر فى لندن عام ١٨٩٨ .

٥- وتلاهما فنسان من عام ١٩٠٩ إلى عام ١٩١١ ونشر مؤلفا بعنوان القدس تحت الأرض وظهر فى عام ١٩١١ .

٦- وبعد ذلك بسنتين أجرى فيل Weil خلال عامى ١٩١٣ ، ١٩١٤ عدة تنقيبات فى القدس ثم أوقفها مع اندلاع الحرب العالمية الأولى ، ثم استكملها خلال عامى ١٩٢٣ – ١٩٢٤ .

---

(١) أشارت المصادر الآشورية إلى هذا القصر تحت اسم بيت حمرى ، راجع د. عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، ص ٣٩٢ .

٧- قاد المنقبان الأثريان دنكان ومكلستر خلال نفس الفترة .

٨- ثم جاء من بعده كل من كروفوت وفيتسكرالد وقاما بحفائر فى عام ١٩٢٧ .

٩- ثم جرب هملتون حظه فى عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ فشملت حفائره عدة أماكن فى المدينة .

١٠- وما أن استولت إسرائيل على القدس الشرقية فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ حتى سارعت ومعها علماء العالم المتعصبين لها إلى إجراء حفريات حول حائط الحرم الغربى والجنوبى الغربى وفتحوا عدة أنفاق أرضية تحت المسجد الأقصى . ولكنهم عجزوا جميعا على العثور على أى دليل أثرى عن بقايا الهيكل المزعوم (؟) تحت أرضية المسجد الأقصى وداخل أسوار القدس القديمة منها بعثة Kathleen Kenyon, Digging up Jerusalem, London 1974 . وبالرغم من تعاقب هذه البعثات فى مدينة القدس (أرقام ١ – ١٠) فلم يعثر على مخلفات هامة تشير إلى تاريخ أو أى دور مؤثر للعبرانيين أو اليهود فى فلسطين أو القدس .[١] ولم تكشف هذه الحفائر إلا عن وجود قنوات حفرت لجلب المياه قديما داخل المدينة . ولم يبق أى أثر من الهيكل المزعوم (؟) الذى جاء ذكره فى كتبهم الدينية المزورة .

وشيد سيدنا سليمان بيتا للرب وبيتا له فى أورشليم . وكان طول بيت الرب ٦٠ ذراعا وعرضه ٢٠ ذراعا وسمكه ٣٠ ذراعا وكان هناك رواق ، الرواق أمام هيكل البيت كان طوله عشرين ذراعا وعرضه عشرة أذرع . وقد بنى البيت بحجارة صحيحة مقتلعة ، ولم يسمح فى البيت عند بنائه بنحت ولا معول ولا أداة من حديد وبنى البيت كله بالحجارة وخشب الأرز والسرو والزيتون . وغشى البيت كله من الداخل بالذهب .[٢] واستغرق بناء هذا البيت

---

(١) د. توفيق سليمان : دراسات فى حضارات غرب آسيا القديمة ، ص ٣٣٣ .

(٢) محمد قاسم : التناقض فى تواريخ أحداث التوراة من آدم حتى سبى بابل ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٤١٧ .

سبع سنوات .[١]

كما شرع سيدنا سليمان فى بناء بيتا لـــه ، وكـان طولـه مائـة ذراع وعرضه خمسون ذراعا وسمكه ثلاثون ذراعا واستغرق بناؤه ثـلاث عشـرة سنة .[٢]

ويدعون أن سيدنا داود اختار القسم الشمالى من الهضبة الشـرقية ، أى القسم الذى يقع شمال حصن صهيون لبناء الهيكل فيه ويعرف هذا القسم بجبـل المريا . وفى نفس الموضع بنى سيدنا سليمان الهيكل بعد ذلك .

ويقال أن هذا الهيكل قد دمر بواسطة البابليين بقيـادة نـابوخذ نصـر الثانى فى عام ٥٨٦ ق. م . وأخذ من العبرانيين ما يقرب من ٥٠ ألف أسـير إلى بابل فيما سمى بالسبى الكبير ثم بعد ما يقرب من خمسين سـنة أعـادهم الملك الفارسى قورش إلى أورشليم وجددوا بناء الهيكل مرة أخرى عـام ٥١٥ ق. م . فى عهد الملك دارا الأول . فلما جاء سيدنا عيسى عليه السلام وحـدث منهم ما حدث دعا عليهم بالتشتت . وفى سنة ٧٠ ميلادية دمر القائد الرومـانى تيتوس الهيكل مرة أخرى تماما . ولكن الملك العبرانى هـيرود الكبـير شـيد هيكلا للمرة الثالثة . ولكن فى سنة ١٣٥ ميلادية دمر الإمبراطور الرومـانى هادريان الهيكل والمدينة بأكملها بما فيها الهيكل وشيد فوقه معبدا للإله جوبـتر وبنى مكان أورشليم مدينة سماها ايليا كابتولينا . وظل الاسم ايليـا مسـتخدما حتى الفتح الإسلامى لفلسطين .

وصف لنا يوسيفوس فلافيوس الذى عاش بين أعوام ٣٧ - ٩٥ ميلادية ، وكان حاكما للجليل وكتب عن " حرب اليـهود " ووصـف أسـوار المدينـة الثلاثة .[٣] وان تيتوس خرج من الإسكندرية مع قوات مسـاعدة له فى بـلاد

---

(١) محمد قاسم : المرجع السابق ، ص ٤١٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٨ .

(٣) De Saulcy, les Derniers jours de Jerusalem, Paris 1866, p. 221- 227.

الشام وذلك لمحاصرة أورشليم وكان جيشه يتكون من ٧٠ ألف رجل من كل الأسلحة .(١)

ويقال أنه كان يحيط بمدينة القدس القديمة ثلاثة أسوار :

- السور القديم (السور الأول) يرجع إلى عهد اليبوسيين سكان أورشليم الأصليين . ومن المحتمل أن الملك داود قام بتوسيعه وأن الملك سليمان قام بتقويته وتوسيعه بعد أن أقام الهيكل المزعوم (؟) ، فى أرض المريا . وأقام السور بعد ذلك ملك يهوذا عام ٦٤٤ ق. م . فى أثناء حملة آشور بانيبال . ثم هدم هذا السور مع الهيكل المزعوم فى عصر نابوخذ نصر عام ٥٨٦ ق. م .

- السور الثانى أعيد إنشاؤه بعد السبى البابلى فى عهد نحميا (سنة ٤٤٤ ق. م) والذى يعتبر ثانى سور قديم للمدينة . وقد اتبع فى بنائه نفس الخط الذى كان يسير عليه السور القديم (الأول) الذى أقامه منسى ملك يهوذا .

- أما السور الثالث والأخير فيقال أنه بعد عودة بعض اليهود فى العصر الفارسى بعد السبى أعادوا بناء الهيكل (؟) وكان السكان الأصليين من اليبوسيين وغيرهم باقون فى أرضهم . وفى عهد هيرود شرع اليهود فى بناء سور جديد فى الجهة الشمالية غير أن الإمبراطور قلوديوس منعهم من متابعة هذا العمل . فأتموا بناءه قبل حصار تيتوس عام ٧٠ ميلادية . وسمى هذا السور باسم سور هيرود . وقد ظل هذا السور يتأرجح بين الهدم وإعادة البناء .

أما السور الذى نشاهده اليوم حول المدينة الحالية فهو السور الذى جدده سليمان باشا القانونى ، ودامت عمارته خمسة أعوام (من عام ١٥٣٦ إلى ١٥٤٠ ميلادية) وأضاف إليه عددا من الأبراج .(٢)

---

(١) Id., op. cit., p. 178 – 187.

(٢) أحمد سوسه : العرب واليهود بين الماضى والحاضر ، الملحق الأول " أورشليم فى أقدم عصورها " ، ص ٤٠٠ – ٤٠٧ .

وفى الواقع أنه لم ترد أى إشارة عن هذا الهيكل فى آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة . وفى العصر الإسلامى أصبح هذا المكان مكانا لقبة الصخرة وجامع عمر بن الخطاب .[١] ويدعى اليهود كذبا أن موضع الهيكل القديم هو الآن الحرم الشريف وفى وسطه مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى إلى الجنوب منه .[٢]

ونشير هنا إلى بعض ما جاء فى مؤلف الأثرى الفرنسى " دى ساولسى " فى مؤلفه بعنوان : " الأيام الأخيرة لأورشليم "[٣] الذى صدر عام ١٨٦٦ وجاء فيه ما يلى :

من ص ١ – ٦ :

تحدث عن زيارته للمرة الثانية أثناء شتاء عام ١٨٦٣ – ١٨٦٤ لمدينة القدس وقام بدراسة الأمور المتعلقة بتضاريس المدينة وذلك اعتمادا على خبرته العسكرية . وحاول أن يتتبع أثر خطة سير تيتوس وما حفره من خنادق حول المدينة . وتحدث عن حصار المدينة الشهير ، طبقا لما جاء فى رواية فلافيوس جوزيف ، التى تحدث فيها عن حرب اليهود ضد الرومان .

من ص ٩ – ١٠١ :

اعتمادا على رواية جوزيف تحدث عن أوضاع اليهود فى القدس ، وخاصة فى يهوذا التى كانت مسرحا للاضطرابات وعمليات سلب ونهب مستمرة . وبداية التمرد ومهاجمة الكتيبة الرومانية التى كانت تحرس قافلة المؤن والمخصصة لحماية القدس . موقف هيرود من الرومان واجريبا . وتقسيم يهوذا إلى أحد عشر جزءا .

من ص ١٠٢ – ١٧٥ :

الموقف فى قيصرية وازدياد أعمال السلب والنهب على السواحل السورية والفينيقية والمصرية . وتدخل فسباسيان لوضع نهاية لذلك ، استمرار أحداث القلق فى القدس وتوقع تتويج فسباسيان على عرش روما . ما جاء فى الأناجيل : سان لوك ، وسان ماثيو بالنسبة للأحداث التى سوف تمر بها أورشليم وما يصيبها من هزات أرضية كبيرة وفى بعض الأماكن الأوبئة والمجاعات وأشياء أخرى مرعبة وما نطق به سيدنا عيسى عليه السلام ضد مدينة أورشليم وضد الأمة اليهودية .

---

(١) د. توفيق سليمان : دراسات فى حضارات غرب آسيا القديمة ، ص ٣٣٣ .
(٢) أحمد سوسه : المرجع السابق ، ص ٤٠٠ .
(٣) F. De Saulcy, les Derniers Jours de Jerusalem, Paris 1866, p. 1- 448.

من ص ١٧٧ – ٢٠٠ :

اتخاذ فسباسيان طريقه إلى روما . وعهد إلى ابنه تيتوس مهمة حصار والقضاء على أورشليم ووضعت قوات من الصفوة تحت إمرة القيصر الشاب ، الـذى بـدأ تحركـه مـن الإسكندرية وحدثنا عن المدن والمناطق التى عبرها . والفرق التى انضمت إليه من الكتـائب والفرسان والمشاه وقوات جاءت من روما وايطاليا وأصبح يمتلك جيشا قوامه ٧٠ ألف رجـل من كل الأسلحة .

من ص ٢٠١ – ٢٢١ :

وصول قوات تيتوس قرب أورشليم وبدأ حصار المدينة فـى ٧ مـارس عـام ٧٠ ميلادية .

من ص ٢٢١ – ٢٣٨ :

وصف تفصيلي للأسوار الثلاثة التى كانت تحيط بالمدينة وأبراجها والقصر الملكـى . ويضيف دى ساولسى (في ص ٢٢٨) : " هذه المعلومات المحددة جدا ، بصرف النظر عن المبالغة التافهة ، والعادية عند جوزيف ، فإن أحجام الكتل الحجرية التـى اسـتخدمت بـامرة اجريبا ، لا يمكن قبول أى شئ فى كل ما أخذ عن مؤرخنا " . كما يضيف (فـي ص ٢٣١) : " ان الأبراج ذات الأشكال الموحدة من ذات الـ ١٠,٥٠ متر عرضا لا يمكن قبولـها علـى الإطلاق "، (في ص ٢٣١) : " وأنا تركت بدون أسف الأرقام الخاصة بجوزيف ، التى هـى من جهة أخرى فى عدم توافق واضح مع المقاسات التى أخذت على الأرض " . ويضيف في ص ٢٣٣ : " وكل ما ذكرته بخصوص هذه الأرقام التى أمدنا بها جوزيف تؤكد لنـا أننـا لا يجب على الإطلاق استخدام هذه الأرقام إلا بحرص شديد " .

ويضيف في ص ٢٣٨ بالنسبة للقصر الملكى " ولا أعرف هل كلمات جوزيف فيـها مبالغة بالنسبة لفخامة القصر ، ولكن ما أعرفه ، أنه لا يوجد منه اليوم أقل أثر أو أبسط بقايا .

من ص ٢٣٨ – ٢٤٥ :

ينتقل جوزيف بعد ذلك إلى وصف المعبد بتفصيل كبـير ، فتحـدث عـن أسـاساته وأبوابه وأعمدته وأطوالها ومساحة أقطارها والحائط الخارجى وساحة النساء وقدس الأقـداس والشمعدان الكبير ومائدة القرابين وساحة المعبد وذكر أن عرضه كان يبلغ حوالـى ٥٢,٥٠م وارتفاعه أقل من عشر أمتار .

ويضيف في ص ٢٤٥ . " ان المقاسات التي يسوقها جوزيف هنا لبعض الكتل المستخدمة في بناء المعبد ، تبدو مبالغ فيها بطريقة فريدة " .

من ص ٢٤٦ – ٢٥٦ :

أعاد الحديث عن بوابات المعبد وارتفاعاتها وأسواره وبرج انطونيا . وقصر مونوباز وقصر هيلين .

ويذكر في ص ٢٥٣ : " هذه هي لسوء الحظ المعلومات المحددة قليلا التي تتطابق بصعوبة إلى حد ما مع المعاني المؤكدة التي نملكها عن طبوغرافية أورشليم . فأين قصر مونوباز ؟ ونحن لا نعلم أى شئ أين قصر هيلين أمه ؟ " .

وتحدث عن باب المغاربة . وما هو تحت سيطرة الحاكم جان وسيمون . والفتن والحرب الأهلية الداخلية .

من ص ٢٥٧ – ٣٠١ :

بداية حصار تيتوس لأورشليم للاستيلاء على المعبد والمدينة العليا واستيلائه على السور الأول في اليوم الخامس عشر من الحصار وهدم الجزء الشمالي من المدينة كاملة . ومحاولة الرومان اقتحام السور الثاني وفشلهم في البداية وتوافد القوات المساعدة واقتحام السور الثاني في ٥ ابريل من عام ٧٠ ميلادية .

ص ٣٢٣ :

فاسباسيان جعل جوزيف يرحل من الإسكندرية مع تيتوس لكي يذهب للمساعدة في حصار أورشليم .

من ص ٣٥١ – ٣٥٢ :

اقترح تيتوس على اليهود تغيير مكان القتال حفاظا على قدس الأقداس وإنقاذ المعبد .

ص ٣٦٢ :

إضرام اليهود النار في البوابة الغربية ، والبوابة الشمالية أحرقت بواسطة الرومان ، عقد مجلس حرب لتقرير معبد المعبد . إضرام النار فيه بواسطة جندى رومانى .

من ص ٣٦٨ – ٣٨١ :

اتهام تيتوس لليهود بحرق المعبد بأيديهم ولم يوجد واحد من بينهم فكر في إطفاء الحريق .

من ص ٣٨١ – ٤٠٠ :

أصبح الرومان أسيادا للموقف ، وعقد تيتوس مجلسا للحرب وقام باحتلال انطونيا . وتهدم المعبد في عام حصار أورشليم وحرقه في ٨ يوليو من عام ٧٠ ميلادية (ص ٣٨٣) .

ص ٤٠١ :

تيتوس يخطب في رؤساء اليهود وقال لهم انه نسى قوانين الحرب عندما كان في أماكنهم المقدسة وأنه قد طلب منهم إنقاذ قدس الأقداس والمحافظة على الناووس ونقل المعركة إلى مكان آخر . ولكنهم لم يستجيبوا .

ص ٤٢٦ :

وفيما عدا الأبراج الثلاثة سافأل، هيبيكوس ، ومريم والفرع الغربى لحائط السور الخارجى، كل شئ وضع فى مستوى الأرض .

من ص ٤٢٧ – ٤٤٨ :

وعندما أصبح الرومان أسيادا لسوار المدينة رفعوا صواريهم على الأبراج . والاستيلاء على أورشليم فى العام الثانى من حكم فسباسيان (ص ٤٢١) وكما جاء فى التلمود البابلى الهدم الثانى حدث فى ١٧ تموز .

وكانت أورشليم قد سقطت خمس مرات قبل هذه الكارثة (ص ٤٢٢) وكانت هذه هى المرة الثانية التى خربت فيها ودمرت . وكانت المرة الأولى أيام البابليين (أى عام ٥٨٨ ق. م) .

ويذكر دى ساولسى فى نهاية ص ٤٢٢ ما يلى :

وأول مؤسسيها كان ملكا من الكنعانيين ، الذى كان يسمى فى طول البلاد ، الملك العادل . وكان جديرا بهذا الاسم الذى يحمله . وتقواه جعلت منه أول كاهن للأبدى بعد أن شيد معبدا له . وأعطى اسم أورشليم للمدينة التى حتى هذه الفترة ، كانت تسمى سوليما . داود ، ملك اليهود ، بعد أن طرد الكنعانيين ، جعل منها عاصمة لشعبه ...

" من داود الذى كان ، أول اليهود ، الذى حكم فى أورشليم ، حتى تدميرها بواسطة تيتوس ، مضت ١١٧٩ سنة ، ومن تأسيسها حتى تدميرها نهائيا مضت ٢١٧٠ سنة . فلا قدمها ، ولا غناها المتسع ، ولا شهرة أهلها المنتشرة فى العالم كله ، ولا أخيرا المجد الزاهر لطقوسها، استطاعوا أن ينقذوها . فتلك كانت نهاية حصار أورشليم " .

ونشير هنا إلى ما جاء فى مقالين هامين نشرا حديثا بجريدة الأهرام بخصوص حائط المبكى (؟) بالقدس :

الأول للدكتورة ناديا سالم تحت عنوان : " حائط المبكى بالقدس .. حائط من ؟ " فى ١٥ أكتوبر ١٩٩٩ فى باب " قضايا وآراء " ، ص ١٠ حيث تقول :

" .. على جميع من جاءوا للحج والصلاة والبكاء على حائط المبكى ظانين أنهم يلمسون حجرا مقدسا للنبى سليمان ... ضاعت حجتهم هباء ولن يقبل يهوا صلاتهم وسوف يلعنهم رب الجنود ... ولن يشفع لهم سيدنا موسى يوم القيامة .. فقد خدعوا خداعا مستمرا من مروجى شعارات الصهيونية . ففى الواقع أن الجزء من السور الذى بكوا عليه بالدموع الحارقة وصلوا وركعوا وجاءوا إليه من أقصى الأرض ما هو إلا حائط سليمان باشا العثمانى الذى حكم فى الفترة من ١٥٢٠ – ١٥٦٦م ميلادية والذى صمم هذا الحائط هو معمارى البلاط سنان باشا الأسطنبولى " .

" تقول المؤلفة كارين ارمسترونج التى عاشت فى القدس وألفت كتابا تحت عنوان " أورشليم مدينة واحدة من ثلاثة أديان " ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عنانى : " قيل أن سليمان رأى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فى منامه وإنه أمره أن ينظم دفاعا عن القدس وعلى أية حال فقد أمر سليمان بإعادة بناء اسوار المدينة . وكانت تلك خطة طموحا استغرقت مهارة عظيمة ونفقات باهظة ، وبلغ طول الحائط الذى ما زال قائما حتى اليوم ميلين وارتفاعه قرابة أربعين قدما . وأحاط الحائط بالمدينة إحاطة كاملة وكان به أربعة وثلاثون برجا وسبع بوابات . وحدث أن مر مهندس البلاط العظيم سنان باشا بالقدس وأمر ببناء السور من جديد عام ١٥٤١ ميلادية . وأصبحت القدس محصنة لأول مرة . ومن أجل تدعيم قوة المدينة حاول السلطان العثمانى إقناع رعاياه بالإقامة هناك ، خاصة اللاجئين اليهود الذين استقروا فى الإمبراطورية العثمانية بعد طردهم من أسبانيا المسيحية عام ١٤٩٢ ميلادية . وحينما كان سنان باشا يقيم بالمدينة أثناء بناء حائط القدس ، أصدر سليمان باشا العثمانى فرمانا يسمح بحق اليهود فى الصلاة عند الحائط الغربى . ويقال أن سنان هو الذى قام بتخطيط الموقع وحفره كى يقيم للحائط ارتفاعا أكبر وأقام بيتا وحائطا موازيا له كى يفصل مصلى اليهود عن حى المغاربة ... وسرعان ما أصبحت المنطقة المحاطة عند الحائط الغربى مركزا للحياة الدينية ليهود القدس . ولم تكن تقام هناك بعد طقوس رسمية للعبادة غير أن اليهود كانوا يحبون قضاء فترة ما بعد الظهيرة هناك يقرأون المزامير ويقبلون الأحجار " .

" وأحب اليهود السلطان سليمان الذى ربما كان معتادا جذب مزيد من اليهود للقدس كصديق وراع لليهود . وروت الأساطير اليهودية أنه قد ساعد فى تنظيف الموقع بنفسه ... " .

" وسرعان ما أجتذب الحائط الغربى أساطير كثيرة معتادة تتصل بالأماكن المقدسة . فقد تم ربط الحائط بأقاويل من التلمود تخص الحائط الغربى للهيكل والتى قال عنها الحاخامات أن الحضور الإلهى لم يفارقه أبدا وأن الله قد وعد أن يحفظه مدى الدهر " .

" هذه شهادة سيدة إنجليزية عن أساطير هذا المعبد وعن أصله وفصله وكيف تحول السلطان سليمان العثمانى فجأة إلى الملك سليمان عند اليهود المحدثين بقدرة قادر .. مثله مثل كثير من الأولياء الصالحين " .

" لقد شرع سليمان فى بناء بيت الرب فى أورشليم فى جبل المريا (أخبار الأيام الثانى ، الإصحاح الثالث) وهو نبى عربى أحبه القرآن الكريم وأعزه بكثير من آياته .. فإذا كان اليهود يبحثون عن معبد سليمان الذى بناه فنحن أيضا نبحث عنه مثلهم تماما " .

الثاني للسيد السفير أحمد الملا تحت عنوان : " رؤية : حقيقة هيكل سليمان وحائط المبكى " في ٢٦ نوفمبر ١٩٩٩ فى باب " قضايا وآراء " ، ص ١٠ حيث يقول :

" تولى سليمان عليه السلام الحكم فى القدس بعد وفاة والده داود عليه السلام واستمر حكمه نحو أربعين عاما من سنة ٩٧٣ حتى ٩٣٢ ق. م . ووطد علاقات الصداقة مع ملك مصر وملك صور . وشرع سليمان فى بناء الهيكل لعبادة الإله الواحد فى السنة الرابعة لجلوسه على العرش واستغرق بناؤه سبع سنوات أى أنه تم حوالى سنة ٩٦٢ ق. م . وكان الهيكل بناءا صغيرا مساحته ٣٠٠ متر مربع . وأشرف على بنائه فنيون من مصر ومن صور وحينما احتل نابوخذ نصر حاكم بابل القدس دمر الهيكل وأزاله سنة ٥٨٦ ق. م. كما أسر صدقيا ملك اليهود وأرسله إلى بابل ومعه خمسين ألف أسير . ثم تمكن قورش الأكبر ملك الفرس من

احتلال أورشليم وسمح لليهود بالعودة إليها فأقاموا بها هيكلا آخر سنة ٥١٦ ق. م. وحينما احتل الرومان القدس سنة ٦٣ ق. م. تمكن هيرود الذى كان يحكم القدس وكان يهوديا يحمل جنسية الرومان من تجديد بناء الهيكل سنة ١٨ ق. م . وأقام حائطا مربعا حوله مساحته ٣٢,٤٠٠ متر مربع ولكن القائد الرومانى تيتوس احتل بعد ذلك القدس وأخمد ثورة اليهود فيها ودمر الهيكل الذى جدده هيرود وكان ذلك فى عام ٧٠ ميلادية . وفى عهد الإمبراطور الرومانى هدريانوس تم تدمير القدس بأكملها وأنشئت مكانها مدينة ايليا كابتولينا سنة ١٣٥ ميلادية وبذلك تمت إزالة أى أثر للهيكل كما تم هدم كل بناء ينسب لليهود ومنع اليهود من الإقامة فى مدينة ايليا (القدس) وظل هذا المنع ساريا لعدة قرون . وعندما بدأوا فى التسلل مرة أخرى إلى المدينة أصدر هرقل ملك الروم أمرا عام ٦٢٨ ميلادية بإبعاد اليهود عن ايليا بمسافة ثلاثة أميال . وعلى ذلك فعندما تم فتح مدينة ايليا (القدس) على يد الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٦٣٦ ميلادية (١٥ هجرية) لم يكن هناك أى أثر للهيكل كما لم يكن بالقدس يهودى واحد . ومما سبق نرى أن الهيكل الأصلى قد تم تدميره منذ نحو ٢٥٠٠ سنة كما تم تدمير الهيكل الذى أقيم بدلا عنه منذ حوالى ألفى سنة بعد أن جدده هيرود وأخيرا تمت إزالة كل أثر للهيكل سنة ١٣٥ ميلادية بعد أن أزيلت مدينة القدس بأكملها " .

" أما الجزء الذى يطلق عليه حائط المبكى فهو جزء من الحائط الخارجى للحرم الشريف للمسجد الأقصى ويطلق عليه المسلمون اسم حائط البراق ، أما اليهود فيدعون أنه السور الخارجى لهيكل سليمان ، وقد حاول اليهود خلال الفترة الأخيرة من الحكم العثمانى على فلسطين شراء الحائط ولكنهم فشلوا وحاولوا الاستيلاء عليه بالقوة عام ١٩٢٩ فهب الشعب الفلسطينى للدفاع عنه ونشبت معارك عنيفة بين الطرفين . وشكلت عصبة الأمم لجنة تحقيق وجاءت اللجنة عام ١٩٣٠ وأثبتت الأدلة القانونية ملكية المسلمين لحائط المبكى ، وأن الحائط هو جزء لا يتجزأ من الحرم الشريف للمسجد الأقصى ولكن المسلمين سمحوا لليهود بمزاولة شعائرهم عند الحائط دلالة على تسامحهم " .

" ومما يؤكد كذب ادعاءات إسرائيل فى هذا الشأن أنها منذ احتلالها للقدس العربية سنة ١٩٦٧ ظلت تنقب وتشق الأنفاق والسراديب أسفل المسجد الأقصى وفى ساحة الحرم الشريف بحثا عن أى أثر يدل على مكان الهيكل فباءت بالفشل " .

هذا هو خلاصة ما جاء فى المقالين السابقين وهو ما يتفق تماما مع ما حاولنا عرضه تفصيليا فى الصفحات السابقة عن هذا الموضوع الهام .

كما ذكر سعد الخادم أخيرا فى مؤلف له عن الفن والاستعمار الصهيونى :
" لقد أخفق التاريخ فى إظهار طابع فنى لهذا الشعب الإسرائيلى الذى يزعم لنفسه الحق فى أرض فلسطين ، بل يزعم لنفسه ريادة الفكر فى منطقة الشرق الأوسط بأسرها " .[١]

و " حاولت بعض المراجع الأوروبية تصوير قصة بنى إسرائيل وفقا لما جاء فى التوراة ، مستندة إلى بعض الخرائط التى بنيت عليها مواقع المدن القديمة ، والجهات التى جرت بها الأحداث الوارد ذكرها فى القصة . وقد دعمت أسانيدها بصور فوتوغرافية لآثار بلدان مختلفة ، أو آثار فرعونية أو حبشية أو فينيقية ، ومن هذه المراجع أطلس التوراة الذى طبع فى فرنسا ، نرى فيه تزييفا مغرضا للحقائق وللفنون والآثار القديمة التى جردت بعض تفاصيلها عن إطارها الحقيقى الذى صورت من أجله " .[٢]

وردا أيضا على ادعاءات اليهود نختم كلامنا بما ذكره بعض المؤرخين الأجانب :

ففى هذا الصدد يقول فرانسيس نيوتن :

" لم يوجد فى فلسطين نقش واحد يمكن أن ينسب إلى المملكة العبرية [٣]

---

(١) سعد الخادم : الفن والاستعمار الصهيونى ، مصدر عن الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة عام ١٩٧٤ ، ص ٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣ .
(٣) خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٢١ حاشية (٣١) .

وذلك للدمار والخراب الذى كان يلاحقهم به أهل البلاد الاصليون ثم من بعدهم الفرس والرومان " . ويقول أيضا : . . .

" وأثبت اليهود عجزهم التام العجيب عن الاتيان بأدنى تقدم فى الحضارة "[1] ويوافقه د. غوستاف لوبون ، فيقول :[2]

" ان تأثير اليهود فى تاريخ الحضارة صفر . لم يستحقوا ان يعدوا من الأمم المتمدنة باى وجه " ويقول أيضا : " وبقى بنو إسرائيل حتى فى عهد ملوكهم بدويين آفاقيين ن مفاجئين مغيرين سفاكين مولعين بقطاعهم مندفعين فى الخصام الوحشى ، فإذا بلغ الجهد منهم ركنوا إلى خيال رخيص ، تائهة أبصارهم فى الفضاء كسالى ، خالين من الفكر كأنعامهم التى يحرسونها " .

ويقول غوستاف أيضا :

" إذا كان بنو إسرائيل متمردين على الفنون تمردا مطلقا ، ولم يكن لهم غير ميل هزيل إلى حياة المدن ، فإنهم لم يقيموا معابدا وقصورا إلا عن غرور ، والذى كان بنوا إسرائيل يفضلونه بعد الذبح والتقتيل هو السكون تحت شجرة العنب والتين ن على حد تعبيرهم " .[3]

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢١ – ١١٢ وحاشية (٣٢) ؛ وأيضا ص ١٦٥ . عزه دروزه : تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم ، ص ٦ توصف بأنهم كانوا شرذمة قليلة عاشوا عيشة البدو .

(٢) فى مؤلفه : اليهود فى الحضارات الأولى ، نشر عام ١٨٨٩ ونقلا عن غوستاف لوبون تذكر د. نعمات فؤاد فى مقال نشر بجريدة الأهرام فى ١٩٩٨/٩/٢ ص ٢٤ تحت عنوان " اليهود ينتحلون الهرم " اليهود بعد أن جمعوا ثروات وفق غرائزهم التجارية القوية لم يجدوا بينهم بنائين ومتفننين قادرين على تشييد مبان وقصور فاضطروا إلى الاستعانة على ذلك بجيرانهم الفينيقيين على الخصوص كما تدل عليه التوراة .

(٣) خالد العك : المرجع السابق ، ص ١٢٢ وحاسية (٢٣ – ٣٥) وأيضا ص ١٦٦ .

ويتابع غوستاف حديثه عن هؤلاء القوم فيقول :

" ظل اليهود حتى آخر مرحلة من تاريخهم فى أدنى درجة من الحضـــارة : قريبين من دور التوحش الخالص . ولم يجاوز اليهود طبائع أمم الزراع والرعـــاة إلا قليلا جدا . وخضع اليهود لنظام رعائى . ولـــم يكـــادوا يدخلـــون دائـــرة التطـــور الاجتماعى " .(١)

وأخيرا تذكر دائرة المعارف البريطانية " انه ليس من المؤكـــد ان الـــهيكل كان فى حرم المسجد الأقصى ، خاصة وأن تيتوس عندما هـــدم المدينـــة ســـنة ٧٠ ميلادية لم يترك شيئا قائما فيها ، وطمست سائر معالمها ، فالبحث عنه أذن عبـــث ، حتى ولو كان مكانه فى الحرم " .(٢)

كما قضى قدر الله المحتوم أن يرث المسلمون القدس كما ورثوا مكة وذلـك لقطع دابر بنى إسرائيل من تلك البقاع المقدسة ، والقيـــام بواجـــب حمـــل رســـالة الإسلام ، التى انطلقت من قديم الزمن من تلك المدينتين المباركتين المقدستين : مكـــة والقدس وذلك هو مجمل الحكمة الإلهية البالغة فى حادث الإسراء والمعراج .

فالتاريخ يكرر أحداثه مـــن جديـــد ولكـــن بـــدل الصليبييـــن (١١٠٠ - ١٣٠٠ م) جاء الإسرائيليون المتعصبون والمعتدون الغادرون ، ولكن القدس ســـوف تعود إذا ما أدركنا العبرة من الماضى ، وتلك هى حتمية قدر هذه الأمة .

بقية العواصم والمدن القديمة الأخرى:

سامرة :

كانت عاصمة لمملكة إسرائيل ، وتقع شمال نابلس وشيدها الملك العـــبرانى عمرى فى عام ٨٨٠ ق.م . على جبل اشتراه من أحد الأشخاص يدعى سمر ومنـــها

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٢ ، ١٦٦ .

(٢) أديب العامرى : عروبة فلسطين فى التاريخ ، صيـــدا - بـــيروت ، المكتبـــة العصرية ، ١٩٧٢ ص ١٥٠ .

جاءت التسمية سامرة . وقام بتزينها أبنه الملك أحاب ، وبعد قرن ونصف من تشييدها ، هدمها الملك سرجون الثاني عام ٧٢١ ق.م . وقامت فيها أول حفائر عام ١٩٠٨ .

وأمدتنا الحفائر ببقايا الأثاث الذى كان حافلا به قصر عمرى والزينة التى كانت تحلى هذا الأثاث عبارة عن ألواح من العاج ومطعمة بالذهب والأحجار الملونة ، وهى جزء من الفن السورى الفينيقى الذى دخل مملكة السامرة . ويلاحظ فيها تأثير الفن المصرى أيضا . وشيد فوق بقاياها مدينة رومانية قوية عثر على آثار من بعض عمائرها .(١)

خربت كومران :

تقع شمال البحر الميت ن عثر فيها فى عام ١٩٤٧ على مخطوطات تخص الأسنيين فقد عثر على حوالى ٦٠٠ مخطوط من الجلد ، كانت عبارة عن جزء من متبة الأسنيين . وهم رهبان يهود عاشوا فى القرن الثانى ق.م وكانوا يعشون على الطهارة وبعيدا عن العالم . وفى عام ٦٠ ميلادية عندما غزوا الرومان فلسطين واستولوا على القدس تفرق هؤلاء الأسنيون ، وخبأوا مخطوطاتهم فى تلك الكهوف .(٢)

مجدو (تل المتسلم) :

تقع على بعد ٣٠ كم جنوب شرقى حيفا ، وكان لهذه المدينة أهمية كبيرة نظرا لموقعها الجغرافى ، وأستمر تاريخها أكثر من ثلاثة عام إبتداء من الألف الرابعة حتى فترة الاحتلال الفارسى فى القرن الخامس ق.م . وكشف فيها عن الاصطبلات التى كان يستخدمها ملوك إسرائيل لحفظ خيولهم . والتى كانوا يستخدمونها فى شد العربات الحربية .

---

(١) Eydoux, op. cit ., p. 105 – 108 , 110 – 113 ; Amiet , les Civilisations Antiques du Proche Orient , p. 118 .

(٢) Danielou, op. cit., p. 87 .

وقامت أول حفائر ألمانية بها عام ٩٠٣ – ١٩٠٥ وهى معروفة فى النصوص المصرية عندما وقعت معركة مجدو بين تحوتمس الثالث وتحالف من أمير قادش .(١)

البتراء:

تقع البتراء (الرقيم) إلى الجنوب من الشوبك ، جنوب البحر الميت على بعد ٣٠٠ كم من عمان ، شمال ميناء ايله القديم (ايلات) .

اهتم عدد من العلماء والمستشرقين الأوربيين بآثار البتراء وكان أولهم السويسرى لودفيج بورخارت الذى تنكر فى زى عربى وتمكن من زيارة آثار الأنباط فى البتراء وكان الأنباط قد شيدوا مقابر منحوتة فى الصخر .(٢)

وقد شهدت بتراء أوج مجدها فى عام ٥٠ ق.م وفى عام ٧٠ ميلادية وأعظم فترات تاريخها هى فترة الملك النباطى ارتاس الرابع (الذى حكم فى العام التاسع ق.م إلى عام ٤٠ ميلادية) . وهو الذى شيد الأثر المعروف بأسم – خزانة فرعون – وهو الذى شيد أيضا قصر الفرعون فى قلب بتراء ويمتاز هذا الأثر بأنه ليس منحوتا فى الصخر ولكنه بنى فى الصخر واعتبرت بتراء جزءا من الإمبراطورية الرومانية فى بداية القرن الثانى الميلادى (٣) . ولهذا نجد بها آثارا من العصر الرومانى . وشيد فيها الإمبراطور تراجان طريقا من سوريا مارا بها فى

---

(١) Eydoux , op. cit ., p. 114 – 119 .

(٢) د. أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص ١٥٣ – ١٥٤ ، ٢٤٨ .

(٣) أصبحت البتراء شبه مهجورة بعد إسقاط الرومان لدولة الأنباط عام ١٠٦ ميلادية . ونقل الملك النبطى رب ابل الثانى بلاطه إلى بصرى فى الشام ليكون تحت رقابة الرومان ، راجع : د. عبد المنعم عبد الحليم : البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٣ ، ص ٥٣٢ .

البحر الأحمر .

ومن أهم مقابر العصر الرومانى تلك المقبرة التى تخص أحـــد الموظفيـــن الرومان . وانتشرت المسيحية فى القرن الرابع الميلادى فى المنطقة ولجـــأ بعـــض الرهبان إلى تلك المقابر المبنية فى الصخر . ولذلك تســـمى فـــى بعـــض الأحيـــان بالأديرة .[١]

---

(١) Eydoux, op. cit ., p. 201 – 209 .

كشاف الأعلام

(أ)

(ج)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

محتويات الكتاب

تاريخ الأناضول القديم وبعض مظاهر حضارته

تاريخ الأناضول القديم

تاريخ بلاد الشام القديم وبعض مظاهر حضارتها

(تاريخ شمال بلاد الشام القديم)

(تاريخ سوريا ولبنان القديم)

صفحة

صفحة

بعض المظاهر الحضارية

لشعوب شمال بلاد الشام القديمة

تاريخ جنوب بلاد الشام القديم

(تاريخ فلسطين القديم)

صفحة

صفحة



لعبت منطقة الشرق الأدنى القديم دوراً هاماً فى التاريخ القديم فهى المنطقة التى يتوافر فيها اقدم الاثار، والوثائق التاريخية التى تخص نشاط انسان الشرق الأدنى القديم واطولها بقاءا فى الزمن.

وانها منطقة نشوء الحضارات القديمة، فظهرت فيها اول واقدم الحضارات، وان انسان الشرق الادنى القديم خلف للاجيال التالية تراثا حضاريا غنياً بالنظم الادارية والاجتماعية والاقتصادية والافكار الدينية. والمعارف فى الحياة الثقافية والعلمية واساليب التربية والتعليم والابداع فى مجالات الحياة الفنية والتنوع فى مجال العلاقات الخارجية. وقد لا يعرف الكثيرون ان حضارات الشرق الأدنى القديم كانت مقدمة لنشأة الحضارة الاوروبية القديمة فكان لها تأثير واضح على حضارتى اليونان والرومان، وينفرد الشرق الأدنى القديم بأنه صاحب الاثر الدينى والروحى الذى لا يوجد له نظير فى مناطق أخرى من العالم القديم، واخيرا يجب أن نعلم أن تلك الثروة الأثرية الذى لا يزال معظمها قائما فى مكانه فى معظم بلدان الشرق الاوسط او عالمنا العربى تعد أدلة حقيقية وشواهد ثابتة على ما كان لأهل الشرق الأدنى القديم من سبق تاريخى وحضارى وهذا ما تحاول أن تظهره هذه السلسلة.

الناشر